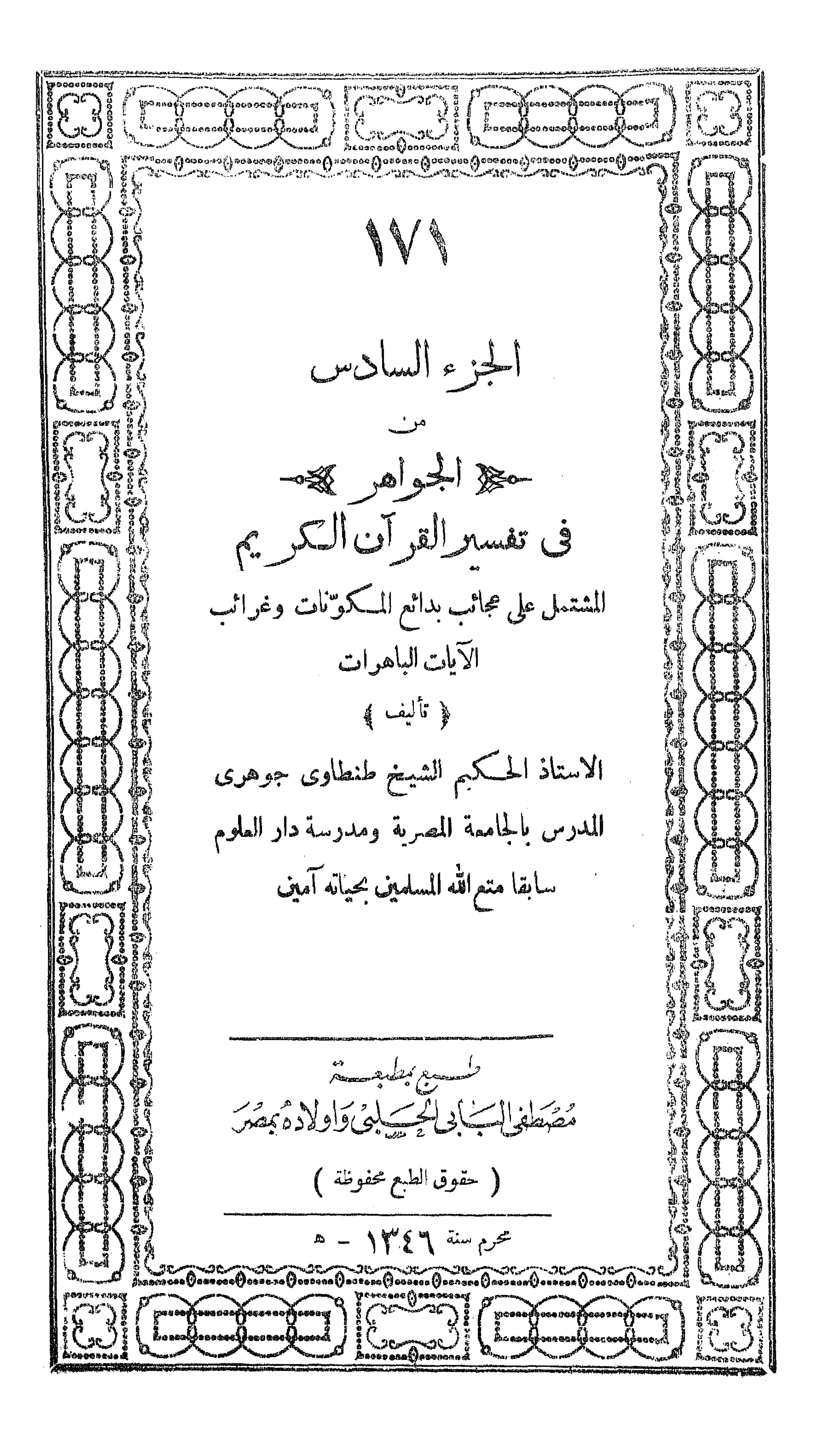


١٧١

الجزء السادس

من

الجواهر

فى تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكوّنات وغرائب الآيات الباهرات

﴿ تأليف ﴾

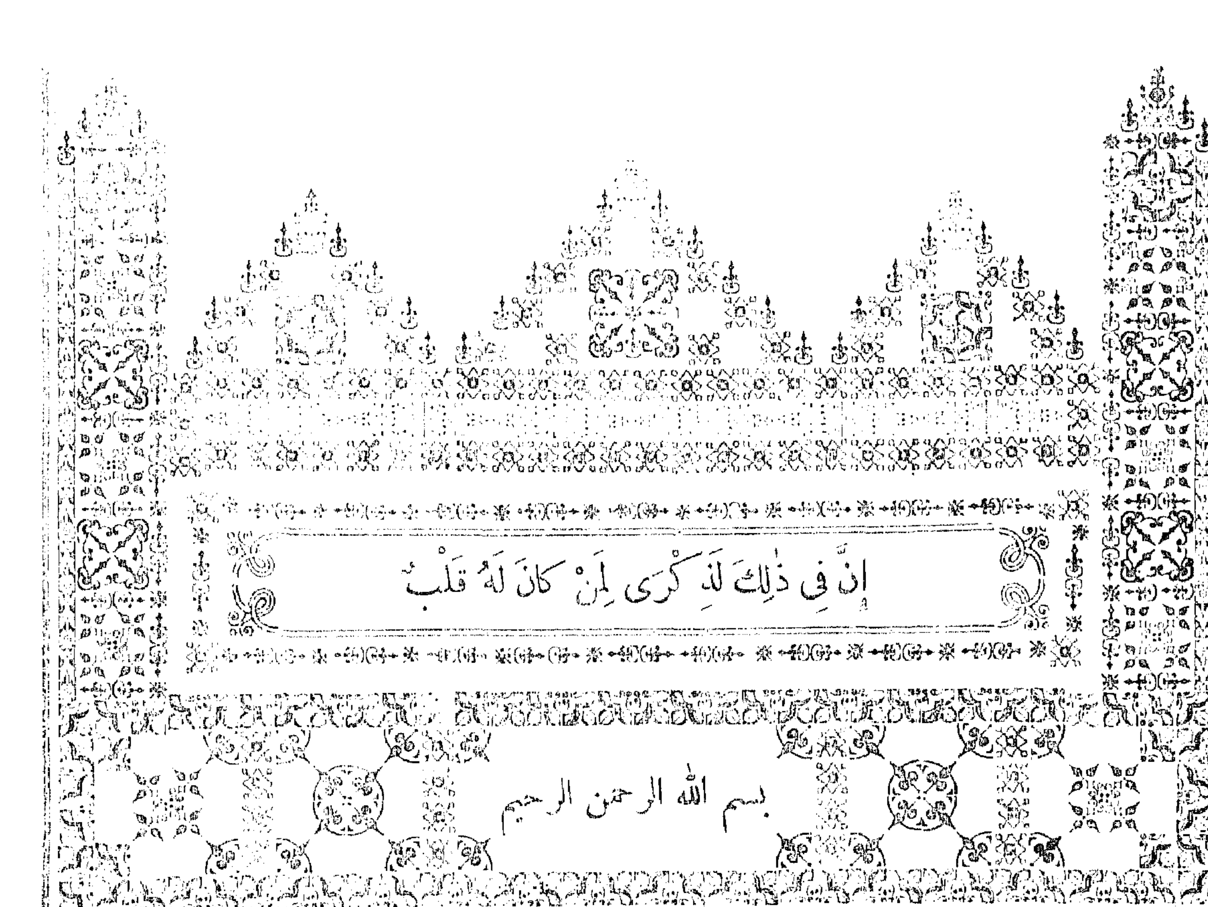
الاستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا متع الله المسلمين بحياته آمين

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر

محرم سنة ١٣٤٦ - هـ



﴿ سورة يونس مكية وهى تسع ومائة آية ﴾

(هى سبعة أقسام)

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى دلائل معرفة الله تعالى واليوم الآخر ونعيم الآخرة من أوّل السورة الى قوله ــ أن الحمد لله ربّ العالمين ــ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى أدلة مختلفة على التوحيد من النظر فى النفس والنظر فى القرون الخالية من قوله ــ ولو يعجل الله للناس ــ الى قوله ــ فينبئكم بما كنتم تعملون ــ

﴿ القسم الثالث ﴾ فى أدلة البعث وأحوال المبعوثين من قوله ــ انما مثل الحياة الدنيا ــ الى قوله ــ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ــ

﴿ القسم الرابع ﴾ فى اثبات النبوّة وتقريع الجاهلين وتوبيخهم مع أدلة اثبات الربوبية من قوله ــ قل من يرزقكم من السماء والأرض ــ الى قوله ــ بما كانوا يكفرون ــ

﴿ القسم الخامس ﴾ قصة نوح عليه السلام من قوله ــ واتل عليهم نبأ نوح ــ الى قوله ــ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ــ

﴿ القسم السادس ﴾ قصة موسى وفرعون من قوله ــ ثم بعثنا من بعدهم موسى ــ الى قوله ــ فيما كانوا فيه يختلفون ــ

﴿ القسم السابع ﴾ فى تقرير ما تقدّم كله من القصص والدلائل ــ من قوله ــ فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك ــ الى آخر السورة

(القسم

(القسم الأول)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الر * تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين * إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون * إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين *

اعلم أن أوّل هذه السورة كالمتمم لآخر السورة السابقة فان آخر تلك يرجع الى أن الرسول ﷺ (١) أرسل من العرب (٢) وهو رؤف رحيم بالمؤمنين (٣) وعلى الله وحده توكله (٤) ثم وصف الله تعالى بأنه رب العرش العظيم • وفي أوّل هذه السورة (١) أنه ليس من عجب أن يرسل الله للناس رسولا منهم وهو متمم للأوّل من السورة السابقة فكأنه يقول انه ليس للعرب خاصة بل للناس عامّة • وكما أنه من العرب هو من سائر الناس فهو لهم مرسل (٢) وأنه يبشر الذين آمنوا أنهم لهم منزلة رفيعة عند ربهم وهذا في مقابلة الأمر الثاني في السورة السابقة وهو انه رؤف رحيم بالمؤمنين (٣) ثم وصف الله بأنه استوى على العرش وهو في مقابلة الأمر الرابع هناك (٤) وقوله ــ اليه مرجعكم جميعا ــ تفيد الوحدانية المستفادة من اختصاص التوكل به • ثم ان هذه السورة جاءت بعد الأنفال والتوبة اللتين اختصتا بالقتال والغزوات وقسمة الغنائم وذكر المنافقين ووعيدهم وما حكم عليهم به من العذاب والتوبيخ والتقريع وفيهما ذكر الصدقات وقسمتها على المستحقين فهما للمسائل الفقهية والأحكام العملية فناسب أن يؤتى بعدهما بما يغذى العقل من الحكمة والعلم فهناك عمل اسلامي وهنا علم حكمي ولذلك ختمت سورة التوبة بأن الله ذو العرش العظيم توطئة لما سيذكر في أوّل هذه السورة من الجمال الالهي والحكمة العلمية وذكر الشمس وضيائها

والقمر ونوره وأقسام منازله ومعرفة عدّ السنين والحساب واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والعجائب المصنوعة والارتقاء من ذلك الى تغذية الأرواح الانسانية بهذه العجائب النورية والانزعاج عن العالم الكثيف والاطمئنان بالعالم اللطيف • فمن الناس من يكتفي بالجنات الجارية أنهارها • ومنهم من يرتقي الى سبحات الجلال ومقامات السلامة من المادّة وتغيراتها ثم يرتقي الى مقام الحمد الذي تتغذى النفس فيه بالمعارف العلمية ومعرفة ترتيب الكائنات ونظامها

﴿ تفسير الألفاظ ﴾

(الر) قد علمت حكمة هذه في أوّل سورة آل عمران واستبان هناك سرّ الحروف التي في أوائل السور وكيف كانت ١٤ وجعلت في أوائل ٢٩ سورة وكيف نوّعت الى أحادية وثنائية وثلاثية الخ وكيف كان عدد ٢٨ من الأعداد التامّة وهو مما له علاقة بتشريح كثير من الحيوانات الفقرية وفقراتها وكيف كان في ذلك رموز واشارات تلائم عقول الأمم التي نزل القرآن عليها لاعتيادها الرموز والاشارات في الكتب السماوية والعلوم القدسية في نظرهم • وكيف اتصل الكلام من ذلك الى ماهو أتم وأكمل من حيث أن لغة العربية النازل بها القرآن ستبقى الى آخر الزمان لمناسبتها للمنازل الفلكية والفقرات الحيوانية وبعض الأحوال الطبيعية وكيف وافق ذلك رأى مؤلف الماني في روايته مستنتجا ذلك من تغير اللغات وثبات لغة العرب لبقاء القرآن بها فارجع اليه إن شئت (تلك آيات الكتاب) أي الآيات المذكورة الآتية في هذه السورة وماتقدمها (الحكيم) من الحكمة فهو ذوالحكمة أوهو قد وصف بوصف من تكلم به ※ قال الشاعر

وغريبة تأتي الملوك حكيمة ※ قد قلتها ليقال من ذا قالها

وهو الحاكم في الاعتقادات وحكم فيه بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى الخ وبالجنة لأهلها والنار لأهلها (أكان للناس عجبا) استفهام انكار للتعجب وعجبا خبر كان واسمها (أن أوحينا) والعجب حالة تعترى الانسان من رؤية شئ على خلاف العادة • وقدكانوا يقولون ﴿ العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس إلا يتيم أبي طالب ﴾ (أن) هي المفسرة (قدم صدق) سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدما لأن السبق بها كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد وأضيفت للصدق لتحققها وفي ذلك تنبيه على أنهم ينالونها بصدق القول والنية (لسحر مبين) أو ــ لساحر مبين ــ أي ــ أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ــ فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون الخ (استوى على العرش) استعلى بالقهر والغلبة كما جاء في آية أخرى ــ وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ــ والعرش إمّا بمعنى الملك واما بمعنى البناء فكل بناء يسمى عرشا وبانيه يسمى عارشا قال تعالى ــ ومن الشجر ومما يعرشون ــ أي يبنون وقال في صفة القرية ــ فهي خاوية على عروشها ــ والمراد انها خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها ــ وكان عرشه على الماء ــ أي بناؤه (بالقسط) أي بعدالتهم وقيامهم على العدل في أمورهم وذلك لايتمّ إلا بايمانهم (الحميم) الماء الحار (الشمس ضياء) ذات ضياء (والقمر نورا) ذا نور وما بالذات يسمى ضوأ وما بالعرض يسمى نورا (وقدّره منازل) أي القمر وانما خصه لأن سيره أسرع وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين والشرع اعتبر الأهلة أي قدّره ذا منازل (لتعلموا عدد السنين والحساب) حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرّفاتكم (إلا بالحق) ملتبسا بالحقّ مراعيا فيه مقتضى الحكمة (يفصل الآيات لقوم يعلمون) إذ لاينتفع به سواهم (اختلاف الليل والنهار) مجيء كل واحد منهما خلف الآخر (وماخلق الله في السموات والأرض) من أنواع الصور والأشكال والعجائب التي لاحصر لعددها (يتقون) العواقب (لايرجون لقاءنا) لايتوقعونه لانكارهم البعث وغرامهم بالمحسوسات عن المعقولات (ورضوا بالحياة الدنيا) لغفلتهم عن الآخرة (واطمأنوا بها) سكنوا اليها مقصرين هممهم على لذاتها وزخارفها

أوسكنوا فيها سكون من لايزعجون عنها فبنوا شديدا وأملوا بعيدا (والذين هم عن آياتنا غافلون) لايتفكرون فيها لانهما كهم فيما يضادّها فهم جامعون بين الخستين الانهماك فى الشهوات والغفلة عن عجائب الآيات (بما كانوا يكسبون) بما واظبوا عليه وتمرنوا عليه من المعاصى حتى صار سليقة لهم (يهديهم ربهم بإيمانهم) أى بسبب إيمانهم الى سلوك سبيل يؤدّى الى الجنة أولادراك الحقائق . ثم استأنف فقال (تجرى من تحتهم الأنهار) حال كونهم (فى جنات النعيم) وقوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) أى دعاؤهم لأن اللهم نداء لله ومعناه يا الله إنا نسبحك تسبيحا (وتحيتهم) مايحيى به بعضهم بعضا وتحية الملائكة إياهم وتحية الله أيضا لهم (فيها سلام * وآخر دعواهم) دعاؤهم (أن الحمد لله رب العالمين) أى أن يقولوا ذلك وأن مخففة من الثقيلة . انتهى التفسير

هذه الآيات التى فى هذه السورة والتى تقدّمتها آيات القرآن الذى تنزلت فيه الحكمة وحكم فيه بين الحق والباطل والضلال والهدى . ياعجبا للناس كيف يعجبون منا أن أرسلنا رسولا منهم لينذرهم أجمعين و يبشر المؤمنين . أظنوا أن العلم والحكمة والوحى تابعات للمال والبنين فلكل وجهة هو موليها . أليس الله بأعلم بمن استعدّ للعلم ومن حرم الحكمة . هما ضدّان لايجتمعان . وكيف ينزل الوحى إلا على المستعدّ له وليس الاستعداد بالعظمة والجاه ولا بكثرة الأتباع . وانما هو استعداد فى القلوب وعطاء من علام الغيوب فكيف إذن يعجبون ممن أوحينا اليه لينذرهم و يبشر المؤمنين أن لهم منزلة سامية ومقاما رفيعا ومجدا يوم يلقون ربهم . فلما أرسلناه اليهم قال الكافرون إن ماجئت به سحر مبين . إن هذا ليس بسحر بل هو حقّ قام عليه البرهان . أليس ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى أزمان متطاولة عددها ستة وسميت أياما واليوم عند كلّ بحسبه

﴿ فصل فى بيان قوله تعالى ــ ستة أيام ــ ﴾

فاذا نظرنا لأهل الأرض رأينا اليوم عندهم عبارة عن دورتها مرة واحدة حول نفسها وكانت هذه المدّة معتبرة فى أزمان أخرى أنها بسبب سير الشمس حول الأرض كل يوم وليلة من الشرق الى الغرب فلما تبين بطلان هذا استقرّ الأمر على أنه بسبب دوران الأرض على محورها نفسها . فاذن أهل العقول مستعدّون أن يقبلوا أن يكون اليوم مقدّرا بمقدار سير كوكب حول كوكب آخر و بناء عليه لواعتبرناه كذلك ونظرنا لكوكب من الكواكب الثابتة فانه قديتمّ دورته فى مئات السنين بل فى آلافها ومئات الآلاف وآلاف الآلاف كما تقدّم فى مواضع من هذا التفسير . فاذا قرأنا فى القرآن ــ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون ــ وقرأنا ــ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ــ ونظرنا فى علم الفلك الحديث فانا نقول ان اليوم اذا اعتبرناه من هذه الناحية وان لم يكن عندنا كذلك والعقل الانسانى قبل ذلك سابقا قلنا ان اليوم قد يكون آلاف الآلاف من السنين واذن تكون تلك الأيام المذكورة فى القرآن لتفتح العقول الى البحث فاذا سمع الناس أن الله خلق العالم فى ستة أيام صدق الجهلاء المؤمنون وكذب وشك أكثر المتعلمين وتركوا الدين وأصبحوا فى حيرة وفى شك من ليل الجهالة مظلم . ثم يبحث الحكماء منهم والصابرون فى تحقيق ذلك فتكون نتيجة ذلك معرفة علم الفلك فهو يبحث عن عقيدته عسى أن يجد لها مصدقا من العلم ولو بالتأويل فينتهى الأمر أن الأمّة قد ظهر فيها عالم بهذا العلم . وهذا هو مقاصد الديانات أن تكون الشكوك مبدأ للمباحث والبحث يولد الحكمة والفلسفة واذن يخرج النابغون فى الأمّة . فالنابغون من هذا الباب خلقوا ومن عشّ الشك درجوا ولامفرّ من هذه المباحث فى الدين ليخرج علماء مختلفون فى علوم نافعة للأمم

واعلم أنى قد وفيت هذا المقام حقه فى أوّل سورة الأنعام فلاأعيده هنا وأبنت هناك كيف كانت تلك الأيام الستة وساعد على ماذكرناه هناك آيات كثيرة من القرآن فارجع اليه إن شئت

واعلم أن الآية هنا أفادت أن خلق السموات والأرض فى ستة أيام كان متداولا معروفا عند الناس بدليل التعبير بالاسم الموصول ولا يكون الموصول إلا حيث تكون الصلة معروفة والصلة خلق السموات والأرض فى ستة أيام • أقول ان هذا كان حقيقة معروفا متداولا عند اليهود والنصارى مذكورا فى أوائل التوراة فكانت هذه الجملة شائعة عند رجال الدين ولأنقل لك ملخصها من نفس التوراة

قال فى الاصحاح الأول من سفر التكوين • فى البدء خلق الله السموات والأرض ثم شرح بعد ذلك النور والظلمة والليل والنهار وأن الأرض كانت خربة مظلمة وروح الله ترف على وجه الماء وقال ان الماء خلق الله فيه جلدا فما فوقه صار سماء ومنه المساء والصباح والماء الباقى صار تحت السماء فاجتمع فى مكان واحد وباقى الأرض صار يابسا وأنبت الأرض عشبا و بقلا وشجرا وجعل الله فى السماء القمر والشمس والنجوم وجعل فى الماء زحافات ذات نفس وخلق طيرا فوق الجلد وتنانين كبيرة والحيوانات الدبابة والبهائم والوحوش ثم خلق الانسان على صورة الله فسلطه على سمك البحر وطير السماء وعلى البهائم وجعل الانسان كغيره ذكرا وأنثى • ثم ختم الاصحاح بما نصه ﴿ ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادسا ﴾ وقد كان الملخص الذى ذكرته لك مقسما على الأيام الستة اختصرته مخافة التطويل عليك وعلى ذلك كانت الأيام الستة معلومة مشهورة من التوراة المتعارفة بين الناس فلذلك ذكرها القرآن بالاسم الموصول

﴿ فصل فى قوله تعالى – ثم استوى على العرش يدبر الامر – ﴾

أى خلق الله السموات والأرض فى أزمان متطاولة وأحوال متغايرة عدها ستة وسماها أياما ومجرد الخلق ليس تمام القصد وانما أهم الامور نظام الملك واحكامه وحسن هندامه • لذلك عطف بثم للترتيب الذكرى اشارة لتباعد مابين المرتبتين • مرتبة الخلق • ومرتبة ادارة الشؤن ونظام الأمر فقال ثم استوى على بنائه الذى بناه بالتسطيح والتشكيل بالأشكال ورفع السمك ونظام الكرات وادارتها وتنظيم ماعليها من مخلوقات وحساب دورانها ونسبتها الى غيرها ونظام أيامها وشهورها وسنيها وغير ذلك وهذا على اعتبارنا أن العرش هو البناء • أو يقال ثم استولى على الملك الذى شكله فى الوجود وذلك الملك كالفصول الأربعة والمعادن والنبات والحيوان والانسان وجميع ماخلق الله فى الأرض والسماء من الصور والأشكال على اعتبار أن العرش عبارة عن الملك والملك عبارة عن المخلوقات والمعنيان يؤولان الى مقصد واحد مع فرق دقيق

﴿ فصل فى قوله تعالى – يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه – ﴾

أى يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيئ بتحريكه أسبابها وينزلها بقدر والتدبير تنزيل الامور فى مراتبها وعلى أحكام عواقبها لئلا يدخل فى الوجود مالاينبغى فهو يدبر أحوال الخلق فى ملكوت السموات والأرض فلا يحدث فى العالم السفلى ولا العلوى حادث إلا بتدبيره • وقوله – مامن شفيع إلا من بعد اذنه – أى لايشفع عنده شافع يوم القيامة الا من بعد أن يأذن له فى الشفاعة لأنه عالم بمصالح عباده وبموضع الصواب والحكمة فى تدبيرهم فليس يجوز لأحد أن يسأله ماليس له به علم وفى هذا رد على الكفار القائلين بشفاعة أصنامهم • وتدبير العرش المذكور هنا يقرب منه ماسيأتى فى سورة هود عليه السلام – وكان عرشه على الماء – • فالعرش هنا مقرون بالتدبير وهناك فوق الماء والمعنى متقارب فان معنى الماء هناك ما أشار له الله تعالى فى قوله – أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها – الى قوله – كذلك يضرب الله الأمثال فقد جعل الماء هو الذى يبقى فى الأرض لنفع الزرع والضرع والانسان وقد نزع عنه الزبد فصار جفاء وجعل مثلا للقرآن والعلم * وجاء فى حديث البخارى ﴿ مثل مابعثنى الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا الخ ﴾ فصرح ﷺ بأن الماء مثل للعلم • وهكذا جاء فى سورة البقرة

ـ أوكصيب من السماء الخ ـ فجعل القرآن هناك كالمطر النازل من السماء وعليه صار الماء هنا هو العلم والحكمة والتدبير فافهم هذا المقام تجد أن قوله هنا ـ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ـ نظير قوله ـ وكان عرشه على الماء ـ فهنا يدبر العرش بالحكمة والعلم وهناك كان العرش على الحكمة والعلم وأيضا ان المخلوقات على أقسام فمنها ماهو خير محض ومنها ما كثر خيره ومنها ماقلّ خيره أوعدم ٠ والقسمان الأخيران لاوجود لهما إلا فى مخيلات الناس والأولان موجودان ٠ وترى المخلوقات الطبيعية من هـذا القبيل كالانسان والحيوان وأعمّ هذه المخلوقات وأظهرها الماء فبه حياة النبات والحيوان والانسان والطهارة ومع هذه النعم الجليلة يغرق فيه عالم نافع وناسك صالح وعجوز مسكينة ويغرق السفن ٠ وهـذا الشرّ القليل اقتضت الحكمة أن يحتمل للخير الكثير فالماء مثل للعلم والحكمة ومن الحكمة أن يغتفر الضرر القليل فى جانب النفع الكثير فعرش الله مبنى على الحكمة ومن الحكمة ألاتترك هذه المخلوقات الطبيعية وأن يتحمل الناس مايصيبهم من الآلام فى جانب النعم الكثيرة وأيضا ان هذه العوالم الأرضية خيرها أكثر من شرّها فلذلك بقيت وما أبقاها الله إلا لهذه الحكمة الظاهرة فى الماء المكنونة فى كل مخلوق مادّى ٠ فهذا من لطائف التعبير بلفظ الماء الذى استوى العرش عليه ٠ فكأنه سبحانه يقول اقتضت حكمتى أن أدبر الامور على الخير المحض وعلى ماغلب خيره لأن من ترك الخير الكثير للشرّ القليل باء بالجهالة ورجع بالندامة وهو حسير ٠ فما أجمل التعبير بالماء هناك فتدبير العرش هنا للعامّة وللعلماء وكون العرش على الماء هناك للخواص وللحكماء ـ وما يعقلها إلا العالمون ـ وما أبدع هذا التعبير ليرضى المفكرين وليقنع الجاهلين وكأن قول الله ـ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ـ رمز الى حكمة الحكماء فى هـذا المقام فانه لايبقى فى الوجود إلا ما غلب نفعه والماء كذلك فلذلك مكث فى الأرض ٠ وهذا المقام معانيـه فى الحكمة مسطورة ٠ ومقاصده فيها مبرهن عليها مبسوطة فانظر كيف أشار الله فى القرآن بلفظ الماء الى غاية الحكمة ونهاية العظة فرمز بالماء الى ما أطال به العلامة ابن سينا فى كتاب الاشارات وشرح الشراح كالرازى والطوسى بأطول العبارات ٠ ولكن تالله ما أجمل الحكمة والفلسفة اذا تجلت فى كتاب سماوى ورمز لها فى الوحى النبوى فلله درّ الحكمة الدينية والعلوم النبوية والآراء الحكمية ٠ فانظر كيف اتفق العلم والدين والايمان واليقين ٠ واذا طالت الحياة وكتبت فى سورة هود لا أذكر من هـذا شيأ إن شاء الله وانما أحيلك على ماسطرته هنا ٠ فافرح بنعمة الله وبهجة العلم وكن من الشاكرين

﴿ جمال فى اشراق شمس المعارف من قوله تعالى ـ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ـ ﴾

انما اخترت لك هذا العنوان فى هذا المقام لأنك سترى فيه بهجة الناظرين وقرّة أعين المفكرين وزينة الدنيا والدين وجمالا يأخذ بالألباب وحسنا قصرت عن أقله زينب وليلى والرباب وحكمة تسرّ الحكماء وتدهش الأدباء

حكم نسجت بيد حكمت ✻ ثم انتسجت بالمنتسج

ذلك أنه بينا أنا جالس أرتب مسودّات هذا التفسير لأقدّمها للطبع إذ حضر صديق لى فقال

يذكر الله تدبير الأمر ويقول فى بعض آياته ـ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ فهل لك أن توضح لى هذا التدبير بشكل يفهمه الخاصة والعامّة وأرجو ألا تحيلنى على علم الفلك وطبقات الأرض وما أشبه ذلك وانما أنا أحبّ أن تحضر لى موضوعا واحدا يكون فكاهة المتفكهين وزينة العاقلين وسمر الجالسين بحيث أحدّث به ابنى وأسرّ به جليسى وأنتفع به فى حقلى ويستعمله نجلى وتسير به الكهرباء وتستعين به السيارات ويشفى المرضى وتحتاج اليه الأندية العلمية وأكثر أهل هذه الكرة الأرضية فعرضت عليه أنواعا من النبات والحيوان فلم يرقه ما أقول ولم يعجبه المنقول ولا المعقول ففكرت مليا وقلت قد

وقفت على ضالتك المنشودة وعرفت غايتك المحمودة خذ القول عنى واسمع التفصيل منى ﴿ ذلك ﴾ أن هناك شجرا لا ينبت إلا فى (البرازيل) بأمريكا وفى (برنيو) وفى جنوب أمريكا وفى وسط استراليا وربما ينبت قليلا فى جهات أخرى كافريقيا ولكن أثره فى كل مكان مشهود . ثمرته ليست بمأكولة كالتفاح ولا بمشروبة كنقوع الاقاح ولا بدواء كالسنا المكى وغيره من العقاقير ولا بزيت كشجر الزيتون وانما تستخرج منه مادّة سائلة هى عدّة المسافرين وزينة الكاتبين وشفاء المرضى ومتاع للقوين تسقى الحدائق والمزارع وتدفع النار عن المنازل لا يستغنى عنها مهندس ولا كاتب ولا يقوم بدونها درس مدرّس ولا حساب حاسب عمت سائر طبقات المتعاملين ودخلت جميع الدواوين وجالست الوزراء والأمراء وحافظت على قوّة الكهرباء وكانت خير الحافظات للماء فهى نور الله فى أرضه واشراق شمس حكمته وعجيب حكمه وبديع صنعته . يحسبها الجاهل من سقط المتاع وهى عند الحكماء نور أضاء سائر البقاع . فاما سمع ذلك منى . قال صف لى هذه الشجرة وصفا مدققا وبين أعمالها محققا ودع الاجمال وهات التفصيل . فقلت هذه الشجرة عظيمة الجسم كبيرة الساق قد ألهم الله الأمم قديما فثقبوا قشرتها السميكة ووضعوا تحت الثقب إناء ينزل فيه سائل لبنىّ وذلك السائل يصير جامدا بعد نزوله فى الاناء . وهذه تسمى (كاوتشوك) باللسان الافرنجى (ربراتري) يعنى (شجرة الأستيك) كما قدمنا أو (مطاط) الأوّل بالانجليزية والثانى بالفرنسية والثالث بالعربية . وذلك أننا نشاهد فى بلادنا وفى جميع المدارس والدواوين مادّة تحافظ على حجمها دائما سواء أردنا مدّها أم أردنا ضغطها فهى ترجع الى حالتها الأصلية . بها نمحو ما أردنا محوه مما كتبناه ونزيله وهى (الأستيك) المذكور فنراها فى أيدى التلميذ والاستاذ والكاتب والحاسب وهكذا . وهذه المادّة بعد أن يلقوها فى الأوانى يغلونها و ينظفونها ثم يضعونها بين اسطوانتين من الصلب بهما تضغط وتصير قطعا شتى وهذا هو الاستيك النقى الذى يكون فى الصيف طريا لزجا وفى الشتاء صلبا ثابتا

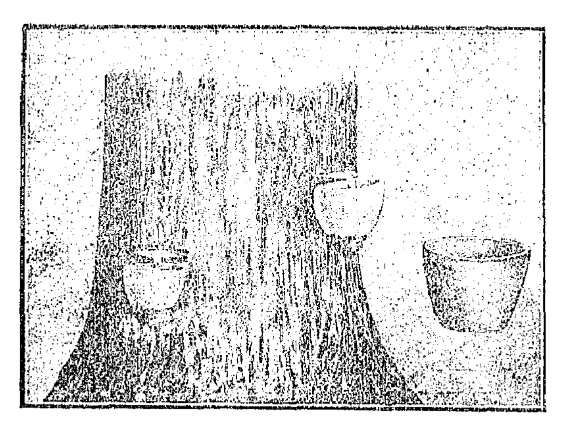
إن منفعة هذا النوع خاصة بأسلاك الكهرباء وانه يمنع انفلات أىّ ذرّة منها فهو حافظها الأمين . ان هذا النوع تمكن اذابته بسائل متخذ من (البترول) المعلوم ومتى أحيل بذلك سمى اذن (الاستيك المحلول) وهذا منفعته فى إطار العجلات التى تجرى بها الدراجات (بيسكل) التى يركبها الناس اليوم ويحركونها بأرجلهم فاذا ثقب ذلك الاطار أمكن رتق فتقه بهذه المادّة التى هى فى الحقيقة من مادّته

﴿ الاستيك والكبريت ﴾

هذه المادّة النقية المتخذة من الشجرة اذا أضيف اليها مقدار قليل من الكبريت فهى التى نراها بين ظهرانينا وهذه لها ﴿ خاصتان ﴾ احداهما محافظتها على حجمها . ثانيتهما أنها أقوى مانع يمنع مرور الماء فبالخاصة الأولى تصنع منها إطار العجلات فى الدراجات التى وصفتها هنا وفى العربات وفى السيارات التى هى باللسان الافرنجى (متركار) فهذه الآلات تصلح للركوب بهذه المادّة وتريح الراكبين . وبالخاصة الثانية تصنع منها قلل الماء التى تحافظ على درجة الحرارة الكامنة فيه والوسائد التى يكون حشوها هواء . والأوانى التى يجعل فيها الماء الحار ليستدفئ بها المرضى بمقتضى أمر الطبيب . وتصنع منها الأنابيب التى فى أيدى الرجال القائمين باطفاء النار المشتعلة فى المنازل والمدن والقرى وهكذا الأنابيب التى تسقى بها الحدائق وتصنع منها (معاطف وأردية) تمنع المطر عن لابسيها . وهناك حال أخرى لهذه المادّة . وهى أن يضاف اليها من (٢٠) الى (٣٠) جزأ من مائة جزء من الكبريت واذ ذاك تصبح ذات خواص وأوصاف مغايرة لسابقتها صالحة لأعمال غير أعمالها ﴿ ذلك ﴾ انها مادّة سوداء لامعة صلبة كصلابة قرن الحيوان . وهذه تصنع منها مساطر ومقابض توضع فى نهايتها أسنة الأقلام وتدخل فى كثير من الزينة وحلية نوع الانسان انتهى وصف هذه الشجرة ومنافعها وخواصها

رسم

﴿ رسم شجرة الاستيك ﴾



شكل (١)

ألا ترى رعاك الله عجائبها . أنظر ثم انظر كيف خصها الله بأرض دون أرض وجعلها فى أمم دون أمم وانظر كيف جعل لها ثمرة غير ما نعرفه . نحن نأكل الثمر ونشم الورد ونأكل اللبن والقشده من شجرة القشدة المعلومة ونلبس من الكتان والقطن . كل ذلك معروف مفهوم انما هذاله فائدة غير ما عرفناه وحكمة غير ما أدركناه . فانظر كيف خزن الله هذه المنفعة فى الشجرة حتى احتجنا اليها . علم الله أننا نحتاج الى الكهرباء بعد آلاف السنين . فاذا صنع ودبر . خلق هذه الشجرة قبل خلق الناس ووضع فيها هذه الخاصية ولما جاء هذا العصر قال أنتم لن تحفظوا ذرات الكهرباء إلا بهذه المادّة وهى نقية فلا كبريت يخالطها ولا غبار يمتزج بها فاذن تحفظ الكهرباء للاضاءة والاشراق فى كل مكان . مدّ الناس الأسلاك البرقية (التلغراف) فى الأرض ولم يجد الناس سبيلا لمدّها فى البحر حتى عثروا على هذه المادّة فحفظت الأسلاك البحرية من أضرار الماء لها فبها كان تواصل الأمم وتعارفها كما قال تعالى ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ فهذه احدى دواعى التعارف . أليس هذا هو التدبير . يقول الله ـ يدبر الأمر من السماء الى الأرض ـ ويقول ـ يدبر الأمر يفصل الآيات ـ فهذا من تدبير الأمر وهذا من تفصيل الآيات . هذا بعض أنواع التدبير والتفصيل . علم الله قبل أن نخلق حاجتنا الى الأسلاك البحرية التى سيخلقها فدبر هذه الحكمة والخاصة المذكورة

دبر الله هذه المادّة ووضعها فى هذه الشجرة . وخزن الفحم فى أعماق الأرض . ولما أراد ارتقاء نوع الانسان علمه البيان وأرسله الى باطن الأرض فاستخرج الفحم وجرت به القطرات وأدار الدولاب وسقى الأرض وحمل على ذات ألواح ودسر فى البرّ والبحر واستخرج الكهرباء واحتاج الى ما يحفظها فأرسله الى تلك الشجرة فقرّت عينه واستخرج منها ذلك السائل (١) فكان حافظ الكهرباء (٢) ثم ألهمه أن يذيب تلك المادّة فأصبحت رتقا لفتق العجلات فى سفره (٣) ثم ألهمه أن يضيف اليها الكبريت قليلا فكانت ساقية لبستانه مطفئة لنار احتراق منزله الخ ما تقدّم . ثم زاد الكبريت فعظمت المنفعة فى الكتابة ونظام رسم الخرائط وجمال الكتب وزينة نوع الانسان تبارك اسمك وتعالى جدّك . دبرت بحكمة (١) جعلت هذه الشجرة قليلة فى الدنيا لأن كثرتها فى الأرض معطلة المنافع بائرة التجارة . كيف لا وهل هى تشابه النخل نحتاج اليه فى حوز الرطب والتمر وما أكثر حاجتنا اليه . أما هذه الشجرة فانها وان عمت الحاجة اليها فان ما نستعمله منها لا يوازى عشر معشار ما نحتاج اليه من النخل وكثير من أشجار الفاكهة والزيت . لذلك قلت هذه الشجرات فى الأرض (٢) ثم هى متباعدة فى أقطار المسكونة ليرحل الناس اليها ولم تقرب من متناول كل حىّ فهى كالعلم يحرم منه من لا يستعدّ له وان كان المعلوم مشاهدا محسوسا ولا يحظى به إلا من هم له مشوقون و بتحصيله مغرمون . إنّ هذا الانسان خلق ليكون فى حركة جسمية وعقلية أمد الحياة تباعدت مطلوباته لتكثر أعماله فتقوى روحه و يتعوّد الصبر والثبات . فالحكمة فى هذه الشجرة أشبه شئ ببعض الحكم فى الحج . جعل الله الحج ليكون من فضائله التدريب على فراق المألوف والتعرف بغير ما هو معروف والتنائى عن الكسل والمبادرة الى العمل والسعى لصفا النفوس والمروة لتتجلى للناس

معانى هذا الوجود (٣) كلما كان الشئ أشرف كان أعزّ مطلبا وأغلى ثمنا وأبعد فى طلبه كما نرى فى الذهب والفضة والأحجار الكريمة وهذه الشجرة

﴿ آراء نوع الانسان فى أمثال هذا المقام ﴾

اعلم أن الناس فى أمثال هذا الموضوع ثلاث طبقات (١) طبقة دنيا وهم العامة وكثير من أنصاف المتعلمين ينظرون الى مثل هـذه المدة وأمثالها نظرهم الى ما يألفون ولا ينظرون الحقائق الكامنة فيه (٢) وطبقة وسطى وهم الذين يدرسون منافعها كما يدرسون منافع كل مخلوق (٣) وطبقة عليا وهم الذين تجاوزت مراميهم ونظروا لهذا وأمثاله نظرة عامة محيطة ترجع الى التدبير العام والنظام الكلى أولئك هم أعلى نوع الانسان وهم آباء والناس جميعا أبناؤهم ونسبتهم الى الناس كنسبة الملوك والأمراء الى عامة الشعوب . فهؤلاء يقودون المفكرين فى الأمم الى النظرات العامة الشارحة للصدور ولنحو هـذا جاء الأنبياء بطريق الوحى . فهؤلاء نظرهم كلى وحسبك ماترى فى القرآن من أمره للناس بالنظرات العامة . وكلما قلت هـذه الطبقة من أمة قلت سعادتها . وكلما كثرت زاد ارتقاؤها . هؤلاء هـم الذين يدرسون هـذا الوجود درسا يفهمون به التدبير العام . وهذه الطائفة تقل فى نوع الانسان كما قلت هذه الشجرة من بين الأشجار ولكن علمهم يعم الأقطار كما عمت منافع هذه الشجرة الأمصار

هذا كله تدبير محكم منظم . إنّ هذا الوجود كله ساعة منظمة وهيكل محكم . هذا الوجود كله لافرق بينه و بين جسم الانسان والحيوان من حيث الاتقان والنظام . أنظر كيف علم الله احتياج الناس فى أسفارهم فى عصرنا الى مايرتقون به فتق العجلات فوضع هذه الخاصية فى تلك الشجرة فكما نرى العين فى الانسان والأذن و بقية الحواس لاتتم منفعتها إلا بالأيدى والأرجل والاحشاء و بقية الأعضاء وأعصاب الحس والحركة بحيث نرى هناك اتصالا بين المخ و بين أطراف اليد والرجـل وجميع الشعر . هكذا نرى هنا ارتباطا وثيقا بين الناس و بين منافع الأرض فى سائر الأقطار . وهذه الشجرة من شواهـد ذلك فهناك ارتباط الفحم بالكهرباء بهذه الشجرة بحياتنا بعلومها بمدارسنا بالشمس بالقمر بالكواكب

كل هذه متصـلات اتصال أعضاء أجسامنا . هذا هو معنى قوله تعالى ــ ثم استوى على العرش ــ وقوله ــ يدبر الأمر من السماء الى الأرض ــ وقوله ــ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ــ

أنظر الى قوله ــ يفصل الآيات ــ وانظر الى أنه أتبعها بقوله ــ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ــ لماذا جعل هذه الجلة بعد التى قبلها وأتبعها بها . أما تفصيل الآيات فهاهو ذا كثير فى هذا التفسير . أما الايقان فلماذا يكون عقب ذلك

﴿ الاجابة على هذا السؤال ﴾

يجيب عالم البلاغة على هذا السؤال ويقول لما بينهما من الجامع العقلى أوالوهمى أوالخيالى الى آخر ماتراه مسطورا فى كتب البلاغة كالمفتاح للعلامة السكاكى وككتاب السعد التفتازانى وغيرهما . وهذه انما تنفع المتعلمين أثناء دراسة اللغـة ولكننا نحن الآن نريد أن نبين مايمس ذلك فى عصرنا الحاضر أى فى القرن العشرين . أنظر الى علماء القرن التاسع عشر فانهم كانوا غالبا لايفكرون فى النظام العام باعتبار التدبير والاحكام بل باعتبار النشوء والارتقاء . وكثير منهم من أنكر صانع الوجود . المنظم لكل موجود لأن أنظارهـم اقتصرت على ما دون النظام التام . فلما أن بزغت شمس العلم فى عصرنا ظهر فى الأمم مجدّدون وحكماء مفكرون منهم (١) العلامة (ايلى دوسيون) فى كتابه ﴿الله والعلم﴾ الصادر سنة ١٩١٢ قال ﴿ الفرضان اللذان يقوم عليهما مذهب القائلين بالانتخاب الطبيعى وانتقال الصفات المكتسبة قد نقض الأوّل (سبنسر) و (ويسمان) نقض الثانى ﴾ وقال ان انتقال الصفات بطريق الوراثة لا أصـل لها و برهن على

أن هــذه المشاهدات المزعومة لاتقوم إلا على حكايات مخترعة لاتساوى قيمتها العلمية عن قيمة حكاية المرضعات وترى أمثاله كثيرين فى عصرنا أمثال الدكتور (ادورد هارتمان) إذ قال ﴿ إن الذين قالوا ان هــذا العالم وجد بلاقصد كلامهم من الامور الموهومة التى لا أساس لها وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكى . ولا يمكن النظام بلاقصــد كما لا يمكن القصــد بلانظام وكل ما لا نظام له فهو مهمل فى فوضى كالثيران الهائمة والطبيعة التى يعللون بها ليست كذلك ﴾ اهـ

وأمثال (لويز بوردو) إذ قال ﴿ يجب أن يعترف بأن هنالك قصــدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر فى تلازم الحوادث ويثبت به ﴾

وأمثال الاستاذ (فون باير) الألمانى فى القصــد قال ﴿ اذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لا قصد فى الطبيعة وأن الكون لايقوده إلا ضرورة عمياء . فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى فى ذلك وهى أنى أرى أن هذه الموجودات تؤدّى الى أغراض ومقاصد سامية

وأمثال (كاميل فلامريون) الذى قال ﴿ إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررا وغاية دفع به اليها . إن التبصر الذى يظهر فى النباتات والحشرات والطيور الخ وهى غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرياتها وامتحان المشاهدات فى التاريخ الطبيعى يستنتج منها أن فى الطبيعة عقلا مدبرا . وهكذا كثير من الحكماء ذكرناهم فى غضون هذا التفسير كلهم نطقوا بمعنى هذه الآية ـ يدبر الأمر ـ وهذه شهاداتهم طرا ترجع الى قوله تعالى ـ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ فعطف الجملة التى فيها الايقان فى سورة الرعد التى تناسب مافى هذه السورة ظهر أثره فى هذا الزمان فان العلماء الذين أثبتوا وجود مدبر للكون رجعوا فى براهينهم الى هذا التدبير المحكم فالتدبير والتفصيل كما رأيته فى الشجرة المذكورة هنا هو الذى أورث اليقين واليقين أشرف من الايمان وهو المذكور فى قوله تعالى فى سورة الأنعام ـ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ـ . فلما سمع صاحبى ذلك . قال هل من علماء غير هؤلاء بحثوا فى هذا الموضوع وأتى لهم اليقين كالسابقين . قلت قد كتب العلامة (ادمون بريبه) فى مجلة ﴿ العالم الحى ﴾ سنة ١٩١٢ قال ان ثقة الاستاذ (چينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيف جدّا فان هذه البيئات على ما يقول لاتصلح لايجاد أى تغيير وراثى ثابت فالبط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظنّ أن هذه الأغشية قد أوجدها نوع معيشتها ولكن بالعكس من ذلك فى مذهب المسيو (چينو) فانه يقول بأنها وجدت لها مقدّما بدون تأثير من الخارج وأخذ البط يعوم لأنه وجد له أرجلا مغشاة تصلح للعوم فهذه الحيوانات قد أعدّت من قبل للعوم أى انها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها من العوم (٢) وأيضا الاستاذ (بلوچر) الألمانى الشهير قال ﴿ لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة ﴾ وأيضا قال الفزيولوجى الكبير (دو بوار يمند) اذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرّد تعليل الحوادث المراد تعليلها وانها هى نفسها من المفترضات الغامضة ﴾ . فلما سمع صاحبى ذلك . قال هــذه أقوال لا أفهــم لها معنى . ما هى الصفات المكتسبة والموروثة هذا كلام غامض . قلت أنا قلت لك أن علماء القرن التاسع عشر وماقبله كانوا يقولون ان هذه الحيوانات يكتسب الفرع منها صفات الأصل وهذا أصل من الاصول الأربعة التى هى مذهب (داروين) (١) وهى أن الحياة ذات أطوار وتغيرات وانتقال من حال الى حال (٢) وهذه التطوّرات تنتقل بالوراثة الى النسل (٣) وأن الأحياء جميعها بينها تنازع البقاء (٤) وكلما كان الحىّ أتمّ وجودا وأقوى وأكمل كان أصلح للحياة والبقاء . والأضعف محكوم عليه بالفناء . فهؤلاء العلماء فى القرن العشرين نازعوا فى بعض هذه القضايا . ومعنى هذا أن المذهب الأوّل يقول إن العالم لاصانع له وهذه التنوّعات كافية فى بقائه وعلماء هذا

القرن الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم هم الذين يقولون كلا ان للعالم صانعا و برهانه مايشاهدون من نظام الحشرات والالهامات والعجائب كما شرحناه فى هذا التفسير وهو مضمون قوله تعالى ــ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ــ هنا وقوله ــ يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ــ . ثم قلت و بهذا ظهر أن هذه الدنيا ومن عليها من الناس أشبه بأم ّ تربى أولادها . فكما أن الأم يخلق لها الثديان قبل خلق الولد واللبن يخلق فى الثدى قبل الولادة . هكذا الناس خلقت لهم قبل أن يخلقوا هذه الحيوانات وهذه الشجرة التى نحن بصدد الكلام عليها وذلك من التدبير و يناسب قوله تعالى ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم ــ

هذا وسترى فى سورة النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من السور عجائب الحيوان و بدائع تلك الالهامات والقوى التى أجمع حكماء عصرنا فى الأمم كلها على دلالتها على حكمة نظامتها . وهكذا سترى فى سورة المدّثر عند الكلام على قوله تعالى ــ ومايعلم جنود ربك إلا هو ــ افاضة الكلام على بعض الحشرات اللاتى خلقت لتعيش فى أجسام الحيوان والانسان . فالناس حرم عليهم أن يأكل بعضهم لحم بعض لا بالغيبة ولا بالأكل الحقيقى ولكن أحلّ الله ذلك لذرات صغيرة خلقها لتعيش فى أجسام أناس مستعدّة للمرض والموت لتخلو الأرض لغيرهم وتصلح بسكانها فلها ﴿ شأنان ﴾ شأن أنفسها تعيش وتنمو وتلد و يخلفها غيرها لتفهمنا قوله تعالى ــ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ــ فالمثلية هناك سيظهر أثرها فى بعض أحوالها إذ تعيش هذه الحيوانات الذرّية فى أجسام الناس والحيوان . وأما بالشأن الآخر فهى انها أشبه بالشرطة الذين يكونون فى المدن ليحفظوا النظام و يمنعوا تصادم المارّة فى الطرقات والشوارع . هكذا هذه الحيوانات الذرّية خلقت لتقلل من الانسان والحيوان ــ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حىّ عن بينة ــ ولوكره الناس أجمعون . وهناك ترى أن هذه أيضا من جند الله التى لايعلمها إلا هو وانما علمنا بعضها لأنه قال ــ ولايحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ــ فالذى نعلمه الآن مما شاء الله أن يعلمه للناس من جنوده

واعلم أن هذا التفسير جعله الله مقدمة لنهضة الأمم الاسلامية فهو أشبه بثدى الأم قبيل الولادة إذ يكون مستعدّا لدرّ اللبن وكهذه الشجرة المسماة فى بلادنا (بالأستيك) وأيضا (كاوتشوك) مأخوذة من كلمة فرنسية وتقدّم ذكرها بالانجليزية . و يقال لها فى بلادنا المصرية أيضا (مطاط) فكما خلقت هذه الشجرة قبل خلق الكهرباء وافادتها هكذا ظهر هذا التفسير الذى سبق ظهور آلاف من قادة الاسلام فى مستقبل الزمان وسيقرؤنه ويكون لهم شأن فى رقىّ الأمم الشرقية ــ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ــ انتهى ما أردت ذكره فى هذا المقام

﴿ فريدة فى التدبير العام ﴾

انّ التدبير العام ﴿ نوعان ﴾ نوع لتدبير القوّة . ونوع لتدبير المادّة . فالنوع الذى هو لتدبير القوى فذلك أننا نرى غرائز حيوانية وعقولا انسانية وقوى قدسية . أما الغرائز الحيوانية فهى أدنى الدرجات انها قد ألهمت جميع ماتحتاج اليه فى حياتها و بناء مساكنها وتربية أولادها ونظام أعمالها . ناهيك ماترى من نسج العنكبوت ودقته ومسدّسات النحل وهندسته وحرص الحشرات على تربية ذرّيتها سواء أكانت من التى تكفل تربيتها كالنحل والنمل أم كانت تموت قبل أن يفقس بيضها كما ترى فى الناموس الذى ستعرف تفصيله فى سورة المدّثر عند قوله تعالى ــ وما يعلم جنود ربك إلا هو ــ والجراد ودود القز إذ الناموس لايضع بيضه إلا فى المستنقعات والأماكن التى تكون مرعى خصيبا لذرّيته قبل استكمال قوّتها . هكذا الجراد لا يضع بيضه إلا فى أماكن خاصة وهى يدفنها فى الأرض بحيث لاتكون أبعد ولا أقرب من الوضع الذى يصح معه التفريخ فى الأرض وهكذا سائر الطيور علمت وألهمت جميع ماتحتاج اليه فى أنفسها وذرّياتها وهذا التفسير

قد جمع ما يكفى ذا اللب فى مثل هذا وهكذا العلوم اليوم فى الأمم المحيطة بنا تكفلت بهذا البيان وأعطت اليقين للمفكرين وهذا كما قال الله تعالى ـ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ وقال ـ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهدى ـ فهذا هو التقدير وهذه هى الهداية وبهذا وأمثاله يكون العلم واليقين

﴿ العقول الانسانية ﴾

أما العقول الانسانية فانها أرقى من الغرائز الحيوانية • إنّ الغريزة خاصة بعمل لاتحيد عنه • ينسج العنكبوت ويصطاد بشبكته ويطير بنسيجه كما يطير الانسان اليوم فى الجوّ ويجعل له مايشبه القنطرة ويبنى مساكن من نسيجه • وهكذا مما ستراه فى سورة العنكبوت مفصلا موضحا وهكذا غيره • كل هذا لايصل الى درجة الانسان فان الحيوانات وان كانت غرائزها عجيبة هى قاصرة • أما العقل فهو أوسع نطاقا وأرقى وأقوم وأقوى فهو أعلى من الغريزة • ناهيك ماتراه اليوم من الابداع والارتفاع والارتقاء

﴿ القوّة القدسية ﴾

أما القوّة القدسية فهى أعلى من القسمين • فالعقل وسط بينها وبين غريزة الحيوانات • ولذلك تقول أين القوّة القدسية • انها خاصة بالملائكة وأنت عوّدتنا فى هذا التفسير أن تجعلنا نلمس الحقائق بعقولنا • العقل عرفناه والغريزة فهمناها • أما هذه القوّة القدسية فانا لم نعرفها إلا نقلا من كتب الديانات أومن كلام الفلاسفة • قلت اعلم أنّ هذه القوّة نعرفها نحن بأنفسنا ﴿ذلك﴾ انا رأينا طائفة من هذا الانسان لهم قوّة غير القوّة العاقلة وهى أشبه بغرائز الحيوان وغرائز الأمّهات بالنسبة لأولادها • قال هذا لم أفهمه فأوضحه • قلت إنّ الأم والأب لهما غريزة أشبه بغريزة الحيوان من حيث العطف على ولدها إن للانسان غرائزه كما للحيوان فى الأكل وتربية الولد وغيرهما ثم هو امتاز عن الحيوان بأن العقل ساعد الغريزة فى تربية ولده • ولكن الطائفة الممتازة التى ألقيت اليها القوّة القدسية أو بعض آثارها هم طائفتان الأنبياء والنابغون ومنهم الحكماء • فالأنبياء يتلقون الوحى عن الملائكة • ولاجرم أن هذا فوق متناول العقل • ثم ان الأنبياء اليوم ليس منهم أحد على الأرض وأن الله عزوجل خلق فى كل أمّة من أمم الأرض أناسا استعدادهم خلق للعموم لا للخصوص فهم أبدا مغرمون بإسعاد المجموع أو بتعليمه يجدون ذلك فى صدورهم ويحسون به فى أنفسهم لايقرّ لهم قرار ولا يكون لهم اصطبار إلا اذا جدّوا فى الأسفار وقطعوا القفار وركبوا متن البحار واستخدموا الكهرباء والبخار لنيل الأمانى والأوطار وادراك المعالى وحوز العلوم ونفع العموم • وهؤلاء ليلهم ساهر ونهارهم عامل • فهذه الحال لاتفارقهم • وهذه الأخلاق لاتغادرهم فهم مع العلم ومع أممهم أشبه بالأم الوالهة على ولدها • المولعة بفلذة كبدها • ولكن هذه الصفة فى هؤلاء الأشراف أعلى مقاما وأرفع منارا وأشرف مقصدا ومحتدا فلم تنحط الى غرائز الحشرات ولا الى عطف الأمّهات من الآدميين والحيوانات بل انها تعلو على العقل وتسخره فتجد تلك الموهبة تسوق العقول التى جاورتها فى الأجسام التى حلتها فتحمل المتصفين بها على تحمل المصاعب وقطع السباسب وافراغ الجهد فى استخدام العقل • ذلك هو وصف النابغين فى سائر الأمم والله لم يخل الأرض قديما ولاحديثا منهم • وكل يظهر فى أمّته ماوافق له من أمر مادّى أومعنوى • كل ذلك لالهام يلهمونه كالهام الحيوان وعامّة الانسان ولكن هذا أعلى من العقل فهذا افاضة من الملائكة • وترى الالهام فى الأمم المادّية كأهل أوروبا يرجع الى المادّة وفى الأمم التى قصرت همها على الامور الروحية نبغت فيها فقط وكلاهما إلهامه ناقص • فأما الأمم الاسلامية التى ستظهر بعد هذا التفسير وأمثاله فانها سيكون إلهامها جامعا للأمرين معا فلايقفون عند المادّيات كأهل أوروبا غالبا ولاعلى المعنويات والروحيات كبعض الاوروبيين وعامّة أهل الهند فيكون الالهام شاملا للأمرين

نافعا فى الروح والجسم والمعنى والمادّة

وبهذا عرفت ﴿ القوى الثلاثة ﴾ الغريزة والعقل والقوّة القدسية وأن هذه القوّة فى عالم أعلى منا وتتنزل على أفراد فى الأمم المختلفة وتظهر على أيديهم منافع للناس وسعادة مادّية أومعنوية . وأرقى هذه الطائفة هم الحكماء الذين يدرسون هذا الوجود وهم مغرمون بربهم و بنظامه و بنظام الأمم . فوجود هؤلاء فى الأرض دليل على أن هناك قوى أعلى منهم يستمدّون منها إلهاماتهم وهم يبنون عليها سواء أعلموا ذلك كالأنبياء أم لم يعلموه كالحكماء و بعض النابغين . فهذا هو النوع الأوّل من النوعين العامّين للتدبير وهو تدبير القوّة فظهور أناس فى الناس امتازوا بقوّة أرقى من غيرهم . وعموم العقول فى الناس وعموم الغرائز فى الحيوان فى ذلك كله معنى التنزل من السماء الى الأرض يكون الوحى للأنبياء فيعلمون العقلاء وهؤلاء العقلاء يفكرون فى الوحى و يذهبون مذاهب شتى لنفع الناس فهذه العقول كلها مسخرة لهذه الموهبة القدسية ثم ان غرائز الحيوان والانسان تحت ذلك كله مسخرة مطيعة كما سخر الله الانسان فنفع الحيوان طوعا أوكرها ألا ترى أنه يقدّم الطعام للثور وللفرس وانه يزرع القطن فيأكله الدود فهوذا الانسان سخر طوعا وكرها ككل مخلوق* وملخصه أننا نرى القوّة القدسية ألقت شعاعا من العلم على العلماء التابعين للأنبياء و بالالهام للنابغين والحكماء وبالقوّة العقلية زرع الناس ونظموا الأرض فأكل الحيوان أردنا أم لم نرد . هذا هو معنى ـ يدبر الأمر من السماء الى الأرض ـ فى هذا المقام وهو الكلام على القوى الثلاث وبه تمّ النوع الأوّل وهو تدبير القوّة

﴿ النوع الثانى من التدبير العام . تدبير المادّة ﴾

إن تدبير المادّة أيضا داخل فى قوله تعالى ـ يدبر الأمر من السماء الى الأرض ـ فكما رأينا القوى يمدّ أعلاها أسفلها . هكذا نرى المادّة يمدّ أعلاها أسفلها . ألم تر الى الشمس كيف كان أهل الأرض لايعيشون اذا لم يكن ضوءها مرسلا الى أرضهم فسترى فى سورة ـ الشمس وضحاها ـ كما رأيت فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب مثل مافى سورة الفاتحة وغيرها أن كل مخلوق على الأرض لايحيى إلا بوجود الشمس فلولاها لم يكن ريح تهبّ ولاماء يجرى ولاحيوان يدب ولا انسان يوجد بل تكون الأرض قاعا صفصفا . ثم انك ترى السحاب يجرى والرياح تهبّ كل ذلك لمنافع الناس على الأرض . فهاهوذا الأعلى نفع الأدنى كما نفعت القوّة العالية وحافظت على من دونها طوعا أوكرها . سخرت العوالم المحيطة بنا لحياتنا . وامتلأ الجوّ بالبخار والسحب ونزلت الأمطار وزمجر الرعد ولمع البرق وهبت العواصف فنبت الزرع وازّينت الأرض للناظرين وبهرت النجوم فى سمواتها وأرسلت أشعتها تترى لأهل الأرض فساروا على هداية ضوئها فى البرّ والبحر فكانت نورا لساريهم وهداية لمسافرهم ومرشدا لربانهم ونجاة لسفنهم واسعادا لبدوهم وحضرهم وهم آمنون

﴿ مستقبل الأمم على الأرض وواجب المسلمين ﴾

ها أنت ذا أيها الذكى قد اطلعت على ترتيب التدبير من السماء الى الأرض فى القوى والموادّ . وهاأناذا أذكر لك نتائج ذلك فى الأمم فأقول . قد تبين لك أن العقول موزعة على الناس والمنافع على الأرض فى مواطن من هذا التفسير وأهل الأرض متضامنون وليس لهم دخل فى انزال المطر ولاضوء الشمس ولاخلق الهواء ولاخواص الأرض . تضىء الشمس وتثير الرياح بحرارتها فتجرى السحب فتنزل على الأرض والناس يتلقون الماء فيها و يزرعون والماء يجرى فى الأنهار الى البحر الملح . يظنّ الانسان لأوّل وهلة أن هذا الماء الجارى الى البحر ضائع لافائدة منه كما فى ماء النيل بمصر ودجلة والفرات المحيطين ببلاد الجزيرة وكنهر الكنج بالهند وكنهر الأمزون وغيرها . يقول الناس ان الماء يجرى أيام الفيضان الى البحر ولافائدة

منه

منه بل هى قوى معطلة وليس الأمر كما يظنون • ان الماء اذا سقى الحقول وأنبت العشب وعاشت به الأمم فانما مثله مثل رجل يسعى أوّلا لما يبق جسمه ثم نراه يسعى ليربى أولاده ليعيشوا بعده • هذه حال هذه الأنهار • الناس يعيشون بها ثم هى تجرف الطين والرمل والحصى الى البحر كل سنة ليكون ذلك طبقات وراء طبقات بها تتكون الجبال فى قاع البحار فيعلو هناك كما تعلو اليابسة كل سنة (بالغرين) الذى يحمله الماء • فجميع الجبال التى نراها كالمقطم وكجبال هملايا وغيرها كما ستراه مفصلا فى هذا التفسير فى السور التى بين سورتى يوسف والنحل ان شاء الله تعالى وفى قوله تعالى ـ أفلاينظرون الى الابل كيف خلقت ـ الى قوله ـ والى الجبال كيف نصبت ـ فى سورة الغاشية انما تتكوّن أوّلا فى البحار فى مئات الآلاف من السنين فهى أجنة فى بطون البحور تخرج بعد أمد طويل • إذن ليست القوى معطلة • فالنهر اذا عشنا بمائه فوق الأرض فان مافضل يستعمله باذن الله فى احداث عوالم ستكون بعد قرون • فالجبال مكوّنات من فضلات الأنهار كما كوّنت الأجنة مما فضل من غذاء الأبوين فى أجسامهما فالنطفة منهما من فضلات الدم الجارى فى عروقهما ودم الحيض الذى لا يكون إلا زمن القوّة واللبن المغذى للطفل • كل ذلك فضلة فائضة من القوى كما فاض النهر وجرى فتكوّنت به هذه الجبال • وليس معنى هذا أن الناس على الأرض ينامون و يتركون أنهارهم • نعم هذا تدبير محكم ونظام عجيب عام

﴿ ازدياد الناس على الكرة الأرضية ﴾

ازداد الناس اليوم على سطح هذا السيار الذى نعيش فيه وازدحمت القرى والأمصار بسكانها واشرأبوا الى منافع الأرض وقد علموا أنهم متضامنون وان لم يعملوا بهذا التضامن • والذى أراه أن الناس سائرون الى حال ستجمعهم طوعا أو كرها • سيفكر الناس فى استخدام جميع المواهب العقلية فى الانسان والخواص فى الأرض كما ستراه فى ملخص كتابى ﴿أين الانسان﴾ فى تفسير قوله تعالى ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ وذلك بقلم الاستاذ (سنتلانه الطليانى) تقريظا له وهو مترجم الى العربية من التليانية فان هذا الملخص هناك هو معنى الآية وهو موضح لهذا المقام

قرب الوقت الذى تحاسب فيه كل أمّة على مافرطت فى عقولها وما أهملت من أرضها كما فى الكتاب المذكور • قد رأيت ألا شئ فى الوجود معطل وأن ماء النهر الجارى الى البحر له عمل فسيضطر الناس الى أن يحاسب بعضهم بعضا على ما أضاعوا من قوى • وستقول كل أمّة للأخرى ان عندك قوى مخزونة فى جبالك أوفى مائك أوفى أرضك أوفى عقول أبنائك فاستخرجها لأن المنافع تعود منك علىّ فى التجارة والمبادلة وغيرهما فاذا أبت قهرها غيرها واستخرجوا المنافع وشاركوها • ذلك سيتم متى ازداد عدد السكان سيضطرون لذلك اضطرارا لأنهم متضامنون كما قدّمنا • وأضرب لك مثلا

خذ ملابس صبىّ من صبيان المدارس فى أنحاء الأرض الآن فهى مركبة من

(١) صوف يحضرونه غالبا من استراليا أومن جنوب افريقيا

(٢) أوقطن مستحضر من مصر أوأمريكا أو بلاد الهند

(٣) أوكتان مستحضر غالبا من بلاد الروسيا أو بلجيكا أوايرلنده

(٤) ويحتاج الى سير من جلد مخصوص وهو يجلب من أمريكا الشمالية

(٥) و يصنع ذلك كله فى بعض ممالك أوروبا

(٦) وازرة من فضة تستجلب من بلاد (المكسيك)

(٧) ومشابك أخرى إما من نحاس أصفر مستخرج من النحاس الأحمر المستجلب من اسبانيا

(٨) أومن قصدير من شبه جزيرة بلاد الملايو

(٩) وكل هذه تحملها السفن فتعبر البحار

(١٠) وقس على ذلك كل ما نحتاج اليه

﴿ واجب المسلمين الذين ألف لهم هذا الكتاب ﴾

أيها الذكي إياك أن تظن أن اطالة هذا الموضوع خارجة عن الآية فى التدبير العام والتدبير العام انحصر فى القوى والمادّة وقد رأيت تدبير القوى من الأعلى الى الأدنى والمادّة أيضا من الأعلى الى الأدنى وهذا ما لخص ماذكرنا وهذا الكتاب للمسلمين وأنت المخاطب لأنه لا يفهم هذا إلا أناس لهم قوّة بها يفوقون المجموع والذى ذكرته علم والعلم إن لم يصحبه عمل ضاع فها أنا ذا أوصيك بالمسلمين * إن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم من كل جانب وقد سبقهم النصارى والمجوس واليهود فعم التعليم اليهود واليابان وأوروبا ولم يبق جاهلا إلا المسلم ولا يتعلم غالبا إلا القليل فجدّ كل الجدّ واتخذ سبيلا الى تعميم التعليم حتى نلحق بالأمم وهذا لا يحتاج الى أكثر من عشرين سنة * ومتى نما التعليم فى الأمم الاسلامية أمكنها استخراج المنافع من العقول ومن المادّة كما شرحناه * يدبر الله الأمر من السماء الى الأرض ونحن مكلفون أن نعمل بقدر طاقتنا * ومتى ارتقت أمم الاسلام صارت مجارية للأمم الأخرى وحينئذ تكون مساوية لهم فلا تتهم بأنها عطلت عقول أبنائها ولا منافع أرضها وخواصها ولا المطر النازل فى أرجائها * فان لم تكن سابقة الأمم فى ذلك فلتكن مساوية لهم

هذه هى السبيل التى يجب اتباعها ونشرها وأن هذا التفسير وأمثاله فى هذا العصر مقدّمات لذلك الرقى المنشود والحمد لله رب العالمين

﴿ فصل فى قوله تعالى ـ وقدّره منازل ﴾

هى ثمان وعشرون منزلة أوّلها الشرطين وآخرها بطن الحوت وهى مقسومة على اثنى عشر برجا أوّلها الحمل وآخرها الحوت لكل برج منزلتان وثلث منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها الى انقضاء ثمانية وعشرين ليلة ثم يستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين وان كان تسعا وعشرين اختفى ليلة واحدة

﴿ القمر أصل الشهور والأسابيع ﴾

اعلم أن القمر لولاه لم تكن شهور ولا أسابيع ولكان اختلاف الناس عسيرا فى حسابهم * وبيانه أن دورة القمر التى تتمّ فى ٢٨ يوما كما تقدّم جعلت مقياسا للشهر * ثم بالنظر لاختلاف الفصول من شتاء وصيف وخريف وربيع جعل مقياسا لها فجعل كل فصل ثلاثة أشهر وكل شهر أربعة أسابيع وكسر

فدورة القمر هى التى نبهت النوع الانسانى الى أقسام السنة الاثنى عشر المسماة شهورا * فأما سير الشمس فلم يعط الناس الا الفصول الأربعة باعتبار بعد الشمس وقربها وهى الدورة السنوية * ههنا أخذت الأمم تفصل أيام السنة وشهورها بحسب ما يعنّ لها فانهم لما رأوا الاسبوع سبعة أيام لم ينظروا لليوم بنظر واحد

(١) الكلدانيون والفرس يجعلون مبدأه من شروق الشمس ويجعلونه ٢٤ قسما متساوية هى الساعات

(٢) اليهود يبتدئون من غروب الشمس الى شروقها ليلا ومن شروق الشمس الى غروبها * فالساعات ليلا ونهارا تختلف طولا وقصرا بحسب الفصول عندهم بخلاف الكلدان والفرس فهى متساوية مع اختلاف الفصول

(٣) الايطاليون فى أواسط القرن التاسع عشر كانوا يحسبون كاليهود

(٤) العرب يحسبون النهار من مرور الشمس على خط الزوال مبتدئين من الساعة الأولى الى الرابعة والعشرين التى تنتهى بمرور الشمس عند خط الزوال عينه فى اليوم الثانى

(٥) لم تتفق الأمم الكبرى كفرنسا وغيرها فى مصالحها العمومية لاسيما فى مواعيد السكك الحديدية على ما كان عند العرب الا فى زمن قريب جدّا * وأسماء الأيام مستنبطة من أسماء الكواكب السيارة

(١) الاثنين القمر عند الفرنجة (٢) الثلاثاء من مارس عند الفرنجة أى المريخ (٣) الأربعاء يرجع

عنـد الفرنجة الى عطارد (٤) الخيس يرجع الى جو بتر عندهـم أى المشترى (٥) الجمة يرجع الى الزهرة (٦) السبت يرجع الى ساتون أى زحل (٧) الأحد يرجع للشمس وهذه كانت معروفة عند آبائنا العرب فاذا قال الفرنجـة مثـلا ان الأربعاء وهو (مركردى) مشتق من مركور أى عطارد فان آباءنا قالوا ان يوم الأربعاء لعطارد وهكذا بقيـة الأيام بالنقل عن الأمم • ولقد اتفقت الأمم كلها على تحديد عدد أيام السنة ابتداء من القرن الثالث للميلاد واعتبر أكثرهم ان مدّة الاسبوع معادلة ربع دورة القمر حول الأرض

(١) وكان الفرس والمصريون لذلك العهد يعتـبرون السنة (٣٦٥) يوما مقسمة الى اثنى عشر شهرا والشهر ٣٠ يوما يضاف اليها فى آخر كل سـنة خمسة أيام (أيام النسىء) ومع ذلك لم تطابق السنة الحقيقية والأشهر عند قدماء المصريين هى (توت • فاووفى • أوثير • شوكا • تو بى • مشير • مامينوت • فرمونى ياشون • بونى • ابيفى • ميسورى) والشهر الأوّل منها وهو (توت) يبتدئ فى الاعتـدال الخريفى (٢٢) سبتمبر من كل عام

(٢) الصينيون كانوا يعرفون السنة الشمسية وقد ضبطوها مرات عديدة

(٣) العرب • السنة تتألف من (١٢) شهرا والشهر مؤلف من (٢٩) يوما و يليه شهر مؤلف من ٣٠ يوما والسنوات الكبيسة يزاد عليها يوم واحد والكبيسة فى كل ٣٠ سنة احدى عشرة سـنة والباقى وهو ١٩ بسيطة

(٤) اليهود تقويمهم الدينى بالقمر وتقويمهم المدنى شمسى يبتدئ من فصل الربيع

(٥) قدماء الرومان تبتدئ السنة عندهم من فصل الربيع ولـكن (رومولوس) مؤسس رومية قسمها عشرة أقسام ذاهلا عمـا رسمه القمر فى سيره من قسمته السنة ١٢ قسما وأسماء الشهور بعضـها مشتق من أسماء الآلهة عنـدهم • هكذا مارس • ابريليس • يونيوس و بعضها أسماء أعداد وأضاف بعض ملوكهم شهرين آخرين وهما (جانواريوس وفبرواريوس) ثم أضافوا شهرا آخر فصارت الشهور ١٣ شهرا وهو أمر غريب • فانظر ماذا حصـل جاء الأمبراطور (يوليوس قيصر) فوضع التقويم اليونانى بأن تكون السنة مؤلفة من ١٢ شهرا بعضها يحتوى على ٣٠ وبعضها على ٣١ يضاف اليها كل أربع سنوات يوما فى السنة الكبيسة • ولما كان الرومانيون يجهلون نظام الأسابيع وسقطت الدولة الرومانية غيروا نظام الشهر الرومانى وجعلوه على مانعلم اليوم من الأسابيع المعروفة اليوم المجهولة عند الرومان

وقد نقش الأمبراطور أغسطوس على ألواح النحاس التقويم الذى وضـعه قيصر وأطلق اسم يوليوس (يوليو) على شهر يسمى (كنتيكيس) تخليدا لاسمه كما أطلق اسمه هو وهو أوغسطس على شهر يسمى (سكتيليس) • فانظر كيف اضطرت الأمم كلها أن تجعل السنة ١٢ شهرا • لماذا • لأن القمر لما دار حول الأرض ١٢ مرة كان هذا قريبا من السنة ينقص عنها نحو ١١ يوما فكأن القمر فى سـيره نطق بلسان فصيح قائلا • هاأناذا رسمت لكم الشهور فانسجوا على منوالى حتى اضطر الرومانيون بعد ماقاسوا المشاق فى تعديل السنة وقد غفلوا عن سير القمر الى حذف الشهر الزائد عن اثنى عشر وأوّل من تفطن لهذا يوليوس ورجع الى الشهور الاثنى عشر كسائر الأمم • وهـذا هو سرّ قوله تعالى ـ وقدّره ـ أى القمر ـ منازل لتعلموا عدد السنين ـ فأفاد أنّ نظام القمر هو الذى يفيد السنين و يعرّفها و يقسمها ولولاه لاختلفت شهورهم وضاعت مصالحهم • ولما كانت الأمم بعضها محتاج الى بعض نظم الله لهـم سير القمر حتى يتبعوه فى الحساب فتنتظم معاملاتهم • فنظام السموات تبعه نظام أهل الأرض

﴿ فصل فى معنى قوله تعالى ـ والحساب ـ من قوله ـ لتعلموا عدد السنين والحساب ـ ﴾

اعلم أن السنة الشمسية كما قدّمنا فى كل أربع سـنين فيها سنة كبيسة وثلاثة بسيطة • وقاعدتها أنّ

تقسم سنى التاريخ المسيحى على أربعة فان قبلت السنة القسمة فهى كبيسة والا فهى بسيطة . ولاشك أن هذه السنة التى أكتب فيها هذا التفسير وهى سنة ١٩٢٤ تقبل القسمة على أربعة واذن فهى كبيسة أنا فى هذه الساعة أكتب ليلة السبت نصف الليل الليلة السادسة من شهر سبتمبر من هذه السنة . ومع ذلك السنة على هذا الحساب لم تزد على ٣٦٥ يوما و٦ ساعات وهى فى الحقيقة ٣٦٥ يوما و٥ ساعات و٤٨ دقيقة و٥٥ ثانية أعنى ٣٦٥٫٢٤٢٢١٧ يوما وسطيا وحينئذ تكون كل سنة يوليوسية تزيد عن المدة الحقيقية للسنة الفلكية بكسر من اليوم مساو الى ٠٫٠٠٧٧٨٣ أعنى ١١ دقيقة تقريبا وهذا الفرق وان كان قليلا يصير يوما كاملا فى كل ١٣٢ سنة وفى سنة ١٥٨٢ ميلادية قد وصلت هذه الزيادة الى عشرة أيام فأمر البابا (جريجوار ليليوس) الطليانى بأن يصلح هذا الخلل فأسقط ١٠ أيام من تلك السنة إذ جعل الخامس من شهر اكتوبر الخامس عشر . ولما كان الفرق وهو ١١ دقيقة يصير ١٨ ساعة تقريبا فى كل مائة سنة وثلاثة أيام فى كل أربعمائة سنة وجب إذن طرح ثلاثة أيام من كل أربعمائة سنة فأضاف الى القاعدة اليوليوسية قاعدة أخرى وهى أن كل ثلاث سنين مئينية عوضا عن أن تكون كبيسة تكون بسيطة والرابعة تبقى كبيسة وهلم جرا . والمراد بالسنة المئينية ماينتهى عدد التاريخ فيها بصفرين مثاله سنة ١٦٠٠ ولزيادة السهولة اتفقوا على أن السنة المئينية الكبيسة هى التى عددها يقبل القسمة على ٤٠٠ فسنة ١٦٠٠ كبيسة و١٧٠٠ و١٨٠٠ و١٩٠٠ بسيطة

وقد قبل هذا التعديل جميع الأمم ماعدا المسكوف والأروام والأقباط فانهم بقوا على التعديل اليوليوسى ولذلك نرى فرقا ١٣ يوما بين حسابهم وحساب الافرنج ١٠ منها هى الأيام التى أسقطها (جريجوار) والاثنان ناشئان من جعلهم سنتى ١٧٠٠ و١٨٠٠ كبيستين والافرنج جعلوهما بسيطتين ومع ذلك لايزال هناك فرق يبلغ ربع يوم تقريبا كل عشرة قرون فيكون يوما واحدا كل ٤٠٠٠ سنة بحيث يجب أن يضم يوم واحد لسنة ٥٥٨٢ لأجل تعديل الخطأ المجتمع القليل جدا فتعجب من الحساب كيف بلغ فى الدقة مبلغا شغل العالم الانسانى أجمعه وقد كان ابتداؤه سير القمر الذى قسم السنة ١٢ قسما وهذه الأقسام تنقص ١١ يوما تقريبا فعدّلت الشهور من حال الى حال . ومتى زادت عن ١٢ تأدّب الناس وحذفوا الزائد ثم أخذوا يحذفون ويزيدون أجيالا وأجيالا الى أن وصلوا الى الثوانى من آلاف السنين . أليس هذا هو سرّ قوله تعالى — لتعلموا عدد السنين والحساب — أولم يكف أن يقول — عدد السنين — حتى أضاف لها الحساب اشارة الى هذه الدقة المتناهية فالقمر حكم عليهم أن يجعلوا السنة ١٢ شهرا وهم اضطروا بالحساب أن ينظموا أيام الشهر فبدل أن يكون ٢٩ يوما و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة بحساب القمر زادوه نحو يوم تقريبا فى الشهر الشمسى . ولايزال الحساب يتناهى فى الدقة الى الآن

فياعجبا كيف كان القمر دليلا على الحساب . وكيف شغل الناس بالفرق بين الشهر القمرى والشمسى والسنة القمرية والشمسية . وكيف كانت السنين الكبيسة والبسيطة فى الحساب العربى فى كل ٣٠ سنة لاتزيد الزيادة للكبس فيها على ١١ يوما دائما أبدا وكل دور (٢١٠) من السنين وهذا الدورمشتمل على أدوار صغيرة كل دور منها ٣٠ سنة وهى سبعة أدوار . فتعجب كيف كانت الكبيسة الشمسية محتاجة الى دقة أتمّ كما رأيت وكل هذا سرّ قوله تعالى — لتعلموا عدد السنين والحساب — وقوله — ما خلق الله ذلك إلا بالحقّ يفصل الآيات لقوم يعلمون — يعنى أن الله راعى فى خلق ذلك الحكمة والمصلحة ولم يذر القمر والشمس يتخبطان فى سيرهما ويتعثران فى جريهما بل ضبطهما بحساب على مقتضى احتياج الناس وحسابهم . وبهذا الحساب يزدادون دقة وحكمة فلوأننى جعلت الحساب سهلا صحيحا لا كسرفيه لأدّى ذلك الى جمود عقولهم وموت نفوسهم وجهالة عقلائهم ولكن ذلك الكسر فى السنين الشمسية والقمرية يؤدّى

الى

الى نبوغهم فى الحساب فترتقى الأمم واذا كان الحرب فى الأمّة وشدّة الحاجة الى العلوم والصناعات يؤدّى الى ارتقائها . هكذا هنا فى الحساب ودقته تؤدّى الأمم الى رفعة الشأن . فكلما ازدادوا حيرة ازدادوا اجتهادا فأثروا . هذا معنى قوله ـ ماخلق الله ذلك إلا بالحق ـ وختم الآية بقوله . لمن أفصل هذا . أفصله لقوم يعلمون . يعنى أن مثل هـذا المقام لايعرفه إلا العلماء به . فأما الجهـلاء به ولوكانوا أعلم الناس بالنحو والصرف واللغة والفقه فان التفصيل ليس لهم . فعار على أمّة الاسلام أن تخلو من النابغين فى هذا الفن . وكيف نرى التعديل يأتى من أوروبا والمسلمون نائمون اليوم وليسوا كآبائهم الأوّلين

اللهم انك أنزلت هـذا الـكتاب وطلبت فيه أن تـكون الأمّة فيها علماء فى كل علم فاذا قصرت الأمة كما هو حاصل الآن وليس أحد عالما بهذه العلوم إلا الفرنجة . فلمن يفصل لهم القرآن . ولمن يقرأ . وكيف يفصل الله الآيات لقوم لايعلمون . يارب إن المسلمين اليوم لايعلمون أكثر العلوم ويمرّون على مثل هـذا القول مرّ الـكرام ولاحظ لهم منه إلا حظ الجائع من النسيم . فياليت شعرى لمن هذا التفصيل ولمن هـذا القول . يا الله إنك قـد سلطت الفرنجة علينا لجهلنا . يارب انك فصلت هـذه الآيات لقوم يعلمون الفلك والأمّة غافلة فنقلته أنت الى الفرنجة وصرنا نقرأ القرآن ولا نبالى بما سمعنا انك تفصله لقوم يعلمون لأن المسلمين اليوم قوم بعلم الفلك يجهلون . فاللهم اجعل منهم قوما عاشقين لعلوم مختلفة و بث الحمية فى قلوبهم واجعل منهم من يحثون على كل صناعة وكل علم واجعل كتابى هذا مما يحرّضهم على عشق العلوم وحبّ الحكمة والتخلق بخلقك وخلقك العلم والحكمة لأنك العليم الحكيم اهـ

﴿ بهجة العلم فى هذه الآيات ﴾

إن تقدير المنازل والبروج للشمس والقمر وسيرهما بحساب متقن هو الذى جعـل الناس آمنين على ﴿ أمرين ﴾ حساب الدرجات الأرضـية ونظامها . وحساب الميزان والـكيل والمساحة . ولأبين ذلك فى مقامين ﴿ المقام الأوّل ﴾ حساب الدرجات الأرضية ومعرفتها وكرويتها ودورانها

اعلم أن أوّل من فـكر فى كروية الأرض رجل يقال له (أراتوستانس) هذا الرجل ولد فى القيروان سنة ٢٧٦ قبل المسيح ودرس فى الاسكندرية وأثينا ثم دعى الى الاسكندرية سنة ٢٣٤ قبل الميلاد فأقام بها الى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٤ ق م وهذا الفلـكى ألف كتابا فى معرفة جرم الأرض وقال ان الشمس تـكون عمودية فوق الأرض فى مدينة اسوان وقت الانقلاب الصيفى فاذا نصب عمود فى الأرض هنالك لم يظهر له فى الظهيرة ظلّ ممتدّ شمالا واذا نصب عمود آخر مثله فى الاسكندرية ظهر له ظلّ شمالى فى تلك الدقيقة عينها واذا رسم خط من أعلى هذا العمود الى طرف ظله وجدت الزاوية التى تـكون بينه و بين الظل سبع درجات وخمس درجة فهى المسافة بين الاسكندرية واسوان

ولبيان هذا المقام حقّ البيان أقول أن هذا الفلـكى قد تربى فى الجامعة المصرية بالاسكندرية التى أسسها بطليموس الأوّل وقد تخرج منها كثير من العلماء والأطباء ومنهـم هذا الفلـكى فتاقت نفسه يوما أن يسافر من الاسكندرية الى اسوان فسافر فى نهر النيـل فلاحظ أمرين ﴿ أوّلهما ﴾ أنه كلما أوغل فى جهـة الجنوب سفرا يرى بعض النجوم الشمالية الظاهرة تغيب تدريجا ﴿ وثانيا ﴾ أن بعض النجوم التى لم تـكن ظاهرة تبدو تدريجا فخطر له أن هذا لايكون إلا اذا كانت الأرض كروية وكيف يقيس الأرض كلها اذن هنالك اجتزأ بقياس بعضها ثم يحسب الباقى وماذلك البعض ياترى . هو مابين الاسكندرية واسوان فقاسه فوجده (٦٨٠) ميلا وهذه المسافة هى التى ارتفاعها الشمسى عند الاسكندرية أكثر من اسوان ٧ درجات وخمس درجة فاذن هذه المسافة جزء من خمسين من الدائرة التى تحيط بالـكرة و بضرب هذا العدد فى خمسين يساوى (٣٤٠٠٠) ميل . ثم قال فى نفسه اذا أنا سافرت من اسوان أيضا جنوبا واستمررت فانى أرجع الى الاسكندرية

من الشمال ثانيا اذا قطعت قدرهذه المسافة المذكورة خمسين مرة • هذا ماقاله ذلك الفلكي ولكن الحساب الآن ليس كذلك فان الدائرة حول الأرض لاتزيد عن (٢٣٧٠٠) ميل والسبب في ذلك الخطأ المقدر بنحو (١٠٣٠٠) ميل أن اسوان ليست في جنوب الاسكندرية تماما بل هي تنحرف جهة الشرق الجنوبي قليلا فلذلك طالت المسافة جدّا • انتهى ماترجمته من الكتب الانجليزية مقتصرا على الفائدة

ومن المؤلم أن هذا العالم لما عمى فى آخر حياته ترك الأكل حتى مات قائلا ﴿ لا خير فى حياة لاتصحبها لذة المطالعة والعلم ﴾ فلذلك آثر الموت انتحارا

انظر الى الآية التى نحن بصددها وتفكر فى عمل هذا الفلكي اليونانى المصرى كيف عرف بارتفاع الشمس الدرجات السبع والخمس وأنها هى جزء من خمسين من الدائرة المحيطة بالأرض وحسب المحيط كله • لولا دوران الشمس حول الأرض بحسب الظاهر ما أدرك هذا العالم هذا الحساب • انتهى الكلام على كروية الأرض

أما دورانها فانه قد وضح فيما كتبته فى كتاب ﴿ جواهر العلوم ﴾ وقد جعلته فى محاورة بين فتى وفتاة فلأنقل مادار بينهما من الحديث لتقف على ما كنت أكتبه فى أوّل أيام تأليفى ولترى أن دوران الأرض حول الشمس ليس غير مخالف للقرآن فحسب بل له منه دلائل كما ستراه فيما يأتى • وهنا ننقل مافى ﴿ جواهر العلوم ﴾

﴿ فصل فى الكلام على الخلاف بين الأوائل والأواخر فى الأفلاك ﴾
(ومسألة الدوران والشمس هى الدائرة حول الأرض أم بالعكس)

فقالت ياسيدى أرجوك ذكر مقال شاف يكشف لى حجاب الخفاء عن الهيئة فقد أشكل القول فيها وخالف السلف الخلف وكل حزب بما لديهم فرحون فانى لا أدرى ما الصواب فيها أقول الأقدمين الذين قالوا ان الأرض ساكنة وأن الشمس وجميع الكواكب تدور حولها أم قول العصريين القائلين بأن تلك الأجرام لا وجود لها وانما السماء لها معنى آخر وهو الشموس المشرقة وتوابعها من السيارة وسيارة السيارات وانها سبع طبقات بعضها فوق بعض وهى الأقدار السبعة المعلومة وأن الأرض هى التى تدور حول الشمس ثم ما الذى حملهم على ذلك حتى جدّوا فيه وما الفائدة فى تلك المباحث • فقال اعلمى أن المتقدّمين والمتأخرين أفرغوا وطابهم فى البحث عن الاجرام العلوية والكواكب المشرقة ولم يألوا جهدا فى البحث عنها لميل الطباع البشرية الى اقتناص شوارد العلوم وفوائد المنطوق والمفهوم • ولذلك نرى كل انسان يعجب بعلمه ولو فى مسألة من دنايا المسائل • فقالت ياسيدى وهل فى العلم أدنى وأعلى • فقال نعم ان المعلومات تنقسم الى علوية شريفة والى سفلية تستضىء منها مركبة من عناصر سريعة الانحلال قريبة الدثور واللذة فى العلوم على حسب شرف المعلومات • فكلما كان المعلوم أشرف وأفضل كانت البهجة به واللذة أكثر • وكلما نقص عن رتبة الشرف والفضل بأن استمدّ من غيره أوكان قريب الدثور والانحلال قلت البهجة به واللذة وأنى يستوى لذة معرفة موت فلان وحياته وغنى زيد وفقر عمرو وغيرذلك بلذة معرفة أقدار الكواكب وأبعادها وحساب دورانها وسنيها وشهورها وأيامها وانتظام سيرها فى دوائرها فان اللذة بالأوّل وقتية قليلة بخلاف اللذة بالثانى فهى عظيمة جدّا دائمة بدوام المعلوم • وعلى هذا القياس كانت سيرة العلماء والملوك والحكماء والدول الكبيرة ألذ من سيرة العامّة والسوقة والجهلة والدول الصغيرة وكذلك العالم العلوى على السفلى ولذلك كان البحث عن كمال الله وجماله أبهج وألذ فى النفوس الشريفة لأنه لا أشرف منه ولا أدوم • وبالجملة فالبحث عن العلويات أمر لذيذ ولذلك اتجهت أفكار الأمم بأجمعها اليه وصوّبت أسهم آرائها لغرضه • ولقد أطلعت على آراء قديمهم وحديثهم وعجرهم وبجرهم وغثهم وسمينهم فوجدت موضوع أبحاثهم دائرا على محورين ﴿ الأوّل ﴾ القوانين الحسابية التى بها يعرف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والفصول والانتقالات وغيرذلك

مما توقف عليه أحوالنا المعاشية وعباداتنا وحجنا وصومنا وافطارنا وغير ذلك وهو فنّ التقويم المسمى علم الفلك وهـذه القوانين ليس فيها بين المتقدّمين والمتأخرين كبير خلاف بل هى متقاربة ولاخلاف إلا فى أمور جزئية لاتهدم أصـلا من الأصول ولاتوجب خطأ فى مقول ﴿الثانى﴾ البحث عن العالم بأسره وهو علم هيئة الدنيا وهو فنّ يبحث فيه عن الأرض مع غيرها من أجزاء العالم والعالم هو سائر المحدثات فهو صـنعة عظيمة تكل العقول عن الاحاطة بعلم ما احتوى عليه من المخلوقات وعن الابعاد بين الكواكب ومقادير أجرامها وطبائعها وماتشتمل عليه وعن السيارات والثوابت وعن الشمس أهى التى تدور حول الأرض أم الأرض هى التى تدور حولها وعن حقيقة السموات وغير ذلك • وهذا هو الفنّ الذى حمى فيه وطيس الخلاف بين الاوائل والأواخر وعلماء هذا الفنّ مقرّون بأن أدلتهـم ظنيـة غاية الأمر أن بعضها أقرب الى الظنّ من الآخر و يشهـد له أنهـم كانوا مطبقين على تقدير بعـد الزهراء عن الشمس وعلى مقدار جرمها • ثم فى سنة ١٢٩٣ أرسلوا العارفين الى الجهات وحرروها فعرفوا أن جميع حساب السابقين خطأ محض وانها أقلّ من ذلك كله بعدا وجرما • ومن الجائز ظهور الخطأ فى هذا التحرير أيضا فى وقت آخر

وحيث كانت مسائل هذا الفن ظنية اختلف علماؤه فى أسباب وجود الليـل والنهار واختلاف الفصول بالحرّ والبرد بعد الاجماع على أن ذلك من آثار تقابل الشمس والأرض فقد كان علماء الهيئة فى غابر الأزمنة على ماوصل الينا يدرسون فى مدارسهم و يعلمون تلامذتهم هـذه الهيئة الجديدة المعروفة الآن • فقد كان (فيثاغورس) الفيلسوف الشهير يعـلم تلامذته فى مدرسـة (كروتونيا) من بلاد ايطاليا على طريقة حركة الأرض وذلك قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام بمدّة خمسمائة عام معتقدين أن هذا المرئى الذى نسميه سماء أوفلـكا هو فضاء واسع وزرقته ناشئة من اكتناف الأشعة الشمسية للأجزاء الأرضية وأن الـكواكب الثابتة فى ذلك الفراغ عبارة عن شموس كشمسنا هذه وكل شمس حولها سيارات كسيارات شمسنا وأقمار كقمرها وذوات ذوائب كما حول شمسنا وكل واحد من هذه السيارات والأقمار وغيرها عالم مثل كرة أرضنا ومن جملة هاتيك الشموس هذه الشمس المشهورة ولها دائرة مخصوصة بها وعدّة متعلقات تدور حولها من السيارات

ومن جملة السيارات الدائرة حولها هـذه الأرض التى نحن عليها والقمر ملتزم لها ويدور عليها ومعها على الشمس وفوق ذلك صفوف دوائر شمسية متكاثرة بعضها فوق بعض الى حيث لايحيط به النظر ولايدركه الفـكر ــ ومايعلم جنود ربك إلا هو ــ فالسموات عندهـم عبارة عن هذه الدوائر بما فيها من الـكواكب الـكبيرة • ولما شاعت هذه الطريقة فى زماننا هذا وأراد العلماء تطبيقها على ماثبت عندهـم من ظواهر الشريعـة من كون السموات سبعة قالوا معلوم أن الـكواكب الثابتة سبع طبقات فما كان منها يرى فى غاية الظهور والاضاءة فهو الطبقة الأولى و يقال لها المرتبة الأولى والقدر الأوّل وما كان أبعد منها غـير كثير وأقلّ فى الظهور والاضاءة بمقدار يسير فهو الطبقة الثانية وهكذا الى الطبقة السادسة كل طبقة ترى كواكبها أبعد عن التى قبلها وأقلّ منها ظهورا واستنارة والطبقة السابعة هى التى خفيت كواكبها فلاترى إلا بالمنظرة المعظمة فهـذه الطبقات هى طباق السماء وفى قوله تعالى ــ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ــ قالوا السماء الدنيا عبارة عن الدوائر الشمسية التى نحن فيها المزينة بما احتوت عليه من السيارة وسيارة السيارة وذوات الأذناب وغيرها من متعلقاتها الى نحو ذلك من التأويلات التى شرحها علماؤهم وكم ورد عليهم من اعتراض وكم أجابوا عنه • وقد رأيت فى بعض رسائل العلامة المرحوم عبدالله باشا فكرى أن تلك المباحث مستوفاة التفصيل فى كتاب ﴿أسرار الملك والملكوت﴾ وشرحه الموسوم ﴿بأفكار الجبروت﴾ والشرح المذكور فى دار السلطنة السنية وهو باللغـة التركية ومتنه بالعربية • ثم ان هذه الطريقة كما قدّمنا هى التى كانت سارية فى

أنحاء المعمورة بين علمائها مستفيضة بين خاصتها وعامتها حتى جاء (بطليموس) قبل الميلاد بمائة وأربعين سنة فاختار القول بسكون الأرض ودورة الشمس عليها و بنى مذهبه على ذلك فشاعت قاعدته بين الناس واشتهرت فى البلاد

ولما جاء الاسلام وترجمت الكتب اليونانية الى اللغة العربية نقلها الفارابى من فلاسفة الاسلام فى مؤلفاته العربية أوائل القرن الرابع من الهجرة وتبعه ابن سينا وغيره فمن جاء بعده وهجرت الطريقة المتقدمة التى كان عليها (فيثاغورس) وقد قال هؤلاء العلماء ان السموات أجسام متراكبة بعضها فوق بعض كطبقات (البصلة) متماسة ولاتقبل الخرق ولا الالتئام وليست حارة ولاباردة ولارطبة ولايابسة ولالون لها ولاتوصف بلين ولاملاسة ولاخشونة ولاخفة ولاثقل

و بالجملة فهى أجرام أثيرية شريفة مخالفة للأجسام العنصرية الارضية فى جميع أوصافها وهى التى تدور الحركة اليومية والكواكب تتحرك معها قسرا وللسيارات حركة أخرى مخالفة لحركة السموات أى ان السموات تدور من المشرق الى المغرب وتلك الكواكب معها ثم الكواكب لها حركة أخرى تدور بها من المغرب الى المشرق كنملة على دولاب تسير متجهة الى غير جهة حركته و بهذه الحركة المخالفة تكونت الفصول والسنون وانتظمت أحوال العالم ودون ذلك فى كتب المتقدمين

ولما شاعت هذه الطريقة بين علماء الاسلام أخذ بعضهم فى تطبيقها على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وسكت عن ذلك فريق وفريق كفر القائل بذلك المذهب ثم برهن محققوهم كالغزالى وغيره على أن هذه لاتصادم الدين وأن من اعتقد ذلك فقد جنى عليه وضل سواء السبيل وأضل الناس فان الدين لاينفى ولايثبت • وكما أن من يقول انّ الله خلق (البصلة) ست طبقات أوسبعا أوثمانيا وانها كروية أومثلثة أو مربعة لانكفره كذلك لانكفر من يبحث فى العلويات إذ كلها من مخلوقاته عزوجل ولم تذكر إلا للاستدلال على صانعها والدلالة واضحة على كل حال وعلى أى شكل وكثير من علماء الكلام كانوا يناضلون الفلاسفة ويخطؤنهم ويضللون فهمهم حتى قال العلامة الفخر الرازى ان الأقرب للقرآن أن تكون الكواكب سابحة فى السماء كما يسبح السمك فى البحر وأدحض حجتهم فى قولهم أن الخرق والالتئام مستحيل على الفلك واستدل بقوله تعالى ــ كلٌّ فى فلك يسبحون ــ وكان بعضهم يعرف الطريقة المستفيضة الآن و يقارن بين الطريقتين و يميل الى هذه الطريقة كما سيظهر قريبا ثم نبغ ببلاد لهستان رجل يقال له (كوبرنيكوس) تمهر فى العلوم الرياضية واشتغل بالهيئة والرصد والحكمة من سنة ١٥٠٠ الى سنة ١٥٣٠ من الميلاد وهى سنة ٩٣٧ من الهجرة فرجع الى الطريقة التى كان عليها (فيثاغورس) المؤسسة على حركة الأرض وقرر أن الشمس مركز وأن الأرض والسيارات تدور حولها فأولا عطارد ثم الزهرة ثم الأرض ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل وأيد هذه الطريقة بأدلة وأشهر ذلك فى كتاب له عنوانه ﴿حركات الأجرام السماوية﴾ فحكم عليه فى مجمع كنيسة رومة بالزيغ والالحاد ولوأمكنهم قتله لقتلوه ونهوا عن اشهار كتابه ومع ذلك شاع هذا المذهب فنسب اليه وقيل هيئة (كوبرنيكوس) ثم قام بعده جماعات فى جهات متعددة وأزمان مختلفة فى أنحاء أوروبا وعولوا على هيئته وسموها بالهيئة الجديدة وسموا التى قبلها بالقديمة • وأنت ترى من هذا أنها فى الحقيقة هى القديمة وأن تسميتها جديدة بحسب ماشاع وظنه كثير من الناس خطأ محض وجهل بتاريخ علم الهيئة والطريقتان مذكورتان مستفيضتان فى الكتب الاسلامية وقد ذكرهما العلامة عضدالدين عبدالرحمن ابن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ من الهجرة فى كتابه المسمى بالمواقف وأورد على طريقة دوران الأرض اعتراضات ثلاثة ثم كر على تلك الاعتراضات بالنقض والرد وجرى معه على ذلك شارحه العلامة السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ فى شرحه وكان فراغه من تأليفه سنة ٨٠٧ فليراجعه من أراد وليتأمل

البصير

البصير كيف كان علماء الاسلام يدرسون الطريقتين ويعرفونهما حق معرفتهما قبل أن يظهر (كوبرنيكوس)
ويدعي البعض أن ماتلقفوه من أفواه أساتذتهم من الافرنج تقليدا لهم مخترع من عندهم لم يسبقهم به أحد وهكذا نسبة كثير من المسائل اليهم مع أنهم فى الحقيقة ناقلون عن غيرهم ويدعون أنهم هم السابقون فليتأمل المنصفون • راجعي تاريخ العلامة (سديو) المؤرخ الشهير الفرنساوى • تعلمى الحجج الدامغة التى أقامها على أن أكثر الاختراعات لبنى جنسه كذب محض وأنها فى كتب العرب من قبل • فقالت له قد طال الكلام فى هذا الموضوع فما رأيك • فقال انى قدمت الأسباب الى رأيى فى صدر هذه المقالة وأزيده الآن وضوحا فأقول • إنّ الله عزّ وجل فطر كل مخلوق على فطرة تناسب احتياجه ولو نظرنا لجميع الحيوانات التى على وجه الأرض وكذا الانسان لوجدنا كل فرد منها يعلم مايحتاج اليه حق العلم ويجهل ماعداه لطفا من الله تعالى به • ولما كانت الكواكب والأفلاك لانحتاج منها الا الى القوانين الحسابية أظهرها لنا اللطيف الخبير بالبراهين القاطعة ولم يحم وطيس الخلاف بين الأمم فى الأزمنة المختلفة فيها والخلاف فيها يسير جدّا لايهدم أصلا من الاصول • أما معرفة أجرام السماء وسكانها وهل الأرض التى تدور أم الشمس فجهلنا به وعلمنا سيان لا يتوقف عليه أمر من أمور معاشنا لما ثبت بالبرهان أن الحساب لايختلف سواء اعتبرنا الأرض هى الدائرة أم الشمس

ومن عجيب الأحكام أن أدلته ظنية فعظم الخلاف بين الطائفتين بالاثبات والنفى وكأن الله أراد أن يرينا أن أقرب شئ الينا جهلناه • وياللعجب كيف نجهل حالنا مع أرضنا • أنحن مقيمون أم ظاعنون • ومستقرّون أم متحركون • وذلك مصداق لقوله عزوجل — وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم — فكم من شئ جهلناه وهو قريب منا كمسئلة الروح فقد احتدم فيها الوغى بين العلماء فى كل عصر ولم يهتدوا الى الآن وماعلم الهيئة إلا كعلم الطب فانه ظنى أيضا • فقالت الفتاة • لقد بنيت كون الهيئة علما ظنيا على أنه ليس مما يحتاج الى تحقيقه فى المعاش والمعاد وعلى قياسه على الطب وأنا أحتج على أن المسألة يقينية بما رأيته فى كتب القوم من البراهين فلا أسلم أن علم الهيئة ظنى • فقال اختصرى فى البراهين فالوقت لايسع والقصد أن يكون مجلسنا نبذا لطيفة وأثمار علوم لا جدليا • فقالت استدلوا أوّلا بأنه لايصح دوران الجسم الأكبر حول الأصغر فالعكس هو الطبيعى • (ثانيا) كل نجم يدور حول نفسه فكذلك الأرض • (ثالثا) تغير ظل الأرض وقت الخسوف على سطح القمر بهيئة تدل على أنها دائرة وظلها تبع لها (رابعا) ذبذبة البندول فقد وضعوه وضعا بدقة لايتأثر بمؤثر خارجى عليه فرسم خطوطا تتقاطع وتكوّن رؤسها أقواسا تطول كلما قرب البندول من القطبين وتقصر كلما قرب من خط الاستواء وفيه يكون على خط مستقيم دائما (خامسا) انهم وضعوا مقدارا من الزيت فى الكؤل وأداروه بإبرة فدار وتكوّر وتفرطح فى قطبيه الى آخر ما قالوا فلعلها مثله • فقال لها ابراهيم بعض هذه الأدلة أقيسة تمثيلية وهى لاتثبت حكما وبعضها مبنى على الاستبعاد وهما لايفيدان القطع ولكن باجتماعها أفادت الاقناع لا اليقين • فقالت الفتاة • هل القرآن ينافى هذا المذهب على فرض أنه يقين • فقال إن القرآن كلام الحكيم الذى أعجز جميع البلغاء والفصحاء ولم يكن القصد منه أن نشغل أذهاننا بتطبيقه على كل مذهب يحدث فى العالم وعقول الناس تتفاوت ولو طبقناه على هذا المذهب هل نأمن أن تحدث مذاهب أخرى فوجب أن يطبق عليها أيضا • كيف ولم تذكر العلويات فيه والكائنات الأرضية إلا ليعرف كمال الصانع بالصنعة • أما كون الصنعة دائرة أو ساكنة فذلك ليس محل بحثه وكم حاول العلماء تطبيقه على الهيئة التى أدرجت فى الأكفان مع أن كثيرا من ظواهر الألفاظ كان يخالفها حتى جاء اكتشاف الافرنج فأبطل المذهب السابق وظهر أن تلك المحاولة والتطبيق على المذهب البائد لم يصادف محله • على أن علماء الاسلام كانوا يضللون الفلاسفة السابقين ويخالفون مشاربهم بآرائهم الثاقبة حتى

وافقوا من قبل علماء الافرنج فى هذه الأيام . فقالت وهل تذكر شيأ من ذلك . فقال نعم

أوّلا نفس دوران الأرض فقد شم من كلام صاحب المواقف أنه يعتمده وهذا كان قبل أن يعرفها الافرنج

ثانيا كانوا يعتقدون النحس والسعد وخراب الدول وعمارتها من آثار العلويات

ثالثا عدم الخرق والالتئام فى الفلك

رابعا أن الأفلاك لها نفوس وإرادات

خامسا أن بعد الهواء كرة النار

وكل ذلك نقضه علماء الاسلام ووافقهم الافرنج فى هذه الأيام . على أننا لو أرخينا العنان للقلم ونظرنا فى القرآن لوجدنا مايشير الى الطريقة الجديدة وان لم يذكر فى كتب المتقدمين منها قوله تعالى ــ صنع الله الذى أتقن كل شئ ــ بعد قوله ــ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب ــ ومنها أنه قال ــ وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ــ فذكر الليل والنهار بعد ذكر الأرض يشير الى أنها من آثار الأرض ويقوّى ذلك أنه قال ــ يغشى الليل النهار ــ فجعل الليل الذى هو ظلمة الأرض يغشى به النهار الذى هو ضوء الشمس ففيه تلميح الى أن الأرض هى التى تحدث ذلك بفعل الله تعالى ومنها ــ والشمس وضحاها * والقمر اذا تلاها * والنهار اذا جلاها * والليل اذا يغشاها ــ فجعل النهار الذى هو فى مقابلة وجه الأرض للشمس مجليا لها والليل الذى هو الظلمة الأصلية للأرض مغشيا لها فأسند فاعلية ذلك لغير الشمس وهو الليل والنهار الذى هو من آثار الأرض وهذان الوجهان ذكرهما العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس التونسى ومنها قوله ــ وكل فى فلك يسبحون ــ بعد ذكر الأرض والقمر والشمس ومع ذلك كله فالقرآن لايعارض شيأ من هذه الأشياء على أننا لانحتاج لتأويل القرآن إلا لليقينيات وهذا ليس منها فان نوع بنى آدم لا يمكنه أن يحيط بشئ من علم الله تعالى إلا بما شاء وهل يشاء الله أن نعلم مالا مصلحة لنا فى علمه بل علم مثل ذلك ربما أضرّ بمصالح الانسان من حيث ولوعه بما هو بعيد عنه وربما يشغله عن أمور معاشه . بل الأغرب أن أحد العلماء الفرنساويين المتأخرين قال ماترجمته ﴿ ان للعقل حدّا محدودا لايتجاوزه فاتعاب العقل فى معرفة الأجرام العلوية وماهيتها كاتعاب البصر فى أن يرى مافوق السقف من أسفله . فهب انك أعنته بأعظم المرايا المكبرة فانه لا يمكن أن يخترق السقف حتى يرى مافوقه ﴾ ويناسب هذا ماصرّح به عالم الفرنساويين المسمى (فيلكس لاميروس) فى القرن التاسع عشر من قوله ﴿ إن الجذب كلمة يعلم منها الفعل لا السبب فان هذا المعنى بحث عنه الطبيعيون فلم يوفوه الخ ﴾ ماقال . فكلام هذين العالمين يؤيد ما قلنا من أن هذه ظنيات . أنظره فى كتابنا ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وسيرد عليك فيه أيها القارئ إن شاء الله تعالى أن كل حيوان له حدّ ومقدار فى المعارف لايتجاوزه ولاينقص عنه ولولا ذلك لاختل نظام العالم . ههنا انتهى الكلام على المقام الاوّل وهو دوران الارض وكرويتها

﴿ الشمس وشفاء الامراض ﴾

قبل الانتقال الى الكلام على ﴿ المقام الثانى ﴾ يحسن أن أقف وقفة معك أيها الذكى أريحك فيها من عناء الفكر وإتعاب الذهن بذكر بعض منافع الشمس فأنتقل بك من مسألة الدوران وما يتبعها الى منافع نورها فى صحة أجسامنا وتقوية قواها لنرى اتساع هذا النظام . فبينما نراها تقسم الفصول بقربها و بعدها ويحيا الحيوان وينمو النبات بها اذا بها تقوم مقام الادوية التى امتلأت بها الصيدليات التى يشقى بعض المرضى بها وكثير منهم تضرّه الادوية لعدم تحرّى الطبيب وجهله وقلة علمه وعدم احاطته بأطراف موضوع المرض وقد أجمع العلماء أن المعالجة بالامور البسيطة أفضل من المعالجة بالمركبة . والبسيطة مثل الهواء والماء والشمس فهاك ماقاله طبيب فاضل فى مقالة نشرها فى صيف هذه السنة (سنة ١٩٢٧ م) قال مانصه

﴿ الاستشفاء بنور الشمس فى المصايف ﴾

عند حلول فصل الصيف يؤم كثيرون من سكان المدن شواطئ البحار والجبال للاصطياف تمتعا بالراحة واستنشاق الهواء النقى لتصح أجسامهم وتستقيم صحتهم . ونظرا لحلول موسم الاصطياف هذا العام رأينا لفت نظر الجمهور وكل من يهمه الاحتفاظ بصحته وصحة عائلته وأولاده الى أن هنالك فائدة كبرى بل هناك كل الفائدة من تعريض الاجسام للشمس

ولما كانت الاشعة فوق البنفسجية وهى العنصر الفعال فى الطيف الشمسى لاتتوافر بكثرة إلا على الجبال وشواطئ البحار وفى الحقول وذلك نظرا الى صفاء نور الشمس ونقاوة الهواء فى الجهات المذكورة فان هذه الاشعة لاتتوافر تماما فى المدن حيث يضيع معظمها باختلاط نور الشمس برطوبة الهواء والغبار والابخرة

والبرهان المحسوس على ذلك أن مدّة قليلة يقضيها المرء فى الحقول أوعلى شواطئ البحار والجبال يجعل الجزء المعرض للشمس من جلده أسمر اللون فى حين أن الانسان لا تتغير بشرته لو تعرض للشمس فى المدن ولو كان ذلك مدّة طويلة

إن الحمام الشمسى مفيد جدّا اذا استعمل بالعناية التامّة مع مراعاة الارشادات التالية حتى يدرأ المرء عن نفسه ماعساه يتعرّض له من الضرر . أما طريقة تعريض الجسم للشمس فتكون بالكيفية الآتية

يجب أن يتلقى الانسان ضوء الشمس مباشرة على جلده من غير أن يجعل بينهما حائلا كالملابس والزجاج والحمام الشمسى يجب أن يعم الجسم ماعدا الرأس . فاذا تعذر تعريض الجسم كله لسبب من الأسباب وجب تعريض أكبر مسطح مستطاع منه

ويؤخذ الحمام الشمسى تدريجا لأنه اذا عرّض الجسم كله دفعة واحدة من أوّل مرة مدّة طويلة أصيبت الأحشاء بالاحتقان والبشرة بالتسلخ . ويؤخذ الحمام الشمسى كل يوم حتى فى الأوقات التى يكون فيها الجوّ ملبدا ببعض الغيوم . ويجتنب التعرّض للشمس فى الأوقات التى يكون فيها الحرّ شديدا كما يلزم تغطية الرأس بقبعة من القش واسعة الأطراف أو يستظلّ بمظلة فاتحة اللون مع وضع نظارات ذات زجاج ملوّن

وعلى السيدات أن يضعن شاشا ملونا على وجوههن وأن يلبسن قفازات منعا لتأثير نور الشمس واسمرار وجوههن وأيديهن . ولابدّ من اجتناب تيار الهواء

وتراعى فى الحمام الشمسى أمزجة الأشخاص بالنسبة الى السن ولون البشرة وحجم الجسم لأن الذكور والبدينين والسمر الألوان يتحملون حرارة الشمس وتعريض أجسامهم لها مدّة أطول من المدّة التى يتحملها الأناث والأطفال ونحيفو البنية وذوو البشرة البيضاء

وعلى من يريد الاستشفاء بنور الشمس أن يشرب كمية كبيرة من مياه الشرب أثناء ذلك . ويحسن أن يكون التعرّض مرتين كل يوم مرة فى الصباح بعد طلوع الشمس بمدّة قصيرة وقبل الفطور بنصف ساعة تقريبا ومرة أخرى قبل الغروب بنحو ساعة لأنه لوحظ أن الأشعة فوق البنفسجية تكثر فى الطيف الشمسى صباحا ومساء أكثر من وجودها وسط النهار . والمواعيد التى هى أكثر ملاءمة فى هذا الفصل هى مابين الساعة السادسة والتاسعة صباحا ومابين الساعة الخامسة والسادسة مساء والتعريض يكون بالطريقة الآتية

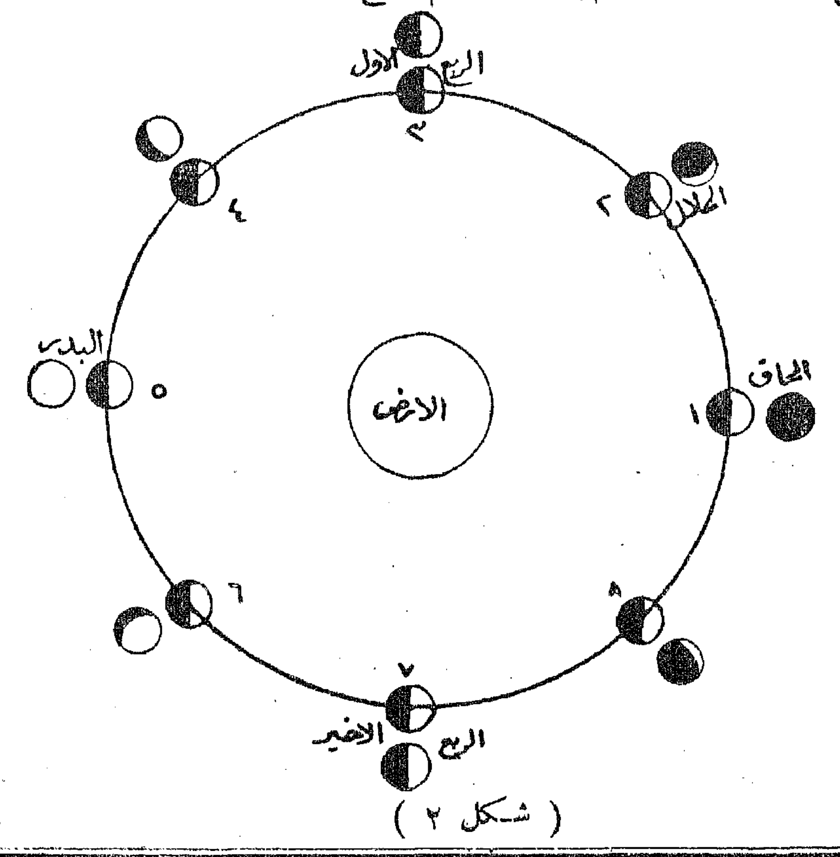
يضطجع الانسان فى الشمس ويغطى رأسه كما تقدّم وفى اليوم الأوّل يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه مدّة خمس دقائق . وفى اليوم الثانى يرفع ملابسه عن أطرافه العليا والسفلى . وبعد خمس دقائق يغطى ذراعيه وفخذيه وخمس دقائق أخرى باقى الأطراف . وفى اليوم الثالث يرفع ملابسه عن بطنه وأطرافه وبعد خمس دقائق يغطى بطنه وخمس دقائق أخرى يغطى ذراعيه وفخذيه وخمس دقائق ثالثة يغطى باقى الأطراف . وفى اليوم الرابع يرفع ملابسه عن جسمه وبعد أن يعرض صدره للشمس مدّة خمس دقائق

يغطيه ثم يغطى بطنه بعد خمس دقائق ثم ذراعيه وفخذيه بعد خمس دقائق أخرى ثم باقى أطرافه بعد خمس دقائق من ذلك ويعرّض ظهره مدة خمس دقائق • وفى اليوم الخامس يرفع جميع ملابسه عن جسمه ويعرّض عنقه مدة خمس دقائق ثم يغطيه وهكذا يوميا بالتدريج الى اليوم السابع الذى فيه يعرض المرء جسمه جميعه مدة ساعة من الزمن ويستمر بعد ذلك على هذا المنوال مدة ساعة أوأكثر حسب استعداده • والنتيجة المؤكدة لتعريض الجسم للشمس هى تنبيه القوى وتحسين الشهية للطعام وازالة فقر الدم وتنشيط الجسم الخامل وتنظيم الدورة الدموية وانعاش الجهاز العصبى واصلاح وظائف الاحشاء وابادة المكروبات التى قد توجد على سطح الجلد وتحسين وظائفه كأنها تضاعف الفعل الشافى للأدوية ومختلف طرق العلاج

هذا والفائدة التى تعود على من يستعمل الحمام الشمسى هى أعظم بكثير مما لواقتصر المرء على استنشاق الهواء النقى دون تعريض جسمه للشمس الأمر الذى دعا مصلحة الصحة العمومية لأن تجعل تعريض الاطفال لنور الشمس لوقايتهم من الكساح فى المقام الاول من نصائحها للجمهور المنشورة فى الصحف أخيرا مع العلم بأن الافكار اتجهت فى أوروبا وأمريكا وخصوصا فى ألمانيا لتعريض أجسام الاطفال اجباريا للأشعة فوق البنفسجية سواء كانت مباشرة من الشمس أومن الجهاز الصناعى لوقايتهم من مرض الكساح كما هى الحال عندنا فى التطعيم الاجبارى للوقاية من مرض الجدرى • ولذلك ننصح المصطافين سواء كانوا على شواطئ البحار أوعلى الجبال أوفى الحقول أن يهتموا بتعريض أجسامهم للشمس فى الصباح والمساء أكثر من أن يهتموا باستنشاق الهواء النقى فقط انتهى

﴿ تذكرة ﴾

تقدّم الكلام على الشمس والقمر فى سورة الأنعام عند قوله تعالى ـ واذ قال ابراهيم لأبيه آزر ـ وقد رسمت هناك صور الشمس وتوابعها ولم يرسم هناك القمر فوجب أن نرسم هنا وجوه القمر لأن ماهنا من الآيات مكملة لما هناك إذ جاء فى هذه السورة ماهو أوضح وسنرسم أيضا صور المجموعات الكوكبية والسدم ليكون المطلع على هذا التفسير قد ألمّ بجمال هذا العلم وفرح بالحكمة فهاك صورة أوجه القمر



(شكل ٢)

﴿ الكلام على المقام الثانى ﴾

(وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال فى بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس)

ستعجب أيها الذكى من هذه الجرءة وتقول أىّ مناسبة بين الرطل والاوقة والوقية والدرهم والقنطار وبين سير الشمس وقول الله تعالى ـ ولتعلموا عدد السنين والحساب ـ فى هذه الآية تتعجب وحقّ لك أن تتعجب منى أن أدّعى دعوى يصعب تصديقها بل لاتعقل ٭ وكيف يعقل أن الكيلة والربع والملوة والقدح والأردب فى بلادنا المصرية منسوبة لسير الشمس وأىّ عقـل يتصوّر ذلك ان الأردب ١٢ كيلة والكيلتان ويبة والكيلة الواحدة ربعان والربع ملوتان وستدهش من قولى لك ان الفدّان منسوب مساحته لسير الشمس فى السماء سيدهشك قولى وتقول أىّ مناسبة بين مساحة الفدّان وسير الشمس وآيات القرآن

كل ثلاثة فدادين (١٠٠٠) قصبة والقصبة ثلاثة أمتار و (٥٥) سنتمترا فأين الشمس هنا وأين القرآن

ثم إن الناس يقيسون الأثواب بالذراع البلدى المعروف وبالهنداسة وعندهم ذراع يسمى (الذراع النيلى) لا مناسبة بين هذه كلها وبين الشمس وآيات القرآن ٭ هذا مايخطر ببالك وقت كلامى فى هذا المقام

أما الجواب عليـه فهو وان كان يعرفك السبب فانه لايدفع العجب بل انك عنـد ماتعرف الحقيقة تزيد دهشا وعجبا ٭ فهاك ملخص ماسيأتى فى سورة الرحمن ألخص لك منه ما يكفيك الآن وهناك يزيد الايضاح

إنّ الله يقول هنا ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل ـ لماذا ـ قدّره منازل ـ لتعلموا عدد السنين والحساب ـ إذن تقدير المنازل يعلمناعدد السنين ويعلمنا الحساب والحساب يدخله الكيل والوزن والمساحة المعبر عنها فى سورة الرحمن بالميزان إذ يقول هناك ـ والسماء رفعها ووضع الميزان ٭ ألا تطغوا فى الميزان ـ ٭ يقول هناك انى رفعت سموآتى ووضعت فيها الميزان بحيث يكون سير الشمس وغيرها بحساب لأجـل انكم لاتزيدون فى ميزانكم ولاتنقصون بل يكون الميزان حقا ٭ فهـذا هو قوله ـ وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان ـ هـذا كلام الله فانظر عمل الانسان قبـل أن ينزل القرآن بآلاف السنين ٭ عمد المصريون القدماء الى (الهرم الأكبر) فبنوه على مقياس مدار الشمس السنوى فجعلوا

(١) محيط (الهرم الأكبر) جزأ من مليار من محيط مدار الشمس السنوى أى من ألف ألف ألف جزء منه

(٢) ارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض أى مليار

(٣) ضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم

(٤) فالارتفاع نفسه يساوى جزأ من مليار من البعد بين الشمس والأرض

(٥) ضلع الهرم يساوى جزأ من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية

(٦) الضلع المذكور يساوى (٤٠٠) ذراع بلدى أو (٣٦٠) هنداسة

(٧) الذراع البلدى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط أى من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية

(٨) ربع الذراع البلدى المكعب ألف درهم من الماء المقطر

(٩) وكل ١٢ درهما أوقية وكل ١٢ أوقية رطل فالرطل ١٤٤ درهما والقنطار مائة رطل ثم ان المقاييس منها عشرى ومنها اثنا عشرى

(١٠) الأردب ذراع بلدى مكعب (١١) الأردب إذن جزء مكعب من (٤٠٠) من الضلع المذكور أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية

(١٢) الفدّان (١٠٠) هنداسة فى (١٠٠) هنداسـة تساوى (١٠٫٠٠٠) عشرة آلاف هنداسـة

فطوله مائة وعرضه (١٠٠) فهو نسبة عشرية ۰ والهنداسة جزء من (٣٦٠) جزأ من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية

(١٣) الذراع النيلى ٥ من ٦ من الهنداسة فيكون ضلع الفدّان (١٢٠) ذراعا نيليا والفدّان (١٤٤٠٠) ذراعا نيليا ويكون القيراط (٦٠٠) والسهم (٢٥) والدانق (١٠٠) فالذراع النيلى والهنداسة كلاهما يحسبان الفدّان (١٠٠ فى ١٤٤) يساوى (١٤٤٠٠)

هذا هو الذى فعله قدماء المصريين ۰ أنظر كيف يقول الله ـ لتعلموا عدد السنين والحساب ـ وانظر كيف كان نفس هذا السرّ هو الذى صنعه قدماء المصريين كيف علموا أنه لن يستقيم لنا وزن ولا كيل ولا مساحة إلا بنسبة محفوظة وعلموا أن أرضنا ليس بها شئ ثابت فلم يروا أثبت من مدار الأرض حول الشمس فى مدارها السنوى الذى هو مدار ظاهرى للشمس حولها ۰ علموا ذلك فبنوا الهرم الأكبر على مقتضاه حتى اذا تهدّم رجع الناس الى الدائرة الفلكية فقاسوها واذن يصححون مقاييسهم

هذا كلام الله وهذا سرّه الذى ظهر على يد قدماء المصريين قبل نزول القرآن بآلاف السنين وهذا أعجب العجب ۰ إنّ الفرنسيين لما أرادوا أن يجعلوا لهم وحدة حاولوا أن يصنعوا ماصنعه قدماء المصريين ۰ فماذا فعلوه قاسوا درجة أرضية كما فعل الفلكى المصرى المتقدّم ذكره هنا ثم ضربوها فى (٣٦٠) درجة التى هى الدرجات لكل دائرة وجعلوا ذلك (٤٠٫٠٠٠) أربعين ألف كيلومترا أو (٤٠) ألف ألف متر وقالوا إن المتر الواحد جزء من (٤٠) مليون جزء من محيط الكرة الأرضية ۰ وعليه أخذ الناس يقيسون به ثم بعد ذلك علموا أن محيط الكرة الأرضية لم يكن قياسه مضبوطا بل هناك خطأ والانجليز نظروا نظرة أخرى فانهم عندهم (الياردة) التى هى أقلّ من المتر فهى نحو (٩١) من مائة من المتر هم أيضا حاولوا الرجوع الى نظام الطبيعة فجعلوا الياردة هى المقياس لأنها عبارة عن طول الساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة الذى يتحرّك مرة واحدة فى الثانية ۰ إن رقاص الساعة ان طال قلت حركته وان قصر أسرعت فهذا الرقاص الذى يتحرّك مرة واحدة فى الثانية هو الذى جعلوه مقياسا وانما أوردت لك فعل الفرنسيين والانجليز لتعلم وجهة النوع الانسانى فانهم جميعا يريدون أن تكون مقاييسهم على نظام ثابت وأى ثبات لغير النظام العام فالاوروبيون رجعوا للعالم الأرضى ونظامه وقدماء المصريين رجعوا لدائرة الشمس ۰ ثم إن الفرنسيين نسبوا جميع المكاييل والموازين الى المتر كما فعل قدماء المصريين سواء بسواء

ههنا عرفت الحقيقة وأدركت سرا من أسرار القرآن ۰ وههنا يتبدى لك العجب الأكبر ۰ ألا ترى الى قوله تعالى فى هذه السورة ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ ۰ أليس من الآيات التى أظهرها الله على أيديهم وغفل عنها أكثر الناس قبل زماننا ماذكرته لك الآن فى الهرم وبنائه ۰ أليس الهرم محلا تدفن فيه جثث أحد الفراعنة وان لم يكن فرعون موسى ۰ وسترى فى هذه السورة أنهم وجدوا صورة البروج مرسومة على تابوت أحد القدماء من المصريين كما سأوضحه هناك ۰ فالله أبقى جثث الفراعنة وألهم علماءهم أن يضعوا أسرار السموات على تلك الأبدان تارة بالرسم والتصوير كما ستراه فى هذه السورة ۰ وتارة بالأبنية التى أسست على نظام السموات وسير الشمس

إن هذه هى الآيات التى وبخ الله العالم الانسانى على جهلها فقال ـ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ ۰ ذم الله الناس على التغفل عن علوم قدماء المصريين التى دوّنوها على توابيتهم أو بمبانيهم وهندستها كما عرفت فى الهرم ۰ هذا هو السرّ المكنون ۰ وهذا هو العلم المخزون ۰ وهذا من أجلّ أسرار القرآن ۰ وليس التوبيخ قاصرا على المسلمين بل يعم الناس كلهم كالفرنسيين والانجليز الذين أسسوا موازينهم ومقاييسهم على نظم ليست أدق من نظام قدماء المصريين ۰ فياليت شعرى كيف يعيش المصرى

المسلم

المسلم ويموت وهو يجهل أن الكيلة والذراع البلدى ومساحة الفدان منسوبة للهرم ولسير الشمس . أم كيف يعيش المسلمون ويموتون وهم لايعلمون أن هذا قد جاء فى القرآن وأن موازين المصريين ومكاييلهم قد ذكرها فى القرآن وهى له معجزة وأىّ معجزة . اللهم إن المسلمين قوم اليوم نيام وقد آن استيقاظهم وأقبلت أيام مجدهم — ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز —

﴿ تذكرة للأمّة المصرية وللأمم الاسلامية ﴾

قد كنت وعدت فى سورة الأعراف أن أكتب فى هذا المجلد ماكتبته لمجلس النوّاب المصرى ومجلس الشيوخ والوزارة فى شأن التعليم فى المدارس المصرية أيام الاحتلال الاوروبى فان هذه الآية جمعت العلوم التى يجب أن يعرفها المسلمون ولايحرمون من علوم القرآن التى تمتع بها أهل أمريكا واليابان والصين وأوروبا لحسد الاوروبيين لنا خيفة رجوع مجدنا فعلينا الآن لما رجع التعليم الى حظيرة الوطن وردّت بضاعتنا الينا أن ندرس العلوم كلها . وهذا نص المذكرة

﴿ مذكرة لاصلاح التعليم الثانوى بالمملكة المصرية ﴾

(قدّمت الى أصحاب المعالى رئيس مجلس الشيوخ ومجلس النوّاب ووزير المعارف)

(١) لكل جماعة متحدة من الطوائف الانسانية صفات خاصة تشملهم وأحوال معلومة تجمعهم وتثبت وحدتهم وتصون ألفتهم . فاذا انتفت تلك الصفات أونقصت زلت قدمهم وزالت وحدتهم فتفرّقوا شذر مذر وهم غافلون

(٢) إنّ أقوى دعائم الوحدة ما يتعلمه الطلاب فى المدارس العامّة من العلوم فان أواصرها تربطهم وتجمع الأبناء فى ساحة الآداب والكمال

(٣) ليس التعليم الابتدائى بمغن فتيلا فى هذا المضمار . كلا بل هو ممهد لما هو أعلى مراما وأثبت نظاما . وكذلك التعليم فى المدارس العالية فانما هو لاختصاص الطلاب فى أمور عملية . ان مدرسة الطب والصيدلة لمداواة الانسان . ومدرسة البيطرة للحيوان . والزراعة لنظام الحقول . والحقوق والقضاء للفصل فى المخاصمات . والهندسة للريّ وللبنيان . والحربية والشرطة لحفظ الثغور ونظام الجمهور

(٤) فاذن التعليم الذى يشترك فيه أبناء الأمّة ويحفظ وحدتهم ويوسع مداركهم العامّة هو التعليم الثانوى وعليه المعوّل فى الأمم الراقية الآن وفى مصر قبل نحو ٣٥ سنة وماعداه فاما ممهد له واما صناعات عملية

(٥) فلننظر نظرة عامّة فى مدارسنا المصرية الثانوية . انها خالية من العلوم التى بها الحياة فليس بها علم النبات ولاعلم الحيوان ولاخلاصة من تشريح الانسان ولانبذة فى علم الهيئة . الطالب فى الثانوىّ لا يدرس طبقات الأرض الضرورية للحياة ولامافى الجبال المصرية من المعادن ولا الأقوام الذين ولدوا المصريين وسكان السودان ولا أواصر القرابة التى تربطهم ولايعرف من تاريخ عظماء مصر قديما وحديثا إلا قليلا مبعثرا غير مشوّق لحب الوطن . لقد حدّثنى الاستاذ (ادوارد براون) الانكليزى المستشرق حينما زار مصر أيام اللورد كرومر قال ﴿ أرسلت لى حكومتنا البريطانية ثياب عشرات من رؤساء القبائل المجندلين فى حرب التعايشى لأترجم الأوراق المحفوظة فيها فوجدت منها مايشابه الدولة العباسية خطا وانشاء . ومنها مايناسب دولة الأمويين ﴾ فعجبت كيف يعرفون قبائلنا ونحن عنها غافلون

(٦) إن الطالب فى الثانوى ليس لديه مايشوّقه للعلوم وهو يجهل مابين يديه وماخلفه وماتحته . يجهل طبقات الأرض ومعادنها إلا قليلا . ويجهل مافى داره من حيوان . ومافى حقله من نبات . ومافى جسمه من أعضاء . ودورة دموية . ودورة تنفسية . ودائرة عقلية . ومافوقه من نجوم لامعات . اللهم إلا تلك النبذة الضئيلة فى كتب الجغرافية . انه لايدرس نفسه . ولاهضم طعامه . ولا نظام الضياء والظلام

ولا هرّته التى يألفها . ولافرسه التى يركبها . ولا الزهرة التى يستحسنها و يشمها . إن التعليم فى الثانوى يحوّل العقول الى الخيال و يصرفها عن المحسوسات . وهو الذى صرف بعض الأذهان عن حقائق العلوم الى خيال الروايات وضياع الأوقات . إن حاسة البصر جردت من أكثر مدركاتها العامية فانصرفت النفس الى شهوتها إلا من لهم قدم فى الفضل ثابتة وجدّ عظيم . ومن أغمضت عينه عن المادّيات ناب عنها سمعه فاحتاج الى قائد كما للعميان . هكذا يفعل الغرب اذا نصح للشرقيين . لو كان التعليم الثانوى تاما كما فى البلاد الغربية أوكما كان فى مصر قبل الآن لكان ذلك نورا على نور الذكاء ولاظهر الذكاء المصرى فريدا

(٧) لولا الذكاء المصرى والاجتهاد الفردى والتعليم فى أوروبا وعموم الجرائد والمجلات والنهضة العلمية المصرية مارأينا فى البلاد نابغين ولاقادة ماهرين . لقد كان التعليم الثانوى شاملا فى مصر فى أوائل الاحتلال وقبله أكثر هذه العلوم المفقودة الآن . ولقد كانت مدّته خمس سنين وكانوا يدرسون العوالم المحيطة بهم ثم اعترى التعليم ما اعتراه بالتدريج وحرم أبناء النيل ارتشاف مناهل العلم بأصول الكائنات وجمال مصر وعجائب السودان وغرائب مافيه من المعادن والغابات

(٨) ان التعليم فى المدارس الثانوية ان لم تتوجه همم أصحاب الشأن وأولى الأمر بالبلاد الى ترقيته أصبح المهندس أوالقاضى أوكل من له رآسة عاقة فى الأجيال المقبلة فى دائرة محدودة من العلوم . يقول العلماء « البلادة خير من الفطانة البتراء » واذا كان الجهل شرا فشر منه نقص يدلى الى غرور . فأوّلهما جهل بسيط . وثانيهما جهل مركب تجعله الأمم المغيرة سلاحا لتقتل به الضعفاء ووسيلة لتغلب الأقوياء . فأما الأمم المستقلة فهى التى تراعى النظام التام وتفتح باب العلم واسعا ليهرع طلاب الثانوى شوقا الى العلوم . إن اتساع التعليم الأوّلى فى البلاد لايغنى شيأ عن التعليم التام . ان متعلما واحدا خير من آلاف الآلاف من المتعلمين تعلما أوّليا فهو رأسهم يقودهم الى طريق الفلاح . فاكمال التعليم الراقى لقوّاد الأمم ألزم لها من تعميم التعليم الأوّلى فى البلاد

(٩) لقد أدرك هذه الحقيقة فى مصر الاستاذ لمبير الفرنسى ناظر مدرسة الحقوق سابقا وظهر ذلك فى حادثته المشهورة بينه و بين وزارة المعارف إذ أبان لها ذلك النقص الشائن فى التعليم الثانوى قائلا انه لا صلة بين نقصه و بين الكمال فى دراسة الحقوق . وكيف يكون دارس الحقوق خاليا من مبادىء المنطق و بعض العلوم فكان جزاء ذلك الحرّ الشجاع أن قدّم استقالته وسافر الى ليون وأصبح أبا وأستاذا لطلاب الحقوق بفرنسا من المصريين اعجابا بذكائهم وهم مجدّون

(١٠) ان لم يغير هذا المنهج أصبح طبيعة راسخة وهيهات هيهات أن يغيره متخرجون فى مستقبل الأجيال . وكيف يعلمون غيرهم مايجهلون وكل امرىء بعلمه مفتون والغرور يعمى و يصم والناس أعداء ماجهلوا . فاليكم أيها القادة أوجه خطابى هذا موقنا أنه يوافق مقاصدكم النبيلة التى اتجهت أنظاركم اليها حتى نرى زهرة البلاد مقبلين على العلوم عاكفين على البحث والتنقيب فلانعود نسمع من أكبر تاجر للكتب فى مصر أن أبناء البلاد معرضون عن الكتب العلمية عاكفون على الأدبية ونحوها

ان المتعلم اذا أقفلت عين بصيرته العلمية فلم يعشق العلوم كان آخر عهده بها نيل الشهادة ويكون ذلك مفتاح الشره والحرص فيود لو تفتح له الحكومة خزائنها ليقضى منها لبانته ويكون عالة عليها وهو فى غرور . أما اذا انفتحت عين بصيرته بما ذكرناه من العلوم فانه يعرج بأمّته الى مراقى الفلاح واذا كانت مدارسنا الثانوية قبل عهد الاحتلال وفى عهده حافلة بهذه العلوم وكان المتعلمون نخر البلاد بها وكنا نتحسر على تلك الأيام

فما أسعد هذا اليوم اذا خاطب شيوخ الأمّة ونوّابها وحكوماتها الوطنيـة وثمراتها الناضجة أن أغيثوا البلاد وأنتم خلاصة الأمّة وقادتها وفيكم فطاحل المتعلمين والنابغين قبل فوات الفرصة وليدرس المنهج الثانوى

الذى كان فى مدارسنا قبل مسخه ولنزد عليه ماينا سب هذا الزمان حتى يقول أبناؤنا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا * وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وها أنا ذا قد أدّيت ماوجب علىّ ولهيئتكم الموقرة الرأى الأعلى

﴿ جوهرة سنية فى أن جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجلت فى هذه الحياة ﴾

اعلم أن الجمال على ﴿قسمين﴾ جمال يثيرفينا ما كمن من اللذات الحيوانية والشهوات الجسمية لداعية التناسل فهذا أدنى القسمين . وهذا نوع من العذاب المعجل فى الدنيا وذلك يشير له قوله تعالى ـ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ـ وكل جمال لاحظناه فى شجر أوزهر أوقصور أوحور فى هذه الحياة وكان قصارى أمره الشهوات الطبيعية أوالتملك أو ما أشبه ذلك فهذا قد شيبت لذته بالألم وجنته بجهنمه وسعادته بشقائه فاننا نفرق بين جمال بستان نملكه وآخر لانملكه بان الأوّل يخالط جماله تكاليف الملك وعذاب الحرص وحسد العدوّ وغيرة الصديق ومطالب نموّه ورعايته وحفظه بأن نسقيه ونقيم عليه الحراس وما أشبه ذلك

أما الذى لانملكه من تلك المزارع والبساتين وما أشبهها فان خطر بأنفسنا الموازنة بيننا و بين المالكين له وتحسرنا أوحسدنا فان ذلك من نوع العذاب . فأما اذا لاحظنا أنه كشجر البادية أوكالغابات العامّة فان ذلك الجمال لا ألم فيه يدعو لراحة النفس وسرورها وبهجتها على مقدار نصيبها من تعقل الجمال

ولذلك تجد أن لكل أمّة من الأمم الراقية حدائق عامّة و بساتين ومتنزهات تسرّ الجمهور . فتراهم يحرصون الحرص كله ألا تكون الأشجار مثمرة ولا الأزهار أرجة ذكية الرائحة . ذلك لتتمتع أبصار الجمهور ولاتتناوله الأيدى ولوأن هناك أثمارا مأكولة لحرص الناس على أكلها وتسابقوا الى نيلها ونسوا جمالها فتصبح تلك البساتين أشبه فى جمالها بالرجال عند النساء و بالعكس . فان جمال كل من الصنفين يدعو الآخر الى التناسل الداعى الى العمل فى الحياة والشقاء . إذن البساتين العامّة فى المدن جعلت لراحة الناس من مشاق الحياة وأسقامها وآلامها ونسيان مرائرها وسعيرها لخيل بينها و بين الشهوات البهيمية التى فرّ منها الناس الى الضواحى والخلوات . ألا ترى رعاك الله أن جمال الذكور والاناث انما هو طليعة الذرّية وماهو إلا كالحب يرمى به للطائر فيقع فى الشبكات . انه مقدّمات لنظام الأسرات لاغير وكلما ازداد سنهما وكبر بنوهما و بناتهما رأيت الحبّ تحوّل من الجمال الأدنى الى الجمال الأعلى جمال المعاشرة والمسابقة فى تربية الذرّية والتعاون والأنس والاشفاق بعد أن كانا فى مبدا التعارف لايلحظان إلا حمرة الخد وجمال الوجه واعتدال القدّ وطول الشعر ودعج العين ولعس الشفة وألا يفتر الثغر إلا عن لؤلؤ رطب أو برد أواقحوان . أصبحا لايذكران إلا صحة الولد واسعاده وتربيته وآدابه وقوّته وتعلمه وما أشبه ذلك من مطعمه وملبسه . فهذا كله دليل على أن الجمال فى الجنسين وسيلة لاتقصد لذاتها بخلاف جمال الحدائق العامّة والمتنزهات . فان الجمال هناك مقصود لذاته ولوخالطته الموادّ الشهوية كالفاكهة لرجع الى ماسئم الناس منه فى منازلهم وحياتهم الحيوانية . اذا عرفت هذا فأقم وجهك الى النجوم وانظر جمالها ولألاءها

﴿ الكواكب جنات عجلت للمفكرين ولكنّ أكثر الناس عنها محجوبون ﴾

يا سبحان الله و ياسعدانه . نظرت يا الله الى الأمم الأرضية المعذبة فأرحتهم بالحدائق فى ضواحيها وزرعت لهم فى الطرق أشجارا وجعلت لهم أوقاتا يسمعون فيها الموسيقى وهكذا . هذه لذات تكادتكون خالصة من الآلام ليريحوا نفوسهم من الأعمال الشاقة . فانظر ماذا فعل الله بعد ذلك . أقفل العيون وأقفل الجفون وأطفأ السراج الوهاج وأبرز النجوم وأشرقت الأرض بنور ربها فى الليالى المدلهمات وقال للحكماء وللعلماء هذه هى الرياض فتمتعوا فيها وانظروا معانيها أنتم اليوم فى حظيرتى فها كوها فانى

أعدت أممكم الرياض العامّة لرياضة العامّة • فهأناذا أعددت حدائق السماوية لرياضة الخاصة فأنسيتهم أسقام الحياة وآلامها أضعاف أضعاف ما أفعل مع العامّة • ان العامّة ألهمت الأمم أن يبدوا لهم ماهوأقرب لعقولهم وأدنى الى فهمهم فلم أخرجهم من سجن الحياة وذل المعيشة إلا لما هو أقرب اليها وهى البساتين العامّة فهى بساتين أرضية • أما أنتم أيها الخاصة الذين أعددتكم لجوارى والقرب منى بالعلم والحكمة فها كم رياضا جميلة واسعة هى مبادئ الجنات فهناك تلحظون عظمة الوجود • فلئن ابتهج العامّة والجهلاء بمنظر زهرة فى شجرة فأنتم تبتهجون بدل كل زهرة بكوكب مشرق فى ظلمات الليالى ترونه بأعينكم صغيرا وتلاحظونه بعقولكم كبيرا فبينما أعينكم ترسمه على شبكيتها كأنه ليمونة اذا عقولكم ترسمه أكبر من أرضكم وأعظم من شمسكم • وها أناذا أبحت لخيالكم أن يتصوّر مايشاء من الصور الحسان الجميلات فتتخيلون ماسمعتم عن الأرواح فى العلم الحديث من أنّ هذه الكواكب ربما كان فيها سكان وانهم أرفع مقاما من سكان أرضكم وأسعد حالا وأنعم بالا وأشرف منزلة وتتمنون اللحاق بهم لتعيشوا معيشة أهنأ وتسعدوا سعادة أكمل • فها أناذا ملأت خيالكم بجمال باهر من النجوم ثم فتحت الباب على مصراعيه لتتسابقوا الى الخيرات وتقولوا فلتكن أعمالنا مرضية وقلوبنا نقية حتى نسارع الى ذلك الجمال ونعيش فى باحات الكمال

أقول هذا هو البستان الذى زرعه الله للمفكرين من سائر أمم الأرض • وهذا البستان يجهله العامّة فى جميع الأمم ولايعقلونه • هذا البستان لا ألم فيه ألبتة • لجمال الحور الحسان فى هذه الحياة مشوب بالألم

أما جمال النجوم فانه مشوّق لما وراءه من علم وحكمة ودراسة • وكما أن جمال الحور الحسان داع للتناسل • هكذا هنا جمال النجوم داع لدراستها • فليقرأ الناس أقدار الكواكب وأبعادها وأنوارها فتصبح العقول ونحن على الأرض فى عوالم أرقى وأرقى ويعدّون المراصد فى الممالك فيشاهدون مشاهد تنسيهم لذة العقول الصغيرة على الأرض ويرون أن الضوء الذى يسير فى الثانية الواحدة مقدار (٣٠٠) ألف كيلومتر يحتاج فى وصوله الينا من بعض الكواكب التى نراها ليلا الى ثلاث سنين بل الى (٥٠) بل الى (١٠٠) بل الى (١٠٠٠) بل الى (١٠٠٠ر٠٠٠) ألف ألف • بل الى ستين ألف ألف سنة • وقد تقدّم هذا فى هذا التفسير فى مواضع مختلفة • وأيضا يرون اختلافا فى أضوائها كالاختلاف فى أبعادها • فاذا جعلنا ضوء شمسنا واحدا فهناك كواكب من هذه تكون أضوأ منها (١٠) مرات بل (٢٠) بل (١٠٠٠) بل (٨٠٠٠) ثمانية آلاف كالسماك الرامح بل أكثر بما لانعلم • وهكذا فى أقدارها بما لاحصر له

هذا مجمل مايفكر فيه المفكرون فى عالمنا • إنّ الله عزوجل جعل على هذه الأرض أناسا أرقى من الناس وهم المفكرون وفتح لهم باب الجنة فى هذه الحياة وهم على ﴿ قسمين ﴾ قسم فرح بتخيل الأنوار فى أضواء الكواكب وهذا لذته خيالية فهو إذ ذاك فى سلام وأمان من الهموم والأحزان ما دام على هذه الحال • وهذه الطبقة من الناس قد دخلوا فى اللذة الخيالية التى سيكونون فيها فى البرزخ بعد الموت • وقسم نظر فى علوم تلك العوالم ونفع الناس بها وأرشدهم وهذا أسعد ممن قبله • وللأوّل الاشارة بقوله تعالى هنا ــ وتحيتهم فيها سلام ــ • وللثانى الاشارة بقوله ــ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ــ

﴿ رياض الجنات التى أعدّها الله فى هذه الدنيا للعارفين وهيأها للمفكرين فى قوله تعالى ــ إنّ فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والأرض الخ ــ ﴾

لقد ذكرت لك كيف جعل الله للناس فى الأرض رياضا فى المدن وأعدّها للعلماء وللجاهلين وقد ذكرت لك بعض رياض الحكمة فى السموات • فلأرك فى هذه المقالة الرياض الغناء فى السموات التى كشفها الله اليوم وهيأها لمن بعدنا من الأمم الاسلامية ليكونوا بها عالمين

تعلم أيها الذكى أن أرضنا التى نسكنها قد عرف الناس مساحتها ووزنها و بعدها كما تقدّم فى سورة الأنعام

وأنها تابعة للشمس • وهناك سيارات أخرى معروفة مذكورة فى سورة الأنعام أيضا وللسيارات أقمار وكلها للشمس تابعات • وهناك أيضا النجوم ذوات الذنب التى يقول العلماء فى عصرنا انها كعدد السمك فى البحار وكلها دائرات حول شمسنا • وماشمسنا هذه العظيمة التى هى أكبر من أرضنا بنحو ثلثمائة ألف مرة وألف ألف مرة إلا احدى الشموس وهى من أصغرهنّ قدرا وتلك الشموس تعدّ بمئات ألوف الالوف فيقال انها تبلغ نحو (٢٤٢) ألف كوكب شمسى • كل هذا معروف فى هذا التفسير مرارا • فهذه الشموس كلها هى المكوّنة للمجرّة • والمجرّة يراها الناس بأعينهم كل ليلة صافية الاديم كأنها سائل لبنى أوكأنها تبن ولذلك تسمى عند العامّة ﴿طريق التبانه﴾ وعند الانجليز ﴿الطريق اللبنى﴾ وعند علماء الدين ﴿أبواب السماء﴾

هذه هى المجرّة التى شمسنا واحدة من شموسها وهى ترى واضحة ظاهرة كما قلت لك فى ليلة ليس فيها سحاب • يراها الانسان بعينه معترضة السماء من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى والناس لايعلمون عنها شيأ ولم تعلم حقيقتها حقّ علمها إلا قريبا فقد كنا منذ نحو (٤٠) سنة ونحن بطلب العلم فى دار العلوم نتلقى عن أساتذتنا فى الفلك أن الشموس التى أمكن معرفتها فى تلك المجرّة لاتزيد على (١٨) ألف ألف شمس • أما الآن فقد عرف العلماء منها أكثر من (٢٤٢) ألف ألف شمس • وربما كان لكل شمس سيارات وتوابع • هذه هى المجرّة التى شمسنا واحدة من شموسها • وما هذه المجرّة إلا روض واحد من رياض الله التى زرعها فى هذا الجوّ الفسيح المملوء من الأثير فهاك ما تلقيناه عن أستاذنا المرحوم حسن أفندى حسنى الذى هو أستاذنا فى هذا العلم ثم أتبعه بما عرفه العلماء فى عصرنا لترى الرياض الزاهرة والجمال الفتان فى السماء لتعرف معنى هذه الآية • وهذه صورة المجرّة

هذه هى الروضة الكوكبية التى شمسنا شجرة من أشجارها وأرضنا غصن من أغصان تلك الشجرة ومصر ورقة من أوراق ذلك الغصن • والقاهرة ذرّة من ذرّات الورق وسكانها وأنا منهم نعيش حول تلك الذرّة الصغيرة ونحن الى الله ذاهبون • وكما أن القاهرة بلدة مما لاعدّ له من البلدان فى الأرض • هكذا المجرّة ماهى إلا روضة واحدة من رياض لاحصر لها فى هذا الجوّ الفسيح • وقد قسموا تلك الرياض

(شكل ٣)

البهجة فى السماء الى ﴿ثلاثة أقسام﴾ قسم منها يسمونها (القنوان) التى يمكن تحليلها بالنظارات الى جملة نجوم وتسمى مجموعاته كوكبية • والقسم الثانى يسمونها (القنوان) التى يمكن تحليل جزء منها الى نجوم بالنظارات • والقسم الثالث يسمونه (سدام) لا يمكن أقوى النظارات تحليله • هذه هى الأقسام الثلاثة التى اصطلح عليها العلماء • والقنوان جمع قنو فكأن النجوم فى هذين القسمين قنو النخلة أوعنقود العنب ومن القسم الأوّل جملة الثريا الموضوعة فى صورة الثور وهى مركبة من (٨٠) نجمة تقريبا ستة منها ترى بالعين المجرّدة • والسدام جمع سديم وهو فى اللغة السحاب الرقيق وفى اصطلاح الفلكيين سحابة أوضباب

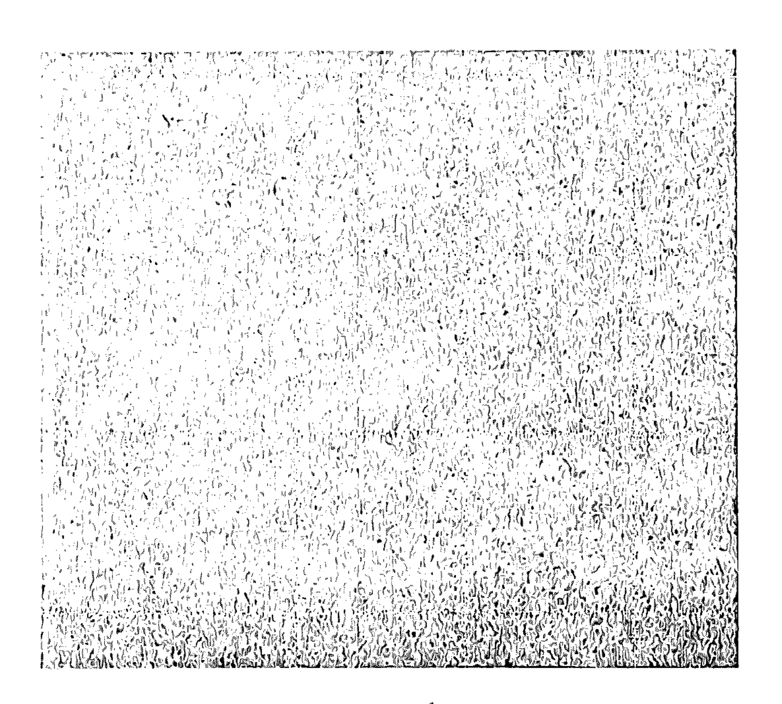
أوقطعة نيرة سحابية لاتنحل الى نجوم منفردة بالنظارات القوية

﴿ المجموعات الكوكبية ﴾

تظهر المجموعات الكوكبية بشكل مستدير غالبا حتى يظن فى مبدأ الأمر انها من ذوات الأذناب ولكن عدم تغير شكلها وعدم تحركها يميزانها عن ذوات الأذناب . والنجوم المتكونة منها المجموعات الكوكبية تظهر فى جهة المركز أكثر عددا مما فى الأطراف وقد حسب المعلم (هرشل) أن بعض هذه المجموعات التى شكلها كروى لاتشتمل على أقل من (٥٠٠٠) نجمة منضمة الى بعضها فى سعة قطرها الظاهرى لايزيد عن عشر قطر القمر . وأشهر هذه المجموعات قنوتوكان وهى فى السماء الجنوبى وترى دائما بالعين العارية (شكل ٤) والجزء المركزى منها ذولون أحمر برتقالى ناتج

﴿ شكل ٤ ﴾

ومثل هذا القنو ماهو مبين فى شكل ٦ (رسم قنولوكان . شكل ٥)

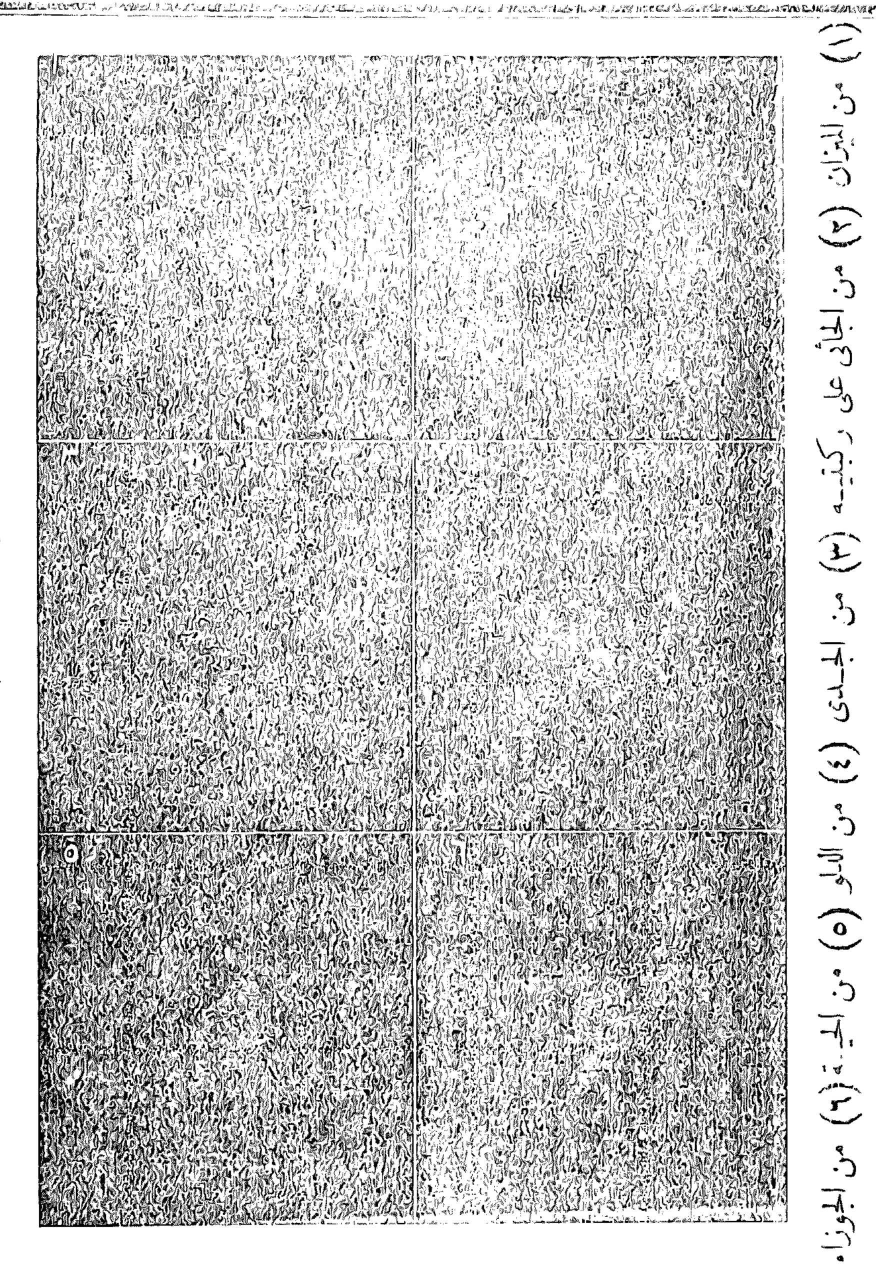


(شكل ٥)

﴿ القسم الثانى السدام التى يمكن تحليل بعضها ﴾

السدام التى ينحل جزء منها تظهر فى الغالب على شكل منتظم قليلا أوكثيرا ولاشك فى أن هذه المجموعات هى من المجموعات الكوكبية غير أنها موضوعة بعيدا جدّا أو أنها مركبة من نجوم صغيرة جدّا يمكن تحليل بعضها بالنظارات و بعض السدام ذات الشكل المنتظم مستدير و بعضها بيضاوى و بعضها ناقص مطاول جدّا يقرب من المستقيم (شكل ٧) و بعض السدام البيضاوية حلقى كما يرى فى (شكل ٨) وأحيانا ترى نجوم على نفس الحلقة

(١) من الميزان (٢) من الجاثي على ركبتيه (٣) من الجدي (٤) من الدلو (٥) من الحية (٦) من الجوزاء

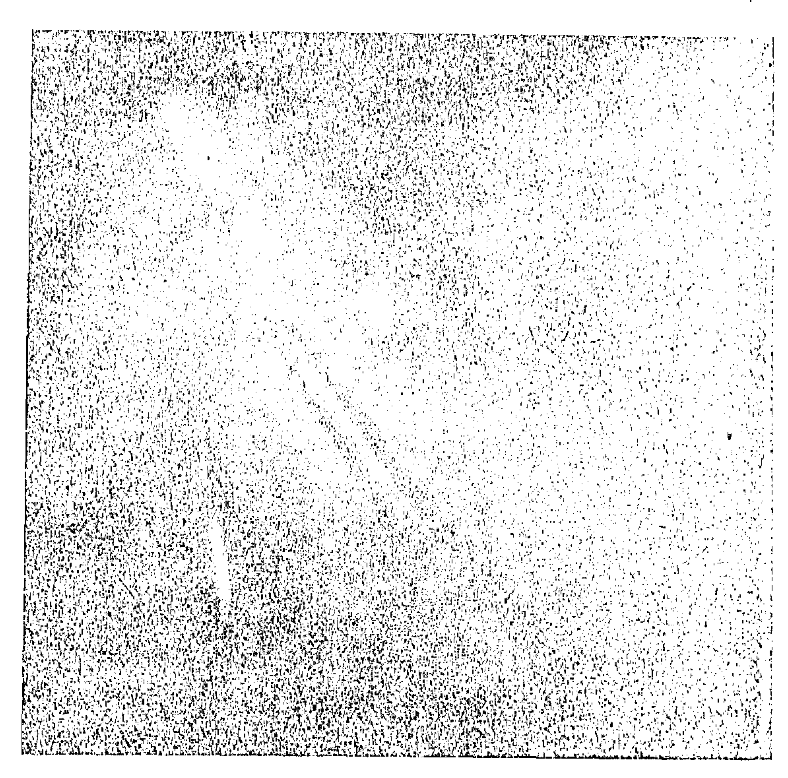


(شكل ٦)

(شكل ٧)

ومن ضمن السحابات المنتظمة ما شكله مخروطى أوكشكل ذات الذنب . ويمكن أن يكون انتظام الشكل مترتبا على قوة الآلة بحيث ان الانتظام لا يكون إلا ظاهريا فعلى رأى (هرشل) تظهر سحابة كلب الصيد مثلا على شكل حلقة مضاعفة فى نصف دائرها وفى وسط الحلقة توجد سحابة لامعة جدًا وخارجا عن الحلقة على بعد منها توجد سحابة صغيرة مستديرة

(القسم الثالث) السدام الغير المحاولة ذات الشكل غير المنتظم . توجد سدام لايمكن أقوى الآلات حلها وهى سدام الرتبة الثالثة . وهذه السحابات تظهر عموما بشكل غير منتظم وذلك كسديم المرأة المسلسلة (شكل ٩) والسديم الحلق الناقص للأسد (شكل ١٠)



(شكل ٨ – سديم المرأة المسلسلة)



(شكل ٩ – سديم الأسد)

وهذا

وهذا القسم الثالث وهو السدام لم يعلم منه العلماء أيام تلقينا هذا العلم منذ أربعين سنة إلا خمسة آلاف فقط فهذه ترى كأنها سحاب أوضباب ولكنها ليست واضحة وضوح المجرة • أما الآن فهاك ما قاله الدكتور (هبل) يقول انه رأى فى ألواح التصوير المتصلة بالتلسكوب الأكبر الذى قطر مرآته (١٠٠) بوصة نحو (ألفى ألف) أى مليونى سديم يبلغ بعدها عنا (١٤٠) مليون سنة • ومعلوم ان شمسنا يصل ضوءها لنا فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية وهذه المسافة يقطعها القطر فى نحو ٣٦٥ سنة وقلة المدفع فى نحو ١٢ سنة فانظر كيف يكون بعد تلك السدم التى لاتبعد بأقل من مائة وأربعين مليون سنة فتعجب

وهذه السدم منتشرة فى أبعاد شاسعة جدا يبلغ البعد بين الواحد والآخر منها (١٨٠٠,٠٠٠) سنة نورية • وفى كل سديم منها مادة تكفى لتكوين مليون شمس مثل شمسنا • ومعلوم أن شمسنا نجم من نجوم المجرة كما تقدم والمجرة نفسها سديم من السدام • فانظر أيها الذكى وتعجب

هذه هى الرياض الواسعة • هذه هى جنات العلم والحكمة • أرضنا صغيرة وحدائقها و بلدانها و بحارها حقيرة وشمسنا صغيرة ومجرتنا إحدى المجرات والمجرات بلغ المعلوم منها اليوم نحو ألفى ألف

ياسبحان الله وياسعدانه • نحن محبوسون فى الأرض هذه الأرض الصغيرة • أما أنا فلا أرى فرقا بين المسجونين فى السجون و بيننا نحن على الأرض • فالمسجون يستروح بالأخبار عن أحوال أمته وأحوال حكومته و يتشوق لذلك وهو فى حجرة ضيقة والناس فى الخارج أحرار • هكذا نحن فى هذه المجرة الضيقة عشنا محكوما علينا بالبقاء فى الأرض الى الموت وقد حرمنا من الصعود الى السماء لنبتهج بتلك الشموس وأنوارها وسكانها وعجائبها ونفرح لأخبارها • وهذا قوله تعالى ـ يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ـ وقوله تعالى ـ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ـ

لاجرم أن الجنة ليست تحتنا بل هى فوقنا • إذن هى فى السماء (راجع مانقلنا من الأحاديث وأقوال العلماء فى سورة آل عمران) • أفلست ترى معى أن مثل هذا هو المقصود من قوله تعالى ـ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ـ • أفليس هذا هو النظر فى السماء • ترقب فى الليالى الصافية أديم السماء فترى قبة زرقاء جميلة المحيا بها مجموعات كأنها ضباب • وهذه المجموعات تبدو ضئيلة ثم بحث العلماء عنها فوجدوها نحو مليونين • سبحان الله إن البعد شاسع بين العالم والجاهل • الجاهل لايرى فى السماء شيأ والعالم يراها موطن الكرامة والحكمة والمخلوقات العظيمة • هذا هو ماتشير له الآيات التى نحن بصدد الكلام عليها فبعد أن ذكر الله ضوء الشمس ونور القمر والحساب واختلاف الليل والنهار قال ـ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الخ ـ فهاهو ذا سبحانه ذكر الاطمئنان بالحياة الدنيا والغفلة عن آيات الله وعدم الرجاء فى لقاء الله واستحقاق جهنم • كل ذلك بعد ذكر جمال السماء وكواكبها • فعلوم السماء فتح لأبواب الجنة والغفلة عنها فتح لأبواب جهنم لأن الانسان لايشتاق الى حياة أعلى إلا اذا علمها • إما باتباع الوحى واما به مع الدراسة العلمية كما أوضحناه غير مرة فى هذا التفسير

﴿ جوهرة فى اشراق نور العلم فى القلوب باشراق نور الكواكب ﴾

ها أنت ذا أيها الذكى رأيت صورة المجرة وصورا لعوالم أخرى غير المجرة ورأيت أن عالم المجرة والعوالم التى تشابهها تزيد على مليونين ورأيت كلام العلماء فى أبعادها التى بعدت جدا • ومعلوم أن كل ذلك تقريب فهاك الآن آخر ماوصل له نوع الانسان من العلم فما رأيته فاقرأه وانتظر غيره واقرأ علوم الأمم حولنا بعد أن تفقه ماذكرناه • أنظر الى المجرة التى رسمت هنا فى صورة (٣) ارجع البصر كرتين لها تجد انها هى التى فيها كواكب كثيرة منها شمسنا • ان المسافة التى يقاس بها البعد بيننا و بين الشمس التى هى كوكب

من كواكب هذه المجرّة نحو ٨ دقائق و ١٨ ثانيـة كما تقدّم بسير النور وقد عرفته بسير قلة المدفع وسير القطار فى الأرض فلا نعيده . نحن لانقيس بعد هذه المجرّة إلا تدريجا . اذا عرفت بعد الشمس منها فان بعد أقرب كوكب من كواكب هـذه المجرّة وهو (ألفا قنطورس) يبلغ بسير النور ثلثمائة ألف ضعف بعد الأرض عن الشمس أى ثلاث سنين ونصف سـنة نورية . فياليت شعرى ماذا يكون ذلك البعـد بالقطار أو بقلة المدفع مع العلم بأن النور يسير فى الثانية مايسيره القطار فى نحو ٤٥ سنة وماتقطعه قلة المدفع فى نحو سنة ونصف . ولننظر نظرة عامّة فى المجرّة فنقول

يقول علماء عصرنا لنتخذ الشمس مركزا ولنرسم حولها كرة قطرها ألفا سنة نورية . فهذه الـكرة تشمل جميع الـكواكب التى نراها بالعين المجرّدة واذا أوسعنا هذه الـكرة حتى يصير قطرها خمسا وعشرين ألف سنة نورية شملت جميع الـكواكب التى فى نظام المجرّة التى هى مرسومة أمامك . ﴿صفة المجرّة﴾ هى تشبه حبة العدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية . والمسافة التى بين وجهيها عنـد مركزها عشرة آلاف سنة نورية . وخارج هذه المجرّة عالمان آخران فى غيوم (مجلان) يبعدان نحو (٢٠٠) ألف سنة نورية وهناك كون آخر يبعد (٧٠٠) ألف سـنة نورية ثم على مليون سـنة نورية تجد السديم بين الـكوكبين فى المرأة المسلسلة وكوكبة المثلث وكل منهما طوله الأطول نحو (٥٠) ألف سنة نورية وهو طول قطر المجرّة

ولـكن هذه المجرّة وأبعادها الشاسعة عالم صغير جدّا من العوالم . فما اذا بعدها . ﴿الجواب﴾ هناك مجاميع من النجوم وقد رأيت بعضها مرسوما أمامـك فى هـذه الصفحات . وكل مجموعة منها فيها نجوم كنجوم المجرّة وكلها منثورة فى الفضاء كأنها بساتين زرعها الله فى الفضاء المتسع . أوكأنها جزائر فى البحر كجزائرنا الأرضية فى البحار المائية وهذه جزائر فى البحار الأثيرية التى تظهر لنا كأنها فضاء . و يقولون فى عصرنا الحاضر انها الأكوان (الجزرية). ولأذكر لك على سبيل المثال سديم المرأة المسلسلة المتقدّم وجده العلماء يبعد عنا مليون سـنة نورية وقطره خمسون ألف سنة نورية وفيـه ألوف الملايين من النجوم أكثرها لا تمكن رؤيته والـكواكب التى نراها فيه تزيد ألوف الأضـعاف على شمسنا من حيث النور واللمعان بدليل اننا لوأقصينا الشمس عنا مسافة مليون سنة نورية لم يمكن رسمها بالمصوّر الشمسى . أمّا هذه النجوم التى تبعد عنا هـذا البعد الشاسع فانها ترسم . فاذا كانت شمسنا بالنسبة للكواكب التى عرفت صـغيرة جدّا وضوءها ضـئيل . واذا كانت المجرّة فيها مئات الملايين من الشموس وكانت المجرّات الأخرى فيها كواكب مثلها أو أكثر وهى أضوأ ثم أضوأ ثم أضوأ . أفليس هذا معناه اننا صغر فى هذا الوجود واذا قال الشاعر

* اذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل *

فهكذا نقول اذا صغر أهل الأرض بجانب الأرض و بحارها وجبالها . واذا صـغرت الأرض بجانب الشمس . واذا صغرت الشمس بجانب مئات الملايين من كواكب المجرّة . واذا صغرت المجرّة بجانب ما يقرب من عدد مليونين من المجرات فما نحن فى هـذا العالم إلا صغر و بهذا نفهم قوله تعالى ــ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ــ فعلمنا قليل كقلة أرضنا بالنسبة لشمسنا وشمسنا بالنسبة لمجرّتنا ومجرّتنا بالنسبة للمجرات وقد يئس الناس أن يعرفوا لهذه العوالم نهاية

وسيعرف المسلمون من ذلك معنى قوله تعالى ــ ويخلق مالاتعلمون ــ وقوله ــ ومايعـلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر ــ اهـ

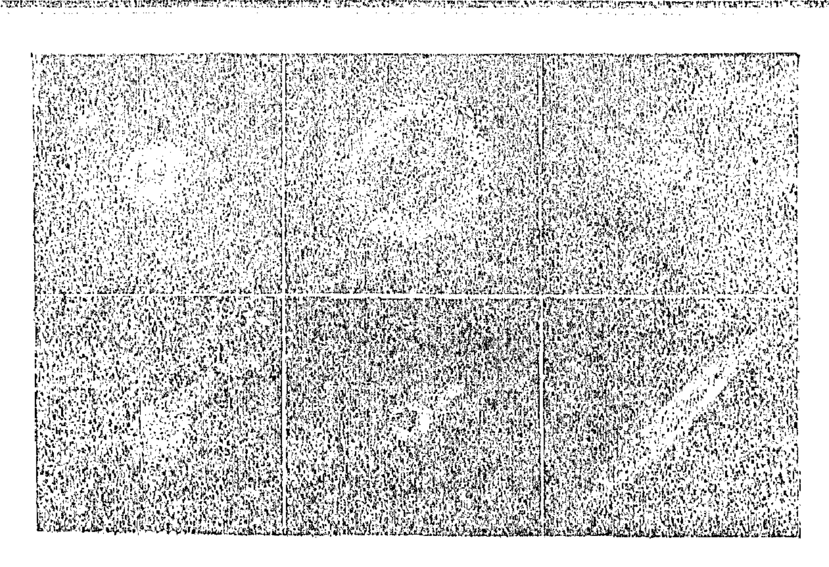
اذا عرفت هذا فهمت تفسير هـذه الآيات . فاذا سمعت الله يقول ــ هو الذى جعـل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ــ وختمها بأنه فصل ذلك لقوم يعلمون أدركت ما قدّمناه من أن البساتين العامّة للعموم . أما السموات فهى للعلماء بها وهـم الخواص . واذا سمعت قوله

تعالى – إنّ الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا . ثم وصفهم بالاطمئنان بها والغفلة أدركت ماقدّمناه من الحياة المنزلية وشقائها الذى لامندوحة عنه وهو عين ماجاء فى قوله تعالى عند ذكر الأولاد والأموال أنهما للعذاب فى الدنيا

ثم لخص المقام كله بقوله – دعواهم فيها سبحانك اللهم الخ – و بيانه أن الانسان فى الأرض أشبه مسجونا أبعد عن ملكه كما تقدّم . فهذا المسجون له ﴿أربع أحوال﴾ حال السجن . وحال الخروج مع عدم الامن من السجن . ثم حال الامن من السجن . ثم أن يعطى له ملكه . فهذه الدرجات الأربع تحصل لنا فنحن الآن فى سجن تكاليف الحياة والشهوات واذا خرجنا منها ربما وقعنا فى شقاء آخر وهو المعبر عنه بجهنم . فاذا سلمنا منها فهو نعمة . فاذا أعطينا الكمال اللائق لنا فهذا غاية المراد فقوله تعالى – سبحانك اللهم – تنزيه لله عن الحوادث ملحوظ فيه تشبه العبد به فى الخلوص من العلائق الدنيوية وهو المرتبة الثانية المتقدّمة وقوله – سلام – هو المرتبة الثالثة . والرابعة كمال العلم بهذا الوجود الذى هو جنة العارفين فى الدنيا وفى الآخرة الذى لاتحقق للحمد إلا به إذ لامعنى للحمد على تربية العالمين إلا بعد العلم بها ومن العالمين هذه الكواكب والشمس والقمر المضيئات المذكورات فى الآيات التى يتمتع بها الخواص فى الدنيا والآخرة والله يعلم أن العامّة محرومون من هذا الجمال فألهم رجال الحدائق فزرعوا لهم من تلك البساتين بعض روضات منظمة على أشكال (بيضاوية) أى اهليجاية وهى المسماة بالقطع الناقص التى تشبه دوائر الكواكب فى السموات كدائرة الأرض حول الشمس فانها ليست دوائر تامّة والشمس تكون فى احدى بؤرتيها صيفا وشتاء كما أوضحته فى غير هذا المقام فى التفسير . فبساتين العامّة فى بعضها ذلك الشكل كأنه يذكر العوام بدوائر الكواكب التى لايعقلها ليلا إلا الخاصة

﴿ تذكرة ﴾

أيها الذكى سيقرأ هذا التفسير إن شاء الله شبان من المسلمين فى حياتنا وبعد موتنا وسيهرعون الى بناء المراصد فى الممالك الاسلامية فى بلاد المغرب ومصر والشام والعراق و بلادجاوه والملايو وسائر بلاد الهند الشرقية وسيكون هذا القول من أوكد الأسباب لارتقائهم فى علوم النجوم وسائر علوم الحكمة لاسيما اذا قرؤا ما سيأتى فى تفسير قوله تعالى فى سورة ابراهيم – وذكرهم بأيام الله – كيف كان موسى يذكر قومه بأيام الله وكيف ذكر نبينا ﷺ قومه بأيام الله . وكيف ذكرت أنا الأمم الاسلامية بأيام الله . وكيف يتجلى لك هناك مابرع فيه آباؤنا الأوّلون من العلوم فى الفلك وغيره . وكيف شهد لهم العلامة (سديو) الفرنسى بأنهم سادات أوروبا وأساتذتها فى العلوم وانهم هم الذين أصلحوا علم اليونان كما وضحه هو ايضاحا تاما ونقلت أنا هناك بعضه . ثم كيف كان بعض ملوك الدولة العباسية يحاربون ملك الروم لأجل بخله عليهم بعالم يسمى (ليون) من شدّة ولوعهم بالعلم . وكيف غير الله عقولهم فى أواخر الدولة فطاردوا العلماء كما فعل الملك يعقوب فى الأندلس بابن رشد . وكيف ذلّ المسلمون شرقا وغربا بعد نبذهم العلماء . وكيف كان الجهل سبب خراب بغداد ومصر و بلاد الأندلس وتفصيل ذلك كله مع الايجاز . ستقرأ هذا التفصيل هناك وتقرأ ماانبغت به بعد ذلك أوروبا لما أخذت علوم ابن رشد وكشفت من العلم ما انتفعنا به وأصبحنا عالة عليهم فى علمهم وصناعاتهم . سيقرأ هذا وذاك أبناؤنا المسلمون والشرقيون وسيطيرون للعلم سراعا ويرجعون مجدا ضاع وعزا ذهب والله هو الولىّ الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل



(شكل ٨)

﴿ فصل فى قوله تعالى ــ إنّ فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ــ ﴾

اعلم أن اختلاف الليل والنهار قد فصلته تفصيلا فى سورة البقرة ٠ وأما الكلام على ما خلق الله فى السموات والأرض فهاأناذا أزيدك بيانا فوق مامضى منه فى هذا الكتاب لينشرح صدرك ولتكون رياضة بعد العناء فى حساب السنين وأذكر لك لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ٠ النبات المفترس ﴾

إن الحيوان المفترس يسطو على الغزلان والأرانب والمعز والغنم وما أشبهها ٠ وهكذا كل حيوان يسطو على النبات فيأكله ليتغذى به والأكثر فيه أن يكون غير مفترس ٠ وماذا تقول اذا قصصت اليوم عليك نباتا مفترسا ﴿ ذلك ﴾ أن العلامة (آليس) الانجليزى قد كشف نباتا فى (أمريكا الشمالية) له ورق كأنه مصيدة الفار وللورق مفاصل كمفاصل اليدين والرجلين فى الانسان والحيوان وعلى ظاهرها زغب يقوم مقام الأعصاب فى ظهر الانسان ثم هناك شوك يحيط بها من كل جانب فاذا جاءت حشرة صغيرة على الورقة أحسّ الزغب بها حالا فتنبهت الورقة فتنطبق عليها ولاتدعها تفلت وتفرز مادّة عليها كما نفرز نحن عصارة البنكرياس فى المعدة والريق فى الفم على طعامنا ٠ وكما تفرز الحية المادّة السمية فتهضم طعامها بلا أسنان ولامعدة وحينئذ تمتص الورقة تلك الغنيمة وقد اقتصت لأنواع النبات من عدوّها الحيوان وهى تقول ﴿فيوم لنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسرّ﴾ وتقرأ ــ وتلك الأيام نداولها بين الناس ــ

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

نبات مائى يسمى عند النباتيين (بفاليستير ياسبيراليس) وهو ينبت فى مجارى الأنهار ٠ ولقد علمت فى هذا الكتاب أن لكل نبات ذكرا وأنثى وقد يكون الذكر فى زهرة والأنثى فى زهرة أخرى من الشجرة الواحدة كنبات القرع وقد يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة كالقمح وقد يكون كل منهما فى شجرة كما فى النخل ٠ ومن النوع الأوّل هذا النبات المائى الذى نحن بصدد الكلام عليه فان للزهرة الأنثى منه ساقا لولبيا طويلا وهذا الساق يحمل الزهرة ويعوم بها فوق الماء مرقصا لها فى الهواء ٠ أما الزهرة التى فيها لقح التذكير فانها ليست تعوم بل هى قريبة من المنبت تحت الماء فاذا جاء الأجل وحلّ أوان الثمر ٠ فماذا يحصل ٠ أتنزل الزهرة الأنثى حتى تصل فى الماء الى زهرة الذكور ٠ أم يطول ساق الذكر حالا فيصل الى أعلى فيحصل الالقاح ٠ كلا ٠ لاهذا ولاذاك وانما تنفصل زهرة التذكير وتصعد فوق الماء حتى تجتمع

بالانثى

بالأنثى وهى منفصلة ومتى حصل الالقاح ينقبض لولب الأنثى حتى تصير فى قاع مجرى النهر عند ساق النبات فى أسفلها وهناك يتم البزر فتعجب وزد علما واقرأ - إن فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون -

﴿ اللطيفة الثالثة ٠ شجرة تفترس انسانا ﴾

جاء فى بعض المجلات المصرية العصرية أن فى بعض الجزائر شجرة يقدّسها أهل تلك الجزيرة ويعبدونها ويقدّمون لها فى كل سنة فتاة يختارونها لذلك فيحضرون ومعهم آلات الطرب من طبل وغيره ويضعون هذه البنت فى أعلى الشجرة فى مقعد هناك فيه مادّة حلوة لذيذة من نفس الشجرة تشرب منها الفتاة فتسكر وتغيب حواسها فلاتلبث تلك الشجرة أن تجتمع أوراقها وأغصانها وأشواكها النافذة وقضبانها الملتوية التى تشبه الحبال فتنضم جميعها على الفتاة والأوراق تكتم أنفاسها والحبال تلتف حولها والشوك ينفذ فى باطنها من أعلى ومن أسفل وتأخذ الشجرة إذ ذاك تمضغ الفتاة وتهضمها وهى لاتقدر على النجاة والقوم يدقون الطبول فرحا بهذا العيد الدينى وفى الحال لايسمعون تأوّه الفتاة وأنينها وعويلها وصراخها ثم ينصرفون بعد ألا يبقى لها إلا ماتلفظه الشجرة من عظام لا لحم عليها ولاعرقا وهكذا ٠ وذلك أيضا من انتقام النبات من الحيوان جزاء مايفعل الحيوان فى النبات - وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون -

﴿ اللطيفة الرابعة كيف تظهر صور المخلوقات فى فصول السنة الأربعة ﴾

أنظر للدنيا فى فصل الربيع (من اخوان الصفاء) فاذا نزلت الشمس أوّل دقيقة من برج الحمل استوى الليل والنهار واعتدل الزمان وانصرف الشتاء ودخل الربيع وطاب الهواء وهب النسيم وذابت الثلوج وسالت الأودية ومدّت الأنهار ونبعت العيون ونبت العشب وطال الزرع ونما الحشيش وتلألأ الزرع وأورق الشجر وتفتح النور واخضر وجه الأرض وأخرجت زخرفها وازينت وفرح الناس واستبشروا وصارت الدنيا كأنها صبية شابة تزينت وتجلت للناظرين

﴿ فصل الصيف ﴾

اذا بلغت الشمس آخر الجوزاء وأوّل السرطان تناهى طول النهار وقصر الليل وأخذ النهار فى النقصان وانصرف الربيع ودخل الصيف واشتدّ الحرّ وحمى الهواء وهبت السموم ونقصت المياه ويبس العشب واستحكم الحب وأدرك الحصاد ونضجت الأثمار وسمنت البهائم واشتدّت قوّة الأبدان وأخصبت الأرض وكثر الريف ودرّت أخلاف النعم وبطر الانسان وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة رعناء ذات جمال

﴿ فصل الخريف ﴾

اذا بلغت الشمس آخر السنبلة وأوّل الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى وأخذ الليل فى الزيادة وانصرف الصيف ودخل الخريف وبرد الهواء وهبت ريح الشمال وتغير الزمان وجفت الأنهار وغارت العيون واصفرّ ورق الأشجار وصرمت الثمار وديست البيادر وأحرز الحبّ وفنى العشب واغبرّ وجه الأرض وهزلت البهائم وماتت الهوام وانجحرت الحشرات وانصرف الطير والوحوش الى البلدان الدفية وأخذ الناس يحرزون القوت للشتاء وصارت الدنيا كأنها كهلة مدبرة قد تولت عنها أيام الشباب

﴿ فصل الشتاء ﴾

اذا بلغت الشمس آخر القوس وأوّل الجدى تناهى طول الليل وقصر النهار وأخذ النهار فى الزيادة وانصرف الخريف ودخل الشتاء واشتدّ البرد وخشن الهواء وتساقط ورق الشجر ومات أكثر النبات وانجحرت هوام الحيوانات فى بطن الأرض وضعفت قوى الأبدان وعرى وجه الأرض من زينته ونشأت الغيوم وكثرت

الانداء وأظلم الهواء وصارت الدنيا كأنها عجوز هرمة مدبرة قد دنا منها الموت . فاذا بلغت الشمس آخر الحوت وأوّل الحمل عاد الزمان كما فى العام الأوّل وهذا دأبه — ذلك تقدير العزيز العليم — اهـ

هذه صورة — ماخلق الله من شئ — فى فصول السنة الأربعة وقد قال — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — أى تناقض ولا اختلال . وها أنت ذا قد شاهدت أن هذه الرواية تمثل كل سنة تمثيلا متواصلا لا اختلاف فى فصول الروايات من حيث العموم وانما تختلف فى أحوال جزئية — فتبارك الله أحسن الخالقين —

﴿ فصل فى قوله تعالى — إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا الخ — ﴾

لابدّ فى ذكر المناسبة بين هذه وماقبلها من بيان مقدّمة فى جبلة الناس وغرائزهم وما فطروا عليه

اعلم أن الناس فى هذه الدنيا مولعون بما خلقوا له مغرمون بما استعدّوا له لايرجون سواه ولايحبون إلا الوصول اليه

(١) فالفتاة فى المدرسة مغرمة بالعرائس تلبسها وتلعب بها

(٢) والصبيان فيها لايهنأ لهم إلا حبّ السلاح وآلات الحرب غالبا والمغالبة فى اللعب ﴿ ذلك ﴾ أن الفتاة خلقت للولادة والتربية والفتى سيكون من شأنه مدافعة الأعداء عن البلاد

(٣) ونرى قوما يميلون بحسب ماطبعوا عليه الى التجارة

(٤) وقوما للزراعة (٥) وقوما للامارة (٦) وقوما للملك (٧) وقوما للعلم

(٨) وكل هؤلاء مختلفون اختلافا كثيرا

وقد ظهر بالاستقراء أن من طلب شيأ وهام به ناله كله أو بعضه على مقتضى حاله . وليس يكون الانسان مغرما إلا بما شاكله وقد يناله . فهل تغرم الفتاة بآلات الحرب والقتال . أم المستعدّ للامارة بصناعة البدّال * ففى الحديث ﴿ كل ميسر لما خلق له ﴾ . فليست ترجو الفتاة سلاح الحرب غالبا وليس يحبّ الفتى أن يكون مرضعا وظئرا للأطفال وهكذا واذن أصبح الناس بالنسبة الى الأشياء على ﴿ قسمين ﴾ قسم مستعدّ للشئ يرجوه . وقسم ليس بمستعدّ له ليس يرجوه . فالحدّاد مثلا عادة لايستعدّ للحكمة والفلسفة فهو لايرجوها ومن خلق مستعدّا لها يرجوها فينالها الثانى ويحرم منها الأوّل

فلننظر إذن نظرة فى هذه الآيات نجد وصف السموات والكواكب وسير الشمس والقمر وهذا من نوع الجمال العالى وفى نوع الانسان عشاق لهذا الجمال وفيه من لايعشقون بل هم مكتفون بالأكل والمشرب والتناسل كالدواب والأنعام والمغالبة كالآساد . فعشاق هذا الجمال يعكفون على الحساب والهندسة والجبر والفلك وحساب المثلثات ويهرعون الى المراصد فينظرون النجوم ويتأمّلون أشكالها وجمالها وحركاتها ويدققون ويحسبون وهم بذلك فرحون مستبشرون . فهؤلاء يتمنون لو يساعدهم المقدور ويسبحون فى عوالم السماء حتى يقفوا على كنه تلك العوالم ويعرفوا جمال الصنعة الالهية وكلما ازدادوا علما زادوا سرورا وبهجة بتلك العجائب والبدائع . فالنظر للعوالم العلوية يبهج الصدور ويجعل الانسان مغرما بالاطلاع على جميع العوالم . أقول فهل هذا الغرام خلق فى بعض هذا الانسان باطلا كيف وقد خلقت الفتاة ومعها غريزة تربية الصغار فى اللعبة وهى طفلة وكذلك الفتى يغرم بالسلاح الذى هو من جنس ما يكون فى مستقبله وهكذا أرباب الصناعات والحرف كل يميل الى ما خلق له كما كانت أمّة اليونان فى قديم الزمان تدخل الصبيان فى الهيا كل وقد وضعوا فيها صور جميع الحرف ويسألون الصبى عما يميل اليه فيجيبهم فيحكمون عليه بأنه من أهل هذه الحرف وقد خلق لها

فاذا كان الاستقراء أثبت هذه القاعدة فلنقس الغائب على المشاهد ولنقل أن من أغرم بهذه العجائب سيكون له مستقبل فى الوصول اليها وأنّ العالم الأخروى أى ماتراه بعد الموت قد أعدّ لكل امرئ فيه ما

استعدّ له فى الدنيا ٠ فأهل الغرام بالجمال فى صور هذا العالم من حيث الحكمة ودقة الصنع وادراك المحاسن سينقلون هناك على تلك الحال و ينالون حظا مما أغرموا به وعشق هذه الأفلاك عشق لخالقها ومنظمها ومبدعها فهذه غرائز أوشبه غرائز فى النفوس فلابدّ من الوصول الى ما استعدّت له وهذا هو بيت القصيد ولذلك قسمت الآية هنا الناس (بعد الكلام على عجائب الأفلاك والطبيعة) ﴿قسمين﴾ قسم لايرجو لقاء الله ورضى بالحياة الدنيا واطمأنّ بها وغفل عن هذا الجمال ٠ وقسم فى جنات النعيم وهم ﴿ثلاث درجات﴾ فى تلك الجنة ﴿أولا﴾ ينعتون الله بنعوت الجلال وهى صفات التنزيه وهم منغمسون فى لذات الجنة ونعيمها ثم يرون بفكرهم أن خالق الجنة أكبر من هذا كله وأعظم فيسبحونه أى ينزهونه عما هم فيه من النعيم ﴿ثانيا﴾ تبتدى أيام سعادتهم فيحيي بعضهم بعضا بالسلام وهو الأمان من المخاوف فيقولون لبعضهم ان هذه اللذات فى الجنة لايعتريها نقص ولافقر ولاهمّ ولاغم فهذا هو السلام الذى يدور بينهم و بين بعضهم وهذا من أعظم السعادات إذ يرى الانسان نعيمه لانقص فيه وقد فهموه من أنفسهم ثم يترقون من هذه المرتبة الانسانية فيسمعون سلام الملائكة كما قال تعالى — والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم — وهذا سلام أعلى و يحسون إذ ذاك بسعادة أجمل من الأولى لأن سلام الملائكة من عالم منزه عن المادّة فيكون أجل وألطف وهذا يعدهم لسماع السلام من الحقّ فاذاسمعوه خروا ساجدين ونسوا نعيم الجنة وحقر فى أعينهم كما يصغر طعام الملك عنده من حظى بمجالسته ومؤانسته واذن يكون غذاؤهم هو النظر فى ذلك الجمال الأبهى وفى عجائب القدرة وهذه هى المرتبة الثالثة مرتبة الحكماء والعلماء والأنبياء الذين مارسوا هذا الجمال فى هذه الحياة الدنيا فيقولون — الحمد لله رب العالمين — وذلك أنهم يطلعون على تربية العوالم المحسوسة والمعقولة وهناك تكون السعادة الروحية التى يحسّ الناس ببعضها فى أوقات قليلة بل إن كثيرا من الناس قد أولعوا بالعلم حتى نسوا كل شئ فما بالك اذا كان ذلك فى تلك الساحات البديعة والمقامات الشريفة ٠ وان أردت شاهدا على ذلك من العالم الأخروى ولم تكتف بالاستنتاج فاسمع ماقالته روح (غاليلو) الفيلسوف الفلكى حين أحضروها ليستطلعوا رأيها فى أحوالنا بعد الموت فأملت عليهم مقالا مصداقا لهذه الآية ٠ فلقد أوضح هذا المقال أيما إيضاح وكشف عن هذه الحقيقة اللثام وجاءنا من عالم الغيب يخبرنا أنه منعم بالتفرّج على عجائب الفلك وأنواع النجوم بحيث يراها بأنفسها وأقدارها وأشكالها وانه شاهد عوالم أرقى نفوسا وعقولا وأخلاقا ومدنية ولهم أعمال غير أعمالنا وعقول غير عقولنا وانه هو يطوف فى تلك الأرجاء و يبتهج بمرآها ٠ وأفاد أن الكواكب هناك مع عظم قدرها تتفرّج عليها الأرواح الفاضلة كما نتفرّج نحن على الزهر فى الشجر ٠ و بين أن أرضنا هذه ستزول من الوجود ٠ وأما أرواحنا فانها تبقى ثم ترتقى فى عوالم أخرى عند الله وتكلم عن المجرّة وكيف يطلع هو اليوم على الملايين من النجوم فيها ثم ينتقل الى مجرّة أخرى وهكذا فى العوالم الشاسعة العجيبة ٠ وهذا القول من روح (غاليلى) هو مايقوله علماؤنا ﴿إن جنة العارفين هى العلوم والمعارف ولانهاية لها ٠ أما جنة المغفلين فهى المآكل والمشارب﴾ وأنا لا أطيل لك أكثر من هذا وان أردت الاطلاع على هذا المقال المفيد الطويل فاقرأه فى تفسير سورة آل عمران المتقدّم فى المجلد الثانى ٠ ولعلك تقول ٠ كيف يقول (غاليلى) ذلك وهو كافر بالله ٠ أقول هذا القول لم أجزم به وانما نقلته ليعلم الملحدون من المسلمين أن عقيدة الآخرة موجودة بأوروبا التى هم يقدّسونها فاذا كفروا بذلك فهم لاشرقيون ولاغربيون لأن الالحاد قد جعله بعض صغار العقول من المتعلمين صناعة يرتزقون بها إذ يوهمون الناس أنهم علماء حتى كفروا بعلمهم ٠ وهناك اجابات أخرى على هذا الاعتراض فى تفسير آل عمران فارجع اليه هناك ٠ انتهى تفسير القسم الأوّل من هذه السورة

﴿ مناسبة هذه السورة لآخر التوبة ﴾

قبل الانتقال الى القسم الثاني يحسن أن نذكر مناسبة هذه السورة لما قبلها بايضاح فنقول
لقد ذكرت في آخر سورة التوبة هذه المناسبة ، وأريد الآن أن أذكر المناسبات المتشابهة من أوّل سور القرآن الى هذه السورة غير ماذكر لكل منها خاصا به ، ان الجزء الثاني من سورة الفاتحة يشتمل على طلب الهداية الى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم ، وأوّل البقرة يفيد أن هذا الكتاب ـ هدى للمتقين ـ وهم الذين عبر عنهم في الفاتحة بالمنعم عليهم ، وآخر سورة البقرة جاء فيه أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بالقرآن وبالملائكة والكتب والرسل بعد ذكر أن لله ما في السموات وما في الأرض وأنه سبحانه يعلم ماتخفيه وماتظهره ، وهاهوذا في أوّل آل عمران يذكر القرآن والتوراة والانجيل وكل مايفرق بين الحق والباطل وهذا راجع للأمر الثاني في البقرة ، ويقول لايخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء وهو راجع للأوّل أما آخر سورة آل عمران فهو طلب التقوى من المؤمنين ، وأوّل سورة النساء طلبها من سائر الناس لأن الرسول ﷺ عام للأمم كلها ، وقبيل آخر سورة النساء ـ فأمّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ـ وأتبعه بجواب استفتائهم في مسألة الكلالة ، وأوّل سورة المائدة خطاب هؤلاء المؤمنين بأوامر بعد أن أجاب استفتاءهم ، وآخر سورة المائدة أن الله له ملك السموات والأرض ومافيهنّ ، وأوّل سورة الأنعام بيان سبب كون الملك مختصا به ، ذلك لأنه خلقهم فهو يقول له ملكهما ثم يقول هو خلقهما وخلق الظلمات والنور ، وفي آخر سورة الأنعام يتبرّأ من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا ، ثم أتبعه بطريقة الهداية وبإخلاصه لله ايذانا بأن الذين فرّقوا دينهم يخالفون هذا التسليم لله وهذه الهداية ، وفي أوّل الأعراف أخذ ينذر من كفر ويذكر المؤمنين تبيانا لنتيجة تبرئته منهم ، وفي أواخر سورة الأعراف يقول ـ يسألونك عن الساعة ـ فأجابهم بأن علمها عند الله وأتبع ذلك بأنه لا يملك لنفسه نفعا ولاضرا وأن الناس كلهم كذلك لأنهم في قبضته لأنه خالقهم واستطرد بذم الأصنام والشيطان وبطلب الاصغاء للقرآن الخ ، ثم أتبعه بقوله ـ يسألونك عن الأنفال ـ فكما سألوه عن الساعة فكان العلم عند الله ، هكذا سألوه عن الأنفال فكانت الاجابة عنها من الله ، وآخر الأنفال ـ إنّ الذين آمنوا وهاجروا الخ بعضهم أولياء بعض ـ وهكذا الذين بعدهم ، فلخص ذلك أن هنا صلة دينية عامّة وصلة رحم خاصة فلم يبق إلا ذكر الكفار بالبراءة منهم ، أما آخر براءة فانه يفيد (١) أن الرسول ﷺ منهم (٢) يهتم بأمرهم (٣) وهم ربما يعرضون عنه (٤) وهو يتوكل على الله رب العرش العظيم

وأوّل سورة يونس انكار على الناس تعجبهم من ارسال رجل منهم اليهم وهو راجع للأوّل وكان حق التعجب أن يكون من ارسال ملك لأن الموعظة انما تكون ممن يشاكل لا من المخالف في الجنس وقوله ـ أن أنذر الناس وبشر المؤمنين الخ ـ راجع الى الثاني وهو الاهتمام بأمرهم وقوله ـ قال الكافرون إنّ هذا لساحر مبين ـ راجع للثالث وقوله ـ إنّ ربكم الله ـ الى قوله ـ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ـ راجع الى الرابع فهو توكل عليه لأنه رب العرش العظيم في آخر التوبة ، وهنا فصل ذلك بأن استواءه على العرش بعد خلقه السموات والأرض لأن الملك انما يدبر الملك بعد تأسيسه ، فههنا المناسبة دقيقة ثابتة انما الذي يعوزه التفصيل ، انه عبر هنا بقوله ـ رب العرش العظيم ـ ثم عبر بأنه خلق السموات والأرض الخ ـ يقول ﷺ ان الله كافيه لأنه ملك متصرف في ملكه

﴿ بيان الفارق بين توكل نبينا ﷺ وتوكل هود في سورته الآتية ﴾

فأما هود فانه يقول ـ إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم ـ فهود توكل على من بيده نواصي كل دابة ، ومحمد ﷺ توكل على من له العرش العظيم

وخلق

وخلق السموات والأرض فكل منهما تذكر من صفات ربه مادلّ على نزعة نفسه . فهو يريد السلامة له ولمن اتبعه لأنه عادل فى عمله فهو يحفظ كل نسمة ويكافؤها ومحمد ﷺ يفكر فى أمر الملك العام والنظام . فهمته متجهة الى النظام العام وهذا هو الذى يليق باتباعه

أيها المسلمون انظروا كيف كان اتجاه النبى ﷺ واتجاهه الى النظام والملك والعرش والاصلاح العام فأعطى ذلك واتبعه أصحابه وأنتم منهم فهاموا الى الحكمة والعلم والنظر العام . أيها المسلمون كأنى أرى بعينى رأسى أقواما منكم نبغوا فى العلوم كلها وفاقوا الأمم . تلك الأمم التى لاتريد الا أنفسها ولاتحافظ الا على كيانها . أما أنتم فانكم الأعلون وأنتم تنظرون الى النظام العام نظام السموات والأرض ونظام الأمم

كونوا على قدم نبيكم ﷺ ولايتسنى لكم ذلك الا بالفكرة التى ذكرها فى التوكل عليه فوجه وجهه شطر العرش العظيم وفصل ذلك فى يونس بأنه — يدبر الأمر —

ان أفضل صفة الانسان أن يتشبه بالله بقدر طاقته البشرية والله يدبر الأمر فليدبر المسلمون الامور فى الأرض تابعين فى ذلك ربهم بعد درس نظامه ونظام الأمم وليكونوا خير أمة أخرجت للناس . ومستحيل أن يتم ذلك لنا نحن فى المستقبل الا بالعلم والعمل الذى شرحناه فى هذا التفسير . المسلمون يتخللون القارات كلها فاذا صلحوا أصلحوا كل الأمم . والاصلاح العام هو تآخى جميع الانسانية الذى ورد فى الأحاديث أنه الاصلاح العام المكنى عنه بنزول عيسى عليه السلام ولقد شرحته فى هذا التفسير مرارا وقلت فى غير موضع انه لن يتم ذلك الا بأخذ العدة له وتعميم التعليم فى بلاد الاسلام الخ

لم يكن الله ليجعل الاصلاح طفرة فذلك مالانراه فلم يخلق الطفل فى لحظة بل أبقاه فى بطن أمه تسعة أشهر ولم يجعله شيخا الا بعد مروره على أحوال شتى . اللهم ان الاصلاح العام وتدبير الأمر فى الأرض ونظام العرش الانسانى المناسب لعرشك العظيم الموزون المنتظم لم يحصل فيما مضى ومستحيل أن يحصل فى المستقبل الا بعد اعداد الأسباب واتخاذ الوسائل وتمهيد الطرق وتسهيل السبل له بارتقاء الأفراد والأمم سنين وسنين . هنالك يصح القول ان الناس يستأهلون أن يقبلوا تعاليم المهدى أوالمسيح . أما أن فردا سينزل الى الأرض بضع سنين فيغير الأخلاق ويصلح الأحوال الى أبد الآبدين ودهر الداهرين فهذا لم نعرفه فى عمل الله عزوجل

ان ولادة الجنين انما تكون فى حينه بعد استعداده للخروج . فالله مدبر للأمر كما فى هذه الآية مستو على العرش والتدبير يتطلب النظام والترتيب . اذن لن يكون المسلمون قائمين بمعنى هذه الآية الا بنشر العلوم ومعرفة نظام هذه الدنيا والسعى فى التعاون العام . هذا هو الذى يؤخذ من هذه الآية وبعض ضعفة العقول فى بلاد الاسلام يتكلون على المسيح اذا نزل بل هم يظنون أنهم ينامون على فراش الراحة الوثير ويقضون أوطارهم وهم آمنون بلامقدمات ولا أسباب . وهذا معناه الكسل والنوم . وهذا ضد النبوة والدعوة المحمدية على خط مستقيم فنحن نتوكل على الله رب العرش العظيم الذى يدبر الأمر . فهكذا نحن يجب أن نتشبه بمن نتوكل عليه فى تدبير الأمر لا أننا نميت قوانا ونتكل على من سيرسله الله الينا فيسعدنا ونحن نائمون . كلا . ثم كلا

﴿ العقائد لمقاصد ﴾

إن العقائد انما أنزلت لحثنا على الفضائل لا لاقتراف الرذائل . عقيدة المسيح وان كانت أشبه بالظنيات لأنها من الأحاديث الصحيحة قد جاءت لنعد العدة ولنكون المثل الأعلى فى هذه الأرض ونقود الأمم قيادة المحبة والسلام والوئام كما تقدم مرارا فى هذا التفسير بايضاح حين تضع الحرب أوزارها . هكذا عقيدة الايمان بالملائكة لنعلم أن هناك حالا أخرى بعد الموت أشبه بحال الملائكة للأبرار وبحال الشياطين للفجار

فعقيدة الملائكة لاصلاح الأخلاق . وعقيدة المسيح لاصلاح الأمم بالعمل لا بالأمل . هذا ما وقر فى

نفسى الآن بمناسبة توكل النبى ﷺ على الله ذى العرش العظيم الذى يدبر الأمر وأن همة المتوكل تتجه الى صفة من صفات المتوكل عليه . وقد حصل ذلك فى هذه النبوّة فكان لهذه الأمة عروش ملك فى الأرض ولكن العرش العظيم لهذه الأمة هو النظام العام فيها بنظام الحب كما فى نظام السموات والأرض القائم بالجاذبية والحبّ العام والحمد لله رب العالمين اهـ

(القِسْمُ الثَّانِى)

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّٰهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ

مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) اذا طلبوه مستعجلين بأن يدعو الرجل عند الضجر والغضب على أهله وولده و يتعجل البلاء والنقمة فيقول لعنكم الله ولابارك الله فيكم ٭ يقول الله لوأن الله أجابهم اذا اذا دعوه بالشر الذى يستعجلونه به (استعجالهم بالخير) أى تعجيله لهم الخير أى لوعجلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم اليه (لقضى اليهم أجلهم) أى لأميتوا وأهلكوا جميعا ولكنا لانعجل ولانقضى وانما نمهلهم امهالا (فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم) معاصيهم وشركهم وضلالهم (يعمهون) يترددون ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاما للحجة عليهم (واذا مس الانسان) أصابه (الضر دعانا) لازالته مخلصا فيه (لجنبه) ملقى لجنبه أى مضطجعا (أوقاعدا أوقائما) أى فى جميع أحواله (فلما كشفنا عنه ضره مر) مضى على طريقته واستمر على جهالته وكفره ومعاصيه ونسى موقف الدعاء والتضرع (كأن لم يدعنا) أى كأنه لم يدعنا واسم أن المخففة ضمير الشأن (الى ضر مسه) الى كشف ضر (كذلك) مثل ذلك التزيين لهذا الانسان الذى نسى موقف الدعاء (زين للمسرفين ما كانوا يعملون) من الانهماك فى الشهوات والاعراض عن العبادات (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم) يا أهل مكة و ياجميع الناس (لما ظلموا) حين ظلموا بالتكذيب وصرف مواهبهم فيما لاينبغى (و) الحال انهم قد (جاءتهم رسلهم ب) الحجج (البينات) الدالات على صدقهم (وما كانوا ليؤمنوا) أى وماستقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم (كذلك) مثل ذلك الجزاء وهواهلاكهم بسبب تكذيبهم (نجزى القوم المجرمين) نجزيكم فوضع المظهر موضع المضمر دلالة على أنهم مجرمون (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) استخلفناكم فيها بعد القرون التى أهلكناها استخلاف من يختبر (لننظر كيف تعملون) أى أخيرا تعملون أم شرا فنعاملكم على مقتضى عملكم (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا) أى المشركون لما غاظهم مافى القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد (إئت بقرآن غير هذا) ليس فيه مايغيظ مما ذكر (أو بدله) فتسقط ذكر الآلهة وذمها وتجعل مكان آية العذاب آية رحمة فأجاب (قل ما يكون لى) ما يحل لى (أن أبدله من تلقاء نفسى) من قبل نفسى (ان أتبع إلا ما يوحى الى) أى لا أتبع إلا وحى الله من غير زيادة ولا نقصان ولاتبديل (إنى أخاف إن عصيت ربى) بالتبديل من عند نفسى (عذاب يوم عظيم) أى يوم القيامة (قل لوشاء الله) غير ذلك (ماتلوته عليكم ولا أدراكم به) ولا أعلمكم بالقرآن على لسانى (فقد لبثت فيكم عمرا) مقدار عمر أربعين سنة (من قبله) من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه (أفلاتعقلون) أن من عاش أربعين سنة لم يمارس فيها علما ولم يدخل مدرسة ولم يشاهد عالما ثم جاء بأخبار الماضين والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق وهذه العجائب المتكررة لايمكن أن يكون أمرا عاديا بل هو من طور آخر وهو الوحى (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) سواء أكان باسناد قول الى الله تعالى لم يقله بادعاء النبوة ٭ أم بادعاء أن لله شريكا أوولدا (أوكذب بآياته) فكفر بها (إنه لايفلح المجرمون * ويعبدون من دون الله مالايضرهم) ان تركوا عبادته كالأصنام (ولاينفعهم) ان عبدوها (و يقولون هؤلاء) الأصنام (شفعاؤنا عند الله) فى أمور المعاش لأنهم ما كانوا يقرون بالبعث لقوله تعالى — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت — و بعض العرب كان يقر بالبعث (قل أتنبئون الله بما لايعلم) أى أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو لايعلمهم (فى السموات ولافى الأرض) واذا لم يكن عالما بهم وهو يعلم كل شئ فذلك دليل على عدم وجودهم (سبحانه وتعالى عما يشركون) نزه نفسه أن يكون له شريك ٭ ولما كانت هذه الأحوال مما يدعو الى التعجب من

هذا النوع الانسانى . وكيف يعبدون مايصنعون . و يقلدون من لايعلمون . وكانت النفوس الانسانية تميل الى الحقائق أتى بعد هـذا باحدى الحقائق الطبيعية الحكمية الالهيـة فأفاد أن نوع الانسان يولد على الفطرة والحال الطبيعية فهم فيها متفقون لامختلفون . ومتحدون لامتفرّقون . ولكن الحكمة فى هذا الوجود تقضى الاختلاف والافتراق ليجتمع بعدالتفرّق المختلفون وليتعارف بعد التجاهل المتفرّقون فخالف بين لغاتهم وأوطانهم وأزيائهم وعاداتهم و بيئاتهم وأحوالهـم وألوانهم وممالكهم كما اختلف الزهر فى الأشجار وطعوم الأثمار فان هذا العالم على الاختلاف مخلوق وعلى الافتراق مجبول فان لم يكن الاختلاف كان العالم هباء منثورا فاذا كان الاختلاف مبدأه ومنتهاه فكيف يتفقون فى الدين واذا لم يتفقوا فى حال من الاحوال التى لاتكاد تحصى فهـم فى الدين مختلفون وفى الحقائق متفرّقون وان كانت فطرهم واحدة وانسانيتهم فى الأصل غير مفترقة . ألاترى أن تعريف الانسان بالحيوانية والناطقية . فهذا هو الأصـل السارى فى كل انسان و بعد هذا افترق فى سائر الصفات والأحوال ومنها الدين وهـذا قوله تعالى (وما كان الناس إلا أمّة واحدة) بحسب فطرهم ومقتضى انسانيتهم (فاختلفوا) فصاروا فى الدين وفى سائر الأحوال مختلفين (ولولا كلمة سبقت من ربك) أن الاختلاف سنة طبيعية وحكمة إلهية وغايتها الكمال واتحاد النفوس فى كثيرمن الأطوار وتآلفهم بما زاولوا من الأعمال على درجات مختلفة وأحوال متباينة فيكون الناس بعد أعمالهم طول الحياة قد صاروا فى حال أكمل وكل جماعة منهم تتحد فى عمـل أوخلق فيكون هـذا الاختلاف جميلا فى مقاصـده نبيلا فى نهايته لأنه يثمر عقولا مختلفات الجمال كما اختلفت الأشجار فى الأزهار والأثمار فصارت بساتين بنفس الاختلاف . هكذا تكون النفوس بعدالموت بتفننها فى الأخلاق والأعمال كالرياض الزاهرات والحقول الباهرات فلولا اختلاف الثمر ما جمل البستان ولولا تنوّع الزهر والشجر ما استحسنها الانسان . فعقول الناس بساتين العالم الأعلى كما أن الأشجار والأثمار ببساتيننا . وكل ذلك انما نشأ من الاختلاف

يقول الله ـ ولولا كلمة سبقت من ربك ـ بهذا الجمال (لقضى بينهم فيما فيـه يختلفون) ليمتاز المحق من المبطل . ومن الجمال أن يكون فى العالم الروحى أرواح شريرة كما نرى فى الأرض الحنظل وشوك القتاد وضروبا من الأشجار المرّة . ونظير هؤلاء فى نوع الانسان الفجار والكفار ليكون ذلك دليلا على الجمال فان الشئ لايعرف إلا بضدّه و بضدّها تتميز الأشياء . فبقاء الكافر والمؤمن والصالح والطالح الى أجل معدود لتكمل آجالهم فتظهر أحوالهم ظهورا أجلى ويكون الحنظل مع الموز والاثل مع النخل وهذا هو النظام الجميل وهذا القول ظاهر فى علم الفلسفة الحاضرة والعلم الموروث فان العالم كله من أصل واحد هى الهيولى التى لاتعرف إلا بالعقل وعنـد بعض الحكماء المحدثين أن العالم يرجع الى الجواهر الفردة وهى متماثلة وعنـد المحققين الى حركات فأما الانسان فان الأرواح قبل حلولها فى الأجسام فى أوّل نشأتها تكون متماثلة لاتمايز بينها وهكذا أجسام الأجنة فى بطون أمهاتها تكون فى أوّل أمرها متشابهة مع حيوانات أخرى ثم ترتقى شيأ فشيأ حتى تخالف سائر الحيوان باستكمال الخلق وعنـد الولادة يكون الاختـلاف بين المولودين من الانسان فى أمور محدودة فاذا كبروا وتربوا كان هناك خلاف عظيم ولذلك خلقهم الله كما قال فى آية أخرى ـ ولذلك خلقهم ـ وهذا هو الحقّ والعلم الصحيح وماعداه فأقوال متفرّقة وآراء غير محققة اختلط فيها الحق بالباطل والذهب النقى بالزبرج والزيف بالجيد والله هو العليم الحكيم

ثم أتى بمسألة أخرى كانت سبب الاختلاف فى النبوّة وهو اقتراح آيات خاصة فقال (ويقولون لولا أنزل عليـه آية من ربه فقل انما الغيب لله) وهو وحده العالم أن هـذه الآيات المقترحة فيها مفاسـد لانفع فيها (فانتظروا) نزول ما اقترحوه (إنى معكم من المنتظرين) لما يفعل بكم بجحودكم ما نزل من الآيات (واذا أذقنا الناس رحمة) خصبا وسعة وصحة (من بعد ضرّاء مستهم) أى من بعد شدّة و بلاء كأهل مكة إذ حبس

عنهم المطر سبع سنين حتى هلكوا من الجوع والقحط ثم رحمهم الله فأنزل عليهم المطر الكثير حتى أخصبت البلاد فلم يتعظ الناس بذلك بل رجعوا الى الفساد كما مرّ فى قوله ـ واذا مسّ الانسان ضرّ دعانا لجنبه ـ الى قوله ـ مرّ كأن لم يدعنا الى ضرّ مسه ـ ولذلك جاء جواب ـ واذا أذقنا ـ موافقا لذلك الجواب مع ايضاح وتنويع فقال (اذا) هى للمفاجأة واقعة فى جواب اذا الأولى كما تقع الفاء أى ففى الحال (لهم مكر فى آياتنا) بالطعن فيها والاحتيال فى دفعها (قل الله أسرع مكرا) منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ولقد تقدّم عقابهم فى سورة الأنفال والتوبة وآل عمران • والمكر اخفاء الكيد وهو من الله الاستدراج والجزاء على المكر (إنّ رسلنا يكتبون ماتمكرون) الرسل هنا الحفظة فليس يخفى على الله خافية • ولما كان هذا القول ومامرّ قبله وهو ـ واذا مسّ الانسان ضرّالخ ـ دالين على سرعة تقلب الانسان وعدم وفائه واتعاظه وكان هذا المقام يحتاج الى ايضاح أردفهما بثالث دلالة على أنه أمر يجب النظر فيه فان عدم الثبات وسرعة التقلب وجحود النعم يورث العذاب الأليم ولذلك قال (هوالذى يسيركم فى البرّ) بأرجلكم وبالدواب والقطرات الجاريات والعربات والسيارات الجاريات بالكهرباء وغيرها وفى الهواء بالمراكب الهوائية والمطاود جمع منطاد (والبحر) بالسفن العائمة والغاطسة (حتى اذا كنتم فى الفلك) السفن (وجرين) أى السفن (بريح طيبة) لينة الهبوب (وفرحوا بها) أى بتلك الريح للينها واستقامتها (جاءتها) أى الفلك وهنا اعتبرت جمعا كأسد وهى مفردة كقفل (ريح عاصف) ذات عصف أى شديدة الهبوب (وجاءهم الموج من كل مكان) يجيئهم الموج منه (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى أهلكوا وسدّت عليهم مسالك الخلاص (دعوا الله مخلصين له الدين) من غير اشراك لأنهم رجعوا الى فطرتهم لزوال العوارض المانعة من ذلك قائلين (لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين) نعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك (فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض) يفسدون فيها (بغير الحق) مبطلين فيه (يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) فان وباله عليكم وأيضا هو على أمثالكم وبنى جنسكم وجميع الناس متضامنون والبغى على من نفعه عائد عليك ضارّبك • تمتعون (متاع الحياة الدنيا) على النصب أوذلك متاع الحياة الدنيا على الرفع (ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) بالجزاء عليه • انتهى التفسير اللفظى

اعلم أن هذا القسم متصل بما قبله وصلته بقوله تعالى ـ هوالذى جعل الشمس ضياء ـ الى قوله فى آخر القسم ـ وتحيتهم فيها سلام * وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ

لقد تبين لك هناك أن السلام على ﴿ ثلاثة أنواع ﴾ سلام الناس بعضهم على بعض يوم القيامة • وسلام الملائكة • وسلام الله تعالى • ولابدّ من شرح هذا الموضوع شرحا وافيا حتى يعرف اتصال هذا القسم بما قبله واذن يظهر لك سرّ مكنون وجوهر بديع وعجب عجاب • وهنا أصلان ﴿ الأصل الأوّل ﴾ أن هذا المقام عبارة عن مبحث فى السعادة والسلام والأمن • فكل من كان من الناس أهدأ بالا ورضى فهو الى السعادة أقرب • وكل من كان جزع النفس مضطرب القلب حزينا متألما أوطامعا أوما أشبه ذلك فهو الى الشقاوة أقرب على مقتضى ما اتصف به قلة وكثرة • واذا كنت أيها الذكى ممن تابعوا هذا التفسير فقد عرفت ذلك ﴿ الأصل الثانى ﴾ انه لايتفق الامن والسلام والراحة لجميع الناس فى الدنيا دائما فى ألم ومطالب تزعج لبّ اللبيب وتوغر صدر الحليم فالخير والشرّ مقرونان فى قرن • وعليه تكون السعادة محالة فى هذا الوجود فبانضمام الأصل الثانى للأوّل يتناقضان ولايجتمعان وهذا الرأى وهو عدم السعادة فى الدنيا قال به كثير من العقلاء • وهناك سعادات اكتسابية يكتسبها الناس تقرّبهم اليها وهى

(١) إنا نجد المسلم فى الصلاة يسلم ٢٦ فى الصلوات الخمس المفروضة فاذا انضمت اليها النوافل بلغ القدر ضعفا أوأضعافا

(٢) ولامعنى لهذا السلام إلا تذكرة المسلم بالأمن وراحة الضمير وبعد المكروه وجميع المصائب فهو يسلم على الأنبياء والصالحين وعلى نفسه بهـذا المعنى . فالمسلم مأمور بطريق دينه أن يعتقد أنه فى أمان من كل مكروه . وأين هذا . ذلك ﴿ بثلاث طرق ﴾

الطريق ١ و٢ طريق الايمان فكلما أصابته مصيبة يقول — إنا لله وانا اليه راجعون — وليس يكون ذلك باللسان وحده فيرى أنه يحمد الله رب العالمين أى رباهم باللين والشدة الصبر عنهما بالرحمة وملك يوم الجزاء . ويقول تعالى — ونبلوكم بالشر والخير فتنة — فتى أحضر المرء فى نفسه أن المكروه من الله وأن الله لايفعل الا خيرا واطمأن لذلك كما فى قوله تعالى — قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا — وقوله — هل تربصون بنا الاحدى الحسنيين — فان عنده نوع سعادة . فههنا أمران ﴿ الأول ﴾ اسناد الأمر لله وهذا عند المستعد له يعطى بعض الراحة للقلب وهـذا الاشارة بقوله — انّ ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم — فتى أيقن العبد أن كل شئ معلوم عندالله ارتاح قلبه جدا ووصل الى السلامة على شرط الايقان فتكون الحوادث مثل الليل والنهار ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن يرى كل مكروه ظاهرا هو محبوب باطنا ويرى كل شر أشبه بالحجامة أوشرب الدواء الكريه فيكون متألما منه ولكنه راض وهذا نوع من السعادة وله الاشارة بقوله — هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين — حيث جعل القتل حسنى وأى مصيبة أعظم من الموت حتى ان الصحابة كانوا يسرعون الى الحرب لذلك ﴿ الطريق الثالث ﴾ طريق الصبر وقوة العزيمة وهى التى شرحتها لك سابقا فى لغز قابس فى سورة البقرة وكذلك طريق كتاب ﴿ الكوخ الهندى ﴾ الذى أعطيتك صورة منـه سابقا تلخص مقصوده . واليه الاشارة بقوله تعالى — فاصـبر كما صبر أولوا العزم من الرسل — وقوله — وبشر الصابرين — وما أشبه ذلك

فهذه الامور الثلاثة تعطى الانسان سعادة كسبية مادام فى هذه الحياة . ومستحيل أن يصل الانسان الى تمام السعادة فى هذه الحياة الا قوم مذهولون ذهولا دينيا أودنيويا بأن فارقوا احساسهم فكيف يحزنون . فالسلام فى الصلاة وتكراره فى الركعات يوقظ نفس المسلم الى أحد هـذه المراتب عسى أن يصـل الى درجة الراضـين وان كانوا فى مكروه وهذه نوع من السعادة والسلام فى هـذه الحياة . هذا هو السرّ فى تكرار السلام فى الصلاة . فاذا مات المسلم أحس بالسلامة من الآفات وبالأمن اذا كان صالحا ويحس اخوانه بذلك فيحيونه به . وليس ذلك تحية لفظية كما فى الدنيا بل المعانى هناك متجلية كما تجلت الألفاظ فى هذا العالم فاذا ارتقوا عن هذه الدرجة حيتهم الملائكة ثم حياهم الله ففى الاية — والملائكة يدخلون عليهم من كل باب — وفى آية أخرى — تحيتهم يوم يلقونه سلام — فتى حصل لقاء الله كان هناك السلام . واللقاء هنا علمى فمن كان أكثر علما بالله كان أقرب للسلامة والامن . فقد يموت المرء ولايلقى إلا العـذاب ويحجب عن ربه فأين السلامة ولن يلاقى ربه إلا بريئا من الذنوب كامل النفس . هنالك تفاض عليه العلوم ويدرك سرّ الخليقة واذن لا يكون هناك غمّ ولاهمّ لأنه وصل الى منتهى السعادة

فعلى الانسان أن يجدّ فى الأخـلاق والعلم ومنفعة الناس حتى ينال السعادة الروحية ويزيد من ربه قربا ولن ينال السـعادة فى الآخرة وهو لم يحصـل أوائلها فى الدنيا بالاكتساب وتطمـئن نفسه فى الدنيا بعض الاطمئنان وهذا يكمل له بعد الموت . أما الذى مات مضطرب الفكر لاثبات عنده إما لجهالته واما لذنوبه فذلك لايسعد فى الآخرة لأنه لاسعادة فى الآخرة إلا اذا كانت أوائلها فى الدنيا فقوله — تحيتهم فيها سـلام * وآخر دعواهم أن الحمـد لله رب العالمين — مردّد لصوت السلام فى الدنيا وفى المقابلات بين الناس وللمحامد التى يحمدها الله وللمعانى العلمية التى أدركها الانسان فى نظام هذا الوجود . فبدأ السلام والسعادة فى الألفاظ فى الصلاة . وأوسطها فى اكتساب ذلك بالايمـان وتهذيب النفس . ونهايتها حصول السعادة والسلام فعلا

وهو

وهو المعبر عنه بسلام الملائكة ثم سلام الله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) هذا هو القسم المتقدم • ثم أتبعه بما هو فى معناه كالمتمم له فقال • إن الناس يبعدون عن السعادة والسلامة بعدا شاسعا جدّا لتفريطهم فى المقصود من معنى السلام فى صلواتهم وجهلهم القصد من تكرار السلام ﴿ذلك﴾ أنهم اذا أصابتهم مصيبة وهم لم ينالوا درجة من درجات السعادة المتقدمة سئمت أنفسهم وكرهوا الحياة ولعن الرجل أهله ومن حوله وتمنى الموت • ولوأننا سارعنا الى اجابة الشرّ كما نسرع الى الخيرلهلك الناس • فهذا دليل أن هذا الانسان ـ خلق هلوعا ـ يعنى ـ اذا مسه الشرّ جزوعا * واذا مسه الخيرمنوعا ـ وكان يجب أن يكتسب صفة الثبات بأحد الامور الثلاثة المتقدمة • وانما عبر بقوله ـ لايرجون لقاءنا ـ اشعارا بأن هذه الآية من توابع ماقبلها ولقاء الله انما يكون للروح المهذبة الكاملة علما وأخلاقا وغيرها منحط عنها فلا يلقاه فلايرجو لقاءه

ثم أتبعه بجمل أخرى فذكر أن الانسان لاصبر عنده واذا مسه الضرّ دعا الله هلعا فاذا زال الضرّ نسى وانه اذا ذاق النعمة بعد الشقاء والغنى بعد الفقر ساقه البطر الى تكذيب الآيات واتباع سبل الضلالات

وزاد ذلك بما يعتريه فى البحر اذا اضطربت الرياح واختلفت الأمواج كيف يدعو خالقه فاذا نجاه نسيه فهذه الآيات قررت أن الانسان سريع الانفعال يتمنى الموت اذا أصابه الشرّ المعد لتكميله لجهالته ويهلع ويطلب النجاة فاذا نالها غفل وهذه الغفلات علامة الشقاء والبعد عن السلامة وبضدها تتميز الأشياء • انتهى تفسير القسم الثانى

﴿ لطيفة ﴾

إن ابتهال الانسان لله اذا أصابه الضرّ أوأحاطت به الأمواج أووقع فى كرب عظيم دليل على أن للعالم خالقا • ألاترى أن الطفل يلجأ لأمه والفصيل والعجل وأمثالهما كلها ملتجئات الى أمهاتها • هكذا حبات البزر فى ظلمات الطين ملتجئات فى تغذيتها الى الأرض والماء • فاذا ماشبّ الطفل وقوى الحيوان واشتدّ النبات اعتمد كلّ على نفسه بتناول الغذاء من الثمار والهواء فهى مستقلات اذا قويت مبتهلات اذا ضعفت هكذا الانسان القوى اذا أصابه الضرّ وأحاطت به الأنواء كرّ راجعا الى مافى داخل قلبه من نور مخبوء وهو الوجدان الذى يرى أن له مرجعا خارجا عن المادّة فيناديه قائلا ﴿يارب﴾ فاذا نجاه رجع الى قوّته ونسى ربه كما تغذى النبات بالهواء وحرارة الشمس لما قوى واكتفى الحيوان بالنبات مثلا فهذا برهان وجدانى اقناعى على وجود الله

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ، كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللّٰهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (انما مثل الحياة الدنيا) حالها العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا (مما يأكل الناس والأنعام) وهى الزروع والبقول والحشائش (حتى اذا أخذت الأرض زخرفها) زينتها بالنبات واختلاف ألوانه (وازّينت) وتزينت بأنواع الزين وقد أدغمت التاء فى الزاى * وقرئ — تزينت — على الأصل • فقد مثلت الأرض بالعروس وقد أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين (وظنّ أهلها) أهل الأرض (أنهم قادرون عليها) متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها (أتاها أمرنا) عذابنا وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم (ليلا أونهارا فجعلناها) فجعلنا زرعها (حصيدا) شبيها بما يحصد من الزرع فى قطعه واستئصاله (كأن لم تغن) كأن لم يغن زرعها أى لم يلبث أى كأن الأشجار القائمة والنباتات الطيبة والزروع البهجة لم تكن غنيت من غنى فلان بالمكان اذا أقام به وقوله (بالأمس) هو مثل فى الوقت القريب والممثل به مضمون هذا القول وهو زوال خضرة النبات فجأة فيصير حطاما بعد ما كان غضا والتف وزين الأرض حتى طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح (كذلك) كما بينا لكم مثل الحياة الدنيا كذلك نبين حججنا ودلائلنا لمن تفكر لتزول الشبهات ويكون اليقين

وهذا القول متصل بما قبله من تقلب الأحوال على الانسان تارة يطلب الموت والهلاك ويلعن الزوج والأبناء لشوكة يشاكها أوزلة قدم يزلها وأخرى يدعو بالنجاة من الضرّ قاعدا أوقائما فاذا نجاه الله نسى الدعاء والمدعو • وهكذا شانه عندكل نعمة أزالت الضرّ فانه يكيد كيدا ويصدّ عن سبيل الايمان واذا غشيه الموج ودعا بالخلاص وجاءه الفرج لايذكر النعمة ويرجع الى سابق عهده • ثم أتبعه بهذا المثل إذ جعل حياة الانسان أوحظوظه أشبه بعروس ذات جمال وبهجة ودلال قد ازينت للناظرين فلبست من الثياب ألوانا وأخذت من كل زينة أشكالا فصارت حوراء فى حللها وحلاها

فلما أعجبهم حسنها وفرحوا بها وظنوا أنهم منها متمكنون أتتها صاعقة أو برد أوريح جعلتها حصيدا كأن لم تكن قائمة بالأمس • وهذا مثل للمتشبث بالدنيا الراغب فى زهرتها وحسنها ﴿ ذلك ﴾ أن الله لما قال — يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا — أتبعه بهذا المثل لمن بغى فى الأرض وتجبر فيها وركن الى الدنيا وأعرض عن الآخرة • فالمتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون • فحظوظ الدنيا كبهجة النبات معرضة للزوال فجأة كهلاك النبات بصاعقة • ونفس الحياة كذلك يخترمها الموت فجأة والانسان لايشعر بذلك • فحياة الانسان للموت معرّضة كل حين وشبابه وقوّته وصحته وماله وولده وسروره ولذاته كل ذلك قد ضرب له هذا المثل • فالحياة كتلك العروس والقوّة والبأس والذكر والصيت والجمال • كل ذلك داخل فى المثل إذ يعتريها الذهاب والفناء فى لمح البصر أوهوأقرب • فكم من جميل أذهب جماله المرض • وغنى أهلك ماله الجوائح • وعاقل ذكى قتل الذكاء والعقل هموم وأشجان فذهب الى المارستان

وذى

وذى بنين شهود للمحافل فؤاد للجحافل حصدتهم المنون وهم لايشعرون فأصبح فريدا وحيدا • وكم من ذى صيت بعيد وذكر جيل أخنى الدهر على ذكراه بريبة ذكروها وشنعاء تبينوها وذنوب أشاعوها فأصبح الممدوح مذموما • وكم من معجب بشبابه وصحته وهومبتهج نخورجاءه الموت فجأة فأصبح من أهل القبور • هذه المعانى وأمثالها داخلة فى هذا المثل

واعلم أن هذا المثل وما تقدّمه انما جاء بعد قوله فى آخر القسم الأوّل ـ تحيتهم فيها سلام ـ تبيانا لما عليه الناس فى الدنيا من عدم السلامة ومن الشقاء والذلة وذم الحياة والهلع والجزع وما أشبه ذلك من كل مايوجب الاضطراب كما تقدّم فى مثل البحر وأمواجه والنجاة منه الخ ماذكرنا وقرّرنا • وهكذا نفس الحياة وحظوظها الخ • فلما أبان ذلك أيما تبيان وأظهر كيف تكون عدم السلامة فى هذه الدار وكيف يكون الاضطراب والزوال أتبعه بما هو المقصود فقال (والله يدعو الى دار السلام) ومعلوم أن النكرة اذا أعيدت معرفة كانت عين الأوّل فهو سبحانه يقول ها أنتم هؤلاء عرفتم حياتكم ونصبها وتقلب قلوبكم وحظوظكم واخترام آجالكم فى هذه الدار التى لاسلام فيها بحسب طبيعتها فهاأنا ذا أدعوكم الى دار الأمان والاطمئنان والسلامة المذكورة فى قولى ـ وتحيتهم فيها سلام ـ فها أناذا أدعوكم الى دار السلامة من الآفات بعد ماتبين لكم المهالك والمشاق • ثم قال (ويهدى من يشاء) بالتوفيق (الى صراط مستقيم) لأن الناس مختلفون استعدادا • ولما قال هناك ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ بعد قوله ـ تحيتهم فيها سلام ـ أتى بنظيره هنا بعد دعوته الناس الى دار السلام فقال (للذين أحسنوا الحسنى) أى الجنة (وزيادة) هى النظر الى وجه الله الكريم • والنظر لوجه الله الكريم هنا معناه ازدياد العلم بآياته وجماله وحكمه وعجائبه وبدائعه • وكلما ازداد علما ازداد بهجة فهذا النظر بهجة الحكماء والأنبياء وهو يقابل ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ هناك • فقد تبين هنا كيف تكون دار البلاء ثم كيف تكون دار السلام ثم كيف يكون ازدياد العلم بالله المعبر عنه بالنظر • وأنت أيها الذكى تعرف من نفسك الآن أمن أهل الجنة أنت أم من أهل النظر لوجه الله فان كنت صالحا ولكن لاشغف لك ولالذة فى العلم بهذا العالم فأنت تكون فى الجنة وهى دار السلامة • فأما اذا كنت فى جمال العلوم راغبا ورأيت فى نفسك لذة وغراما بها فاعلم أنك ستنظر وجه الله حتما بعد الاستعداد التام

روى صهيب أن رسول الله ﷺ قال « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى أتريدون شيأ أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيأ أحبّ اليهم من النظر الى ربهم تبارك وتعالى ثم تلا هذه الآية ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ » أخرجه مسلم

فالعامّة يتصوّرون شكلا ينظرونه كما ينظرون الملوك • فأما الخاصة فان النظر لوجه الله يبتدى لهم فى الدنيا بعشق مصنوعاته وقراءة العلوم قديمها وحديثها فينفع أحدهم الناس بالعلم كما ينفعهم الله بالخلق ثم أحدهم يعرج فى معارج الكمال متشبها بمحبوبه سائرا فى طريقه محبا لخلقه ناظرا الى جماله الذى تبدّى فى أصناف الشجر والنجم والقمر حتى اذا فاجأته المنون أصبح عند من كان محبوبه وصار الغائب مشهودا والمحبوب موجودا وأدرك إذ ذاك أنه كان معه ولكنه هو عنه محجوب • واذا سمعت سيدنا عليا كرم الله وجهه يفسر الزيادة بلؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب فما ذلك إلا عين ماذكرناه وما اللؤلؤة إلا هذا العالم المخلوق يظهر للعالم مجلوّا جميلا بهيا كلؤلؤة وهو مبدأ النظر لوجه الله الكريم فان العالم الذى نحن فيه جميل كاللؤلؤة ومستحيل أن يعرف الانسان جماله إلا بالعلم • ومتى عرف الجمال عرف من هو الجميل وهذا هو النظر عينه فسيدنا على يرمى الى هذا المقام لأنه يعزّ على الأفهام فعرفه بمثال لأن الحقيقة تخفى على العوام وكثير من الخواص

وقوله (ولا يرهق وجوههم) لا يغشاها (قتر) غبرة فيها سواد (ولاذلة) هوان أى لا يغشاهم حزن وسوء حال (والذين كسبوا السيآت جزاء سيئة بمثلها) عطف على قوله ـ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ـ (مالهم من الله من عاصم) مامن أحد يعصمهم من سخط الله (كأنما أغشيت وجوههم) غطيت (قطعا من الليل مظلما) لفرط سوادها وظلمتها وقوله (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم) أى الزموا مكانكم حتى تنظروا مايفعل بكم (فزيلنا بينهم) أى فرّقنا بين العابدين والمعبودين وميزنا بينهم وانقطع ماكان بينهم من التواصل فى الدنيا (وقال شركاؤهم) أى الأصنام وكل معبود لهم (ما كنتم إيانا تعبدون) تبرأ المعبودون من العابدين فما كانت العبادة فى الحقيقة إلا لأهوائهم ولمن زين لهم تلك العبادة (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى كفى الله شهيدا وهو تمييز (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) إن مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية (هنالك) فى ذلك المكان (تبلو كل نفس) تختبر وتذوق (ما أسلفت) من العمل فتعرف أقبيح هو أم حسن (وردّوا الى الله) الى جزائه (مولاهم الحق) ربهم ومتولى أمورهم على الحقيقة لا ما اتخذوه مولى (وضلّ عنهم) ضاع عنهم (ما كانوا يفترون) من أن آلهتهم تشفع لهم أوما كان يدعون أنها آلهة اهـ

﴿ لطيفة فى النظر لوجه الله تعالى ﴾

لقد اطلع على هذا المقال أحد العلماء ممن لهم قدم فى العلم راسخة . فقال لئن سرّنى فى هذه المقالة حال لقد ساءتنى حال . فقلت وكيف ذلك . قال كيف تجعل النظر لوجه الله الكريم عبارة عن العلم وأى شئ العلم . إنّ الانسان اذا رأى وجها جميلا استلذ به وفرح . فأما العلم فهو معروف ولاشئ فيه من ذلك . فقلت له إن هذا المقام ليس يعرف إلا بعد البيان . حقا إن الانسان اذا نظر وجه الجميل سرّه القدّ والشكل واللون والأنف والفم والعين والخدّ وحسن الهيبة وجمال الزينة والعطف بكسر الأوّل والهيف والحور والشنب وسائر مايقوله الشعراء فى أشعارهم ويبدو فى أقوالهم ولكن العلم شئ والشعر شئ فان حاسة النظر احدى الشبكات الظاهرة الخمس التى يصطاد بها العقل المعلومات والحب على مقدار العلم . فاذا نظرنا الى الجميل وسمعنا نغمته وفصاحته وشممنا طيب ريحه وذقنا مايذاق منه ولمسنا جلده . هنالك يضم الى النظر هذه المذكورات فتتضاعف اللذة ويزداد الحب فكيف بنا اذا تغلغلنا فى باطنه وعرفنا مواهبه الباطنة من عفة وحلم وكرم وأدب وحسن خلق ومعارف وعلوم . هنالك يحصل لذلك العالم به من اللذة به مالا يوصف ومن الحب ماهو أعظم . واذن قد تبين لك أن النظر الذى أعظم قدره الناس ماهو إلا وسيلة من وسائل العلم وليس خارجا عنها وأن اللذة بنظر العين جزئية . فاذا كان المخلوق المشاهد المحسوس لايستلذ به إلا باستكمال العلم به ظاهرا بالحواس الظاهرة وباطنا بادراك العلم فما بالك بمن لاتدركه عيوننا ولاتصل اليه مشاعرنا . فنحن إذن نلتجئ الى العلم الذى عرفت أن النظر من جنوده وندع الفرع ونتمسك بالأصل ونقول المقصود هو الأشرف وهو العلم . ولاريب أن العلم مبدؤه فى الدنيا ومن لم يبتدئ ذلك فى الدنيا فليس له حظ منه فى الآخرة . ألم يقل الله تعالى ـ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ـ فاذن يجب أن يكون للانسان حظ من هذا العلم فى الدنيا وذلك هو النور المذكور يسعى بين يديه بعد الموت ومن لانور له هنا لانور له هنالك

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

(التقصير فى علوم الكائنات يحرم أحياء المسلمين من الغابة وأمواتهم من النظر لوجه الله الكريم)

قد تبين أن النظر لوجه الله الكريم مبدؤه العلم فى الدنيا ومن لم يعلم لم ينظر والعلم يرجع الى النظر فى جمال هذه المخلوقات وعجائب النفس وبدائع الصنع وتركيب الأجسام ونظام الوجود . والناس فى الدنيا اذا قرؤا هذه العلوم على ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قسم يقرؤها لمعاشه كالعلوم الرياضية لنظام الدواوين ونظام

الجند وما أشبه ذلك • وقسم يقرؤها ليتحلى به فى المجالس و يتفاخر به على الأقران • وقسم يقرؤها كما يقرؤها القسمان المتقدمان ولكنه يتحرّى النظام والجمال و يعجبه بهجة التشريح ونظام النبات وحساب الطبيعة وبهجة النجوم وعجائب حركاتها وبدائع أشكالها و يتغلغل فى ذلك وهذا لاشك يهيجه الى الفرح بمن هو السبب الأوّل فيه وهذا مبدأ النظر • وكلما ازداد علما زاد حبا للصانع ولانهاية لهذا العلم كما لانهاية للحب واللذة • هذا هو الحق الصراح الذى لامحيص عنه • والأمّة اذا حظيت بهذه النعمة سعد أحياؤها بالغلبة والمجد وفرح أمواتها بالنظر لوجه الله الكريم • فياعجبا كل العجب لأمّة الاسلام تلك الأمّة التى جاء القرآن بترغيبها فى الآخرة وخاطبها بما يعرفه الخلق من الجنات المحسوسة ولم يشأ أن يترك الجنة الحقيقية والسعادة الأبدية التى هى أعلى من المحسوسات حتى يستنتجها الفلاسفة والعقلاء • كلا بل لوّح لها بقوله – وزيادة – وجاءت السنة فعرّفتنا الزيادة وقالت هى النظر لوجه الله الكريم وأرتنا أن هذا سيكون ألذّ عند أهل الجنة وهنا وصلنا الى مقام الحكمة والعلم • فالكتاب والسنة عندنا أريانا أن النظر لوجه الله أعظم اللذات والنظر يقصد منه العلم فاذا قيل انه بعين تخلق لنا خلاف هذه فى الآخرة فهى أيضا علم واذا كانت أعيننا فى الدنيا من شبكات العلم فالأمر هنالك ظاهر • فكيف تغفل أمّة هذا دينها عن علوم هى النعمة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة • أليس من عجب أن يكون فى هذه الأمّة من يكفر قارىء هذه العلوم وماهى إلا سعادة الأحياء وبهجة الأموات • انتهى تفسير القسم الثالث

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

بِالْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ، وَأَنَا
بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ
* وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ
شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ
يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ
الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ
فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا
مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ *
ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي
الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
* أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ
لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ
خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا
قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ
وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا
يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا
فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلاَ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(قل من يرزقكم من السماء والأرض) باسباب سماوية كالضوء والمطر ومواد أرضية فيكون منهما النبات والحيوان الخ (أم من يملك السمع والأبصار) يستطيع خلقهما وتسويتهما تسوية بديعة تقدم شرحها فى سورة آل عمران ومن يحميهما من الآفات العارضة (ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ) أى من ينشئ الحيوان من النطفة والنطفة منه مثلا وشرح ذلك مذكور فى تفسير سورة الأنعام (ومن يدبر الأمر) ومن يلى تدبير أمر العالم كله علويه وسفليه (فسيقولون الله) فسيجيبونك عن سؤالك أن القادر على هذه هو الله (فقل أفلا تتقون) الشرك فى العبودية اذا اعترفتم بالربوبية (فذلكم) أى الذى تولى هذه الامور المستحق للعبادة (ربكم الحقّ) الثابت ربوبيته فهو الذى أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم وهو المالك لسمعكم وأبصاركم (فماذا بعد الحقّ إلا الضلال) استفهام انكارى أى ليس بعد الحق إلا الضلال (فأنى تصرفون) عن الحق الى الضلال أى فكيف تفعلون ذلك • وكما حقت الربوبية لله أوأن الحق بعده الضلال ثبتت كلمة الله وحكمه على الذين تمرّدوا فى كفرهم وخرجوا عن جادّة الاصلاح وفسدوا لأنهم لايؤمنون وهذا هو قوله تعالى (كذلك حقت كلمة ربك) الى قوله (أنهم لايؤمنون) ثم أخذ يقيم الحجة عليهم فوق ماتقدّم فأخذ يحاورهم بطريق الاستفهام الانكارى فى أمرين (١) خلق هذه العوالم ابتداء منظمة واعادتها (٢) وايجاد الأدلة والمعانى والآراء والحجج التى تهدى النفوس الى مطالبها الحقة فأجاب عن الأوّل بأن الله هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده لأن لجاجهم لايدعهم يعترفون بها وعن الثانى بأن الله هو الذى يهدى للحق لأنه نصب فى هذا العالم دلائل وجعل نواميس تبهر العقول وتنتج علوما كثيرة يستخرج منها الناس أمور معاشهم ومعادهم • ثم أخذ يتم الكلام فى القسم الثانى لأنه المهم فى مقام الهداية فقال هل الذى ينير المسالك ويوضح المشكلات وينصب الأعلام أولى بالاتباع أم الذى هو كالأعمى العاجز لايهتدى إلا أن يهديه سواه • فكيف تحكمون أيها الناس بما يقتضى صريح العقل بطلانه • وكيف تكون الأصنام القائمة العمياء التى لاعلم لها هادية • فالله الذى ملأ هذا العالم بالنواميس المنيرة السبل أولى بالاتباع * يقال هدى للحق والى الحق وكلاهما فى الآية وقوله (أمّن لايهدّى إلا أن يهدى) أى من لا يهتدى إلا أن يهدى * وقرئ - يهدّى - بفتح الياء والهاء وتشديد الدال وبكسر الهاء وفتح الياء وبكسر الياء والهاء وبسكون الهاء وتشديد الدال أى يهتدى فى الجميع وهذا قوله تعالى - قل هل من

شركائكم ـ الى قوله (فمالكم كيف تحكمون) ثم قال (وما يتبع أكثرهم) فيما يعتقدون (إلا ظنا) مستندا الى الخيال والمراد بالأكثر الكل (إنّ الظنّ لايغنى من الحقّ) من العلم والاعتقاد الحق (شيأ) من الاغناء (إنّ الله عليم بما يفعلون) هذا وعيد لهم على اتباعهم للظن واعراضهم عن البرهان (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى افتراء من الخلق (ولكن) كان (تصديق الذى بين يديه) مطابقا لما تقدّمه من الكتب الالهية المشهود بصدقها والنبى ﷺ لم يتعلم علما ولم يأخذ عن أحد وقد جاء فى القرآن قصص وأخبار مطابقة لما فى التوراة والانجيل . فكيف يكون ذلك وهو لم يتعلم ولو أنه لم يطابق مافى تلك الكتب لشنوا عليه الغارة الشعواء ولأنزلوه فى منزلة هو منها براء . فهذا معنى قوله ـ ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ ـ وتفصيل ماحقق وأثبت فى العقائد والشرائع (لاريب فيه) منتفيا عنه الريب كائنا (من رب العالمين) فأخبار كان أربعة تصديق . وتفصيل . ولاريب فيه . ومن رب العالمين (أم يقولون) بل أيقولون (افتراه) محمد ﷺ والهمزة للاستفهام الانكارى (قل فأتوا بسورة مثله) فى النظم والبلاغة وقوّة المعنى على وجه الافتراء فانكم مثلى فى العربية بل أنتم أشدّ تمرّنا وأقرب تمكنا منها بأساليب النظم والنثر (وادعوا من استطعتم من دون الله) أى وادعوا للاستعانة على الاتيان بمثله مااستطعتم من خلقه (إن كنتم صادقين) أنه خالقه (بل كذبوا) سارعوا الى التكذيب (بما لم يحيطوا بعلمه) بالقرآن أوّل ماسمعوه قبل أن يتدبروا آياته و يحيطوا بالعلم بشأنه كالقصص التى قصها وأخبار البعث والنشور والجنة والنار التى ذكرها فانهم ينكرونها لجهلهم بها (ولما يأتهم تأويله) ولم تبلغ أذهانهم معانيه ولم يعرفوا بعد تأويل مافيه من الاخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أصدق أم كذب (كذلك كذب الذين من قبلهم) أنبياءهم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) فسيعاقبون كما عوقبوا اذا أصروا على العناد (ومنهم) من المكذبين (من يؤمن به) أى سيؤمن به و يتوب عن كفره (ومنهم من لايؤمن به) فيما يستقبل بل يموت على الكفر (وربك أعلم بالمفسدين) بالمعاندين أوالمصرين (وان كذبوك) و يئست من اجابتهم (فقل لى عملى) جزاء أعمالى (ولكم أعمالكم) أى جزاء أعمالكم (أنتم بريئون مما أعمل) فلاتؤاخذونى به (وأنا برىء مما تعملون) من أعمالكم فلاأؤاخذكم بها وهذا فى حال الضعف فاما حان حين القوّة تغيرت الحال (ومنهم) أى من هؤلاء (من يستمعون اليك) حين تقرأ القرآن وتعلم الشرائع ولكنهم لايقبلون كأنهم صم (أفأنت تسمع الصم) أى أتقدر على اسماعهم (ولوكانوا لايعقلون) أى ولوانضم الى صممهم عدم تعقلهم بما أسدل على العقول من الأوهام وما أوحت اليه العادة وما انخدعت له من الأضاليل (ومنهم من) ناس ينظرون اليك و يعاينون أدلة صدقك وأعلام نبوّتك ولكنهم لايصدّقون كأنهم عمى لاينظرون بأبصارهم (أفأنت تهدى العمى ولوكانوا لايبصرون) أى أتحسب أنك تقدر على هداية العمى ولوانضم الى فقد البصر فقد البصيرة فهؤلاء كالصم العمى الذين لاعقول لهم وهؤلاء لا يمكن ايمانهم . وكل ذلك بنظام ثابت وحكمة عالية فان ذهاب البصائر وقلة التفكر والعلم والانهماك فى التقليد انما جاءكل بالاستعداد والاستعداد فى النفوس سائر بنظام الخليقة وهذا النظام هوالصالح للوجود فلاظلم فيه لأن الظلم وضع الشئ فى غير موضعه (إنّ الله لا يظلم الناس شيأ) لأنه لايفعل إلاعلى مقتضى العلم والعلم متعلق بالحقائق الثابتة التى تقتضيها الحكمة (ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون) لأن هذه هى حقائقهم التى علمها الله وعلى مقتضاها كان الاستعداد ومن الاستعداد الناقص والتام . وهؤلاء فى نقصهم كالخشب يصلح للوقود ولاظلم فى ذلك وغيرهم كالثمر يأكله الانسان وكلاهما يقتضيه النظام العام . ثم هناك وراء هذا أبحاث لايجوز ذكرها فى مثل هذا التفسير العام وليس ماذكرناه بمثلج للصدور ولاشاف لما فى القلوب فان هذا وراءه أسئلة كثيرة توجه على هذا ولكن لاسبيل الى الاجابة عليها فيجب على طالب الحقائق أن يفتح لنفسه باب العلم والعلم واسع بابه والله يعطى من يشاء . والتصريح بالحقائق يريك جمال الله بأوسع معانيه

وأن رحمته واسعة فاطلب هذا منه هو ولاتفهم العامة لئلا يقدحوا عليك فى دينك وأنت على علم تام

ثم قال واذكر يامحمد يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحشر ومعنى الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم من مكانهم كأنهم لم يلبثوا فى قبورهم أوفى الدنيا إلا قدر ساعة من النهار وذلك لهول مايرون أى ويوم نحشرهم حال كونهم مشبهين بمن لم يلبث الا ساعة وحال كونهم (يتعارفون بينهم) وهى حال مقدّرة أى يعرف بعضهم بعضا كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلا وهذا أوّل مايناشرون ثم ينقطع التعارف لشدّة الأمر عليهم وحال كون الذين كذبوا بلقاء الله قد خسروا أنفسهم (وما كانوا مهتدين) الى مايصلحهم وينجيهم (واما نرينك) نبصرك (بعض الذى نعدهم) من العذاب فى حياتك كما أراه ذلك يوم بدر والغزوات بعده وفتح مكة كما تقدم فى سورة التوبة (أونتوفينك) قبل أن نريك (فالينا مرجعهم) فنريكه فى الآخرة أى اما نرينك بعض الذى نعدهم فيها ونعمت — أونتوفينك فالينا مرجعهم — فهذه الجلة جواب — نتوفينك — (ثم الله شهيد على مايفعلون) أى مجاز عليه فالشهادة أريد نتيجتها وهى المجازاة (ولكل أمّة) من الأمم (رسول) يبعث اليهم ليدعوهم الى الحق (فاذا جاء رسولهم) بالبينات فكذبوه (قضى بينهم) بين الرسول ومكذبيه (بالقسط) بالعدل فأنجينا رسلنا وأهلكنا المكذبين (وهم لايظلمون) والنجاة والهلاك فى الدنيا وهو معلوم وفى الآخرة بأن يشهد الرسول عليهم بالكفر والايمان فيقضى بالعقاب والثواب كما قضى بالهلاك والنصر فى الدنيا (ويقولون) استبعادا لهذا الوعد واستهزاء به (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) يا أيها النبى ويا أيها المؤمنون (قل لا أملك لنفسى ضرّا ولانفعا) فكيف أملك لكم فأستعجل فى جلب العذاب اليكم (إلا ماشاء الله) أى ماشاء الله من ذلك كائن (لكل أمّة أجل) مضروب لهلاكهم (اذا جاء أجلهم فلايستأخرون ساعة ولايستقدمون) لايتأخرون ولايتقدّمون فلاتستعجلوا فيجىء وقتكم وينجز وعدكم (قل) يامحمد لأهل مكة (أرأيتم) أى أخبرونى (ان أتاكم عذابه) الذى تستعجلون به (بياتا) ليلا (أونهارا) وأنتم فى طلب معاشكم (ماذا يستعجل منه المجرمون) أى أىّ شئ من العذاب يستعجلونه وكله مكروه لايلائم الاستعجال . وهذه الجلة الاستفهامية جواب ان . والجلة الشرطية كلها متعلقة بأرأيتم أى أخبرونى أىّ شئ تستعجلون من العذاب ان نزل بكم وكله مكروه لايلائم الاستعجال (أ) تستعجلون العذاب (ثم اذا ماوقع) عليكم ونزل بكم (آمنتم به) أى آمنتم بالله وقت نزول العذاب وهو وقت اليأس كما سيأتى فى هذه السورة من ايمان فرعون وقد أدركه الغرق وقيل لكم (آلآن) أى أحين وقع العذاب تؤمنون (وقد كنتم به تستعجلون) تكذيبا واستهزاء كما قيل لفرعون فيما سيأتى — آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين — فانظر كيف ذكر هذا هنا ليطبق عليه قصة فرعون حتى يعتبروا ويصدّقوا أن الايمان يجب أن يكون وقت القوّة والامكان لا وقت اليأس ثم عطف على قيل المقدّرة (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) الدوام (هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون) من الشرك والتكذيب (ويستنبئونك) ويستنجزونك فيقولون انكارا واستهزاء (أحق هو) أى ما جئت به من وعد وقرآن ونبوّة تقوله بجدّ أم باطل تهزأ به (قل اى وربى انه لحق) نعم وربى ان العذاب لكائن وإى من لوازم القسم ولذلك يوصل بواو فى التصديق فيقال اى والله ولايقال اى وحده ومنه ﴿ ايوه ﴾ مختزل أى والله (وما أنتم بمعجزين) بفائتين العذاب (ولوأن لكل نفس ظلمت) بالشرك أو بالتعدّى على حقوق الناس أوحقوق الله تعالى (مافى الأرض) من المعادن والأنهار والخزائن (لافتدت به) لجعلته فدية لها من العذاب فان مايملكه يقصد به نفع نفسه (وأسرّوا) فعل أسرّ يستعمل لاخفاء الشئ ولاظهاره فهو من الأضداد وهو هنا بمعنى أظهروا (الندامة لما رأوا العذاب) لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من فظاعة الأمر فلم يقدروا على الكتمان (وقضى بينهم بالقسط) أى وحكم بالعدل بين المؤمن والكافر والرؤساء والمرؤسين والظالمين والمظلومين من الكفار (وهم لايظلمون) فيخفف من عذاب المظلوم ويشدّد فى عذاب

الظالم وقوله ـ ولوأن لكل نفس ظلمت مافى الأرض ـ لوفيه حرف امتناع لامتناع وانما امتنع ذلك لأن الملك لله فمن أين يأخذ الكافر الفداء وهذا قوله (ألا ان لله مافى السموات والأرض) وقوله (ألا ان وعد الله) أى ما وعد الله به على لسان نبيه ﷺ من ثواب وعقاب (حق ولكن أكثر الناس لايعلمون) ـ إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ـ (هو يحيى ويميت) هو القادر على الاحياء والاماتة (واليه ترجعون) والى حسابه وجزائه مرجعكم فيخاف ويرجى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) الموعظة مايدعو الى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة . وشفاء الصدور خلوصها من الشكوك وسوء الاعتقاد . فالمعنى اذن قد جاءكم كتاب جمع الحكمة العملية التى تبين محاسن الأخلاق ومقابحها والحكمة العلمية التى تشفى الصدور من الجهالة والشك ثم قال ـ وهدى ـ الى الحق واليقين ـ ورحمة للمؤمنين ـ لأنهم نجوا به من الضلال فى الأخلاق وسوء الاعتقاد (قل) يامحمد (بفضل الله وبرحمته فليفرحوا) ان فرحوا بشئ (فبذلك فليفرحوا) والفاء فى قوله ـ فليفرحوا ـ زائدة نظيرها فى قول الشاعر

* فاذا هلكت فعند ذلك فاجزعى *

وكرر ذلك للتأكيد أى ليفرح المؤمنون بفضل الله ورحمته أى ما آتاهم الله من المواعظ وشفاء الصدور وثلج اليقين بالايمان وسكون النفس اليه وهذا يقرب من قول قتادة « فضل الله الاسلام ورحمته القرآن » وقول غيره « فضل الله القرآن ورحمته السنن » وقول أبى سعيد الخدرى « فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله »

وهذه الأقوال كلها متقاربة ترجع الى أن العلوم والمعارف علمية أوعملية خير من الامور المادّية وهذا هوقوله (هوخير مما يجمعون) من حطام الدنيا فانها سريعة الزوال . واعلم أن المعارف هى مصادر المال فالعلوم مقدمة على الأعمال . ولذلك قيل « نية المرء خير من عمله » والنية من نتائج العلم والعمل نتيجة النية . وقد ظهر فى هذا الزمان بأجلى مظهر أن الأمم المتعلمة تتغلب على الجاهلة فاصبح العلم مصدرا للقوّة والمال . فالعلم يرقى العقول ويصلح الأحوال ويجلب الأموال . فأما جلب الأموال بالطرق العقيمة فانه يضيع الوقت ولايرفع النفس الى معالى الأخلاق . فأما العلم واقتناؤه فان صاحبه يعرف من ضروب الأسباب مايسعده ويسعد أمّته بأدنى عمل كعلم الكهرباء فان استعمالها فى انارة البيوت وجرى المركبات أراح الانسان من عناء المشى والحيوان من تعب الكدّ . فلله درّ العلم فانه راحة للأجسام وسعادة للقلوب فبالعلم فليفرح العالمون وبالنعم الدنيوية فليفرحوا لا باعتبارها أنفسها بل باعتبار أن الله أنعم بها أى فليفرحوا بفضل الله على العبد لابنفس النعم فمن أنعم الله عليه بولد أومال أوذكر فليكن فرحه بأنه صدر من الله وأن الله تفضل به عليه لابنفس النعم لأنها زائلة خسيسة واللذات الخسيسة صائرة للزوال . فأما العلوم والمعارف والفضل الالهى فى ذلك وفى النعم المادّية فهو الذى يفرح به العبد . واذا كان القرآن شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وبه وبأمثاله من فضل الله ورحمته يفرح المؤمنون فكيف جعلتم مما رزقكم الله حلالا وحراما فحرّمتم على أنفسكم فى الجاهلية شيأ وحللتم آخر كما تقدّم فى سورة الأنعام إذ قالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا الى آخر ماتقدّم شرحه هناك وكتحريم السائبة والبحيرة والوصيلة والحام فكيف تفعلون ذلك ولاترجعون فى التحريم والتحليل الى مانزل فى القرآن الذى هوشفاء الخ وهذا قوله تعالى (قل أرأيتم) أخبرونى (ماأنزل الله لكم من رزق) أى أىّ شئ من زرع وضرع خلق الله لكم بانزال الماء من السماء وضوء الشمس والحاجة على الأرض وانبات النبات وخلق الحيوان وانمائهما (فجعلتم منه) أى من ذلك الرزق (حراما وحلالا) كما تقدّم (قل) يامحمد (آلله أذن لكم) أى أخبرونى ـ آلله أذن لكم ـ فى التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك باذنه (أم على الله تفترون) أم أنتم تكذبون على الله فى

نسبة ذلك اليه وقوله ــ ما أنزل ــ ما استفهامية العامل فيها أنزل وكرر ــ قل ــ للتأكيد ، ولما كان الافتراء على الله عظيما أردفه بقوله (وماظنّ الذين يفترون على الله الكذب) أى أىّ شئ ظنهم (يوم القيامة) أيحسبون أنهم لايجازون عليه ويوم منصوب بالظنّ أى أىّ شئ ظنّ المفترين فى ذلك اليوم مايصنع بهم وهو يوم الجزاء بالاحسان والاساءة وهذا القول وعيد عظيم لأنه أبهم أمره والاستفهام للتوبيخ والتقريع لمن يفترى على الله الكذب وليس تقريع الكاذبين وتوبيخهم إلا لهدايتهم وانارة السبل لغيرهم اذا لم يهتدوا فعذاب الله وتوبيخه وأمثالهما يقصد بها جميعها هدايتهم وانارة سبلهم وهذا من جملة النعم فلذلك أعقبه بقوله (إنّ الله لذو فضل على الناس) ببعثه الرسل وانزال الكتب وتبيان الحلال والحرام وتقريع الكاذبين كما فى هذه الآية (ولكنّ أكثرهم لايشكرون) هذه النعمة ولايتبعون الهدى ، ولما كان عموم الفضل من الله لايتمّ إلا وهو عالم بجميع أحوال العباد ظاهرها وباطنها أعقبه بذلك فقال (وماتكون فى شأن) أمر مهم ويكون أيضا معناه القصد فهو على الأوّل اسم وعلى الثانى مصدر (وماتتلو منه من قرآن) أى وماتتلو من أجل الشأن قرآنا (ولاتعملون) أيها الناس جميعا (من عمل) أىّ عمل (إلا كنا عليكم شهودا) شاهدين رقباء مطلعين عليه نحصى عليكم (إذ تفيضون فيه) تخوضون فيه وتندفعون من أفاض فى الأمر اذا اندفع فيه (وما يعزب عن ربك) ومايبعد عنه ولايغيب عن علمه * وأصل العزوب البعد (من مثقال ذرّة) وزن نملة صغيرة حمراء وهى خفيفة الوزن جدّا (فى الأرض ولافى السماء ولا أصغر من ذلك) يعنى من الذرة (ولا أكبر) يعنى منها (إلا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ ولانافية للجنس وفى كتاب خبرها وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر (ألا إنّ أولياء الله) الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (لاخوف عليهم) من لحوق مكروه فى المستقبل (ولاهم يحزنون) على ماخلفوا من خلفهم فلا من المستقبل يخافون ولاعلى الفائت يحزنون ثم بين من هم فقال أعنى أوهم (الذين آمنوا وكانوا يتقون) الشرك والمعاصى (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) بالذكر الحسن وثناء الناس عليهم وبمحبة الناس لهم وببشارة الله فى القرآن بالجنة لهم وبالرؤيا الصالحة يراها الرجل أوترى له وبأن يرى الولى عندالنزع مكانه فى الجنة وبنزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت لهم فهذه البشارات الستة واردة فى كتب التفسير وبعضها فى الحديث وسيأتى ايضاح هذا المقام (وفى الآخرة) هى الجنة وأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وهذا بيان لتوليه إياهم (لاتبديل لكلمات الله) أى ولاتغيير لأقواله ولا اخلاف لمواعيده ومنها ماوعد به أولياءه وأهل طاعته فى كتابه وعلى ألسنة رسله (ذلك) أى كونهم مبشرين فى الدارين (هو الفوز العظيم) أى النجاة الوافرة فازوا بالجنة وما فيها ونجوا من النار وما فيها ، وهاتان الجملتان اعتراض لتحقيق المبشر به وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله ، واعلم أن الولى هو الذى اذا رؤى يذكر الله وهو المؤمن التقى وهو الذى يحب لجلال الله لا لمال ولا لجاه وهو الذى يذكر الله بذكره ويذكر اذا ذكر الله وهو من الولاء وهو القرب والنصرة فهو يتقرّب لله بكل ما افترض عليه وهو مشتغل القلب بالله مستغرق فى معرفة نورجلاله ولايرى بقلبه غير الله ، ولاجرم أن هذه الصفات اتصف بها الأنبياء ومنهم سيدنا محمد ﷺ واذا كان الولى لايخاف اذا خاف الناس ولايحزن اذا حزنوا فالأنبياء أولى ولذلك قال (ولايحزنك قولهم) أى تكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم فى تدبير هلاكك وابطال أمرك ، وكيف تحزن وأنت ولىّ الله كما فى آية أخرى ــ إنّ وليى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ــ واذا كان العبد كذلك فلايخاف من شئ ولايحزن على شئ لوثوقه برحمة الله فى السرّاء والضراء صحّ أومرض حيى أومات ، وكيف يحزن والحياة والموت عنده سيان كما فى آية ــ قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين ــ فجعل النصر والقتل حسنيين فالقتل فى الجهاد حسنى والنصر حسنى ، ولعمرى كيف يحزن من يرى النصر والملك يساويان الموت وترك

الدنيا واذا كان الأمر كذلك فكيف به اذا كان الله وعده بالنصر وله العزة وحده فان عدم الحزن أحرى فلذلك أعقبه بقوله (إنّ العزّة لله جميعا) كأنه يقول كيف تحزن من قولهم فان الغلبة والقهر والقدرة لله جميعا وقد وعدك بالنصر فأنت ستنتصر عليهم فعلام الحزن إذن وقوله (هو السميع) أى لأقوالهم (العليم) أى بعزماتهم فيكافئهم عليها وقوله (ولله من فى السموات والأرض) أى من الملائكة والثقلين • واذا كان هؤلاء مملوكين لا يصلحون للربوبية فغيرهم من باب أولى وهذا استدلال على مابعده وهو (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) وكيف يكونون شركاء وهم مملوكون (إن يتبعون إلا الظنّ) أى انما يتبعون ظنهم أنهم شركاء (وان هم إلا يخرصون) يكذبون فيما ينسبون الى الله، وقوله (هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى مضيئا لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم * تقول العرب «أظلم الليل وأبصر النهار» أى صار ذا ظلمة وذا ضياء (إنّ فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى سمع اعتبار وتدبر (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن اتخاذ الولد وتعجيب من كلمتهم الجاهلة • وكيف يكون له ولد والولد انما يكون «لأمرين» أن ينفع أبويه فى كبرهما وأن يكون بقاء لذكرهما بعد فنائهما والله (هو الغنى) واذا كان الولد لتقوية ضعف الوالد ولغناه من فقره وليتشرّف به من ذله فكيف يكون لله ولد وهو غنى عن ذلك كله (له مافى السموات ومافى الأرض) ملكا ولاتجتمع البنوّة مع الملك • وهاتان الحجتان تدحضان أن له ولدا فلاحجة لكم أيها الناس فى ذلك وهذا قوله (ان عندكم من سلطان بهذا) أى ماعندكم حجة بهذا القول فان الولد لمن افتقر اليه ولافقر عندى والولد لا يكون مملوكا وأنا أملك السموات والأرض ومن فيهنّ فكيف أملك ما ألد والملك والولادة لايجتمعان فلذلك وبخهم فقال (أتقولون على الله مالاتعلمون) فهذا توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم ولذلك رتب عليه قوله (قل إنّ الذين يفترون على الله الكذب) باتخاذ الولد واضافة الشريك اليه (لايفلحون) لايفوزون بالجنة ولاينجون من النارلافترائهم (متاع قليل) يقيمون به رئاستهم فى الدنيا وهم كافرون (ثم الينا مرجعهم) بالموت فيلقون الشقاء المؤبد (ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم • انتهى التفسير اللفظى لهذا القسم

«غرائب القرآن فى سورة يونس وهود ويوسف بمناسبة قوله تعالى – قل من يرزقكم من السماء والأرض – الى قوله تعالى – ذلكم الله فأنى تؤفكون –»

جلّ الله وجلّ العلم والحكمة وعظمت المنة وظهر النور وبهر وتجلت الآلاء باهرة زاهرة

يارب هل نامت الأمم الاسلامية هذه القرون عن هذه البدائع القرآنية • يقول الله فى أوّل سورة يونس التى نحن بصدد الكلام عليها ماملخصه

(١) ان الذى ربا كم هو الذى خلق السموات والأرض

(٢) وهو الذى استوى على الملك

(٣) وهو الذى يدبر الأمر

ويقول هنا فى مقابلة الأوّل – قل من يرزقكم من السماء والأرض – وفى مقابلة الثانى انه يملك أسماعكم وأبصاركم ويخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحى – وهذه الأعمال من مقتضى الاستيلاء على الملك وفى مقابلة الثالث – ومن يدبر الأمر –

ذكر هذه الأمور فى أوّل السورة على هيئة الخبر وذكرها هنا على هيئة الاستفهام وذكر فى ختاميهما تدبير الأمر فالعناية متوجهة الى تدبير الأمر وهذا كقوله فى سورة الطلاق – الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ لتعلموا أن الله على كل شئ قدير * وأنّ الله قد أحاط بكل شئ علما – • فالعناية موجهة فى هذين المقامين الى التدبير العام والنظام • هذا مقام الشهود

فهذا

فهذا هو المقام المحمود ومقام الشهود الذى جاء فى سورة آل عمران ـ شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ـ أنزلت يا الله القرآن وصرّفت فيه من كل مثل وقلت فى هذه السورة كما قلت فى غيرها • ياعبادى هاأناذا أدبر الأمر من السماء الى الأرض فانظروا هذه المشاهد وزوروا هذه المعاهد أما أنا فقد عجبت كل العجب من أمم ينزل كتابها موجها عنايته الى هذا المقام المحمود ومقام الشهود مقام العلم والحكمة مقام الحكماء الذين يقرؤن علوم هذه الدنيا فبها يعيشون وبها يوقنون وبها يعرجون الى العالم القدسى • ياليت شعرى هل يعلم الناس بعدنا • هل يعلمون أن سياسة القرآن وان كانت متوجهة الى الدعوة الى الله قد تضمنت جميع مطالب الدنيا فانه يستحيل علينا أن نشهد هذا التدبير والنظام إلا بعد دراسته ومتى دورسناه قام فريق منا فاختصّ بالمقام المحمود مقام الشهود فعرجت روحه الى المقام الأقدس وهذا كقوله فى سورة البقرة ـ لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ـ فجميع العلوم الكونية مبدؤها النظام الدنيوى ونهايتها الرقى العقلى وشهود التدبير • وانى أحمد الله وأشكره أن هيأ الأسباب وأعدّ العدد لهذا المقام بهذا التفسير فهو ان شاء الله كاف لمن قرأه أوجله وفهمه يهديه الى مقام الشهود وبه يكون من أولى العلم الذين هم معطوفون على الملائكة الذين يشهدون الوحدة سارية فى هذا العلم مع العدل والقيام بالقسط • ولهذا وأمثاله يقول الله تعالى ـ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ـ هذا مقام العلماء والحكماء والأولياء • هذا مقام الحمد ومقام الصدّيقين وسيكثرون فى هذه الأمّة عما قريب

هذا ما تجلى فى نفسى اليوم صباح السبت السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ ﴿أما سورة هود﴾ فلقد تجلى فيها ماستراه هناك من العجب • فستجد هناك من آيات الله الباهرة التى لم تعرف حق معرفتها إلا فى زماننا وستشهد هناك مشهدا يبهرك وترى نور الله مشرقا على الحيوانات وتدرك منها مالم يكن ليخطر ببال حكيم من أكابر الحكماء فبينما ترى حيوانا أمامك له لون أوشكل فتمرّ عليه بلا فكر اذا بك أمام مشهد إلهى باهر عجيب • أتدرى لم هذا • هذا لأن الله ذكر فى أوّل السورة أنه مامن دابة فى الأرض إلا عليه رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها • ثم بعد آيات كثيرة جاءت قصة هود وأعاد الكرّة على مسألة الحيوان فقال ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ • إذن يعلم العقلاء أن هذا سر ايجب التنبه له • فكما كان السرّ فى سورة يونس تدبير الأمر العام • هكذا كان السرّ فى سورة هود تدبير أهم الامور فى الأرض وهو عالم الحيوان • ولعله لذلك سميت السورة بهود لأن أهم ما فيها انما هو الأخذ بناصية الحيوان المذكورة فى قصة هود • يرشدنا الله بعنايته بتدبير الأمر واعادة ذكره وبنظام الحيوان وكلاءته الى أن القرآن أنزل لمثل هذا أنزل القرآن لأقوام يعقلون هذه النعم ويفكرون فى التدبير المحكم العام تارة والخاص أخرى • أفلا تعجب معى ياصاح كيف نام المسلمون وهم يقرؤن القرآن ويدرسون التفاسير أين كانت عقول المتأخرين • اللهم إنى قد نصحت وأدّيت ماعلىّ • اللهم فاشهد فانه لاعذر للمسلمين بعد ماكتبته فى هذا التفسير ولاعذر لمن عرف هذا ولم يصرف حياته فى نشر هذه الفكرة فى أمم الاسلام

أما سورة يوسف فقد جاء فى أوّلها ـ تلك آيات الكتاب المبين ـ ثم أعاد ذكر الآيات قبيل أواخر السورة فقال ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ـ

يقول ليست قصة يوسف ولاغيرها هى كل الآيات • ان أهل الأرض مغمورون فى الآيات تحيط بهم من كل جانب ولكنهم عنها معرضون • إذن سورة يوسف عنايتها بالنظام العام • وسورة هود عنايتها نظام الحيوان وسورة يوسف وجهتها أن التدبير العام والتدبير الخاص كلاهما دلالات على الله وهى كثيرة جدّا حتى ذكرها بلفظ ـ كأين ـ

﴿ مقاصد قصص القرآن ﴾

اعلم أن قصص الأنبياء أشبه بأشجار ذات فروع وأوراق وأزهار ٭ فالجهلة يكتفون منها بظواهرها والحكماء والعلماء يبتغون ثمراتها ٭ فترى صغار العلم يبحثون فى الآثار وفى كتب التاريخ يقول أحدهم أين قوم عاد ٭ أين آثار ثمود ٭ وهل نجد فى آثار المصريين ذكر يوسف . وهل حقيقة كان يوسف وزير المالية ودبر الامور ٭ فبينما هؤلاء يضيعون أوقاتهم فى ذلك عسى أن يعثروا على ضالتهم المنشودة فيؤمنوا اذا بالطائفة الحكيمة تعرض عن هذا وتقول هذه أشجار وأزهار جاءت لواعظنا نحن آمنا بها والايمان لن يكفينا فلابدّ من اليقين وأين هو اليقين ثم يجدون ذلك اليقين فى ثنايا القصص إذ يقول هود ان كل دابة أخذ الله بناصيتها وفى يوسف أن قصته ليست هى كل شئ فالدنيا كلها آيات فاليقين والرقى فى الدنيا والآخرة انما يكون بالتوجه للمقاصد والثمرات لا للأغصان والزهرات ولذلك ختم سورة يوسف بأن فى قصصهم عبرة لأولى الألباب اشارة الى أن الناس ﴿ قسمان ﴾ قوم أولو ألباب ٭ وقوم أولو قشور ٭ فأولو الألباب يعمدون الى لبّ هذه القصص وأهل القشور يرجعون الى قشور العلوم كعلم الآثار فى المتاحف أوفى نواويس قدماء الأمم عسى أن يعثروا على تصديق هذه

كلّ له غرض يسعى ليدركه ٭ والحرّ يجعل ادراك العلا غرضا

﴿ للتدبير ثمرتان ثمرة علمية وثمرة عملية ﴾

إنّ تدبير الأمر الذى ذكره الله هنا وفى آيات أخرى قد ظهر لك أيها الذكى ظهورا على قدر الطاقة الانسانية وقد رجع الى نظام هذه الدنيا وحسن اتقانها وعجائبها ومن نال هذا الحظ فى هذه الدنيا فانه يختلس له أوقاتا يلحظ فيها جمالا لا يعقله الغافلون فينسلخ من هموم هذه الدنيا انسلاخا موقتا ٭ وهذا الانسلاخ يقرّبه من السعادة ويبعده من شقاوة المادّة ٭ وهذا هو المعنى فيما ورد ﴿ اذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة يارسول الله قال مجالس الذكر ﴾ ولسنا نبحث الآن فى صحة سند الحديث وانما معناه صحيح لأن الذين أدركوا معنى هذه الدنيا يتخلصون من ذل الحياة وأسر المادّة فى بعض أوقاتهم وهذا هو الذى يشير له الحديث ﴿ أرحنا يابلال بالصلاة ﴾ واليه الاشارة فى قوله تعالى ـ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ـ فأثقال هموم الحياة فيها آلام قد تصير أشدّ من ألم النار بل كثيرا مايحرق الانسان نفسه فى أيامنا هذه تخلصا من هموم هذه الحياة ٭ إذن هموم حياتنا قد تعادل النار وقد تكون أشدّ منها ٭ وكم ورد من الأخبار فى هذه السنة عن قوم أحرقوا أنفسهم وأنا نفسى أعرف رجلا بعينه فى قرية (المرج) بالقرب من القاهرة عامت منذ شهرين أنه تخلص من آلامه المرضية بايقاد النار فى جسمه فمات محترقا بالنار تخلصا من نار المرض الشديد ٭ فاذا جعل الله النار المحسوسة على ابراهيم بردا وسلاما فهو يجعل نار الحياة التى تشبهها أوتزيد عليها بردا وسلاما أيضا وذلك بابتهاج النفس بالعلوم العامّة الداخلة فى قوله ـ يدبر الأمر ـ

﴿ ضرب مثل لهذا المقام وهو الاستلذاذ بمشاهدة التدبير ﴾

اعلم أن جميع العلماء الذين أغرموا بعلم خاص كالطب وكالهندسة وكعلوم اللغة وكعلم الحيوان ٭ وهكذا يحسون براحة من هموم الحياة فى الوقت الذى يحصرون همتهم فى علمهم ويحسون بلذة ٭ فهناك ﴿ أمران ﴾ نسيان هموم الحياة فى لحظة الاشتغال بالعلم ولذة نفس هذا العلم ٭ فاذا كان هذا فى علم جزئى فما بالك بمن نظره فى هذا النظام العام كما هو مذكور خلال هذا التفسير ٭ لاجرم ان هذه الطائفة لها لذة أعلى من لذات غيرها ثم يعقبها آلام الحياة المعتادة وهكذا ٭ فهذه هى الثمرة العلمية للعلم بالتدبير العام

﴿ الثمرة العملية لذلك التدبير ﴾

أما الثمرة العملية فاعلم أن التدبير كلما كان أتمّ كانت الوحدة أقوى وأكمل وكلما كان التدبير أنقص

كانت

كانت الوحدة أضعف . ولعلك تقول هـذا لغز فما معنى ضعف الوحدة وماقوتها أقول . اعلم أن الأمم التى فوق هذه الأرض ونعيش معها من أمم الشرق والغرب ﴿ قسمان ﴾ أمم تعالمت وعقلت فقامت بالعدل فى أمور الحياة واتصفت بصفات الانسانية فهذه يكثر عددها كأمم الألمان والطليان وهكذا الولايات المتحدة فهذه الأمم عظمت وقويت وحدتها وهذه الوحدة لم تتم لها إلا بنظام وتدبير . ولولا حسن التدبير والتعقل ما اجتمعوا فالاجتماع نتيجة حسن التدبير والنظام . فأما الأمم الجاهلة فهى التى يقلّ فيها حسن التدبير فتتفرّق شيعا ويذوق بعضها بأس بعض . فالأعراب فى البوادى والأمم الجاهلة نراهـم متفرّقين يحارب بعضهم بعضا . واعلم أننا فى زماننا نرى الأمّة العظيمة الواسعة الأكناف الكثيرة العدد تسطو على التى قل عددها وكأن الله بذلك يذكرنا بأنكم أيها الناس مادمتم غير عاملين بنظامى غافلين عن حكمتى فى تدبيرى فانكم مغلوبون على أمركم . ألاترون أنكم لما قلّ عددكم سلطت عليكم من هـم أكثر جمعا لأنهـم غالبا ما كثر جمعهم إلا لصلات بينهم وحكومات تقضى بالحقّ فى مشكلاتهم . فأما المتنابذون المتشاكسون فانى أسلط عليهم الأقوياء الذين قلدونى فى عملى . انى دبرت هذه الدنيا وجعلتها عالما واحدا ولذلك تراه متصلا غير منفصل يستمدّ بعضـه من بعض والناس لما عجزوا عن تقليدى فى صنعتى عذبتهم على مقدار هذا العجز ولوأنهم قلدونى فى تدبيرى لكانوا أوفر جمعا نخاف عدوّهم منهم لوحدتهم القوية المستمدّة من وحدانيتى

هذا ما فهمته من قوله تعالى ــ ومن يدبرالأمر ــ فى هذه الآيات وملخص هذا كله أمران ﴿ الأمر الأوّل ﴾ أن الناظر فى هذا العالم الذى درسه يكون له أوقات يلمح فيها جناب القدس وينال بهجة لايعرفها سواه ﴿ الأمر الثانى ﴾ أن الأمم التى هى أتم نظاما تكون أوفر عددا والعكس بالعكس ويكون العزّ غالبا لكثرة العدد المنظم أولقوّة الجماعة التامّة والذل لمن ليس كذلك

﴿ كيف يشهد الناس التدبيرفى هذا النظام ﴾

اعلم أننا مادمنا فى هـذه الأرض فاننا لانشاهد صانع هذا العالم بحواسنا كالسمع والبصر الخ لأن هذه لاتدرك إلا الأجسام وانما تدرك آثاره فى نظامه وتدبيره وتبتهج ويكون ذلك سعادة معجلة فى الدنيا وهى أرقى السعادات لأنها خاصة النفس الانسانية . فاذا انسلخنا من هذه الأجسام إما بالموت واما بالرياضات . فقد نرى فوق مايراه الناس فى الأرض ولكن لانشاهد الله عزوجلّ قط إلا اذا خلصت أرواحنا من كل مايلازمها من عوائق الكمال فانها بعد الموت مادامت ملطخة بالآثام فانها تكون أشبه بالمادّية ولاتزال ترتقى فى الصفاء طبقا عن طبق حتى تصيرروحا خالصة أشبه بالملائكة فتعاين الله

ولما كان الانسان فى هذه الأرض على هذه الحال ذكر فى المرتبة الثالثة فى قوله ــ شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم ــ فأولو العلم فى الأرض يشهدون آثار النظام والملائكة يشهدون مشاهد أرقى ولايعلم الله حقّ معرفته الا الله تعالى وليس كلامنا فى الأنبياء فهذه طبقة لها مقام لسنا من أهله حتى نخوض فيه . انتهى

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ــ ألا إنّ أولياء الله الخ ــ وتحقيق هذا المقام ﴾

اعلم أن قوله تعالى ــ وماظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ــ متصل بقوله تعالى ــ ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ــ فأما مابينهما وهوقوله تعالى ــ انّ الله لذو فضل على الناس ــ وما اتصل به من ذكر أن الله مطلع علينا حين نندفع فى شؤننا وحين نتلو القرآن لأجل تلك الشؤن ونعمل بمقتضاه وحين نعمل أى عمل وأن الله عزّوجل لايغيب عنه شئ صغير أوكبير وذكر الأولياء وأنهم لاخوف عليهم الخ وذكر صفاتهـم وأمر النبيّ ﷺ ألايحزن وتذكيره بأن العزة لله جميعا وذكر أن لله مافى السموات ومافى الأرض فهذا كله كمقـدّمات لقوله ــ ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ان يتبعون الا الظنّ ــ لتأييد قوله

أوّلا - وماظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة - واعلم أن عادة القرآن أن يدخل فى غضونه من المصالح والمعارف والحكم مايثلج له قلوب المستبصرين فبينما تراه يثبت عدم الشريك وخطأ الكافرين تراه يأتى لك بالعجب العجاب من عموم علمه وانصر أوليائه وكأن حكاية الكفار كانت سببا فى ادخال هذه الحكمة العجيبة الجليلة

واعلم أن مدار المقال فى هذا المقام على عموم علم الله لكل صغيرة وكبيرة وأولياء الله تعالى هم الذين تقدّم تعريفهم بأنهم المتحابون فى الله كما فى حديث مسلم ﴿ يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لاظلّ إلا ظلى ﴾ وفى رواية الترمذى ﴿ لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء ﴾ وفى رواية ﴿ يجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن يفزع الناس ولايفزعون ويخاف الناس ولايخافون ﴾ وتقدّم أيضا تعريفهم أنهم يذكرون بذكر الله ويذكر الله بذكرهم فقد روى أن النبى ﷺ قال ﴿ قال الله تبارك وتعالى إنّ أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم ﴾ وهذا ذكره البغوى بغير سند

فهؤلاء الأولياء لايخافون ولايحزنون . واعلم أن فى الولاية معنى القرب وليس القرب من الله بالمكان وانما القرب له بالعلم . فاذا علم العبد أن الله سبحانه هو الذى نظم هذه الكائنات وأحاط بها علما وربط العالم العلوى بالسفلى بحيث جعل ضوء الشمس والقمر والكواكب نافعا لزرعنا ولنا وللحيوان وجعل حركات تلك الأجرام معلمة لنا وهادية بحيث نعرف بها أوقاتنا وسير سفننا فى البحر بمواقع النجوم وكأن هذا العالم كله جسم واحد فكل حركة وسكون معلومة عنده جعلت لمصلحة حتى أدنى حركة من كوكب وهذه الأرض التى نحن عليها ومن هم فوقها مرتبطون بالعوالم الأخرى ارتباطالا انفكاك له

فاذا عرف العبد هذا وأيقن به ثم زاد ذلك الايقان بما يرى من الأدلة والبراهين الدالة على علم الله تعالى بكل صغيرة وكبيرة فانه لايخاف ولايحزن وقد قال الله تعالى فى آية أخرى - إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم - فهذه الآية تشير الى أن العبد متى أيقن أن الله يعلم كل شئ وقد كتبه فى اللوح المحفوظ فانه لايحزن ولايفرح لأنه يعلم أن ذلك لابدّ منه وأن الله يفعل لمصلحة العبد ولايظلم أحدا وأن العبد اذن لاتقصير عنده لأن القدر غالبه فالمدار على ايقان العبد بأن الله يعلم كل شئ وهذا اليقين عزيز الوجود وانما الذى فى القلوب انما هو الايمان والايمان أقلّ من اليقين

ولما كان المقام مقام العلم وعمومه لكل شئ أتبعه بذكر الأولياء للاشارة الى أن ولايتهم انما جاءت من جهة اقترابهم بالعلم . ومن عجب أن يذكر فى الحديث ﴿ الرؤيا الصالحة يراها الرجل أوترى له ﴾ فعن عبادة بن الصامت قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى - لهم البشرى فى الحياة الدنيا - قال هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أوترى له (أخرجه الترمذى) وفى البخارى عن أبى هريرة قال ﷺ ﴿ لم يبق بعدى من النبوّة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة ﴾ وفى البخارى أيضا أن رسول الله ﷺ قال ﴿ رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوّة ﴾ وروى مسلم ﴿ وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا والرؤيا ثلاث الرؤيا الصالحة بشرى من الله . ورؤيا تحزين من الشيطان . ورؤيا مما يحدّث المرء نفسه ﴾

قال العلماء إن ولىّ الله لاستغراق همه فى جلال الله يكون عند النوم مشغول القلب بالله فلايرى الا صدقا

* ويقال انما كانت جزأ من ستة وأربعين لأن مدّة الوحى ٢٣ سنة وكان فى ستة منها يؤمر فى النوم بالانذار وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزأ

أقول إن فى ذكر الرؤيا هنا اشارة الى أمر عجيب وعلم أحكم فان الناس كما قاله بعضهم لم يصدّقوا الأنبياء إلا لما ركز فى نفوسهم من أن فيهم من يرى بعض رؤى صادقة تقع كما رؤيت فلذلك جوّزوا أن يكون من

الناس من يطلع على المغيبات الدينية كالأنبياء . وأيضا أن الانسان اذا رأى رؤيا ووقعت كما هى وكان قد رآها قبل وقوعها فان ذلك دليل أن الله تعالى يعلم كل شئ قبل حصوله واذا كان العبد قد علم ذلك قبلها بزمن يسير فالله يعلمه قبل خلق الانسان فعليه تكون الرؤيا الصادقة من الدلائل عند الناس أن الله يعلم كل شئ قبل حصوله والايمان لا يكفى لذلك لأن الايمان لايعطى الناس اليقين وانما الايقان بأحوال أخرى فوق الايمان

فاعجب لذكر أولياء الله بعد ذكر علم الله وكيف كانت الولاية هى القربى والقربى انما تكون بالعلم ومن زاد علمه بهذا العالم ونظامه وأيقن بانتظامه ورأى تناسق العوالم العلوية والسفلية وارتباط بعضها ببعض وأن حركات الكواكب لها اتصال تام بعالمنا ونظامه وهذا النظام أشبه بما فى الصلاة من الدعاء بالهداية العامة إذ يقول المصلى ـ اهدنا الصراط ـ ولايقول اهدنى وحدى . ويقول إن الحامد لله لأنه ربى العوالم كلها . ويقول إن التعظيمات كلها لله ويلقى نظرة على النبوة العامة وعلى الناس الصالحين كأنهم شخص واحد تصلهم السلامة من الله الذى يسلم عليهم يوم القيامة . أقول فمن ينظر للعوالم وهى مرتبطة ارتباطا محكما وللأمة كلها وارتباطها فى دعاء المسلم وانهم جميعا متضامنون متحابون يدعو آخرهم لأولهم ويعلم أولهم آخرهم كما ارتبطت العوالم كلها بعضها ببعض فانه يعتريه الدهش من نظام بديع وثيق ويحار لبه لاسيما اذا لاحظ تألق الأنوار المشعة فى نواحى هذا العالم وحسابها الدقيق البديع فانه يخر ساجدا لتلك العظمة ويحب ذلك الجمال ويبحث فى العلوم على ضالته المنشودة ويرى أن بغيته أن يقف على ذلك السر المصون وأن العالم كجسم واحد تدبره ذات واحدة لايعزب عنها صغير ولا كبير من أموره ثم اذا ازداد هذا الرأى عنده فعرف أنه لا يفعل إلا لمصلحة لذات المخلوق نفسه وأن الخير والشر الجاريين على كل مخلوق انما جعلا لكماله . واذا تأكد عنده أن الله يعلم كل شئ وهو المحرك لكل شئ فانه لامحالة يزول عنه الخوف والحزن فلايخاف من مستقبل لأنه يرى الله الرحيم هو الذى يتولاه كما تولى كل حيوان ونبات ولايحزن على ماض لأنه يعلم أنه لافعل له فكيف يندم على مالاقدرة له عليه . واعلم أن الناس وان كانوا مؤمنين لايزال يساورهم الوسواس ويقولون لوفعلنا كذا لحصل كذا ويخافون من أحوال آتية فى الحياة و بعد الموت وذلك لعدم ثقتهم بأن الله مطلع على الصغيرة والكبيرة ولوعلموا ذلك مع علمهم أنه أرحم من الأم ماهلعت قلوبهم ولاجزعت نفوسهم ولكنهم إلا قليلا منهم لايعلمون ذلك فكانت الرؤيا التى وردت فى البخارى ومسلم أنها من المبشرات نافعة أيضا فى ايقان الناس بأن الله يعلم الأشياء قبل حصولها فيستيقظون لذلك العلم ويفتح لهم باب المعرفة فيرون الله مطلعا على العباد ولايعزب عنه مثقال ذرة فيقل الحزن والخوف

واعلم أن الأولياء والأنبياء والعلماء والأكابر والحكماء جميعا يخافون ويحزنون ولكن الخوف والحزن عندهم جزئى لا كلى لأنهم يعتقدون نهاية كل شئ وأن الله هو الخالق فيفوضون الأمر اليه . وأيضا اذا جد العبد واجتهد وفعل كل ماوجب عليه ثم نزل المقدور فحزنه يكون ضئيلا بالنسبة لحزن الجهلا الذين قصر نظرهم . هذه هى الحال العامة فى سائر الأولياء والأنبياء فجميعهم هذه حالهم على سبيل الاجمال وهناك حال خاصة ﴿ذلك﴾ أن العبد اذا استغرق فى معرفة الله بحيث لايخطر بباله فى تلك اللحظة شئ مما سوى الله ففى هذه الساعة تحصل الولاية التامة وصاحبها لايخاف شيأ ولايحزن بسبب شئ . وكيف يعقل ذلك والخوف والحزن لايحصلان إلا بعد الشعور بالشئ . والمستغرق فى نور جلال الله غافل عن كل ماسوى الله فيمتنع أن يكون له خوف وحزن وهذه درجة عالية والناس فى كل وقت يشاهدون من هو مغرم بمعشوقه حتى ينسى ماله وولده . ومن هو مغرم بقتال عدوه فينسى ولده وماله وقت الانهماك فى القتال . ومن هو مستغرق الهم فى شؤن أخرى وكلهم على هذا المنوال وهذه حال خاصة ليست دائمة . وكل هذا الذى ذكرناه فى الدنيا . أما أحوال الناس فى الآخرة فالأولياء والأنبياء هم الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون فهذا

﴿ حكاية ﴾

عن ابراهيم الخواص أنه كان بالبادية ومعه واحد يصحبه فاتفق فى بعض الليالى ظهور حالة قوية وكشف تام له فجلس فى موضعه وجاءت السباع ووقفت بالقرب منه والمريد تسلق على رأس شجرة خوفا على نفسه منها والشيخ ماكان فزعا من تلك السباع فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففى الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة فقال المريد كيف تليق هذه الحال بما قبلها فقال الشيخ انما تحملنا البارحة ماتحملناه بسبب قوّة الوارد الغيبى فلما زال ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله . وهذه الحكاية سواء أصحت أم لم تصح رمز لحال جميع الناس أنهم ان ورد وارد عليهم أهمهم شغلهم ذلك الوارد فرب رجل تقطعه السيوف فى الحرب وقدغاب شعوره من خوف أوذهول وهنا فى حب الله قديغيب الشعور للحب أوالمشاهدة جمال غالب فى النفس . وعلى ذلك تفهم مايتغنى به كثير من الناس من قول ابن الفارض

وبما شئت فى هواك اختبرنى * فاختيارى ما كان فيه رضاك

فان هذا القول نقله صاحب الاحياء الذى كان قبل ابن الفارض بأكثر من قرن عن بعض الصوفية وقال ان قائله أصيب بحصر البول ثلاثة أيام فاضطر أن يجمع الأطفال و يقول لهم قولوا فلان كذاب فلان كذاب ثم عفا الله عنه وشفى . والحاصل أن الناس فى الدنيا أقسام

(١) منهم من يرى أن العالم مادّى لاعقل فيه وكل مافيه انما هو مصادفات وحمق وحزن . وهؤلاء يحزنون ويخافون

(٢) مؤمنون بالله ولكن هؤلاء فى أكثر الأوقات غافلون عن أنه مطلع ومقدّر لكل شئ فهؤلاء ربما قلّ الحزن والخوف عند التذكير ولكنهم فى أكثر الأحوال مثل غير المتدينين يسيرون على مقتضى العادة من الهلع والجزع

(٣) مؤمنون أتقياء صالحون وهؤلاء بتكرار ذكر الله والاعتبار يقلّ الحزن عندهم ولكن هذا ليس مطردا فيهم . ومنهم من تغلبه الحال فلا يخاف ولايحزن إذ ذاك فاذا زالت تلك الحال رجع الى عادته

(٤) مفكرون عرفوا أن الله مطلع على كل شئ ولايعزب عنه مثقال ذرّة فى الأرض ولافى السماء . وهؤلاء ربما يقل الحزن والخوف عندهم ولكن ذلك يعوزه أن يقف المرء بنفسه على أن الله يعلم كل ذرّة ويكون ذلك نصب عينيه ببراهين لاتقبل الشك عنده ويقتنع هو بها وهذا يكون أقرب الى السعادة فلاخوف ولاحزن عنده إلا قليلا وهذا هو المذكور فى قوله تعالى ـ إنّ ذلك فى كتاب إنّ ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا الخ ـ

والحق أن الانسان لايهدأ له بال إلا اذا أيقن وشاهد أن هذا العالم فى يد الله وأنه المطلع على صغير الامور وكبيرها وأنه لايفعل إلا لمصلحة العبد وأن كل مايفعله العبد أو ينتابه كان مقدّرا فى الأزل . متى تمّ ذلك تمت سعادة المرء فى الدنيا قبل الآخرة لأنه أصبح ولاحزن عليه ولاخوف . وكيف يخاف وهو يعتقد أن الله رحيم وأن ما أصابه من خير ليس من نفسه وما أصابه من شرّ ليس من نفسه وأن ذلك بالقضاء والقدر والله لاتبديل لكلماته ومقدّراته فانها كلها بقضاء الله ولاتبديل لذلك القضاء وهذه راحة تامّة نفسية . فاذا انضم لذلك أن يكون المرء متوكلا على الله حقا أى قائما بكل الواجبات وكل مايجب عليه وقام فى حياته على السنن المرسوم الطبيعى فمثل هذا العبد سعيد اليوم وسعيد غدا فلاحزن اليوم ولاخوف ولاشقاء غدا . واياك أن تظنّ أن التوكل على هذا النمط غير سائغ فلتعلم أن المتوكل ان لم يقم بكل ماذكرته فهو مغرور وليس بمتوكل

انتهى القسم الرابع

(القِسْمُ الخامِسُ)

قِصَّةُ سَيِّدِنَا نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

اعلم أن الله لما ذكر فى هذه السورة أمر الكفار وانهم لا يفلحون وأن العزة لله جميعا وأن لكل أمّة أجلا وأن العذاب آت وماأشبه ذلك من الوعيد تصريحا وتلويحا ناسب أن يذكر قصة لأن التاريخ أحكم فى النفوس وأوفق للعدول وأشدّ وقعا وأعظم وعظا فقال (واتل عليهم) يامحمد (نبأ نوح) خبره مع قومه (إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم) عظم عليكم وشق (مقامى) مكانى يعنى نفسه كقوله تعالى ـ ولمن خاف مقام ربه جنتان ـ أى خاف ربه أومقامى أى مكثى بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عاما (وتذكيرى) إياكم (بآيات الله فعلى الله توكلت) وثقت به (فأجمعوا أمركم) فاعزموا عليه من أجمع الأمر اذا نواه وعزم عليه (وشركاءكم) الواو بمعنى مع أى اجمعوا أمركم مع شركائكم (ثم لا يكن أمركم) فى قصدى (عليكم غمة) أى لا يكن قصدكم الى اهلاكى مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونى به • والغمة السترة من غمه اذا ستره (ثم اقضوا الىّ) ذلك الأمر الذى تريدون بى أى أدّوا الىّ ماهوحقّ عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه أواصنعوا ماأمكنكم (ولاتنظرون) ولاتمهلونى (فان توليتم) فان أعرضتم عن تذكيرى ونصحى (فما سألتكم من أجر) من جعل يوجب توليكم عن نصحى ويستدعى الحزن على مايفوتنى اذا توليتم وانما أذكركم لوجه الله وذلك أوقع فى النفس (إن أجرى إلا على الله) وهو الثواب الذى يثيبنى به فى الآخرة (وأمرت أن أكون من المسلمين) من المستسلمين لأوامره ونواهيه (فكذبوه) فداموا على تكذيبه (فنجيناه) من الغرق (ومن معه فى الفلك) أى السفينة * يقال انهم كانوا ثمانين (وجعلناهم خلائف) أى وجعلنا الذين معه فى الفلك سكان الأرض بعد الهالكين (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) بالطوفان وقوله (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) تحذير لمن كفر بالرسول ﷺ وتسلية له وقد تمّ هذا فانهم حلّ بهم ماحلّ بقوم نوح فى الغزوات المتتابعات فأولئك أغرقوا وهؤلاء قتل منهم قوم والآخرون أسلموا كما أسلم ذرّية الذين قتلوا وتمّ الأمر وهو من عجائب القرآن بل هذه أهم معجزة فكيف يقول هذا فى مكة ثم يصح الأمر ويتمّ النصر كما أنذرهم وهذا هوالعجب العجاب (ثم بعثنا) أرسلنا (من بعده) من بعد نوح (رسلا الى قومهم) كل رسول الى قومه (فجاؤهم بالبينات) المعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم (فما

كانوا ليؤمنوا) فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة تمسكهم بالكفر (بما كذبوا به من قبل) أى بسبب تعودهم تكذيب الحق وتجرئهم عليه حتى صار كالطبيعة فيهم . ثم قال مثل ذلك الطبع (نطبع) أى نختم (على قلوب المعتدين) أى المجاوزين الحد فى التكذيب . انتهى تفسير القسم الخامس

(القِسْمُ السَّادِسُ)

قِصَّةُ سَيِّدِنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ * وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) من بعد هؤلاء الرسل (موسى وهرون الى فرعون وملئه بآياتنا) بالآيات التسع (فاستكبروا) عن اتباعهما (وكانوا قوما مجرمين) معتادين الاجرام واجترؤا على تكذيب الرسل لما انطبع فى نفوسهم من الذنوب والقسوة . ثم أخذ يفصل ذلك فقال (فلما جاءهم الحق من عندنا) بتظاهر المعجزات الباهرة (قالوا إن هذا لسحر مبين) فائق فى فنه واضح (قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم) هذا استفهام الانكارى والقول محذوف تقديره انه لسحر ثم قال (أسحر هذا) وهو استفهام آخر على سبيل انكارى يعنى انه ليس بسحر ثم احتج على صحة هذا بقوله (ولايفلح الساحرون) يقول لوكان سحرا لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة ولكنه لم يضمحل وأبطل سحر السحرة فهو إذن ليس بسحر ولما لم تستقم دعواهم أنه سحر شرعوا يدعون دعوى أخرى إذ (قالوا أجئتنا لتلفتنا) لتصرفنا . واللفت والفتل أخوان (عما وجدنا عليه آباءنا) من عبادة الأصنام (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) أى الملك فى أرض مصر وسمى الملك كبرياء لأنه أكبر مايطلب من أمر الدنيا (ومانحن لكما بمؤمنين) بمصدقين (وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم) حاذق فى السحر وذلك لمعارضة المعجزة التى أتى بها موسى (فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر) أى الذى جئتم به هو السحر لا ماسماه فرعون وقومه سحرا (ان الله سيبطله) سيمحقه أوسيظهر بطلانه (إن الله لايصلح عمل المفسدين) لايثبته ولايقويه لأن السحر تمويه لاحقيقة له . وقد شرحت هذا الموضوع فى سورة البقرة فارجع اليه إن شئت (ويحق الله الحق) ويثبته (بكلماته) بأوامره وبوعده الصادق لموسى أنه يظهره أوبما سبق من قضائه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة وأن الحق يعلو على الباطل ولو بعد حين (ولوكره المجرمون) ذلك (فما آمن لموسى) فى مبدإ أمره (إلا ذرية من قومه) إلا طائفة من ذرارى بنى اسرائيل أى الأولاد من أولاد قومه لأنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ولم يجبه إلا طائفة من أبنائهم مع الخوف كما هى العادة أن الشبان أسرع لقبول الدعوة الصالحة . أما الشيوخ فقد تصلبت فيهم الآراء القديمة ولبسوا ثوب المذلة ضافيا عليهم ولم يصل لذلك أبناؤهم كما هو دأب الأمم كلها . فالشبان أول سابق للوطنية وللسياسة وللانقلاب العام فقوله (على خوف من فرعون وملئهم) أى أشراف آل فرعون (أن يفتنهم) أى أن يعذبهم فرعون وهو بدل منه . فهذا القول تبيان لحال كل دعوة دينية أوسياسية فى اول أمرها إذ يكون المتبعون من الشبان ومن الضعاف وهم خائفون وجلون من رجال السياسة والملوك وانما أفرد الضمير الفاعل فى قوله ـ أن يفتنهم ـ للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسببه (وان فرعون لعال فى الأرض) لغالب فيها (وانه لمن المسرفين) فى الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية . ولما كان الدعاة دائما يشجعون المدعوين ويثبتونهم على المبادئ الجديدة ورأى موسى شبان بنى اسرائيل خائفين وجلين أخذ يثبتهم ويقوى إيمانهم ويريهم أن الله هو مدبر الامور وأمرهم بالتوكل عليه فامتثلوا أمره وطلبوا من الله ألا يبتليهم بتعذيب الظالمين وأن ينجيهم برحمته من كيد القوم الكافرين ومن شؤم مشاهدتهم وهذا هو قوله (وقال موسى) الى قوله (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقوله (توكلوا) أى ثقوا وقوله (مسلمين) مستسلمين لقضاء الله مخلصين له (فقالوا على الله توكلنا) لأنهم كانوا قوما مخلصين فلذلك قبل توكلهم وأجاب دعاءهم إذ قالوا (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) موضع فتنة أى عذاب يعذبوننا أولاتعذبنا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لوكانوا على الحق ماعذبوا ويظنون أنهم خير منا فيفتنون بذلك (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى وخلصنا برحمتك من أيدى قوم فرعون الكافرين لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم

فى الأعمال الشاقة • ولما كان من عادة الأنبياء وسائر المصلحين أنهم بعد أن يطمئنوا قومهم و يسكنوا جأشهم يبعثون فيهم روح النظام و يأمرونهم بالاستقامة ونظام المدن وحفظ الحال العامّة أردفه بما يفيد أن الله أوحى الى موسى وهرون أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا من بيوتها يرجعون اليها و يتوطنون فيها وأمر الجميع أن يجعلوا تلك البيوت مصلى يصلون فيها خيفة من الكفرة من آل فرعون لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان ذلك فى أوّل الاسلام وفى أوّل كل دين جديد من الأديان وأمرهم باقامة الصلاة فيها حتى يأمنوا على أنفسهم ثم أمر موسى أن يبشرهم أنهم لا يصل اليهم مكروه وهذا قوله تعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت) الى قوله (و بشر المؤمنين) ولما كان لكل داع من الدعاة نظرة فيمن بلغهم رسالته فتارة يدعو بالهلاك كنوح • وتارة يرجو أن تكون منهم ذرّية مؤمنة فيقول ﴿ اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون ﴾ كسيدنا محمد ﷺ وتارة يكون الدعاء بين هاتين الخصلتين كما فى هذا المقام دعا سيدنا موسى ربه قائلا ربنا انك أعطيت فرعون وأشراف قومه مايتزينون به من الملابس والمراكب ونحوها كما هو مشهور فى الشرق والغرب من آثار الفراعنة وأنواعا من المال وتكون عاقبة ذلك أنهم يضلون الناس عن سبيلك ويكونون فتنة لمن رآهم من الناس على هذه الحال فيارب اطمس على أموالهم وامحقها بحيث لا ينتفعون بها بأن يدفنوها فى المقابر والنواويس ويجعلوها حليا للملوك والملكات فى قبورهم فاجعل يا الله كل همهم فى ذلك الطمس واشدد على قلوبهم أى قسها واطبع عليها حتى لا تؤمن إلا بدينها القديم ورأيها العتيق من دفن الأموال والتزين بها تحت التراب وتحلية الأموات بها وتبقى البلاد المصرية معراة من الحراس لأن الحراسة يلزمها المال والمال معظمه يكون تحت التراب فلذلك تجد بيوت المصريين القدماء أكثرها من اللبن • أما المقابر فانها مزينة بالرسوم وبالتماثيل و بالذهب وبالفضة وبجميع الأحجار الثمينة • ولما استمرّوا على هذه الحال مدّة طويلة وقست قلوبهم دخل البلاد ملك الفرس وأهلك الحرث والنسل وذاقت مصر العذاب الشديد بسبب العقائد الموروثة التى جعلتهم منهمكين فى دفن الأموال مع الأموات وجعلتهم يعبدون الحيوانات كالهرّة ولما دخل ﴿قبيز﴾ مصر فى مدّة الأسرة السادسة والعشرين التى هى الأسرة الثامنة بعد خروج بنى اسرائيل من مصر لم يساعده على اهلاك البلاد إلا عبادة الهرّة فانه أمر بايقاف صف من القطط بين الجيشين فتحامى العسكر المصريون أن يضربوا آلهتهم وهى القطط وانقض عسكر الفرس على مصر بسبب أن قست قلوبهم على عبادة الحيوانات كما قست بدفن الأموال فى القبور فذهبت مصر سدى ولم يؤمن المصريون ايمانا صحيحا إلا بالدين المسيحى بعد ذلك والا بالدين الاسلامى آخر الزمان • فهذه هى القساوة وانك لترى آثار المصريين الآن فى القبور وأهل الشرق وأهل الغرب ينقبون عليها وتعجب من القرآن وحكمه وتعجب كيف ذكر الله هذا وكيف قال اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم وكيف ظهر الأمران • فالأموال ملأت متاحفنا المصرية ومتاحف فرنسا وأمريكا وانكلترا وسائر متاحف أوروبا وطمس القلوب ظهر أثره فى بقائهم على جهالتهم حتى تنصروا لما كانت النصرانية فى أوّل أمرها ثم أسلموا الى الآن

أليس هذا من العجب • أوليس من العجب أن الله لم يذكر طمس الأموال فما أذكر ولم يذكر نجاة الأجسام كما سيأتى إلا فى الفراعنة • أوليس هذا من عجائب القرآن • وكيف يذكر طمس الأموال وقد ظهرت ونجاة الأبدان بغير أرواحها وهذا أمر مشاهد كما سأوضحه قريبا • وكل هذا وذاك فى الأرض المصرية الآن واضح • إنّ هذا لعجب عجاب وهذا هو قوله تعالى (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون) الى قوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) فقوله (ليضلوا عن سبيلك) أى ليضلوا الناس عن طاعتك وهو متعلق بآتيت وربنا تكرار للأوّل للالحاح فى التضرّع وهذا كقوله ــ انما نملى لهم ليزدادوا إثما ــ والطمس على الأموال هنا معناه دفنها وعدم ظهورها والانتفاع بها وهو المعروف الآن • وليس ماقيل فى

بعض

بعض التفاسير أنها مسخت حجارة بحق لأنه ظهر خطؤه الآن والقرآن معجزة باقية الى آخر الزمان وقوله (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) جواب للدعاء والمراد بالعذاب الأليم ما أحاط بالأمة المصرية من العذاب الذى حلّ بها من العقائد المنحرفة عن سنن دينهم الأصلى الذى كانت فيه العبادة على وجهها فطمسوا على الأموال وعبدوا الأحجار والحيوانات فكان ذلك سببا لدخول الأمم بلادهم كما تقدّم وهذا هو العذاب العام ولم يؤمنوا بدين خال من الوثنية حتى جاء المسيح فاتبعوا دينه قبل أن ينسخ ثم جاء الاسلام فاتبعه أكثرهم ولم يكن ذلك إلا بعد أن ذاقوا العذاب الأليم من الأمم المحتلة من الفرس واليونان والبطالسة والرومان فهذا هو العذاب الأليم العام وهناك عذاب أليم خاص وهو ماحصل لفرعون وجنوده لما غرقوا فى اليم ولم يؤمن فرعون حتى رأى العذاب الأليم بالغرق ولم ينفعه ايمانه كما ستراه قريبا • ولما كان هذا الدعاء واردا من موسى موافقا لما فى علم الله وأمره المطرد فى الأمم من أنها تسير على نواميس تلائمها وتوافقها ومن نواميس المصريين ملازمة التفتن فى عبادة الأوثان ودفن النقوش والرسوم والأحجار الثمينة والذهب والفضة أردفه بما يفيد الاجابة (قال قد أجيبت دعوتكما) يعنى موسى وهرون (فاستقيما) فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة ولا تستعجلا فان ماطلبتما كائن ولكن له وقتا معلوما * و يقال انه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة (ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون) أى طريق الجهلة فى الاستعجال أوعدم الوثوق والاطمئنان بوعد الله تعالى فليس فى الأرض من داع لأمر عظيم إلا اذا كان واثقا بنجاح دعوته وظهور أمره • فأما الذى لاثقة له بمستقبل أمره فانه لانجاح له فى عمله ولاثبات له فى دعوته • ثم أخذ يشرح العذاب الأليم الخاص المتقدّم فقال (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) أى قطعنا ببنى اسرائيل البحر الأحمر وجوزناهم فيه حتى بلغوا الشط حافظين لهم * وقرئ — جوّزنا — كضعف وضاعف (فأتبعهم فرعون وجنوده) أى لحقهم وأدركهم (بغيا وعدوا) أى ظلما وعدوانا أى باغين وعادين أوللبغى والعدو (حتى اذا أدركه الغرق) لحقه (قال آمنت أنه) أى بأنه (لا إله إلا الذى آمنت به بنواسرائيل وأنا من المسلمين) فى وقتها * قال ابن عباس لم يقبل الله ايمانه عند نزول العذاب به وقدكان فى مهل والايمان والتوبة عندمعاينة الملائكة والعذاب غيرمقبولين وفى آية أخرى — فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا — وفرعون ذكر الايمان والاسلام واعترف بهما ولم ينفعه (آلآن) أى قال الله أوالملائكة آلآن تتوب وقد أضعت التوبة فى وقتها وتكبرت عنها وآثرت دنياك الفانية (وقد عصيت قبل) كفرت بالله (وكنت من المفسدين) فى أرض مصر بالقتل والشرك والدعاء لغير الله وعبادة العجل المسمى «عجل أبيس» وبعض الطيور (فاليوم ننجيك ببدنك) نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك على نجوة من الأرض ليراك بنواسرائيل وغيرهم (ببدنك) فى موضع الحال أى كاملا سويا (لتكون لمن خلفك آية) لمن وراءك من بنى اسرائيل وغيرهم من أمم الشرق والغرب — آية — أى عبرة وموعظة ليعرف الناس أن أعظم الملوك قدرا وأبعدهم صيتا وأعظمهم ذكرا وأرقاهم منزلة وأسماهم مقاما وأرفعهم مجدا قد تخطفته المنون ونزل به الهون • وهاهوذا فى اللحد مدفون وفى الصندوق مقفلا عليه • وأيضا يعتبر الناس بالقرون الخالية والأمم الماضية فيعرفون صناعاتهم وعلومهم ومعارفهم • ومن عجب أن القرآن لم يذكر هذا القول فى أمة من الأمم ولافى جيل من الأجيال إلا فى قدماء المصريين فانهم هم الذين سخرهم الله بعقائدهم التى أودعها فى نفوسهم وربطها ربطا وثيقا فى قلوبهم أن يحفظوا أمواتهم فى صناديق مقفلة • وليس يعرف أحد من المسلمين معنى قوله تعالى — فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية — إلا اذا حضر الى بلادنا المصرية وشاهد جثث الملوك فى صناديق عجيبة الشكل بديعة الصنع وهى محنطة منذ ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وخمسة آلاف أوستة آلاف سنة وعليها أكفانها لم يبل منها ثوب ولم يتفتت عضو من الأعضاء فيها ولم يكن رمما • فهذه الجثث الباقية التى نشاهدها فى متاحفنا

المصرية لاسيما مايتجدّد حديثا كمقبرة ﴿ توت عنخ أمون ﴾ التى أشرنا اليها فى سورة البقرة عند قوله تعالى ـ يحبونهم كحب الله ـ شواهد ناطقة وحجج قائمة على جمال الله عزوجل ونعمه التى أغدقها على الأمم السالفة والأجيال البائدة . وكيف أعطاهم هندسة وعلما ونظاما عجيبا غفل عنه المحدثون . وكيف نطقت آثارهم بما لله من مجد وفضل ومنّ على الأمم القديمة . وكيف عجز اللاحقون عما أنشأه السابقون . وكيف ألهم الله قدماء المصريين أن يبقوا هذه الجثث ذخيرة لنا وآية قائمة على جمال الله وجلاله . وكيف كان ذلك منفعة للأمم الحديثة ودرسا لعلمائها أنهم مسبوقون بأمم أعظم قدرا منهم . إنّ هذه الآية من بدائع القرآن وعلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يدرسوا علوم قدماء المصريين . أليس من العيب عليكم أيها المسلمون . أوليس من العار المخجل . أليس من أكبر المصائب التى حلت بأمّة الاسلام أن الفرنجة هم الذين يتسابقون الى تعلم لغة القوم ويمنون علينا أنهم أعلم منا بها . أوليس من الحزن المبكى أنّ أمّة الاسلام هى التى تجهل قدماء المصريين الذين قال الله فيهم ـ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ

فياليت شعرى لم ذكر هذه الجملة هنا . وكيف أوردها فى هذا المقام . وكيف يقول ان كثيرا من الناس غافلون عن آياتنا لايفكرون ولايعتبرون بعد ماتقدّم . أليس ذلك لعظم الأمر وأن قدماء المصريين سيكون لهم شأن وأنه بهذه الآية نبه المسلمين الى ذلك . وأنا أقول . أيها المسلمون . أما آن لكم أن تدرسوا الأمم القديمة . أما آن لكم أن تدرسوا علوم الأمم القديمة والحديثة . أما آن لكم أن تدركوا مجدكم وشرفكم . وكيف يسبقنا الى علمهم أهل أمريكا وأهل ألمانيا وغيرهم . إن ذلك لهو الضلال الكبير والخزى العظيم والمصاب الجلل

يا أمّة الاسلام . قد شبعتم نوما فاستيقظوا . قد أدرككم الغرق فأفيقوا . قد طحنكم الدهر بكلكله فانتبهوا . فهاهوذا كلام الله وهذه حوادث أيامه قد أحاطت بكم ولله عاقبة الامور

واعلم أن كل أمّة لها مبدأ وجهاد للكمال . ثم تناقص واختلال . فهكذا بنواسرائيل جاءهم موسى فجاهدوا حتى خرجوا من أرض مصر ونجوا وتمّ أمرهم واستقام مئات من السنين ثم اختلفوا فى دينهم وهذا قوله تعالى (ولقد بوّأنا) أنزلنا (بنى اسرائيل مبوّأ صدق) منزلا صالحا مرضيا وهو ﴿ الشأم والقدس والأردن ﴾ لأنها بلاد الخصب والخير والبركة (ورزقناهم من الطيبات) أى تلك المنافع والخيرات التى رزقهم الله بها (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بنى اسرائيل إلا من بعد ماقرؤا التوراة وعلموا أحكامها (إنّ ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيميز الحق من المبطل بالانجاء والهلاك

﴿ لطيفة فى موازنة هذه القصة بأحوال الأمّة الاسلامية ﴾

اعلم أن هذه الآيات أفادت مايأتى

(١) انكار قوم فرعون لدعوة موسى وادّعاؤهم أنها سحر

(٢) احتجاجهم أن هذا فيه هدم المجد القديم وهو مجد الآباء فمخالفتهم ذهاب لفضلهم وانحراف عن سنتهم

(٣) انكم تريدون أنه يكون لكم الملك فى البلاد

(٤) احضار السحرة ومعارضة معجزة موسى سحر الساحرين

(٥) ذكر ايمان طائفة من أولاد بنى اسرائيل

(٦) أن هؤلاء خائفون من فرعون وقومه أن يعذبوهم

(٧) وعظ موسى لبنى اسرائيل أن يتوكلوا على الله

(٨) موافقتهم له وطاعتهم وتوجههم الى الله بالدعاء
(٩) أمر الله لموسى أن يحضّ قومه على اتخاذ المساكن وجعلها مصلى
(١٠) تبشيره للمسلمين
(١١) دعاء موسى على بنى اسرائيل بطمس أموالهم و بقائهم كافرين
(١٢) استجابة الدعاء
(١٣) عبور بنى اسرائيل البحر
(١٤) اتباع فرعون لهم وغرقه هو وجنوده
(١٥) نجاته ببدنه وحكمة ذلك
(١٦) استحكام أمر بنى اسرائيل ورقيهم
(١٧) وقوع الاختلاف فيما بينهم

واعلم أن هذه الصفات التى لحقت بنى اسرائيل هى بعينها التى لحقت بأمّة الاسلام ونبينا ﷺ

(١) فقد دعا الله فكذبوه
(٢و٣) وظنوا أنه يريد الملك فعرضوا عليــه أن يملك أمرهم و يترك ذم آلهتهم وأيضا انه يريد هدم ما كان عليه آباؤهم
(٤) آذوه كثيرا وكادوا له كيدا عظيما
(٥) ما آمن به أوّلا إلا الضعفاء
(٦) كانوا خائفين من أهل مكة كصهيب و بلال وغيرهما حتى هاجر قوم الى الحبشة وهاجر الجميع الى المدينة
(٧) وعظ النبىّ ﷺ المؤمنين بالتوكل
(٨) موافقتهم له وطاعتهم
(٩) بنى النبىّ ﷺ مسجدا فى المدينة واتخذ المسلمون مساجد كثيرة وسكنوا بيوتهم وصــلوا فيها وفى مساجدهم
(١٠) فى أكثر القرآن بشائر للمؤمنين
(١١) دعا النبىّ ﷺ لقومه فقال ﴿ رب اغفر لقومى فانهم لايعلمون ﴾
(١٢) استجاب الله دعاءه ففتح مكة وأسلم قومه وذرّيتهم للآن
(١٣) نصر المسلمين فى زمن النبوّة و بعده
(١٤) هلاك الـكافرين فى كل وقعة
(١٥) نجاة المسلمين فى كثير من الوقائع
(١٦) استحكام أمر المسلمين وعظمتهم فى القرون الأولى ورقيهم
(١٧) اختلاف المسلمين وتنابذهم منذ (٨) قرون فهم فى اضطراب سياسى عظيم

فهذا التاريخ يضارع تاريخ الاسلام وقد ذكر هنا ليكون عبرة للمسلمين ودرسا لهم ليتعظوا اهـ

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ــ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ــ ﴾

تقدّم أنى قررت فى هذه الآية أنها للحض على فهم علوم المصريين والبحث فى أطوارهــم وأن الله لم يذكر أمّة بأن أبدانها عبرة لمن بعدهم وأتبعها بجملة كهذه إلا المصريين . فلنذكر من آيات الله التى ألهمها للمصريين القــدماء ليكون ذلك ذكرى للمسلمين وعبرة وليجدّوا فى البحث عمــا دفنــه الله فى الأرض وما أظهره فى الأمم حتى يعرف المسلمون كل شئ بحيث تختص كل طائفة بمباحث خاصــة يتقدّمون فى معرفتها

وهذه العلوم كلها فرض كفاية . فلأنقل لك ﴿ أربع نبذ ﴾ من علومهم

﴿ النبذة الأولى . محاورة فلسفية بين مصرى وروحه ﴾

وجدت فى قرطاس محفوظ فى متحف (برلين) واليك تعريبها من كتاب الحضارة القديمة

(١) قالت الروح لصاحبها ليس فى الموت فزع للانسان

(٢) أقول لنفسى كل يوم انه كرجوع الصحة الى المريض حين يخرج ويذهب الى الساحة بعد تألمه هكذا حال الموت

(٣) أقول لنفسى كل يوم كأنه استنشاق شذا العطر أو كالجلسة فى بلد السكر . هكذا حال الموت

(٤) أقول لنفسى انه كمجرى تمرّ به مياه النيل الفائض

(٥) أو كرجل دخل الجندية ولم يثبت أحد أمامه . هكذا حال الموت

(٦) أقول لنفسى انه كرجل ذهب فى ضياء القمر ليصيد الطير بالشبكة فوجد نفسه فى اقليم لايعرفه . هكذا حال الموت اه

﴿ النبذة الثانية ﴾

اعلم أن من أعجب معجزات القرآن هذه الآية التى نحن بصددها ولم يكن المتقدّمون من أمّتنا الاسلامية ولاقدماء العرب ولا المعاصرون للنبيّ ﷺ يعلمون شيأ عن الجثث المصرية ولاعجائب علومهم . ولذلك تجد المفسرين يذكرون أن أموالهم مسخت حجارة . أفلا تعجب للقرآن كيف ظهر فى هذا العصر العجب العجاب من الجثث المحنطة والعلوم المخبأة والحكم المنظمة التى أشار لها القرآن بقوله ـ لتكون لمن خلفك آية ـ وأفاد أن أكثر الناس غافلون عن العجائب . فانظر كيف ظهر فى هذا الزمان أيام كتابة هذا التفسير أعظم الكنوز المصرية وهو كنز ﴿ توت عنخ أمون ﴾ وقد كشفه رجل يقال له (هوارد كارتر) بعد أن بحث ٣٢ سنة فى البلاد المصرية مجدا فى ذلك وقد أحدث ظهوره دهشة اعجاب فى العالم كله . وفى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ فتح الباب المختوم بختم الملك لبعض الغرف ووجد بالغرفة الثالثة صندوق بديع داخله جثة الملك وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالحجارة الكريمة ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ووجدت الغرفة الرابعة مملوءة بأثاث من أفخر المفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفوق منظرها فى بهائها وعظمتها ما وجد فى الغرفتين الخارجيتين . وتوافد عشرات الألوف من أوروبا وأمريكا على القطر المصرى للتمتع بمشاهدة هذه الآثار الثمينة . وفوق ذلك قد اهتمت دور الصناعة فى أوروبا وأمريكا للحصول على نماذج للأزياء المصرية الأثرية للملابس وأثاث المنازل والأوانى ليصنعوا نظيرها وهم يضحون عشرات الالوف من الجنيهات فى سبيل الحصول على هذه النماذج وبدأت السيدة الغربية فى مدن أوروبا وأمريكا متجملة بلبس ملابس قدماء المصريات فى عهد (توت عنخ أمون)

وفى صباح ٨ مارس سنة ١٩٢٣ أبصر المارّة فى شارع (ففث أفنيو) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يسرن معا وقد لبسن من قمة الرأس الى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمات واحتذين أحذية على شكل (الصندل) فكنّ بثيابهنّ هذه موضع اعجاب وقبلة أنظار الجميع وهكذا فى انكلترا وغيرها . وقد اشتدّ الاقبال فى أوروبا وأمريكا على درس تاريخ مصر وحضارتها القديمة ومشاهدة آثارها الكثيرة المنتشرة فى المتاحف فالناس يقبلون زرافات على المتاحف التى فيها آثار مصرية . وقد أغلق المدفن يوم الاثنين ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ على أن يفتح ثانيا فى الخريف المقبل . وهذه الليلة التى أكتب فيها هذا المقال ٢٧ من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٤ لم يفتح القبر الى الآن وسيظهر بعد فتحه العجب العجاب

أفليس هذا من سرّ قوله تعالى على سبيل الاشارة والتلميح ـ لتكون لمن خلفك آية ـ فهذه آيات الله التى ظهرت لعباده آيات الصناعة والتطريز والزخرفة والنقش والهندسة والبناء وكذلك الاعتبار والاتعاظ وتذكر الموت والبلى . كل ذلك ظاهر اليوم لجميع الأمم . فعلى المسلمين أن ينظروا جمال الله فى كل شئ سبحانه وتعالى جلّ جلالا وعزّ كمالا

﴿ النبذة الثالثة ﴾

أقدم كتاب فى العالم نصائح الحكيم المصرى القديم ﴿آنى﴾ لتلميذه ﴿خونسوهتب﴾ فى عصر مصر الذهبى فى عهد الملك العظيم ﴿توت عنخ أمون﴾ أى منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا وهى ٤٨ نصيحة نقلت عن ورقة بولاق البردية التى عثر عليها (ماريت باشا) مؤسس مصلحة الآثار المصرية فى أحد مقابر الدير البحرى بطيبة بالاقصر سنة ١٨٧٠ م وترجمت الى الفرنسية والألمانية والانكليزية وسميت (ورقة بولاق) لأنها حفظت بالمتحف المصرى فى وقت أن كان فى بولاق . ولأذكر لك بعض هذه الحكم تيمنا بالقرآن القائل ـ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ ولأذكر لك ما اخترته منها اختصارا للقول

(١) أخلص لله فى أعمالك لتتقرّب اليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فانه يهمل من توانى فى خدمته

(٧) من اتهم زورا فليرفع مظلمته الى الله تعالى فانه كفيل باظهار الحقّ وازهاق الباطل

(٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك فى جميع أحوالك غاية شريفة تسعى اليها لتصل الى شيخوخة جيدة وتهيئ لك مكانا فى الآخرة فان الأبرار لاتزعجهم سكرات الموت

(٩) صن لسانك عن مساوئ الناس فان اللسان سبب كل الشرور وتحرّ محاسن الكلام واجتنب قبائحه فانك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة

(١١) لاتهمل الترحم على والديك ومتى قمت بذلك قام به لك ولدك

(١٢) اعتن بأبنائك كما اعتنت بك أمّك ولاتغضبها لئلا ترفع يديها الى الله فيستجيب دعاءها عليك

(١٥) اذا كنت قويّ الارادة فلاتدع المرأة تتسلط عليك

(٢٠) النظام فى البيت يكسبه حياة حقيقية

(٢٥) اذا فاتتك فرصة فترقب غيرها

(٢٨) لاتجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك

(٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال . انما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف

(٣٨) لاتستسلم لليأس والقنوط مهما قام فى سبيلك من العقبات والشدائد

(٤١) لاتثق بالناس المجهولة مبادئهم ولوخدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالاخلاص فانهم يجرّونك الى الخراب العاجل

(٤٦) تلطف مع ضيفك وحادثه ببشاشة ولاتسمح له بالتطرف فى الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام

(٤٨) لاتكن شرها فان الانسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية . انتهى

هذا هو الذى اخترته من حكمه . وهناك نصائح أخرى لرجل يقال له (قاقنه) وآخر يقال له (بتاح حتب) وهذا الأخير قدوجدت له (٤٤) لوحة قد نقشت عليها حكمه . ولأذكر لك منه ثلاثة ألواح

﴿لوحة ١٠﴾ اذا تواضعت امتثالا لرئيس فليكن سيرك مع الله حسنا جدّا فالسعدلايأتى إلاعن ارادته

وليس هناك أحكام سوى مشيئته

ومما جاء فى اللوحة الرابعة عشرة ﴿ تمسك برأيك متى كان الحق بيدك . ان الذى يملك نفسه خير ممن غمره الله بعطاياه لأن الرجل الذى ينقاد لهواه يكون تحت سلطان امرأته . بين منهاج سلوكك من غير كلام ﴾

وجاء فى اللوحة (٣٤) ليكن وجهك باشا ماعشت

﴿ النبذة الرابعة ﴾

كان قدماء المصريين يعتقدون بقاء النفس وكانوا يرون أن الانسان يكون أمام محكمة مكوّنة أمام الاله أوزيريس و٤٢ قاضيا و يتولى الرئيس عملية وزن القلب ووضعه فى كفة الميزان والعدل فى الكفة الأخرى فاذا رجحت الكفة الأولى أوساوت قبل المتوفى فى مملكة أوزيريس . وأهمّ هذه المملكة عندهم الزراعة فتقوم الأرواح بحرث الأرض و بذر الحب وجنى محصول الذرة السماوى وهى أحسن وأجمل من ذرة الأرض وفى تلك المملكة تسكون الأرواح فى المجارى السماوية وتجلس تحت وارف ظلال الأشجار الباسقة وتلعب الألعاب التى تهواها . والانسان يكون له جسم روحى يبدأ فى الوجود من وقت أن يوضع فى القبر و يأكل المتوفى خبزا لايتعفن و يشرب خمرا لايفسد وملابسه أردية بيضاء و يجلس على عرش وسط الملائكة الذين يجلسون حول شجرة الحياة و يلبس التاج الذى يعطيه له الاله و يعيش مع الاله (رع) الى الأبد

وعملية التحنيط المعروفة عند قدماء المصريين التى أشار لها القرآن بقوله ـ فاليوم ننجيك ببدنك ـ محفوظا كسائر قدماء المصريين انما اخترعوها سنة ٤٥٠٠ قبل الميلاد و بقى الى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد لاعتقادهم أن النفس بعد أن تمرّ فى أدوار كثيرة تعود فتحل فى الجسم فلهذا كان التحنيط . ولهم قصة خرافية وهى أن (أوزوريس) كان يحبّ أمته المصرية فعلمها وفتح البلاد الأخرى بغير حرب ومعه (توت) ولكن اخوه (سيت) غار منه فصنع له صندوقا وأهداه له على شرط أن يكون على مقدار جسمه فلما دخله أقفله عليه وهو متحد مع الضباط وألقاه فى النيل فبحثت عنه زوجته (ايزيس) وعثرت عليه فى البحر وخبأته فى غابة كانت أشجارها متكاثفة وذهبت تبحث عن ابنها (حوريس) فى مدينة (بونو) جنوب البراس فى الدلتا . ثم ان (سيت) عثر على الصندوق وهو يصطاد فى ضوء القمر فقطعه ١٤ قطعة و بعثرها فبحثت عنها (ايزيس) وجمعتها إلا قطعة واحدة وركبتها فى مواضعها من البدن وحنطت الملائكة جسمه وصنعوا له تمائم ولفائف . فبهذا انتقل من القبر الى السماء وله فيه قصر عظيم وأصبح ملك (أوزوريس) هوالذى يصعد اليه الأرواح الطاهرة بعد الموت . ولابدّ من التحنيط وعمل السحر والطلاسم . هذا هو السبب فى التحنيط عندهم اهـ

فسبحان من جعل الخرافات سببا فى العلوم النافعة للانسان وحفظها على مدى الزمان والحمد لله أوّلا وآخرا * ويقال ان فرعون موسى عثر عليه منذ سنين فى جهات الوجه البحرى فى مديرية الشرقية . وعسى أن أعثر على هذا النص فألحقه بهذا الكتاب والله المستعان

﴿ فرعون موسى قد وجد بدنه وهو بالمتحف المصرى ﴾

و بعد كتابة ماتقدّم بيومين اطلعت على ماكتبه أستاذنا فى علم الآثار المصرية الاستاذ أحمد بك نجيب أمين ومفتش الآثار المصرية فى ﴿ الموسوعات ﴾ فى أعداد مختلفة فلأُلخص ماكتبه بغاية الاختصار قال

ان رمسيس الثانى (سيزوستريس) هوالذى ربى موسى عليه السلام وأن ابنه (ريان با) وهوالمعروف باسم (منفطه) هوالذى غرق فى البحر وهما معا من الأسرة التاسعة عشرة . قال وقد أجمع العلماء أن فرعون (منفطه أوريان با) هو الغريق والحمد لله على وجود جثته الآن . وأما العبرانيون فانهم دخلوا

مصر أيام احتلال العمالقة لها وأقاموا فى وادى غسان المعروف الآن برأس الوادى بمديرية الشرقيــة ولفظة (فرعون) كانت اسما عاما لملوك مصر كلفظة (قيصر) علم على كل من ولى الروم و (كسرى) لـكل من ولى العجم و (نجاشى) لـكل من ولى الحبشة و (أمبراطور) لـكل من ولى رومه • وفرعون أصـله (اپرعا) أو (فرعا) معناه (الدار العظيمة) لأن (فر) معناها الدار و (عا) معناه العالية أوالجليلة أوالعظيمة كما يقال الآن (الباب العالى) أو (الباب الهمايونى) • قال وبعد رمسيس الثانى الذى ربى موسى و (منفطه) أو (ريان با) الذى غرق فى اليم لم يذكر فى الآثار شئ عن العبرانيين • قال وانى فى اليوم الثانى من شهرمايو سنة ١٩٠٠ فتحت تابوت (فرعون) بمشهد من علماء الآثار وقسته فـكان طوله من قة رأســه الى قدمه مترا واحدا واثنين وسبعين سنتيا وعرضه عند الأكتاف أربعون سنتيا ومن قة رأسه الى الـكتابة التى على صـدره ٤٥ سنتيا • قال ولم أر وجهه لأنه مسجى بأكفان من قـاش الـكتان يضرب لونه الى الصفرة الداكنة من تأثير الحنط عليه وتابوته مصنوع من قـاش كالورق القوى خال من الـكتابة وهو لاشـك أنه ليس تابوته الأصلى ومعنى (ريان با) شمس العلم أوروح الشمس • وقال أستاذنا أيضا ان رمسيس الثانى استعمل العبرانيين فى بناء قلاع كبيرة وعمـل طريق يمرّ بوسطها يخرج من مدينة رعمسيس ويسلك الى الشرق مع الجنوب حتى يدخل قسم آسيا • وهناك قلعة باسم فرعون موسى نفسه بن رمسيس الثانى وهى مذكورة فى ورقة من البردى أرسلها أحد العمال الى رئيسه يعلمه بما فعله وهاك نصها « مما أسرّ به خاطر سيدى هو أنى أخبره أننا أعطينا الحرية التامّة الى قبائل الاعراب الآتية من اقليم (ايدوم) لتمر بغاية الحرّية من قلعـة (خاتوم) للملك (منفطه) وهو فرعون موسى كما تقدّم • وهناك حجر محفوظ بالمتحف المصرى مكتوب فى السنة الخامسة من حكم هذا الملك عليــه لفظة (اسرائيلو) أى الاسرائيليون وهاك ترجمة بعض عباراته « وقبيلة خاتى سلمت فسلمت • وقبيـلة كنعان قد سجنت على أقبح كيفية • وأهل عسقلان أحضروا أذلاء • وأهـل غزّة وما حولها جاؤا أسارى • وقبيلة (أيانوامبم) انعدمت وأمة (اسرائيليو) هلـكت وما عاد لديها حبوب للأكل • وقبيلة خارو صارت كأرملة حقيرة بمصر » اه

وقال رحمه الله فى سبب ادّعاء الملك (منفطه) الالوهية ان هذه عادة هؤلاء الفراعنة جميعا ضعافا كانوا أم أقوياء • قال وانظر الى مسلة المطرية تجد عليها ماصورته « الجليل حياة كل مولود ملك الصعيد والبحيرة دام بقاه صاحب التاج معطى الحياة لـكل موجود الاله العظيم ابن الشمس الخ » وهـذا الممدوح هو الملك (أوزرتسن الأوّل) فى العائلة الثانية عشرة وهوصاحب هذه المسلة • قال ولقد كان (رمسيس الثانى) والد فرعون مصر أوّل من سخر العبرانيين فى الأعمـال فبنوا له مدينة رعمسيس ومدينة بيتوم وهاك نص ورقة بردية محفوظة فى بلاد الانجليز بقلم رجل مصرى يسمى (كانيزاك) أرسلها الى رئيسه المدعو (بى كانبتاح) يعلمه أنه أنفذ أمر الملك سيده وصورتها (قد أطعت أمر سيدى رمسيس وفعلت ما أمرنى به حيث قال لى اعط قمحا الى العساكر الخفراء والى العبرانيين الذين ينقلون الحجارة لبناء الحصن العظيم بمدينة رعمسيس الذين هـم تحت رئاسة (أمنمان) رئيس فرقة المحافظين على العمال فـكنت أعطيهم قمحا فى كل شهر حسب الارادة السنية التى أمرنى بها سيدى) وعلى ظهرها مكتوب (هذا حساب البنائين الذين أدّوا الأعمـال المفروضة يوما فيوما بدون انقطاع عن العمل ماعدا الرجال الذين يصنعون الطوب • ومدينة رعمسيس اختلف العلماء فى مقرّها فقيل انها مدينة (صان الحجر) بمركز فاقوس بمديرية الشرقيــة • وقال أستاذنا بدار العلوم المفتش المذكور انها فى مكان أطلال (المسخوطة) بالشرقية • فالمسخوطة المذكورة هى رعمسيس وقد وجد اسم رمسيس على لبنها (طوبها) وهذه المدينة أجمل المدن المصرية وقد وجدت ورقة من البردى محفوظة فى بلاد الانجليز فيها قصيدة لشاعر مصرى اسمه (بنبتا) يخبرأحد الأمراء المسمى (أمنم ايت) وكان الملك رمسيس

دعاه لوليمة يوم الفراغ من بنائها . قال (لما دخلت مدينة رعمسيس وجدتها فى أحسن حال مالها مثيل فى عمارات (طيبة) ولا عمارات (جبل السلسلة) فهى مدينة النعيم وحقولها مملوءة بالأشياء اللذيذة والمأكولات الفاخرة وحيضانها مملوءة بالسمك والطيور المائية تدرج على غدرانها وصروجها خضرة وسفن البحر تأتى الى ثغرها وتكثر فيها الخيرات طول السنة وينشرح صدر من يقيم فيها إذ ليس بها من يعارض ولا من ينازع والصغار والكبار فيها سيان وترى فيها الجوارى الحسان جوارى الملك قائمات على أبوابها والفرح عاما فى جميع أرجائها . عشت يارمسيس فى صحة وعافية

وقال بروكش باشا ان موسى عليه السلام تربى فيها حيث كانت محل اقامة الملك . أما تخت مصر فكان فى مدينة (طيبة) أو (طيوه) ومكانها الآن الأقصر أو الكرنك والقرنه ومدينة آبو بمديرية قنا اهـ

وذكر أستاذنا أيضا فى تلك المقالات ماوجد منقوشا باللغة البربائية على جدار معبد الكرنك مما يختص بتعذيب الأسرى . قال (سطر ٥) لما كان الملك (منفطه) هوالذى يعطى الحياة الى قومه حضهم على ترك الخمول (سطر ١٣) أتى (مرمايو) ملك الليبيين بن ديد بجنوده المؤلفة من المشاوشيين والكحاكيين والسردانيين والشكلاشيين وهجم على مصر (سطر ١٦) وجمع ملك مصر رؤساء عساكره وقال لهم اسمعوا أنا الملك (منفطه) الحارس أنا رب مصالحكم أنا أبوكم هل فيكم من يماثلنى ويحيى أولاده مثلى ها أنتم ترتعشون كالوز أمامى (سطر ١٩) ها هو العدوّ دخل بلادنا هل يستطيع النيل أن يردّه عنا . كلا ثم كلا (سطر ٢٢) مرادى الآن قتل الأعداء وسحبهم على بطونهم كالسمك ولاعبرة برئيسهم الذى صورته كصورة الكلب (٢٥) أنا الذى بيدى الاعطاء والمنع والدنيا تحت حكمى . أنا (منفطه) القاهر ملك مصر سطر ٣٣) واندفعت عساكر المشاة مع عساكر العربات على العدوّ فأغرقوه فى بحر الدم (سطر ٤٦) أما عساكر مصر وشبانها فعادوا يسوقون حميرا تحمل الغنائم والأحاليل المقطوعة من العدوّ مصنوعة حزما وموضوعة فى جاود (سطر ٥٢) ٦٣٥٩ ليبيون مقتولون وأحضرت أحاليلهم (سطر ٥٦) ٦١١١ رجلا من الأعداء قطعت أحاليلهم بحضرة الملك (أنظر هذا التوحش) . (سطر ٥٧) ٢٣٧٠ أيد مقطوعة أحضرت لدى الملك . (سطر ٥٩) ٩٣٧٦ أسرى

ورجع الملك الى طيبة فى موكب حافل وقد وجد مكتوبا فى ورقة محفوظة مانصه (ما أعظم عودتك أيها الملك الى (طيبة) تظللك سحابة النصر وعربتك تسحبها الرجال . أما الرؤساء المغلوبون فيمشون أمامك القهقرى وأنت تسوقهم الى حتفهم اهـ

وانما نقلت لك هذا لتعرف كيف كان فرعون موسى يعذب الأمم المغلوبة . وكيف سخر بنى اسرائيل كما سخرهم أبوه . وكيف كان يفهم قومه أنه معطى الحياة وفى يده كل شئ وهذا هو ماجاء فى القرآن من قوله ــ أنا ربكم الأعلى ــ وغيره . وهكذا تعذيب بنى اسرائيل المتكرر فى القرآن اهـ

﴿ نبذة خامسة ردّ اعتراض ﴾

لعلك أيها الذكى المطلع على هذا الكتاب تقول كيف أطلت فى هذا المقام . ولماذا تذكر حكم القوم تارة ومظالمهم تارة أخرى . ولماذا تكرر هذا القول . أتريد أن تعلمنا علمهم . أوليس القرآن بكاف . أوليس ديننا يغنينا . أقول على رسلك ولاتلم . اعلم أن من يظنّ أن قراءة القرآن وفهم معانيه القريبة والاقتصار عليها يكفى المسلمين مخطئ كل الخطأ بل جاهل كل الجهل . فقل لى بربك اذا سمعت الله يقول ــ ولله على الناس حج البيت ــ أفلاتسعى الى الحج أم تكتفى بفهم الآية فلا اخالك إلا قائلا لابدّ من الحج أقول . هكذا يقول الله هنا ــ فاليوم ننجيك ــ يامنفطه (ريان با) ونحفظك فى أماكن بالبلاد المصرية ونأمر بتحنيطك وبقائك للسائحين والغادين والرائحين ــ لتكون ــ أنت وأمثالك من الفراعنة

لمن

لمن خلفك آية ـ ترشدهم الى العلوم والمعارف والاتعاظ بذهاب القرون ويقف على صنائع قومك وعلومهم أهل أمريكا وآسيا وأفريقيا وأوروبا • والمسلمون أيضا متى فقهوا وعقلوا ـ وان كثيرا من الناس ـ فى الشرق والغرب ـ عن آياتنا ـ فى بلادك وقومك وعلومكم ومعارفكم وسيركم وغيرها مما خلقنا فى السموات والأرض ـ لغافلون ـ والغفلة موجبة الحرمان كما سيأتى فى قوله تعالى ـ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ـ فأما اذا لم يغفل الناس واطلعوا على علوم الأوائل كقدماء المصريين وشاهدوا فى الحكم السابقة وغيرها أن الله قد أنزل عليهم منذ سبعة آلاف سنة أنه يزن الأعمال وانها اذا ثقلت نجا صاحبها واذا خفت لم ينج • وأن الرجل المظلوم اذا دعا الله ينجيه • وأن قوىّ الارادة لايغلبه النساء • وأن المخلص لله تلحظه عنايته ومن توانى فى خدمته يهمله • وأن من اتهم زورا ورفع مظلمته الى الله فالله يظهر حقه • وأن السعادة ليست فى المال وحده بل فى الفضيلة والقناعة • وهكذا من الحكم الشريفة العالية • اذا فعل الناس ذلك ولم يغفلوا عرفوا أن شرائع الله القديمة كانت كالحديثة وانها متتالية متتابعة متحدة فى الاصول ويحصل للمرء ائتناس واطمئنان • أوليس الله يأمرنا أن ننظر فى السموات والأرض • فاذن آيات القرآن تشير الى آيات السموات والأرض وما أنتجه عقل الانسان قديما وحديثا • فآيات القرآن أشبه بالمنظار المعظم ترى به الأشياء القريبة والبعيدة • فمن ظنّ أن المنظار مقصود لذاته فهو جاهل كمن يرى أن القرآن وحده كاف فهو مخطئ • انما القرآن نزل ليعمل به ولا عمل به إلا بأن نبحث فيما خلق الله فى السموات والأرض من العجائب ونقرأ العلوم وندرس علوم الأمم أى أن يكون فى الأمّة طوائف لكل علم طائفة تقوم بعلم أو صناعة ولو كانت تعدّ بالمئات • انتهى الكلام على حسنات المصريين وسياستهم العملية

﴿ الكلام على محاسنهم العلمية • نظام السموات عند قدماء المصريين ﴾

جاء فى أوائل السورة ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل ـ وقال ـ إنّ فى ذلك لآيات الخ ـ وكرر لفظ الآيات ثلاث مرات وهكذا ذكر الآيات وذم الاعراض عنها فى الكلام على فرعون فياليت شعرى يمرّ هذا القول مرورا علينا ولانعطيه حقه • ذمّ الله الغفلة عن الآيات عند ذكر الشمس والقمر وذمّها عند الاشارة للفراعنة فما هذه الموافقة فى سورة واحدة • ولماذا تذم الغفلة عن الآيات فى سورة واحدة • إن فى ذلك سرا عجيبا فاستمع لما سيأتى

﴿ علم الفلك وقدماء المصريين ﴾

(جمال الصور السماوية يسحر العقول ـ احتجب عن جميع الناس وهم ينظرونه ـ محاولة قدماء المصريين قبل غيرهم كشف هذا الحجاب ـ رسمهم الصور السماوية التى يقرؤها الناس فى أوروبا والشرق الآن ـ وجوب معرفة نتائج العقول فى الشرق والغرب لأن العقل البشرى صنع الله كما أن عقول الملائكة من صنعه فالعالم كله مصنوعاته وعلى المسلمين أن يعرفوها)

اعلم أننا خلقنا فى جوّ من الجمال والبهجة والحسن والاتقان والكمال والسعادة والحبور • ولو أننا أدركنا مانحن فيه من الجمال لذهلت عقولنا وأصبحنا فاقدى الشعور والاحساس لانعقل

أقول هذا لك أيها الذكى وأنا موقن به • ان الله وضع أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية تلك الأجسام التى وضعت بحكمة ودقة وأحاطت بها الأنوار من الشمس والقمر والكواكب والجمال • الشمس تقسم الزمن أياما • والقمر يقسمه شهورا كما تقدّم موضحا والشهر الواحد يجعله أربعة أقسام فمن المحاق الى التربيع أسبوع ومن التربيع الأوّل الى ليلة البدر أسبوع ومن ليلة البدر الى التربيع الثانى أسبوع ومن التربيع الثانى الى المحاق أسبوع

فالشمس والقمر قد فصلا الزمن تفصيلا • فالأيام والسنين الشمسية عرفت بسير الشمس كما تقدّم

والأسابيع والشهور القمرية والسنين القمرية عرفت بالقمر • إذن الشمس والقمر تكفلا بتقسيم الزمن أياما وأسابيع وشهورا قمرية وشمسية وسنين كذلك ولولا ذلك لم نعرف الأيام وما بعدها ونجد القمر والشمس والكواكب لاتخطئ فى سيرها والأنوار الفائضة منها على الأرض جميلة بهجة تتلوّن كما تتلوّن فى أثوابها الغول فأنوار الكواكب ليلا مختلفة فى الظلام الحالك والقمر يقسم الليل تقسيما بأضوائه ويظهر ويختفى على أشكال مختلفة • وهكذا أنوار الشمس تختلف فى أثناء النهار • فبينما نرى ضوء أدنى كوكب بالنسبة الى الشمس أقلّ من مليون مليون وضوء غيره من الكواكب أقلّ من جزء من مليون من ضوء الشمس وضوء البدر أقلّ من جزء من ثمانمائة ألف جزء من ضوء الشمس نراها أيضا والقمر يتلوّنان ألوانا محسوبة منظمة جميلة لايستقران فى هيئتهما على حال • الحيوان حولنا والنبات وعجائبها لاتتناهى • فى أرضنا عجائب كثيرة • أجسامنا مصنوعة من الحكمة بل هى حكمة مدمجة • لوأن أرواحنا خلقت فى هذه الأرض مجردة عن المادّة لذهلنا من الجمال الذى غرقنا فيه ولكن من لطف الله أنه أجاعنا وأعرانا وسلط الحرّ والبرد علينا وجعل الأرض لنا دار عمل ونصب وشقاء • لماذا • ليحجبنا عن هذا الجمال • ولماذا لأجل أن يحفظ عقولنا فيربيها فلايعطيها هذا الجمال إلا بمقدار شيأ فشيأ بالتدريج وهذا التدريج يكون بالتعليم

﴿ فصل فى أن أوّل من تفطن لرفع الحجاب عن جمال السماء هم قدماء المصريين ﴾

قد قلت لك أيها الذكى أن الناس خلقوا فى الجمال وحجبوا عنه وهم بالتعلم يعرفونه شيأ فشيأ وها أنا ذا أذكر هنا ان أوّل من ابتدأ معرفة هذه العلوم هم قدماء المصريين على خلاف فى ذلك وانما أردت ذلك ليظهر سرّ القرآن ولماذا يذكر الغفلة عن الآيات ويذمّها فى السموات والأرض وفى معرض ذكر أبدان الفراعنة وسوّى بينهما فى ذمّ الغفلة • إن هذا الزمان هو زمان ظهور النور الاسلامى • أنظر ماذا ترى • ترى أن الأمم ما عدا المصريين كانوا فى غفلة ساهون قبل العصر المكدونى فقد كان العبريون لايعرفون سوى بلادهم وماجاورها من الممالك وكان اليونان فى أيام هوميروس الشاعر المشهور أى قبل المسيح بسبعمائة سنة يظنون أن بلادهم وآسيا الصغرى فى وسط المسكونة بحيث جعلوهما شاغلتين جزأ عظيما من سطح الأرض وقالوا إن حولهما جزائر البحر المتوسط وأن مصر وسوريا وايطاليا حول ذلك البحر المحيط • وتنبه بعد ذلك (بطليموس) فى عهد الرومان سنة ٢٣٠ الى شئ من ذلك • وهكذا أخذ العلم ينمو شيأ فشيأ • أما الأمّة المصرية فانها كانت قد سبقت هذه الأمم الى معرفة نظام السموات وصور نجومها وبروجها

﴿ هيئة السماء فى صندوق حتربطيبه وهيئة البروج فيه ﴾

وما صاحب هذا الصندوق إلا من الفراعنة الذين نجاهم الله ببدنهم فكان لمن خلفه آية للشرقيين والاوروبيين فهو مصداق للقرآن وذلك من آيات الله فى القرن العشرين • واعلم أنى قد قدّمت لك فى سورة الأنعام نبذا من الصور السماوية عند قوله تعالى ـ واذ قال ابراهيم لأبيه آزر ـ وأن تلك الصور ﴿ثلاثة أقسام﴾ الصور الشمالية والصور الجنوبية والبروج التى هى داخل منطقة فلك البروج • وذكرنا هناك أن الصور كلها نحو ٤٨ صورة وهى مسماة بأسماء أشياء أرضية من الحيوانات وغيرها • ثم أقول الآن ان الناظر الى السماء لايرى فيها رسم حيوان ولا انسان ولاشيأ من ذلك • فاذا سمعتهم يقولون الثور وهو أحد البروج أوالميزان أوالجدى أوالسنبلة أوالحوت فاعلم أنه لاحوت ولاسنبلة ولاثور ولاشئ من ذلك • وانما هى صور خيالية تخيلوها وسموها • وتجد أمم الأرض قد اتفقوا جميعا على تسمية مجموعات النجوم باسماء ولكنهم لم يتفقوا على تلك الأسماء ولا فى واحد منها • فالصينيون أكثروا من أسماء المجاميع حتى بلغت ثلثمائة اسم وسموا بعضها بأسماء عظمائهم والعرب سموا المجاميع بأسماء حيوانات وغيرها كالدب الأصغر والدب الأكبر وبنات نعش الصغرى وبنات نعش الكبرى • والآريون سكان الهند صوّروا السماء بصور أخرى فى

كرتهم التى أتموها قبل المسيح بنحو تسعة قرون فرسموا فيها بجعة ووزتين وشجرة كبيرة فيها كلب وصورة زنجى ضخم الجثة • والصور اليونانية التى ذكرها بطليموس فى المجسطى يظهر كما قال بعضهم انها عملت فى بلاد العرب أيام الجاهلية وأهل (أسكندينافيا) سموها بالكلاب والمركبة والمغزل و (الاسكيمو) وضعوا بينها صورة حيوان بحرى فى بلادهم • وترى الثريا فى العربية مشتقة من الثراء أى الغنى • وفى اللسان المصرى اسمها الكثيرة لكثرة نجومها • وفى الهندية الدجاجة وفراخها • وهنود أمريكا يسمونها بما معناه الرجال والنساء أوالراقصات • والمصريون القدماء كان عندهم كرات مصوّرة من قديم الزمان ولم تزل آثارها فى قبر الملك (سيتى الأوّل) فى بيبان الملوك وكذلك فى قبرالملك رعمسيس الرابع فى مدينة (أبو) ففيها صور بعض مجاميع النجوم مثل النهر والسهم والكركدن ومغن

ها أنا ذا الآن أكتب هذا و بين يدى الصور المنقولة من كتاب أبى الحسن الصوفى الذى ألفه فى أواسط القرن الرابع للهجرة نسخت للسلطان (أولغ بك كوركان) والصور المنقول عنها كانت ملونة وهى لسائر الصور السماوية وقد أجاد المصوّر رسمها وتزويقها وأفرغ فيها دقيق الصنعة ورسم الكواكب فيها بالذهب • وها أناذا أشاهد فى الكتاب أمامى الآن صورة التنين من رسم العلامة المذكور ولكن ليست هذه الصورة ملونة كالمنقول عنها • هـذا ما أردت أن أقدّمه فى هذا الموضوع قبل الدخول فى المقصود وهو الكلام على صور قدماء المصريين التى صوّروها ووجدت الآن فى مقابرها مصوّرة على صناديقهم مصـداقا للآية إذ يقول الله ــ فاليوم ننجيك ببـدنك لتكون لمن خلفك آية ــ • ها نحن أولاء نقرأ آيات الله المرسومة فى مقابر قدماء المصريين

أكتب هذا وأمامى هيئة البروج الاثنى عشر وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت • وهاهوذا صندوق حترالذى وجدوه بطيبة وفيه رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها ويسترها ثوب طويل وفى رجليها نعلان وعلى رأسها عصابة وقد رسمت فوقها الشمس وعلى جانبى المرأة البروج الاثنا عشر منها ستة عن اليمين وهى السرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس وستة على اليسار وهى من الجدى الى الجوزاء • وترى هـذه الصور واضحة جليـة فترى صورة السرطان على يمين المرأة الخ

وهكذا بقية البروج فترى الجوزاء بهيئة امرأتين متقابلتين قد مدّت احداهما يدها الى الأخرى للسلام عليها وأمسكت كل منهما بيد الأخرى ورجـل كل منهما تخطو الى الأخرى والثور واقف قبـل تلك الصورة والدلو عبارة عن رجل واقف يصب الماء من إناء بين يديه والجدى نصفه معزى ونصفه الآخر على هيئة السمك

﴿ صورة منطقة فلك البروج التى وجدت فى هيكل (دندرة) فى عصر القياصرة الأول ﴾

ها أناذا أرى شكلها أمامى فى كتاب (الحضارة القديمة فى مصر والشرق • الجغرافيا الرياضية) أو (علم الهيئة عند قدماء المصريين) لصديقنا المرحوم الاستاذ الجليل أحمد بك كمال • ها أنا ذا أيها الذكى أبنت لك كيف تصوّر الناس هذه النجوم قديما • وكيف جعلوها مجاميع • وكيف صوّروها بما يعرفون • وكيف كان قدماء المصريين قد رسموها وجعلوها فى مقابر عظمائهـم وكبرائهم • وكيف صوّروا البروج التى نعرفها نحن بنفس الصور التى نقرؤها كالثور والسنبلة والحمل والحوت الخ • وكيف كان هذا العمل من النوع الانسانى كله قديما وحديثا وعند علماء الاسـلام وأوروبا ليكشف الناس الحجاب الذى حجب عقولهم عن ذلك الجمال الذى سـتره عنهم الشهوات والحروب والنوائب وحدثان الدهر وتقلباته فهـم بهذا الدرس يحتالون ليدركوا جمال هـذا العالم الذى نعيش فيه • وكيف حثّ الله على النظر فى هـذه السورة وذكر الشمس والقمر والضياء والنور • وكيف ذمّ المعرضين عن ذلك الجمال فى الآيات كما ذمّ المعرضين عن الآيات فى مقام ذكر

نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية . وكيف كانت الفراعنة قد رسم على صناديقهم تلك الصور السماوية وأودع فى مقابرهم وآثارهم حكمة الله عزوجل فى السماء والأرض

﴿ القرآن يأمر بالنظر لكل ما هو محكم الصنع ﴾

إن الله يأمرنا بالنظر فى مصنوعاته كلها كالشمس والقمر والأرض . وبالنظر فى مصنوعات الحيوان كالعنكبوت والنمل والنحل وفى النبات الذى هو تحت تدبير الملائكة . وهكذا كل حيوان وانسان وغيرهما ان الملائكة بالنسبة لله تعالى — ولله المثل الأعلى — كالعين والأذن واليد والرجل للانسان . فكما أن أحدنا يقول رأت عينى أورأيت أنا و يقول سمعت أذنى وسمعت أنا . فالسامع والرائى انما هو نفس الانسان إذ الأذن والعين انما هما له . فهكذا يقول الله تعالى — الله يتوفى الأنفس حين موتها — و يقول — قل يتوفاكم ملك الموت — فعمل الملك هو عمل الله وما الملك إلا نوره سبحانه وتعالى وشأن من شؤنه . وما عمل العقلاء من نوع الانسان من هندسة وتصوير وعلم وحكمة إلا أثر من آثار الملائكة إذ الثابت فى ديننا أن كل عمل انما يكون من إلهام ملك ان كان خيرا ومن وسوسة شيطان ان كان شرا . إذن علوم قدماء المصريين المرسومة فى الهياكل وكذا كل العلوم التى ألقاها الملائكة على قلوب العلماء فى الهند والصين وعلماء الاسلام وعلماء ألمانيا والنمسا والمجر واليابان وغيرها . كل هذه يجب علينا النظر فيها وجوبا كفائيا . واذا قصرنا فيها عاقبنا الله بما نحن فيه الآن وزادنا منه . أما أنا فانى أدّيت ماقدرت عليه ونصحت أمّتى

إن الله ذمّ المعرضين عن آياته فى هذه السورة بعد ذكر الشمس والقمر كما ذمّ المعرض عن آياته بعد ذكر فرعون الذى نجا ببدنه وجعله آية . فثبت بهذا أن مصنوعات الله ومصنوعات الحيوان ومصنوعات العلماء والعقلاء من بنى آدم كلها مصنوعاته وآياته . واذا كنا مأمورين أن ننظر فى النبات وجماله وفى نظام النحل وأفعاله والعنكبوت ونسجه . فبالأولى نؤمر بأن ننظر فى فعل من هو أرقى وهو الانسان ونأخذ بالأحسن والأفضل منه . اللهم إنى قد أدّيت الأمانة لأمّتنا الاسلامية وأنت أيها الذكى القارئ لهذا التفسير مسؤل مثلى فعلم أمّتك وأدركها وأخرجها من سجن الجهالة وأفهمها كتاب الله والله لايضيع أجر المحسنين اهـ

﴿ تذكرة ﴾

اعلم أنى كتبت ماتقدّم ولم يكن ليتخيل لى أنى أرسم هاتين الصورتين الفلكيتين المصريتين لما فيهما من صور بعض الحيوانات فاتفق أن وقع نظرى على كتاب مؤلف حديثا فيه صور بعض الحيوانات وقد صدّر بمقدّمة فيها أحاديث وردت يؤخذ منها جواز صور الحيوان اذا كانت لاظلّ لها . فعجبت كيف اطلعت على هذا اليوم ففكرت فى الأمر ونظرت نظرا علميا ففتح لى باب لن يقفل على المسلمين بعد الآن ﴿ ذلك ﴾ أنه ظهر لى أن الصور الشمسية ماهى إلا أضواء شمسية ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ظلالها والظلال اذا حرّمها امرؤ فقد انسلخ من عقله ودينه . وكل امرئ يباح له النظر الى صورته فى المرآة فاذا دام النظر وتكرر لم يحرم وما الصور الشمسية إلا كالصور فى المرآة الخ ماسيأتى فاعتقدت الاباحة والأحاديث الواردة فى الجواز لما يرسمه الناس بأيديهم لا برسم الشمس الى آخر ما سيأتى شرحه

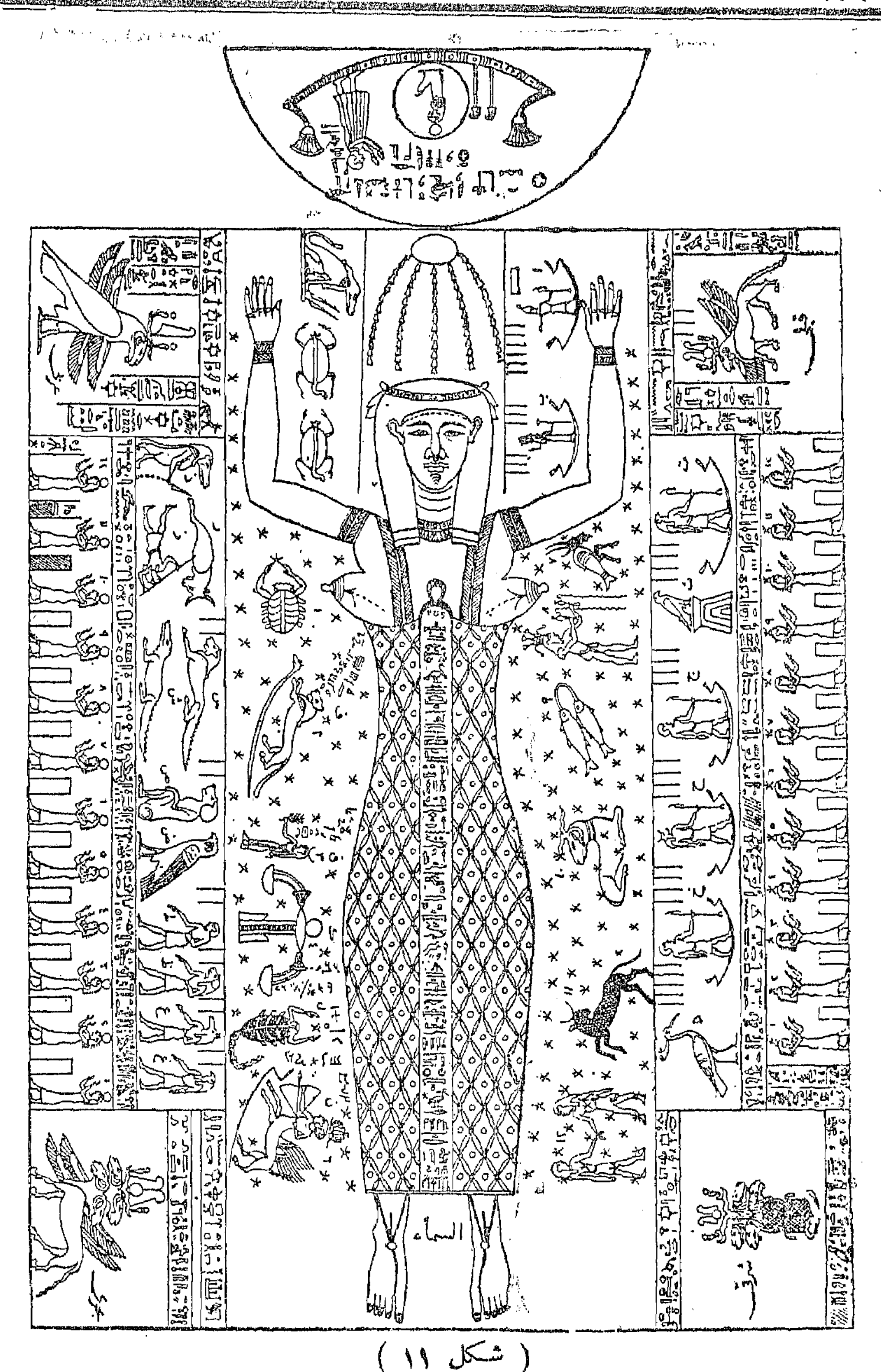
فهاأنا ذا الآن أذكر ثلاثة فصول ﴿ الفصل الأوّل ﴾ فى رسم الصورتين الفلكيتين المنقولتين عن قدماء المصريين مع شرح العلامة أحمد بك كمال ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى الكلام على ما يجوز من الصور ومايمتنع ومايجب ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى الكلام على بناء الاهرام بمصر لأن ذلك البناء من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة القدماء

﴿ الفصل الأوّل فى رسم الصورتين المذكورتين وشرحهما ﴾

قال العلامة الأثرى الكبير أحمد بك كمال فى كتابه ﴿ الحضارة القديمة ﴾ مانصه

ان

إن قدماء المصريين فى عصر اليونان أوالرومان حسبوا هيئة السماء بالكيفية التى وجدت على صندوق حتر بطيبة (شكل ١١) وفيها رسمت السماء على صورة امرأة رافعة يديها و يسترها ثوب طويل مثبت على الأكتاف بحمالات وفى رجليها نعلان وعلى رأسها عصابة وفوق رأسها اشارة هيروغليفية يشار بها الى الشمس ذات الأشعة وعلى جانبى هذه المرأة البروج الاثنا عشر منها ستة عن اليمين وهى السرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس وستة عن اليسار وهى الجدى والدلو والحوت والحمل والثور والجوزاء وأجل شئ يستحق الالتفات اليه الكواكب السيارة الخمسة البادية الذكر وهى بين النجوم المنتشرة عن يمين المرأة (نوت) منها اثنان فوق برج الأسد وهما كوكب المشترى وكوكب زحل أشير اليهما بحرف (ف) كما أشير بحرف (ق) الى كوكب المريخ الموضوع بجانب برج السنبلة وفوق هذا البرج اسمه وهو (نتر ـ سب تاحم) و بين الميزان والعقرب عند حرف (ك) كوكب عطارد و يسمى (سبك) وتحت ذلك نقوش صعبة الحل مرموزلها بحرف (ل) وهى تدل على برج الميزان و بين العقرب والقوس فى المكان المرموز له بحرف (م) كوكب الشعرى اليمانية (نتر ـ دوا) والكتابة التى فوق العقرب صعبة الحل أيضا وهى اسم برج العقرب و يرى فوق القوس اسمه (بشت) وقد وضع فوقه حرف (ن) للدلالة عليه . أما الصور المرموز لها بحروف (ت ث ج ح خ د) فانها تدل على كواكب عرفت مدّة الفراعنة لأنها وجدت مرسومة على بعض آثار الأسرة التاسعة عشرة والعشرين . وقد عرف قدماء المصريين نجوما غير ماذكر كالمرسومة بين ذراعى (نوت) وكالجوزاء المشار اليها بحرف (ا) والشعرى اليمانية والنجم المسمى (حس ـ مون) أو (رتر) أى النسر الواقع والدب الأكبر المرسوم على هيئة فخذ الثور يسمى (ضبس) والنجم (آن) والأسد (س) والتمساح (ش) والصور الأربعة المشار اليها بحروف (ط ظ ع غ) يرمز بها للملائكة الأربعة المختصة بحفظ أحشاء الأموات وهى (أمست) و (حى) و (دواموتف) و (قبح سنوف) وقد جعلت هنا رمزا للنجوم أما الأربعة والعشرون صورة التى عن يمين و يسار المرأة الدالة على السماء فهى رموز للأربع وعشرين ساعة فساعات النهار جعلت على هيئة نساء فوق رؤسهن قرص الشمس اشارة الى النهار وساعات الليل رسمت أيضا كنساء فوق رؤسهن نجمة اشارة الى الليل وبجانب ساعات النهار كتابة معناها ﴿ السلام عليك أيها المتوفى حتر بن المرحومة بحر الخ ﴾



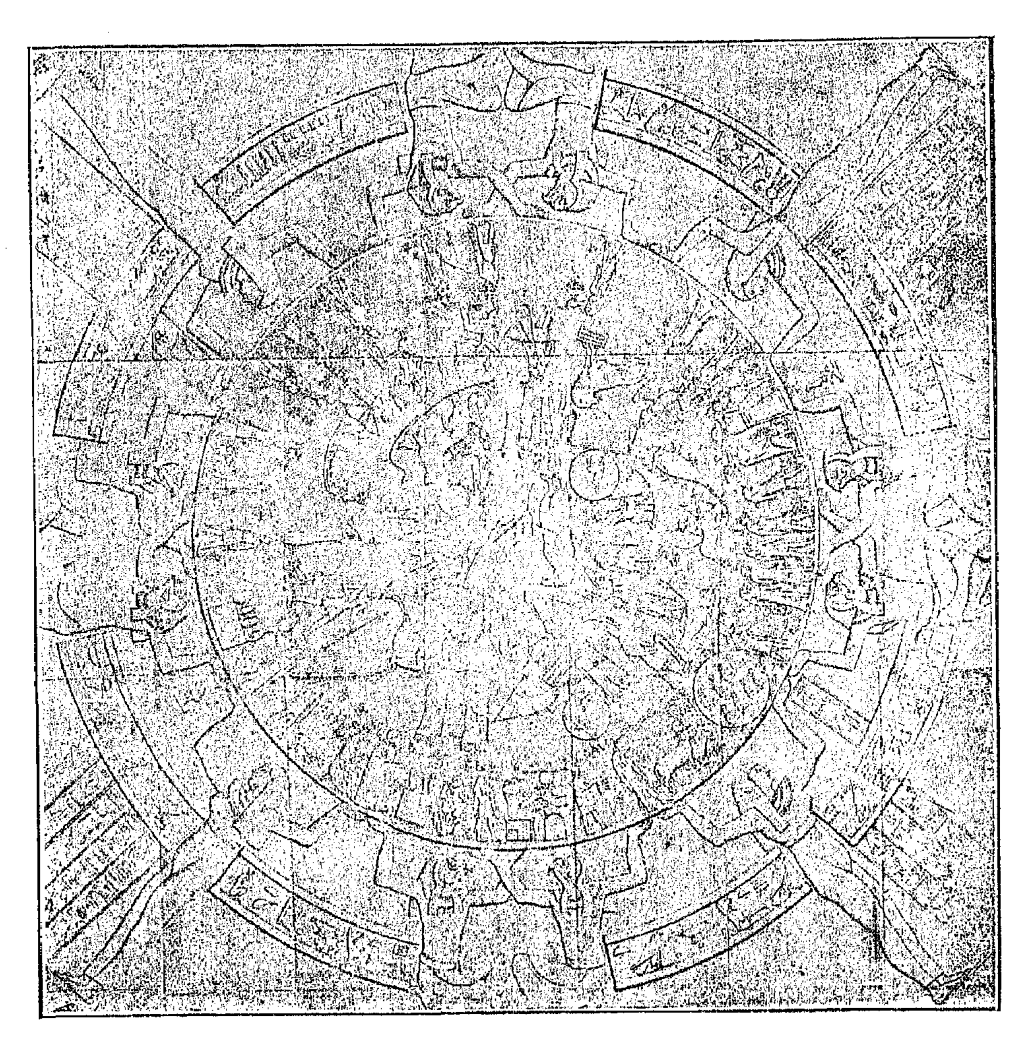
(شكل ١١)

فالساعة الأولى هي ساعة الفجر والأخيرة هي ساعة المساء وقد رمز للنقط الأربع الأصلية في أركان شكل (١١) أيضا بحيوانات فللجهة البحرية سبع له أربعة أجنحة ورأس كبش فوقه قرنان و بينهما قرص الشمس تعلوه ريشتان وبجانبيه ثعبانان وأشاروا للجهة الشرقية بعجل له أربعة رؤس كباش وللجهة الغربية بباشق له أجنحة ورأس كبش عليه ريشة وقرنان فوقهما ثعبانان وللجهة القبلية بسبع له أربعة أجنحة وأربع رؤس كباش ويشاهد في الرسم الذي فوق رأس المرأة (نوت) الدالة على السماء مركب الشمس وفيها صورة

المتوفى (حتر) انتهى الكلام على الشكل الحادى عشر

﴿ الكلام على الشكل الثانى عشر ﴾

هو الذى وجد فى هيكل (دندره) وهو رسم لمنطقة فلك البروج صنع فى عصر القياصرة الأول وهو وان كان متأخرا لايخلو من الفائدة واليك رسمه



(شكل ١٢)

هذه الدائرة وجدت فى هيكل (دندره) الذى بنى فى القرن الأول وهدم فى آخر أيام البطالسة وتم بناؤه فى عهد القيصر أغسطس وذلك فوق معبد قديم من الطبقة الأولى اهتمت به ملوك الأسرة الثانية عشرة وأعظم ملوك الطبقة الوسطى مثل (تحوتمس الثالث) و (رمسيس الثانى والثالث) وكانت المنطقة مرسومة فى سقف الرواق الثانى من جهة الجنوب وقد أخذها الفرنسيون بأمر المرحوم محمد على باشا سنة ١٨٢١ وحملوها الى مدينة باريس . فترى فى هذه المنطقة (١) أربعة من صور النساء واقفات جعلت للدلالة على الشرق والغرب والجنوب والشمال وهى تحمل السماء ويساعدهن فى ذلك ثمانية من صور (حوريس) جاثيات رؤسها على شكل الباشق وجسمها كجسم الانسان وهذه المنطقة المحمولة على أيدى هذه الصور الاثنى عشر تنقسم الى (٣٦) قسما وكل قسم الى عشرة أقسام فيكون مجموع الأقسام (٣٦٠) قسما والقسم يوم وكانت هذه الصور الاثناعشر التى ترمز الى الملائكة ترأس منطقة فلك البروج القديمة المصرية فى أقسامها كافة . ثم لما جاء اليونان بمصر ونشروا منطقتهم الفلكية جعلوا كل ثلاثة من هذه الصور لقسم من الدائرة

وبهذه التجزئة بقيت المنطقة معتمدة للآن لدى علماء الفلك ويشاهد فى نفس المنطقة وفى أقسامها بعض نجوم رصدها المصريون قديما كالدائرة المشتملة على ثمانيــة من المذنبين المغلولى الأيدى الجاثين على الركب وعلى الثعبان الكبير المتوّج بالتاج (اتف) وتبتدى المنطقة فى أعلى هؤلاء المذنبــين ببرج الأسد ثم بواسطة البرج الأخير وهو السرطان تدخــل فى الدائرة الموضوعة فوق الأسد بحيث يتكوّن من الجميع شكل حلزونى ويرى فى داخل الدائرة أن الكواكب قد رسمت كل خمسة معا فى هيئة رجال تسير الهوينا

قال (شامبليون فيجاك) من تأمّل هذه الدائرة وجدها مبتدئة فى وسطها ببرج الأسد المرسوم كالسبع السائر فوق ثعبان ومن خلفه امرأة . ثم ببرج السنبلة وهى امرأة فى يدها اليسرى سنبلة قمح ثم يلى ذلك من اليمين الى اليسار برج الميزان بكفتيه ثم برج العقرب ثم القوس نصفه انسان ونصفه الآخر ثور وله أجنحة ثم يليه الجدى نصفه ماعزى ونصفه الآخر سمكى ومن بعده الدلو وهو كرجــل يصبّ الماء من إناء بين يديه ثم الحوت وهو أسماك مجتمعة فى مثلث مخصصة باشارة الماء ثم الحمل وهو أوّل البروج اليوم عند علماء الفلك وبعــده الثور وكلاهما مرسوم فوق صورة انسان سائر وبينهما الجوزاء ثم السرطان . هــذه هى البروج الاثنا عشر المرسومة داخل المنطقة ولأجل الوصول الى معرفة ترتيبها والوقوف على أوّل بروجها نكتفى بالتأمّل الى السرطان إذ هو الموضوع مباشرة فوق رأس الأســد . وعليــه فالاثنا عشر برجا موضوعة على شكل حلزونى وتعرف الكل بسهولة لأن مبــدأها الأسد كما تقدّم . أما غيره من البروج فيتبعه مرتبة حسب ترتيبــه الوارد فى المنطقة . وأما باقى الصور المنتشرة فى دائرة المنطقة فهى نجوم أشــهرها الشعرى اليمانية وهى المرسومة كالبقرة فتراها نائمة فى سفينة وعلى رأســها نجمة وفى جيدها هذه العلامة (♀) الدالة على الحياة وهذا النجم يعرف عندهم باسم (أسيس) ويتبع هذا الفصــل ﴿ جوهرتان ﴾ الجوهرة الأولى فى عجائب هذه الصور الفلكية المصرية . الجوهرة الثانية فى فوائد ذلك للسلمين

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

أنظر أيها الذكى فى هاتين الصورتين . لقــد تبين فيهما ما فى علم الفلك من ثوابت وسيارات وما عرف الناس من البروج الاثنى عشر . وانظر كيف تجلى ذلك فى الصورة الأولى التى وجدت فى قبر حتر مرسومة على صندوقه بهيئة صــفين عن يمين وشمال وفى صورة معبــد (دندره) بهيئة شكل حلزونى عجيب وكيف أمكن القوم أن يبينوا فى صورة على مقدار راحة اليدين الجهات الأربعــة وأيام السنة وفصولها وشهورها وبروجها وقد رسموا ذلك بصور آية فى الحكمة وآية فى الصنعة وغرائب الابداع . ههنا تجلى معنى القرآن ههنا تجلت بدائع الفرقان . ذكر الله فى أوّل السورة الشمس والقمر ونورهمــا وحسابهما وذمّ المعرضــين عن ذلك . وههنا أبان أن للانسان صنعا فى ذلك وذمّ المعرضين عنه . إذن الله يذم المعرضين عن صنعه والمعرضين عن صنع عباده . ألاترى رعاك الله أن صنعه قد تجلى فى الصور المرسومة فى أوّل السورة مثــل صور أوجه القمر وصور سديم المرأة المسلسلة وسديم الأسد وصورة المجرة . هــذه هى الصور التى لم تمسها يد البشر وانما وضعت فى السماء بيد خالقها ورسمت على قراطيسنا بضوء شــمسه . ثم انك ترى هنا صورا أخرى رسمت بيد العباد من آلاف السنين لتجمع أشتات الصور السماوية وتبين للناس مناظر السماء وبروجها موضحة بأشكالها حتى تــكون أســهل مأخذا وأوضح تصوّرا وأقرب فهما . جلّ الله وجلت الحكمة . ههنا ﴿ رسمان ﴾ للصور السماوية رسم فى أوّل السورة بيد الله ورسم هنا بيد العلماء . ذمّ الله المعرضين على الصورتين ولم يفرق فى الذم بين من أعرض عن الآخرة ومن أعرض عن الأولى بل ان صور قدماء المصريين الصناعية أقرب الى الفهم لأنها صور معدّة للدراسة وأقرب الى الأذهان ألا انها هى أشبه بكتلة المخ الانسانى ترسم عليه صور شــتى فيحفظها . هكذا الصور الفلكية لقدماء المصريين جمعت شتات علم الفلك فصارت

كمرآة المنجم وهى صغيرة تريه كل عامرة وقفر . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

﴿ الجوهرة الثانية فى فوائد ذلك للمسلمين ﴾

رب مطلع على هذا يقول كيف ساغ لك أن تحرّض على قراءة علوم القدماء وهم قوم عباد أوثان . أليس القرآن يغنينا . أقول هذه شبهة قد نشرها ابليس بين المسلمين ليبعدهم عن ربهم ويذلهم لخلقه . لم يقل أحد من علمائنا ان هؤلاء قوم محكوم عليهم بجهنم بل أجمعوا أن أهل الفترة ناجون وان غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان . فالأمم التى لم تبلغها دعوة نبىّ تحاسب على مقتضى عقائدها وليس محكوما عليها بالهلاك . فهذه شبهة ضالة خاطئة . وأيضا هب أنهم ضالون فهل ضلال قوم يمنعنا عن أخذ ماليهم من المنافع . اللهم ان كل قوم يحرّمون ذلك فهم قوم ضالون . وكيف يحرّم الناس ذلك وقد قال الله - أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور - يقول - لهم قلوب يعقلون بها - ولم يبين أى معقول يعقلون أعلى يد كافر هو أم على يد مسلم . واذا كان ابن آدم يقول فى سورة المائدة كما مرّ هناك - ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى - أى ان الانسان يتلقى العلم عن الغراب ويأخذ الحكمة عنه اذا وجدنفسه مقصرا عنه فى فضيلة أوعمل ما . فاذا رأى الغراب يدفن أخاه يكون من النقص أنلا يدفن أخاه . فكما تحسر ابن آدم على نقصه بالنسبة للغراب . فهكذا يتحسر المسلم على كل ما يمكنه علمه مشتق من علم الطيور وبالأولى ما كان من علم الانسان . والمتحسر على نقصه عن الغراب يكون أكثر تحسرا على نقصه عن الانسان الذى هو أقرب اليه وهو من جنسه . وهذا هو المقصود فى هذه الجوهرة يعنى اننا نكون فى حسرة ونقص شديدين اذا سبقتنا أوروبا التى هى فى زماننا . واذا سبقنا قدماء المصريين ولم نعلم ماعلموا فمن تحسر على معرفة الغراب فى دفن أخيه الغراب فما أحراه أن يتحسر على علوم مكتوبة له مرسومة على ألواح مرصودة فى المقابر مهيئة له ثم هو يولى معرضا عنها لحق عليه قول الله - ياحسرة على العباد الخ -

﴿ حكاية النملة وسيدنا سليمان عليه السلام ﴾

وياليت شعرى اذا كان نبىّ الله سليمان عليه السلام يقول - يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إنّ هذا لهو الفضل المبين - ثم أخذ يذكر قصة النملة التى سمعها فى وادى النمل تقول - يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون - . سمع النملة سليمان . فماذا فعل (١) تبسم ضاحكا من قولها (٢) - وقال ربّ أوزعنى - أى ألهمنى - أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ - (٣) - وأن أعمل صالحا ترضاه - (٤) - وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين - .

تبسم سليمان فرحا بانه عرف ماتقوله النملة واعترف بنعمة الله عليه وعلى والديه وطلب من الله أن يعمل صالحا الخ . فيقول سليمان انه علم منطق الطير وأوتى من كل شئ . ويقول إن هذا فضل مبين . فاذا كان منطق الطير مع ماعطف عليه فضلا مبينا فما بالك بمنطق الحكماء والعلماء من نوع الانسان . إنّ الانسان اذا عرف مانطق به الحكماء وما دوّنوه فى الألواح والكتب والطوامير يكون أولى بالشكر والاقرار لله بالفضل . إن العلم المودع فى الانسان أعلى من العلم المودع فى الحيوان . فاعلان النبى سليمان شكره لله على علمه بمنطق الطير حضّ لذوى العقول أن يعرفوا نعم الله فما نالوه من حكمة الحكماء وعلم العلماء . اللهم لم يبق بعد هذا البيان عذر لأمم الاسلام بعدنا . اللهم قد أبنت بفضلك لهم مايجب عليهم من العلوم ونقل الحكمة . إن المسلمين بعدنا هم الذين يعرفون ماقرأته جميع الأمم وماظهر من عجائب هذه الدنيا

مرّت على المسلمين قرون وقرون وهم نائمون بعد العصر الأوّل أنامهم شيوخهم المغرورون فقلّ أولو الألباب وذات الأعقاب وهذا أوان استيقاظهم فليكونوا فيما مضى أشبه بحيوان عاش فى بيضة فصار دودة

ثم فيلجئة كدودة القز * وهاهوذا قدجاء أوان استيقاظهم و بناء مجدهم فيكونون أشبه بذلك الحيوان وقد حل وثاقه وصار فى حرية يمتع بالنسج والشجر وأعمال الأزهار اه

فهذا هو قوله تعالى — فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون — انتهى

﴿ ذكرى أيام الشباب وشكر الله تعالى على نعمة العلم والعرفان ﴾

قد ذكرت فى سورة الأنعام أن عويل نساء قريتنا على عظيم من عظمائها كان ذلك يورثنى حزنا على جهلى * وأوضح الآن أكثر ايضاحا فأقول * لقد كانت هذه حالى أيام الشباب فكنت اذا سمعت النادبات يندبن بهيئة منظمة موسيقية تحدث فى قلبى رقة وآلاما على جهلى بعلم الفلك لأنى كنت أنظر إذ ذاك الى النجوم فى الليالى المظلمة وهى تلمع خلال النخيل المحيط بالقرية فكان يخيل لى أن أصواتهن ترتفع فى طبقات الجوّ صاعدة وأنا أصعد الأنفاس حزنا على جهلى بعلم هذه النجوم * وتارة كانت تحدث هذه حزنا فى نفسى على الآثار التى خلفها الأوّلون وأتحسر وأحزن على ما أودع فيها من عجائب * ولست أدرى سبب اقتران بكاء النساء بهذا ولابذاك ولكن هذه كانت حالى وقد كنت أيام الصبا قبل المراهقة أبيت فى الحقل مع أقاربى فأسمع طنين الناموس فى الحقول فأحس فى نفسى بحزن عميق على جهلى بهذه الدنيا وهذا الوجود وكأن ذلك الطنين أرسل الىّ ليذكرنى بالجهل الطويل الممتد كامتداد هذه الدنيا فلا أدرى أوائلها وأواخرها * هذه كانت حالى أيام الصبا وحالى أيام الشباب * أفلايحق لى الآن بل أفلايجب علىّ أن أشكر الله وأعلن فضله علىّ إذ جمعت من عجائب وغرائب النجوم والأفلاك صورا جميلة و بدت بهيئة ظريفة فدزينت للناظرين و بعض هذه الصور إلهية و بعضها بأيد بشرية مدفونة تحت أطباق الثرى كما كنت أجد فى نفسى أن فى السماء عبرا وفى الأرض وآثارها المدفونة خبرا * اللهم انى قد علمت من ذلك على قدر الطاقة البشرية وأدركت بعض نظام هذه الدنيا * فأنااليوم أحمدك وأشكرك على فضلك العظيم ومنتك الكبرى إذ أريتنى من عجائب كواكبك ومن غرائب خزائن الآثار التى رسمها القدماء وقد انقلب حزنى فى الشباب على الجهل سرورا فى المشيب على العلم والحكمة والحمد لله رب العالمين * انتهى

﴿ الفصل الثانى فيما يجوز من الصور ومايمتنع ﴾

ولما أردت أن أصنع صورة البروج المستخرجة من قدماء المصريين المذكورة حضر صديق لى من قراء هذا التفسير وهو من أهل العلم الصالحين المطلعين ومن قرابتى وهو الشيخ محمد السيد دياب فقال كيف تضع صورا فى التفسير والتصوير حرام * فقلت إن الصور على ﴿ نوعين ﴾ نوع ورد ذكره فى الأحاديث وكلام العلماء ونوع لم يرد * أما الذى ورد ذكره فى الأحاديث وكلام العلماء فهو ﴿ قسمان ﴾ التصوير الذى له ظل والذى لاظل له والأول منهما محرّم بالسنة وقد شرط له العلماء أن يكون على هيئة يعيش بها الخ * القسم الثانى مباح لما روى عن زيد بن خالد رضى الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبى ﷺ قال لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة قال بسر فمرض زيد بن خالد فعدناه فاذا نحن فى بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الخولانى ألم يحدثنا فى التصاوير فقال انه قال ألارقما فى ثوب ألا سمعته قال لا قال بلى فذكره * وروى الترمذى بسنده أنه دخل على أبى طلحة الأنصارى يعوده فوجد عنده سهل بن حنيف فقال فدعا أبوطلحة انسانا ينزع نمطا تحته فقال سهل لم تنزعه قال لأن فيه تصاوير وقد قال النبى ﷺ ماعلمتم قال أولم يقل إلا ما كان رقما فى ثوب فقال بلى ولكنه أطيب لنفسى وقال الترمذى حسن صحيح * وروى أن عائشة رضى الله عنها كان لها قرام (ستر) سترت به جانب بيتها فقال لها النبى ﷺ أميطى عنى فانه لاتزال تصاويره تعرض فى صلاتى اه

وجاء فى صحيح مسلم وأبى داود والنسائى والترمذى عن أبى هريرة أن جبريل أمرالنبى ﷺ أن يأمر

بالستر الذى فيه تماثيل فيجعل منه وسادتان توطآن . فهذا يدل على أن تلك الصور ترجع الى المقصود منها وهى مباحة

أما النوع الذى لم يرد ذكره فى الأحاديث ولا كلام العلماء فهو التصوير الشمسى وما هو إلا صور رسمها الله بشمسه فاحتال الناس على سكونها فسكنت كما يرى الانسان صورته فى المرآة فهل يباح لنا أن نراها فيها ولا يباح بقاؤها انها من نوع الظلال الشمسية ومن حرم الظلال الشمسية تحت جبل أو حائط أو جمل فقد انخلع من عقله ودينه معا . فالصورة الشمسية لم ترسم بأيدينا والنظر اليها كالنظر الى الظلال المعروفة على أن هذه كالمعجزات القرآنية فى هذا الزمان . يقول الله سبحانه ـ ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ـ فهاهو ذا سكونه المرموز له فى الآية . فقال الشيخ محمد السيد إذن هذا مباح . قلت بل هو واجب . فقال أين الدليل . قلت هو هنا للتعليم والتعليم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما يقول الشافعى رضى الله عنه فى غسل المرفق مع غسل الذراع . قال وهل هذه تعاليم اسلامية . قلت بل هى لبّ الاسلام وقلبه . انها صور البروج والبروج تشمل المنازل المذكورة فى هذه السورة فى قوله تعالى ـ وقدّره منازل ـ فكيف يعرف الناس المنازل إلا برسمها فهى تفسير للقرآن وهى توحيد لله تعالى وهى شكر له . إن التوحيد هو العلم بما هو فى هذا الوجود وهذا الوجود لا يعرف إلا بأمثال ما ذكرناه وهو من ملكوت السموات والأرض الذى أراه الله ابراهيم الخليل فقال تعالى ـ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ـ فبهذا يكون الايقان الذى هو أرقى من الايمان . ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا لبّ العلم وهو الذى حضّ النبى ﷺ على تعلمه فقال ﴿ نحن أحقّ بالشك من ابراهيم ﴾ ومعنى هذا أن علينا أن نبحث ونجدّ حتى نوقن ولا معنى للبحث والجدّ إلا فى علوم هذه الكائنات التى يكون بها اليقين تشبها بالخليل عليه السلام الذى نظر فيها وأيقن وان كنا لا نصل الى مقامه . فقال ذلك الصالح ولم خصصت الرسم بما نقل عن قدماء المصريين . فقلت أوّلا إن هذه أرقى وأكمل من غيرها فى التعليم (ثانيا) أن الله سبحانه ذكر المنازل فى هذه السورة ثم جاء فى نفس السورة فذكر فرعون وهو من قدماء المصريين وقد جعل بقاء جسمه آية فنحن نرى للناس بعض هذه الآية التى وجدت فى مقابرهم لنخلص من الغفلة عن الآيات فى قوله ـ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ فهاهنا استبان أن الغفلة عن آيات الله (ومنها الآيات التى خبأها الله فى قبور الفراعنة) مذمومة منهى عنها وهذه الأسرار لم تظهر إلا فى هذا الزمان فوجب علينا أن نظهر للناس أن القرآن قد أشار الى علوم قدماء المصريين وهذا منها لا سيما أنه هو المذكور فى نفس السورة وهى صور البروج والمنازل . فهذه العلوم من جهة فرض عين على كل قادر على الازدياد من التوحيد ومن الشكر وفرض كفاية بحيث يكون فى الأمّة من يعرفونه مثل جميع العلوم والصناعات

﴿ ملخص ما تقدّم ﴾

إن هذه الصور وضعت فيما هو فرض عين على كل قادر من ﴿ وجهين ﴾ وجه التوحيد ووجه الشكر وفرض كفاية على الأمة بحيث تخصص له جماعة يقومون به من وجهين أيضا وجه أنه علم الفلك ووجه أنه علم قدماء المصريين فيكون ثوابه هنا مضاعفا والقائم به قائم بغرضين معا لكفاية الأمّة . ثم قلت له أيها الفاضل لنفرض أن أحاديث الجواز وإباحة الصور لم ترد وأن حديث أبى طلحة وهو قوله ﷺ لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة لم يذكر فيه ما بعده وهو اباحة التصوير اذا كان رقما فى ثوب . وبالاجمال لنفرض أنه لم يرد شئ من الحلّ ولم يرد إلا النهى فهل نمنع رسم الصور . قال نعم . قلت له قد ورد فى رواية من نفس هذا الحديث ﴿ لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة ﴾ قال أذكر ذلك . قلت إذن سوّى الحديث بين الكلب والصورة . قال نعم . قلت فهل هناك نهى عن كلب الصيد أو حراسة الغنم . قال لا . قلت

لماذا . قال لأن كلب الحراسة ينفعنا لحفظ غنمنا . قلت ثم ماذا . قال وأيضا كلب الصيد يفيدنا فى حياتنا نأكل مما يصطاد لنا . قلت إن الصور فى عصرنا الحاضر أنفع لنا من كلب الصيد وكلب الحراسة انها تحرسنا وتفيدنا . قال هـذا لا أعقله . قلت أنت تعقله ولكنك تريد أن تعلم الناس قال حقا . فقلت له اعلم أن الناس اليوم فى أوروبا وأمريكا واليابان و بلاد الترك قد عرفوا من العلم مايجهله كثير من الناس . ذلك أن الحيوانات على ﴿ قسمين ﴾ قسم نراه وقسم لانراه والذى نراه بالنسبة لما لانراه قليل جدّا . إنّ جميع ما على الأرض من الانعام والبهائم والحشرات والطيور لاتساوى فى تعدادها مافى جسم رجـل أصابه طاعون أوحمى أومرض الجدرى أوالحصباء أوحمى التيفوس أوحمى التيفود . فهؤلاء جميعا لايمرضون ولايموتون إلا بحيوانات دقيقة تحدث ذلك . وقد احتال علماء هـذه الأمم فصوّروا تلك الحيوانات وعرضوها على الناس وهى مكبرة ألف مرة وعشرة آلاف ومائة ألف فظهرت خراطيمها مع أجسامها فعرفها الناس فاحترسوا منها بأن أتوا بما يضادّها فأهلكوها فأنجوا كثيرا من الناس بذلك ولولا مافعـلوه مابلغ قطرنا المصرى اليوم (١٤) مليونا بعد أن كانوا (٣) ملايين أيام المرحوم محمد على باشا تقريبا . وهكذا جميع الأمم . وأيضا هذه الحيوانات وغيرها لما رسمت فى الكتب وظهرت صورها عرف الناس جمال ربهم وحكمته واتقانه وابداعه فآمنوا به

ألاترى الى ماذكرته لك فى سورة الأعراف عند قوله تعالى ــ ورحمتى وسعت كل شئ ــ فقد قلت لك هناك ان علماء القرن العشرين من المعاصرين لنا فى أوروبا أدهشهم نظام ربهم فى حيوانه فقالوا إن علماء القرن التاسع عشر آراؤهـم فى العالم كآراء العجائز وهو أقرب الى الخرافة إذ يظنون أن هـذا العالم جاء بالمصادفة والانتخاب الطبيعى الخ . فاذا كان هذا شأن الصور الحيوانية المكبرة اذا فرضنا أنها مرسومة بأيدينا . أفلا تساوى تلك الصور كلاب الصـيد وكلاب الحراسـة . واذا جاز لنا أن نحرس غنمنا بكلبنا ونصطاد الغزالة به والصيد واقتناء الغنم مباحان وقد خرجنا بذلك عن كراهة اقتناء الكلب أفلانخرج عن كراهة الصور أوتحريمها اذا كانت مرسومة فى الورق . قال أما هذا القول فهوحسن . قلت ماذا تريد بحسنه . قال انه يثبت الجواز ان لم يرد فى الحـديث جوازه مع أن الأحاديث نطقت بجوازه . قلت ليس هذا جوازا انما هو وجوب وكيف لا يكون وجوبا ونحن لوتركنا معرفة هذه الحيوانات وحرّمنا رسمها على أطبائنا لجهلوا أمراضـنا ولفتكت بنا تلك المخلوقات أفلا يكون ترك ذلك حراما . قال بلى . قلت إذن حراسة الانسان والحيوان من الطاعون والموت أفضـل آلاف المرات من حراسة غنمات فى البادية لاعرابى . قال نعم . قلت إذن رسم الصور وتكبيرها يكون واجبا ﴿ لأمرين ﴾ معرفة الله وشكره . وحفظ الأمم الاسلامية من الهلاك . فقال يا للعجب إن هذا القول جيل وان من البيان لسحرا وأودّ أن ينشر هـذا القول بين المسلمين لأن هذه الأمّة قد رسخت فيها هذه العقيدة وأكثر الناس لايفرقون بين صورة وصورة ولابين حالة وحالة بل الناس غافلون نائمون يسمعون تحريم الصور فيأخـذونها على عـلاتها والعامّة يتبعون صغار العلماء وصغار العلماء أعينهـم فى غطاء عن ذكر الله ومن الغطاء عن ذكر الله أن تخفى صور الحيوانات العجيبة فلايفطنون لها . فالمسلمون اليوم وقعوا فى براثن أسدين مفترسين أسد جاء من الخارج وهى الأمم الراقية يذلونهم ويفترسونهم للجهل المخيم عليهـم . وأسد من الداخل وهـم صغار الفقهاء فى الدين الذين تصدّروا للفتيا واتبعهم الناس وأعينهم فى غطاء عن ذكر ربهم فضاعت الأمّة فريسة للأسدين أسد الأعداء الخارجين وأسد الأعداء الداخلين بجهلهم وهم الأعداء حقيقة * وفى المثل ﴿ عدوّ عاقل خير من صديق جاهل ﴾ فهؤلاء أصـدقاء جاهلون يحفظون كلمات ولايفقهون معناها فانا لله وانا اليـه راجعون * وقد قال الامام الغزالى رحمه الله تعالى ﴿ إنّ من ينصر الدين بطريق الجهل أضرّ عليه من أعدائه وناصرو الاسلام أكثرهم جاهلون ﴾ . قلت له لاتأسف ولتعلم أن الله أذن للمسلمين اليوم بالارتقاء وهذا التفسير من مقدّمات تلك النهضة

فلا

فلا يكن فى صدرك حرج مما ابتلى به المسلمون من الجهل والله على كل شئ وكيل • فقال أنا كما قدمت موقن بهذا الموضوع ولكن بهذا البيان أفرح ليطلع عليه المسلمون وانى قد اطلعت فى تفسير الفاتحة الذى نشر حديثا فى كتاب خاص أنك ستكتب فى النحل وفى العنكبوت وغيرهما عجائب لاتحصى فأنا أود كما يود أهل العلم جميعا أن ترسم تلك الحيوانات بالتصوير الشمسى لنرى بأعيننا تلك الحيوانات مكبرة فنرى أرجل النملة والنحلة الست ونرى أرجل العنكبوت الثمان وهكذا واذا كانت محاورتى معك قصدت منها أن يطلع المسلمون فى بلاد الاسلام وأنا قبل ذلك مقتنع بحديث مسلم وغيره فانى أود أن أقابل أكابر علماء الحنفية والشافعية والمالكية وآتى بآرائهم ليوضع هنا حتى يكون رسم الصور اجماعيا ممن يعتد بهم • فلما أطلعنى على ما كتبه جماعة من هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر من المذاهب كلها رأيت انهم اتفقت آراؤهم واختلفت عباراتهم ورجعوا جميعا فى المعنى الى أمر واحد وهو جواز التصوير الشمسى كالذى يصور فى هذا التفسير وهذا نص ماقاله شيخى وأستاذى بالجامع الأزهر شيخ السادة الشافعية ومن هيئة كبار العلماء بنصه قال ﴿التصوير المحرم انشاء صورة تشبه صورة الحيوان بخلاف حبس صورة حيوان بنحو زجاج فليس بتصوير وحينئذ لاحرمة بل هو مثل حبس الصورة بالمرآة وهذا الحبس ليس بحرام﴾ ونحا نحوه صديقنا الشيخ يوسف الدجوى من كبار علماء المالكية وهكذا غيره • فلما قرأت ماذكر قلت له الجواز لا يكفى بل هنا يكون الوجوب لأن العلم لا تظهر حقائقه فى هذا الزمان الذى اتسعت فيه دوائره إلا برسم صور المخلوقات الحية وغير الحية كما تقدم

واذا سمعناه ﷺ يقول لعائشة أميطى عنى فانه لاتزال تصاويره تعرض فى صلاتى فانا نفهم منه أنه لم يمنعه من ظهوره أمامه فى الصلاة إلا أنه شغله عنها • إذن التصاوير شغلته فى الصلاة فأمر باماطتها • اذن اذا كانت التصاوير تعرفنا جمال الله وحكمته فى كتبنا التى ندرسها فانا لانميطها ولا نبعدها لأنها مذكرة بالله وبجماله • إن العلماء استنتجوا من وجودها عنده وأمره بالاماطة فى تلك الحال أن الصور التى لاظل لها مباحة • فكيف بنا اذا رأينا صور الكتب التى ترشدنا الى جمال ربنا ونظام حياتنا • فهل هذه نميطها كلا والله • ثم كلا بل المفهوم من الحديث أننا نبقيها وجوبا أو ندبا

﴿ تذكرة ﴾

بعد أن كتبت هذا زارنى أحد الفضلاء فاطلع عليه فقال • إن ما أبديته من الأدلة كاف فى جواز بل وجوب الصور الشمسية لاظهارها الخفايا والدقائق كى يحيط الانسان علما بما فى هذه الحيوانات من العجائب ولكن هذا ليس ينتفع به جميع المسلمين وهذا التفسير عام لايختص بأهل سنة ولا بشيعة ولا بامامية ولا زيدية بل هو كتاب عام • وفى هذه الطوائف من لاتقنعه البراهين العقلية ولا تكفيه الأدلة الحكمية • وانما يعول على نصوص القرآن أو الحديث وماعدا ذلك يضربون به عرض الحائط • فهل لك أن تذكر مايناسب الصور الشمسية من الآيات القرآنية ولا تقف عند ماذكرت من قوله تعالى ــ ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ــ وأن هذه الصور انما هى من أشعة الشمس واحتال الناس عليها فأسكنوها فان مثل هذا لا يجتزى به ذلك الفريق من المسلمين • فقلت إن تصغير الكبير وتكبير الصغير قد جاآ معا فى غزوة بدر • ألم تر أن الله يقول ــ واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ــ ويقول ــ إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ــ فههنا صغر الله الكبير كما رسمت صور السماء فى هذه السورة مصغرة • وهكذا صور المجرة وأنواع السديم فهذه قد رسمت لنا مصغرة لكى تكون أمامنا • أما هى فلا حصر لعظمتها فهناك صغر الله المسلمين فى أعين الكفار وصغر الكفار فى أعين المسلمين عند اللقاء وصغرهم فى عين رسول الله ﷺ فى المنام • كل ذلك ليقدموا على الحرب • وههنا صغرت صور المجرات وأنواع السديم ليدفعنا هذا لدراستها • فهناك التصغير

لايقاع الحرب لينتشر الاسلام والعلم . وهنا وضعت أمامنا صور الكواكب والأرض وغيرها فى العلوم جميعها كالجغرافيا والنبات والحيوان والفلك وعلم طبقات الأرض لنعقلها ونتعلمها . فالتصغير هناك للحرب والحرب لنشر العلم وهو دين الاسلام . والتصغير هنا لنجتهد فى البحث فنعلم فكلاهما للعلم صغر جيش الكفار فى رؤيا النبى ﷺ وفى أعين الصحابة عند التقاء الجيشين لنشر العلم . وهكذا هنا صغرت هذه المخلوقات بالتصوير الشمسى لنشر العلم . فقال صاحبى هذا والله أعجب العجب . إن هذه أمور لاتخطر بالبال واستنتاج غامض ولكنه حق ولكنه لايزال ناقصا أنت الآن عرفتنا تصغير الكبير ولكنك لم تأت بما يدل على تكبير الصغير ولا يكفينا قوله تعالى — ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر — لأن — لو — تدل على الامتناع فهنا أطلب منك أمرين ﴿الأمر الأول﴾ ما المناسبة بين رؤيا النبى ﷺ ورؤية الصحابة جمع الكثرة من أعدائهم جمع قلة وبين التصوير الشمسى ﴿الأمر الثانى﴾ أين تكثير القليل . فقلت له الرؤيا عبارة عن انطباع صور فى الخيال الذى اصطلحوا على أنه فى مقدم الدماغ . فاذا رأى الانسان شيأ فى المنام فمعناه أنه انطبع فى مخيلته لا أقل ولا أكثر . فالنبى ﷺ لما رأى الأعداء قليلا انطبعوا فى المخيلة قليلا وهكذا لما رأى الصحابة رضى الله عنهم أعداءهم طبعوا فى المخيلة عند كل واحد منهم قليلا بعارض سماوى لانعلمه وحصل لهم فى اليقظة ماحصل للنبى ﷺ فى المنام وهذا أمر سهل والصورة الشمسية ماهى إلا ماطبع على جرم من الأجرام بأشعة الشمس وهذا المطبوع ينتقل بنظر العين الى الحس المشترك والحس المشترك يوصله الى الخيال فرجع الأمران الى التصوير الشمسى ورؤية الصحابة ورؤيا النبى ﷺ الى النتيجة وهى وجود صور فى المخيلة لا أقل ولا أكثر وبهذه الصور تكون نتائج على مقتضاها فيكون الاقدام على الحرب هناك والاقدام على التفكر والعلم هنا . أما ﴿الأمر الثانى﴾ وهو تكثير القليل فهو المذكور فى غزوة بدر أيضا . ألم يقل الله تعالى فى سورة آل عمران — لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء — فانظر كيف أيدهم بالنصر إذ جعلهم فى أعين العدو ضعفى عدده وعدد العدو كان نحو ألف . إذن يكون جيش الصحابة صار مقدار نفسه نحو ست مرات ومقدار جيش العدو مرتين لأن جيش الصحابة نحو ثلث جيش الأعداء . فههنا لما التقى الجيشان وكان كل منهما يرى الآخر صغيرا صار أصغرهما أكبر من أكبرهما لما أراد الله نصر ذلك الأصغر فأراهم للآخرين ضعفى عددهم . فهذه الاراءة قد جعلها الله لنصرهم على عدوهم . هكذا هنا اذا نحن كبرنا صور الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والعنكبوت والحيوانات الذرية التى تكون سببا فى الحمى والجدرى وأمثالها ننال علما . وذلك أننا نزيد بالله علما فنوحده ونشكره و بطبائع الحيوان فهما فنتحاشاه ونتركه وتكثر جموعنا وتقل أمراضنا . ثم قلت إذن التكثير والتقليل قد جاآ فى القرآن والله عز وجل أنزل ذلك فى القرآن ليعلم المسلمين أنهم سادات هذا العالم . فليصغروا الكبير لهذه الرسوم الكوكبية والجغرافية وغيرها حتى يستطيعوا دراستها . وليكبروا الصغير حتى يتمكنوا من فهمه وتعقله . فلما سمع ذلك صاحبى قال الآن عرفت أن هذا القرآن لايزال بكرا وأن آياته لم تزل محجوبة عن الناس . ها نحن أولاء نقرأ هذه السور صباحا ومساء ونكرر تقليل الكثير وتكثير القليل والناس حولنا قد انهالوا من ينابيع العلم وكرعوا من أنهر الحكمة والمسلمون هم الساهون اللاهون . تصغر الأمم الصور السماوية والمناطق الأرضية وتكبر الحيوانات الصغيرة وذرات طلع الأزهار فى الأشجار وتعرف مستقر كل شئ ومستودعه والمسلمون لايعتبرون بما فى القرآن ولايفكرون . أن الصور التى رسمها الناس كلها ترجع لهذين تصغير كبير لتقريبه وتكبير صغير لامكان فهمه . هذا هو أول العلم وهذا آخره والقرآن ذكر الأمرين معا فى نفس القرآن فجعل التصغير للاقدام على الحرب والتكبير لفصل الخطاب وايقاع الهزيمة ونصر من يشاء . فقلت له إن فى

قوله

قوله تعالى – إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار – اشارة الى ماذكره الآن • فالعبرة فى الآية ترجع الى نصر جندالله مع قلتهم وخذلان الكفار مع كثرتهم وهذا الاعتبار قد سار شوطا بعيدا باجتهادالأئمة كالشافعى إذ جعل القياس مأخوذا من هذا الاعتبار ونحن نقول ويقاس على تكبيرالصغير هناك وتصغيرالكبيرماذكرناه هنا ويكون ذلك اعتبارا لأولى الأبصار والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله اهـ

فقال صاحبى أرجو أن تفصل فوائد المسلمين فى تصغير الكبير وتكبير الصغير • فقلت سيقوم المسلمون قومة رجل واحد على علوم السموات وعلوم الأرض من القارات والمعادن والنبات والحيوان والانسان ويرسموها ليفهموها مصغرة ثم يرسمون أيضا الحيوانات الذرّية الصغيرة فيكبرونها وينتفعون بكل موجود صغيرا أوكبيرا لأنهم بهذا يقدرون على فهمه • واعلم أن المسلمين أقدموا على ذلك ولكن باعتبار أنه لاعلاقة له بالدين • اما اليوم فانهم سيقدمون عليه باعتبار أنه من الدين • وسترى فى هذا التفسيران شاء الله تعالى عجائب الحيوانات وغيرها مكبرة • وترى رسوما مدهشة كما ترى فى سورة النمل فهناك صور مساكنه مكبرة ومزارعه التى يزرعها ويحصدها ويخزنها • وترى فيها طرقا زراعية جميلة يقرؤها أهل أوروبا لابنائهم ويفرحون بعمل ربهم والمسلمون محرومون من جمال ربهم وقد آن أوان ارتقائهم – ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز – والحمد لله رب العالمين اهـ

﴿ الفصل الثالث فى الكلام على بناء الاهرام لأنه من أسباب النجاة لبعض أبدان الفراعنة ﴾

ظهر جمال الله للأمم قديما وتجلى لهم بنجومه الباهرة وأنواره الظاهرة • يا الله أنت سلبت العقول وسخرت النفوس وأخذت الأفئدة وأذعت حبك فى البرية وأنرت نفوسا فى أرضنا وهى محبوسة فى هذا الهيكل المنصوب • يا ألله نثرت كواكبك الدرّية فى سمواتك العلية وقسمتها مناطق وبروجا وخالفت بين أماكنها وأقدارها وأبعادها وأضوائها وقلت فى القرآن – وأشرقت الأرض بنور ربها –

يا الله أنت أبهجت العقول وأنرت النفوس بنور هذه الكواكب تلك الراقصات فى الدياجى الساحرات الطرف الناعسات العوانس • انك يا الله خلقت فى هذه الأرض نفوسا أسكنتها فى هذه الأجسام ثم شرحت صدورها لهذا الجمال وزينته عندها وصرفت أكثر الناس عنه وهم غافلون • وهؤلاء الذين أدركوا هذا الجمال جعلتهم للناس قادة وجملت وجوههم وقلوبهم وأقوالهم وشرفتهم على عبادك وعلمتهم من لدنك علما وأكسبتهم حكمة وجعلتهم للعلم وارثين • كلما نظروا نجما يتلألأ أوقمرا يضىء أوشمسا تشرق رأوا فى ذلك سناءك وجمالك وأنت تقول فى القرآن – وهو الله فى السموات وفى الأرض –

من هذه الأمم الأمّة المصرية • أولئك الذين بهرهم جمالك وشغف قلوبهم باهرنور نجومك فأولعوا بك مغرمين وهاموا فى جمالك متيمين • وأرسلت لهم نبيك ادريس الذى يسمونه (هرمس الهرامسة) وأيضا (هرمس المثلث) وأيضا (اخنوخ) وينطق به فى هذه الأيام * وقد يقال له (سيزوستريس)

هذه أسماء لمسمى واحد عندهم • ويسمى بهذا الاسم النجم المسمى (الشعرى اليمانية) أو (كلب الجبار) وهذا الكوكب أيضا يسمى (توت) فلغرامهم بجمال النجوم الباهرات اختلط عليهم نورالعلم الذى أفضته على رسولك ادريس بالنور الظاهرى الذى أفضته على هذا الكوكب فأشركوهما معا فى هذا الاسم فكلاهما يسمى بالأسماء المتقدّمة ماعدا لفظ (توت) فيظهر أنه خاص بالكوكب المذكور • وقد نسبوا الى من يسمى بهرمس المذكور أنه كان حاكما فى الأرض ووضع بها كثيرا من العلوم وألف مئات من الكتب • ثم إن الكوكب المذكور يظهر مدّة الفيض ويختفى فى آخر تلك المدّة فسموه باسمه وقالوا شهر (توت) أى الشهر الذى يظهر فيه المعبود (توت) وهوخفير السماء وملك الكواكب ويقى الشمس من الوقوع فى الهاوية المهلكة وهو الموكل بكتابة أعمال الأموات يوم الحساب وبيده الميزان وكانوا يصوّرونه

قابضا على رقعة يكتب فيها موازين الناس . هذا ما كان عند قدماء المصريين فى هذا الكوكب

﴿ هذا الكوكب هو قبلة المصريين القدماء ﴾

فلما فتنهم جمالك وآنستهم أنوار وجهك واتجه حكماؤهم الى مقامك الكريم بنوا مقابرهم بحيث تكون أنوار هذا الكوكب ساقطة عليها عمودية لا مائلة ليكون الشعاع أمكن منها وأكثر اشراقا عليها لتتوالى الرحمات على ماوصل اليهم فى دينهم القديم . ومن هذه المقابر الاهرامات الثلاثة الظاهرة بناحية الجيزة التى تبعد عن النيل ثمانية كيلومترات وثلثمائة متر وهى منسوبة الى (خفو) و (خفرع) و (منقرع) وهؤلاء الملوك من الأسرة الرابعة بمدينة (منف) بالقرب من الجيزة والهرم الأوّل منها للأوّل من الأسماء وهو (١٧) فدانا والباقيان للأخيرين . والحجارة التى بنى بها الأوّل تكفى سورا يحيط بأرض مصر ارتفاعه ثمانية أمتار وعرضه متران ويبتدئ من الاسكندرية الى اسوان الى البحر الأحمر ومن السويس الى العريش

وهذه الاهرام الثلاثة التى هى من عجائب الدنيا دعا الى بنائها الاعتقاد الدينى إذ ذاك ونحن ليس لنا فى هذا مدخل لأن ديننا جاء بعد ذلك الدين فهم أمم قبلنا لانحكم عليهم بل يحكم عليهم النبى المرسل لهم وهو سيدنا ادريس عليه السلام وقد قال الله فيه ــ ورفعناه مكانا عليا ــ وألهم المصريين أن يجعلوا نور ذلك الكوكب الجميل ذا وضع عمودى على الهرم كما تقدّم . حينئذ سألنى ذلك الصالح فقال لى . قل لى نوّرك الله بالعلم مامعنى كون الوضع عموديا . قلت معناه أن هذا الكوكب الذى يطلع جهة الجنوب أيام الفيضان يسقط نوره على حائط الهرم متجها اتجاها مستقيما كقطرات المطر تنزل على الأرض فلاتنحرف يمنة ولا يسرة قال أوضح هذا المقال . قلت إن أستاذى المرحوم أحمد أفندى نجيب مفتش وأمين عموم الآثار المصرية نقل فى كتابه عن المرحوم محمود باشا الفلكى أن بناء الاهرام كان قبل الميلاد بنحو (٣٣٠٣) معتمدا فى ذلك على أن القدماء لما بنوها جعلوا أشعة الكوكب النورية تقع عمودية عليها من جهة الجنوب ليتبرّك بها الأموات من داخل الهرم كما أننا نجعل رؤس أمواتنا متجهة دائما نحو القبلة تبرّكا بالكعبة المطهرة . وقال وقد علم من رصد هذا الكوكب أنه ينحرف فى كل سنة عن وجه الهرم بقدر ثانية وثلثى ثانية . وكان قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة يوازى فى مسيره لمدار الشمس متى كانت فى نهاية منطقة البروج أو المنقلب الشتائى فقال صاحبى هذا قول لايفقهه أكثر الناس . فقلت سل . فقال مامعنى كون الضوء يميل ثانية وثلثى ثانية فقلت أنظر هذا الشكل

ج
ا ــــ د ــــ ب

فالخط (ج د) عمود على (ا ب) فالضوء كان يأتى أيام البناء مستقيما كالخط (ج د) والفراغ الذى بين (ج د) وبين الناحيتين من الخط (ا ب) يقال لها زاوية وهما زاويتان (ا ج د) و (د ج ب) فهاتان الزاويتان تقسم كل منهما (٩٠) جزأ كل منها يسمى درجة والدرجة (٦٠) دقيقة والدقيقة ستون ثانية الخ فهذا الضوء كان يسقط عموديا يعنى ليس مائلا الى إحدى الجهتين . وكلما مرّت سنة مال ميلا يسيرا جدًّا وهو ثانية وثلثا ثانية . والثانية تتكوّن من تعدادها الدقيقة والدقائق تكون منها الدرجات . قال فهمت الآن ولكن بقى أمر واحد وهو كيف يتبرّكون بهذا النور . قلت هذه كانت عقيدة القوم سواء أكانت عن نفس النبى ادريس أم كانت من تغيير وضع الدين . انما الذى يظهر أن أصل هذا الدين كان شريفا ذا جمال وكمال لأنه جذب نفوس القوم الى المعالى والحكمة والجمال الالهى الذى يكون الأحق به أمّة الاسلام . فقال وأىّ دخل لأمّة الاسلام فى هذا المقام . قلت حياك الله قل لى أليس ادريس رفعه الله مكانا عليا . قال بلى . قلت أليس نبينا ﷺ قد أمر أن يتبع الأنبياء ويقتدى

بهم • قال بلى • قلت هؤلاء القوم أغرموا بالكواكب وجمالها وحسبوها ويقول الله ــ والشمس وضحاها * والقمر اذا تلاها ــ ويقول ــ فلا أقسم بمواقع النجوم * وانه لقسم لو تعلمون عظيم ــ ويقول ــ والنجم اذا هوى ــ ويقول ــ رب المشرق والمغرب ــ ويقول ــ رب المشارق والمغارب ــ وأخيرا يقول ــ ربّ الشعرى ــ شوّق المسلم للنجوم وجمالها ونصّ على أنه ــ هو ربّ الشعرى ــ والشعرى هى (توت) وتوت هذا معبود المصريين وقد دخل فى أسماء ملوكهم فقيل (توت عنخ أمون) مثلا وهؤلاء الملوك المغرمون بهذا الكوكب جذبوا الى مصر فى زماننا أعاظم العلماء والحكماء من أوروبا وأمريكا وغيرهما • كل ذلك ليشاهدوا تلك العلوم وتلك المعارف التى ذمّ الله من أعرض عنها فقال ــ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وانّ كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ــ

الحمد لله المنعم المتفضل وقد أرانى الله فى زماننا سر القرآن قد ظهر للعيان وقد كشف الله بعض آيات العلوم التى تركها قدماء المصريين وأبرز الهرم وعجائب الهرم وما الهرم إلا مقبرة جعلت لتضم عظام بعض الموتى من ملوك القدماء والناس يتقاطرون لينظروا آياته فى ذلك مصداقا للقرآن

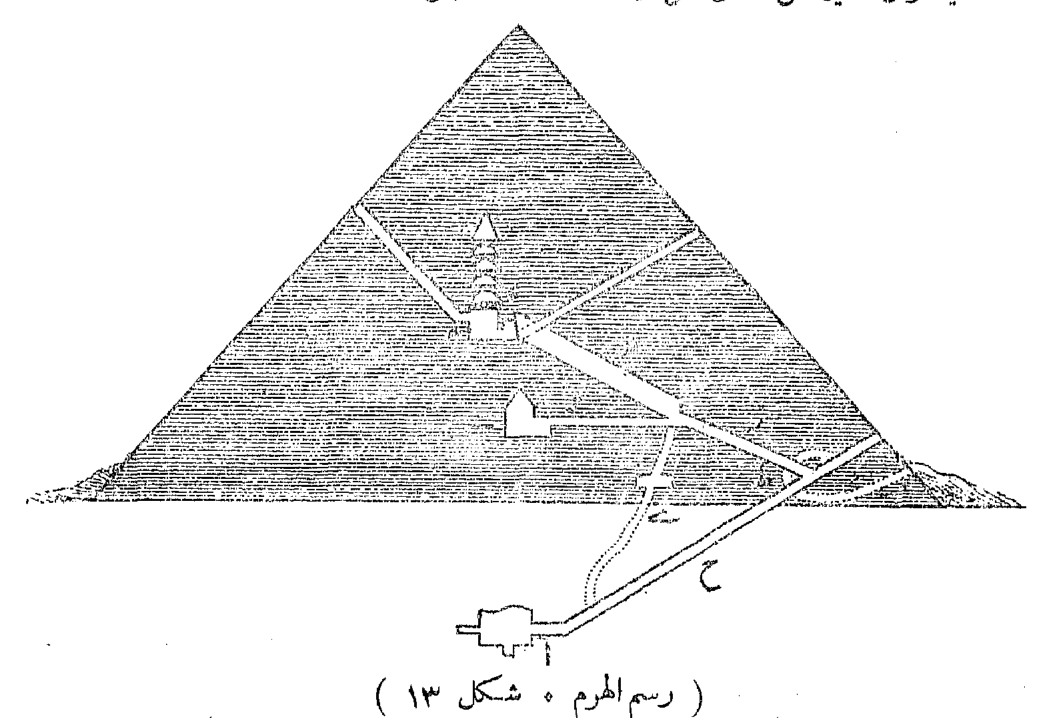
﴿ الكعبة وكوكب الشعرى ﴾

فقال ذلك الصالح • ياعجبا اذا كانت الشعرى وغيرها من الكواكب قد جذبت نفوس القوم وصرفت هممهم الى جمال العلوم فلماذا لم تكن لنا احدى تلك الكواكب قبلة بدل الكعبة التى بناها الناس بأنفسهم مع أن الكواكب أجل وأبهى • فقلت اعلم أن الله عزّ وجل جعل أمّة الاسلام آخر الأمم لتقتبس سائر علومها وقصّ قصص الأمم لذلك • ولما كان القدماء المغرمون بالكواكب اذا طال عليهم الأمد قست قلوبهم وجدوا على ذلك الكوكب الذى هو قبلتهم وعبدوه ونسوا ربّ الكوكب • صرف المسلمون عن ذلك وجعل لهم الكعبة قبلة وفتح عقولهم لسائر العلوم وحرضهم على النظر فى كل جميل من كوكب وجبل وشجر وخصّ الشعرى بالذكر فقال ــ وأنه هو ربّ الشعرى ــ فالشعرى التى عبدها قدماء المصريين وبعض العرب كما سيأتى فى سورة النجم ليست الها بل هى من آيات الله تعالى وهو ربها كما هو ربكم • فالمسلم يستقبل الكعبة ويعبد الله بالنظر فى عجائب الشعرى وغير الشعرى وسير علوم الأمم ويقرأ ماقرأه قدماء المصريين من عجائب هذا الكوكب وغيره ولما كان النظر فى العالم العلوى أعلى مايطلبه الدين قال الله فى ادريس ــ ورفعناه مكانا عليا ــ فليكن هذا العلوّ لادريس نورا للمسلمين الذين لايعتقدون ألوهية فى الشعرى ولا فى غيرها ولايفتنون بكوكب ولا بغيره بل يؤمون الكعبة التى لايتخيل فيها ألوهية كما تخيل القدماء ألوهية الشعرى لأنها تطلع عند الفيضان فتصبح القبلة كأنها إله لا أنها قبلة • بهذا أصبح المسلم بعيدا عن مظانّ الكفر بما هو قبلته وفى الوقت نفسه مجذوب الى النظر فى جمال هذه النجوم • فقال صاحبى عجبا لهذا المقام انى لم أر أحدا من المفسرين ذكر هذا • فقلت إن هذه العلوم لم تظهر إلا فى زماننا • وللقرآن عجائب وبدائع يظهرها الله حينا بعد حين والنبى ﷺ لما توفى جعل الله فى القرآن أسرارا تظهر وقتا بعد وقت كأن النبىّ ﷺ لايزال حيا وهذه معجزاته تتوالى ليطمئن الناس ويوقنوا بربهم ويزيدوا علما كما قال تعالى ــ وقل ربّ زدنى علما ــ فالمسلم يزيد علما والمسلم يقرأ جميع العلوم والعلوم فروض كفايات والمسلم ما دام قادرا على النظر والفكر فهو مأمور به شكرا لربه وزيادة معرفة

إن المسلمين فى مستقبل الزمان سيكونون أرقى علما من غيرهم • ولهذا التفسير ان شاء الله دخل فى تشويقهم الى كل علم وكل حكمة وكل جمال فى الأرض وفى السماء لأنه مصداق لقوله تعالى ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ فهذا التفسير فيه بعض الآيات التى أراها الله للناس فى زماننا

﴿ معجزة للقرآن فى هذا الزمان ﴾

ومنها هذا الهرم الذى أفضنا فى الكلام عليه الداخل فى قوله تعالى ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ـ انتهى



(رسم الهرم . شكل ١٣)

﴿ بيان قوله تعالى ـ لتكون لمن خلفك آية ـ ﴾

اعلم أن صورة الهرم المرسومة أمامك فيها تعاريج يقصد منها اضلال من يريد دخول الهرم معجزة لقوله تعالى ـ لتكون لمن خلفك آية ـ وذلك أنه لن يكون آية من قدماء المصريين إلا من بقيت جثته محفوظة وكيف تبقى محفوظة إلا ببناء يكنها وضلال الذى أراد سرقتها واجماع أمم أوروبا وأمريكا على حفظها . هذا هوالمعجزة القرآنية . أنظر الى نقطة (ا) التى هى رواق تحت الأرض فذلك لا يمكن الوصول اليه الآن لأن طريقه مسدود . ثانيها نقطة (ب) وهى الرواق المعروف الآن باسم رواق الملكة وتلك التسمية لم يقم دليل عليها للآن . ثالثها نقطة (ج) وتعرف باسم رواق الملك . رابعها نقطة (د) وهى بسطة يخرج منها مجريان للهواء انزلق منهما حجران كبيران فأغلقا منفذى رواق الملك غلقا محكما بعد وضع جثته فيه داخل تابوته . خامسها نقطة كل من (هـ و ز ح) وهى سراديب معدّة لتوصيل الأماكن لبعضها . سادسها نقطة (ط) وهى بسطة يخرج منها السرداب الذى فتحه المأمون . سابعها نقطة (ى) وهى البئر التى تحير فيها عقول أولى النهى . والقصد من ذلك كله أن يضل السائر فلايهتدى الى السبيل . ونقل أستاذنا فى الأثر الجليل مانصه ﴿ قال أبو محمد عبد الله بن عبدالرحيم فى كتابه (تحفة الألباب) فتح المأمون الهرم الكبير وقد دخلت فى داخله فرأيت قبة مربعة الأسفل مدوّرة الأعلى كبيرة فى وسطها بئر وهى مربعة ينزل الانسان فيها فيجد فى كل وجه من تربيع البئر بابا يفضى الى دار كبيرة فيها موتى من بنى آدم عليهم أكفان كثيرة أكثر من مائة ثوب على كل واحد وقد بليت لطول الزمان واسودّت أجسامهم وهم مثلنا ليسوا طوالا ولم يسقط من أجسامهم ولا من شعورهم شئ وأجسامهم قوية لايقدر الانسان أن يزيل عضوا من أعضائهم البتة ولكنهم خفوا حتى صاروا كالغثاء لطول الزمان . انتهى

ونقل عن غيره أنهم بعد اللتيا والتى والجهد الطويل والمشقة وجدوا فى أعلاها بيتا مكعبا وفى وسطه

حوض

حوض من الرخام مطبق فلما كشفوا غطاءه لم يجدوا فيه غير رمّة بالية فعند ذلك كفّ المأمون عن ثقب ماسواه . انتهى

﴿ شكر الله على الحكمة والعلم وأن الاسلام أعتق الانسانية من الخرافات ﴾

انى أحمد الله على نعمة العلم والحكمة . اليك اللهم الشكر على ماتفضلت بالحكمة وألهمت من العلم أذكر أيامك معى وأذكر أيام أن كنت مجاورا بالجامع الأزهر حوالى سن العشرين ثم أرجع الى بلادى فى القرى ببلاد الشرقية ثم أخرج من بين البيوت لعلى * أحدّث عنك النفس بالليل خاليا * وكنت أنشد قول مجنون ليلى

وأخرج من بين البيوت لعلنى * احدّث عنك النفس بالليل خاليا

وكنت أسامر النجوم الراقصات فى دياجى الظلمات وأفكر فى أمرها وأمر هذا العالم وأمر آثار قدماء المصريين وأمر الأمم التى فى الأرض التى مدّت فى بلادنا السكك الحديدية وقطارها . ولطالما كنت أقول ياليت شعرى ماهذه الأطلال القديمة وماعلوم أهلها وماذا تصنع الأمم اليوم فى علومها وصناعاتها ولماذا لا أرى للمسلمين حركة فكرية مثلهم ولماذا أرى شيوخ الدين لايفكرون فيما حولهم الى آخر ما فى كتاب (التاج المرصع) فى أوّله . كل ذلك كان ديدنى . وأذكر أنى كنت عاهدتك أننى اذا اهتديت لحل المعمى من هذا الوجود وعرفت بعضه فانى أنشره لمن بعدى حتى لايضل شبان بعد ضلالى ولاينالهم نصب كما نالنى بل أنا أجعل ما أعلمه لهم شرابا خالصا سائغا للشاربين . هذا كان مايجول بخاطرى . فها أنا ذا اليوم أتحدّث بنعمتك علىّ وأقول . لقد منّ الله علىّ بعد طول الزمان واليأس والنصب بالحكمة والعلم وألهمنى أن أؤلف هذا التفسير الذى أرجو أن يكون ذخيرة ونورا للأذكياء بعدى . إن أكثر ما أكتبه فى هذا التفسير يجول بنفسى الآن ويكون قوىّ الهجوم على النفس بحيث لايفارقنى فى غدوى ورواحى وخلوتى وجلوتى وسمرى مع الأصحاب وصحتى ونومى ويقظتى فلاملجأ لى من هذه الخواطر إلا بكتابتها ومتى سطرتها هدأت النفس واستراحت واستقبلت غيرها . ذلك شأنى فى هذا التفسير . وهذا الذى أكتبه فى هذا المقام قد كان خاطره قويا . فكما كنت أتخيل هذه الامور فى الصغر متحسرا أشدّ الحسرة على جهلى بها هكذا أنا اليوم أجد فى النفس ميلا قويا الى كتابتها ونشرها وأحس بأنى بلغت أملى من هذه الحياة بذلك ﴿ولله فى خلقه شؤن﴾ ويخطر لى أن هذا سيكون سائقا وشائقا لأولى الذكاء الى حوز العلم والحكمة

وانى كثيرا مايقع فى قلبى انى لولم أكتب مايهجم على نفسى من الخواطر الجيلة الهاجمة علىّ فان الله يعجل العقوبة لى فى هذه الحياة . ولقد منّ الله علىّ بنشره . لقد منّ الله علىّ بذلك وشرح صدرى وقد كتبت ما أجده فيها والله هو الولىّ الحميد

﴿ تفصيل أتمّ لقوله تعالى ـ لتكون لمن خلفك آية ـ ﴾
(وكيف أعتق الاسلام الأمم من الخرافات)

اعلم أن الديانات القديمة كلها كانت أشبه بهذا العالم الذى نعيش فيه . ألاترى رعاك الله أن الشوك يصحب الورد والغذاء الذى تأكله تصحبه فضلات والثمر لا يكون إلا معه الورق والحب لا يكون إلا مع العصف . هكذا كانت الديانات . فاذا نزل ادريس على المصريين بدين سماوى فهاهوذا قد تغير الدين وصار ممزوجا بخرافات حتى انك لترى أنهم وجدوا كثيرا من الأحجار المنحوتة على هيئة الاهرام والمسلات موضوعة فى المقابر بجوار الأموات . وهكذا وجدوا أحجارا رسمت عليها صورة الاهرام وبازائها علامة الكوكب المتقدّم . وكل ذلك للتبرك فكانت الاهرام رمزا لهذا المعبود الذى كانوا يصوّرونه فى معابدهم فى هيئة جسم انسان له رأس طائر (أبيس) وهو أبو قردان وكانوا يعبدونه أيضا . إن فى نظر ذلك لعبرة

للعقلاء . فانظر الى قبلتهم وهو الهرم كيف جعلوه مع كوكب الشعرى مناط الالوهيـة . ثم انظر فى مسألة السماء كيف كانوا يقولون ان جميع الأجرام السماوية تحت رئاسـة الشمس وتارة كانوا يرسمون السماء على شكل وادى مصر تشقه المجرّة وقد مثلوها بالنيل رحصروها مثله بين سطحين ممتدّين من الجنوب الى الشمال وقسموا السماء الى أقسام كأقسام مصر والشمس تطوف عليها كل يوم فى مسـيرها من المشرق الى المغرب وتدخل فى المساء فى فتحة جبل مشـاوه (بجبل العرابة المدفونة) أو (الخرابة المـدفونة) التى بمديرية جرجا بالصعيد ثم تغور فى سراديب وتقاسى آلاما وتضىء على قوم آخرين ثم ترجع لنا كرة أخرى بعدالمشقة والآلام

وقالوا أيضا فى الروح ان الروح الشقية تحول دعواتها وصلواتها الى عبث وهزؤ فتجلد وتلعن وتبحث عن جسم انسان لتسكنه وتـكون فى مرض وذل أوجنون . أوعن جسم حيوان وتدوم على ذلك قرونا الى أن تستوفى العذاب ثم تموت وذلك بشهادة القلب . قال أستاذنا المذكور . وقد وجد على أحد أوراق البردى ماصورته « أيها القلب الذى خلقت لى وأنا فى بطن أمى وأتيت معى الى الدنيا لاتنازعنى ولا تشـهد علىّ بين يدى الله » أما الروح الراضية المرضية فانها بعد الحساب يأخذ بيدها الرجاء الصالح وتحفها الشياطين ولـكن تلاوة العزائم تمنعهم ثم تتحد الروح بأوزيريس وتصير مثـله أى تدخل فى العنصر الذى خرجت منه وتقطع المساكن السماوية وتزور جسمها متى شاءت ولذلك يحنطون الأجسام

هذه آراؤهم فى السموات وآراؤهم فى الأرواح وآراؤهم فى الدين . فانظر أيها المسلم الى دين الاسلام ان الديانات القديمة فيها الغث والسمين واختلط فيها الـكذب بالصـدق كما هو شأن الناس فى أقوالهم وأفعالهم وكما هو شأن مآكلهم ومشاربهم ولـكن الله يريد رقى الانسانية . فماذا فعل . أنزل الدين المسيحى . فماذا حصل . لم يرض بالأصنام وجعـل الاله واحدا ولـكن أتباعه جعلوه ثلاثة فجاء الاسلام وقال كلا الاله واحد . هنالك زلزلت الأرض زلزالها . زالت الأصـنام تماما . وفات الزمان الذى تقدّس فيه الشمس والـكواكب ونزل قوله تعالى — وأنه هو ربّ الشعرى — فليست الشعرى التى ترسم على أحجار المصريين مع هرمهم هى الله بل هو ربها . وأيضا ليست الشمس هى الاله و بعد ذلك انطلقت العقول وقام المسلمون بحركة العلم فى العالم من القرن السادس الميلادى الى القرن الحادى عشر . وهنالك تعلمت أوروبا من المسلمين كما وضح بعضه فى آخر سورة التوبة و يتضح باقيه فى قوله تعالى — وذكرهم بأيام الله — فى سورة ابراهيم عليـه السلام وصار المسلم بل كل عاقل فى الأرض فك عقال عقله المسلمون يقرأ كل علم وكل فنّ و يقرأ المسلم — وقل ربّ زدنى علما — و يقرأ قوله تعالى — سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم — فآيات الله فى كل بناء وشجر وحجر وكوكب . فالهرم آياته والنجم آياته . وتدرّج الأمم من الجمود فى القرون الأولى الى الحرية العلميـة اليوم فى عصرنا آياته . وتنوير المسلمين الأوّلين للعالم الانسانى من آياته . وسترى فى سورة ابراهيم تصميم العلامة (سديو) الفرنسى وجزمه أن العرب وسائر الأمّة المحمدية هم نور العالم ولولاهم لم يكن لهذه الدنيا رقى وأتى فيه بمئات الأدلة القطعية كما رأيت وسترى بعضه . ولذلك ترى الأمم اليوم عرفت أن الشمس التى هى سيدة الـكواكب عند قدماء المصريين والبابليين صارت فى أخريات الشموس كما أطلعتك عليـه فى سورة البقرة وآل عمران والأنعام وغـيرها حتى أن بعض تلك الشموس ضوؤها مقـدار ضوء شمسنا (٨٠٠٠) ثمانية آلاف مرّة بل أكثر من ذلك وأن الشموس لاحدّ لعظمتها وعددها وانها تبلغ مئات الملايين ولايزال الـكشف يزيدنا بيانا . إذن علم قدماء المصريين من العلم الذى حدث وانتشر بسبب ظهور الاسلام الذى حرّك أوروبا والعالم للبحث . إن دين الاسلام جاء لمحو الخرافات وللاعتماد على العقل ونبذ كل ما ليس معقولا . هذا هو سرّ قوله تعالى — لتكون لمن خلفك آية — فالآية هنا واسـعة النطاق من علوم وصـناعات بلا اعتقاد وبالقرآن يحصر الفكر عندنا فك عقال العقول حتى اقتنصت شوارد العلم فى الأرض وفى السماء . إن الانسان

اليوم

اليوم غيره بالأمس فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

﴿ لطيفة وذكرى ﴾

قد كنت وأنا مراهق رأيت أهل قريتنا قد عثروا على رجل مدفون فى قاع بركة أمام قريتنا ولم يجدوا إلا عظامه وقد وجه وجهه الى جهة الجنوب وقد بنى عليه قبر بكتل من الأرض المصرية الحصيد الجافة المعروفة فى بلادنا (بالشراقى) وقد حفظ ذلك القبر جثته آلاف السنين وهو تحت وجه الأرض بنحو ثلاثة أمتار . فها أنا ذا أحمد الله عزّ وجل اليوم إذ عرفت سرّ هذا الدفن وانه قصد به التوجه للهرم المشمول بعناية كوكب الشعرى وعرفت اليوم أن هذه خرافات وأن الاسلام محا ذلك وجعل قبلتنا الكعبة ودأبنا النظر فى كل كوكب وجمال كل شمس ووجهنا وجهنا لله لا للكوكب ولكن ندرس كل كوكب وكل شمس وقد فتح الله للناس أبواب السماء فدرسوها وهاهم أولاء يدرسون علم الأرواح كما اطلعت عليه فى سورة آل عمران والبقرة . فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وفى اعتقادى أن هذا التفسير وأمثاله سيفتح مجالا للأمم الاسلامية وستقوم أمم بعدنا من المسلمين يرقون رقيا عاليا ويحدثون فى الأرض قوّة كما أحدث أجدادنا أصول هذه النهضة والحمد لله رب العالمين اهـ

﴿ وجدان المؤلف أيام الشباب والمشيب وكتاب الله تعالى وأمم الاسلام ﴾

ها أنا أحدّثك أيها الذكى عنى أيام شبابى ومشيبى بأوسع مما تقدّم فأقول . ذكرت لك آنفا شوقى الى العلوم أيام الشباب . وها أنا ذا أوضحه فأقول

قد كان يطربنى مرّ النسمات على الأعشاب فيسرّنى تغريدها ويطربنى تمايل الأغصان وحفيف الأوراق وتغنى الحشرات وعصف الرياح ــ والليل اذا عسعس * والصبح اذا تنفس ــ واذا غربت الشمس وظهرت النجوم أجلس على بساط من الحشائش وآخذ أستمع لما فى الحقول من نغمات وأنظر لما فى السماء من نجوم باهرات . وكنت كأنى فى محفل جمع بين ﴿ بهجتين ﴾ بهجة النظر للراقصات الحسان القاصرات الطرف الناضرات البهجات وهى النجوم . وبهجة الموسيقى تشنف الآذان ببدائع الألحان . فالمناظر سماوية والنغمات أرضية . هذه الصور الجميلة عندى طبعت فى المخيلة يوما فيوما وليلة فليلة . دام ذلك سنين وسنين

وقد كان لخلو الجوف بالصوم وللقيام بعض الليالى أثر فى ذلك الجمال والبهجة والشوق . ذلك الجمال الخيالى دعا العقل الى الجمال العلمى . ظواهر المحاسن فى الطبيعة التى ارتسمت فى خيالى لاتفارقه ألجأت القوّة العاقلة أن تتجمل بالمحاسن كجمال الخيال ولامحاسن للعقل إلا صور معنوية هى الحكمة والنظر فى مختلف العلوم

الجمال مغناطيس العلوم يجذب اليه كل ماهو جميل معنوى . جمال الوجوه فى الحىّ يجذب العاشقين وانطباع الخيال بالجمال يجتذب العلوم والحقائق لتسكن فى العقول . جلّ الله وجلّ العلم ان شبيه الشئ منجذب اليه وللمجاورة حكمها . جاور الخيال العقل فى الدماغ فلما رجع الأوّل بالدرر الحسان من الكواكب والنغمات حنّ الثانى الى حقائق الموجودات ليتحلى بالحكمة ويزدان بالعلوم . النفس واحدة والعالم واحد العالم الذى نعيش فيه واحد ونفوسنا تنظر له أيام الصغر واحدا فجميع العلوم عندها علم واحد لا علوم كما أن العالم أشبه بجسم واحد . هكذا العلوم المختلفة كأنها واحد . العلوم كشجرة واحدة لها فروع وأغصان

ضعف الانسان فوق الأرض فلم يطق الفرد الواحد أن يعرف هذا الوجود فقسم أوصافه الى أقسام سمى كل قسم منها علما مع انها كلها أوصاف شئ واحد هو هذا العالم . لهذا نرى العلوم قسمت على الأفراد كما وزع الاحساس فى الجسم على الحواس . فالسمع غير ما للبصر . هكذا العلوم قسمت على الناس فيحسن زيد مالايحسن عمرو ذلك لضعفهما كما ضعفت العين أن تضم السمع الى البصر وضعفت الأذن أن تضم الابصار الى السمع ــ وربك يخلق مايشاء ويختار ــ لامعقب لحكمه وهذا قوله تعالى ــ وخلق الانسان ضعيفا ــ

فلولا هذا الضعف لكانت جميع العلوم عنده علما واحدا . كنت أنظر للأشياء جميعها بلافارقة بين علم وعلم أنظر للآثار والأطلال والأشجار والأخبار وتاريخ الأمم والصناعات وأمم الفرنجة وأمم الاسلام ودين النصارى ودين الاسلام . ذلك هو الذى حركنى الى سائر العلوم التى اطلعت على كثير منها بمدرسة دار العلوم وعلى باقيها بالاطلاع على علوم شرقية وغربية . ها أناذا الآن فى العقد السابع من حياتى أنظر فى أمر نفسى فأجد الغرام القديم والحب والشوق قد تجلت لها مع طرب وسرور كما قال مجنون ليلى

فشاب بنو ليلى وشبّ بنو ابنها * وأعلاق ليلى فى الفؤاد كما هيا

فنفسى فى شيبها مغرمة كما كانت أيام شبابها بل هى أشدّ غراما والغرام اليوم بالنشر والتعليم والغرام إذ ذاك بالتحصيل وفى النشر ازدياد للعلم وابتهاج بالتحقيق

﴿ كتاب الله تعالى ﴾

لقد كنت أيام الشباب لا أرى فى هذا القرآن معانى لأنى حفظته بلاعقل ولافكر وكنت أسىء الظنّ بمن يقولون انه يدعو الى العلوم وكنت أقول إن هؤلاء مراؤن كاذبون . فلما درست ونظرت أيقنت بأن هذا القرآن يدعو الناس الى مختلف العلوم ويشوّقهم لها كما كنت اشتاق لها زمن الشباب . فكأن هذا القرآن يدعو النفوس الى فطرتها . واذا قال الله — لقد جاءكم رسول من أنفسكم — ففيه تلميح الى ماقرّرنا فنفوسنا تطلب كل العلوم وهذا القرآن يشوّق لها — ولكنّ أكثر الناس لايعلمون — وماذكرته الآن سيظهر أثره فى أمم الاسلام

﴿ أمم الاسلام ﴾

إن الأمم الاسلامية تطلع اليوم على أمثال هذا الكتاب وهناك نفوس خلقت مقصورة على النظر مجبولة على التفكر فستقابلها الحيرة والحسرة كما قابلتانى أيام شبابى ولكن الله أذن بابراز هذا التفسير ليكون مفتاحا يفتح للعقول مجال النظر فيفرّون من سجون الجهالة العامّة فى البلاد الاسلامية وينطلقون من حبس العقول الى ساحات الجمال وباحات العلوم وحدائق الحكمة ويشمون أزهارها ويقتطفون ثمارها . هذا الكتاب تبصرة لمستزيد ومنهج لمريد وبلغة لقاصد وزاد لمسافر وفلك عقال معتقل وفتح باب وهدى وذكرى لأولى الألباب . انتهى

﴿ تحفة مهداة للمستبصرين فى الاسلام والنظر فى كتب الفرنج وجمال الصور الموجودات فى الأرض والسموات ﴾

تبين من هذا أن سبب هذا التفسير ومبدأه النظر فى جمال هذه الدنيا صغرا وتحصيل العلم وحبّ النشر فى الكبر . ذلك كله مبدؤه النظر فى جمال الأرض وجمال السماء . ولقد اطلعت على كتب الفرنجة للمبتدئين فرأيتها محلاة بالصور الجميلة الحسنة من شجر وزرع وثمر وكوكب وقمر بحيث يشاهد الطفل فى مدرسته صورا ما كنت أشاهده فى الحقول فتبارك الله الذى ألهم الناس أن يحاكوا الطبيعة ويشاكلوا صور الموجودات وجمالها . هكذا فلتفعلوا أيها المسلمون . لتقم طوائف منكم وليدرسوا نظم التعليم ونظم الكتب والصور التى فيها والحكايات التى تدرس للأطفال والتحف العلمية اللذيذة . ولتتخذوا لكم أحسن المثل وأجمل الطرق . ولتعلموا أبناءكم حبّ هذا الجمال كما أحببناه . فكل هذا الوجود آيات الله وكله نور الله وكله دين الاسلام والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير القسم السادس من سورة يونس

(الْقِسْمُ السَّابِعُ)

فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ

اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) من القصص على سبيل الفرض والتقدير (فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك) فانه محقق عندهم ثابت فى كتبهم على نحو ما ألقينا اليك والمراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما فى الكتب السابقة وأن القرآن مصدّق لما فيها والخطاب وان كان للنبيّ ﷺ فالمقصود أمّته ولذلك قال ﷺ لا أشك ولا أسأل (فلا تكوننّ من الممترين) أى الشاكين بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين وقوله (ولا تكوننّ من الذين كذبوا) الى قوله (من الخاسرين) من باب التهييج والتثبيت وقطع الاطماع عنه كقوله ـ فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين ـ (حقت عليهم كلمة ربك) أى وجبت عليهم لأن استعدادهم يمنعهم من قبول الايمان (لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية) فانهم لا يؤمنون بها (حتى يروا العذاب الأليم) فحينئذ لا ينفعهم الايمان كما حصل لفرعون الذى قال ـ آمنت ـ بعد فوات الفرصة كما فى قوله ـ أثم اذا ماوقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ـ فانظر كيف ذكر فرعون وغرقه لمناسبة ما مضى فى هذه السورة لتكون تلك القصة تطبيقا على هذا القول فقوله فى مسأله فرعون ـ آلآن وقد عصيت قبل ـ هو كالقول المتقدّم آنفا ـ أثم اذا ماوقع آمنتم به ـ وهو بمعنى ماجاء فى سورة الأنعام ـ يوم يأتى بعض آيات

ربك لاينفع نفسا إيمانها ــ وقد أوضحت المقام هناك بما لامزيد عليه . وههنا يقول الله فى هذا المعنى ــ إنّ الذين حقت عليهم ــ الى قوله ــ حتى يروا العذاب الأليم ــ ثم أتبعه سبحانه بما يفيد فتح باب التوبة وقت القدرة فقال (فلولا كانت قرية آمنت) أى فهلا كانت قرية من القرى التى أهلكناها آمنت قبل معاينة العذاب ولم تؤخر الايمان كما أخره فرعون (فنفعها ايمانها) بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها (إلا قوم يونس) لكن قوم يونس وهو استثناء منقطع (لما آمنوا) أوّل ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروه الى حلوله (كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) أى الى انتهاء آجالهم * يروى أن يونس عليه السلام بعث الى أهل نينوى من الموصل فكذبوه وأصروا على تكذيبه فوعدهم بالعذاب الى ثلاث . فلما دنا الموعد أغامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح وبرزوا الى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرّقوا بين كل والدة وولدها فحنّ بعضها الى بعض وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الايمان وأخلصوا التوبة وتضرّعوا الى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم الضرّ * ويقال انه كان يوم عاشوراء يوم الجمعة (ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) بحيث لايشذ منهم أحد وانما لم يجتمعوا على الايمان بل منهم من لم يقبله للنظام الذى اختاره الله بحيث يختلف الناس باختلاف الأمزجة والأحوال والأخلاق وأن الاستعداد هو الذى عليه مدار الارتقاء والانحطاط ولن يكون القضاء إلا على مقتضى الحقائق الثابتة وهؤلاء هذه حقيقتهم وهل يشاء الله إلا ما هو حقّ (أفأنت تكره الناس) بما لم يشأ الله منهم (حتى يكونوا مؤمنين) فخلاف المشيئة مستحيل . وقد كان ﷺ حريصا على ايمان قومه شديد الاهتمام به . ولذلك قرّره بقوله (وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) أى بارادته وألطافه وتوفيقه (ويجعل الرجس) أى العذاب (على الذين لايعقلون) لاينتفعون بعقولهم فلاينظرون الحجج والآيات ولايفكرون فيها فيكونون غافلين عما حلّ بالأمم السالفة وما أصابها من خيرأوشرّ وعقل وفكر وجهل وغباوة كما جاء آنفا ــ لتكون لمن خلفك آية ــ ونعى على الناس غفلتهم عن ذلك وعما أعقبه من ذكر السموات والأرض وعجائبهما فقال (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) من عجائب صنعه والآيات والعبر باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار مما لايتناهى من حكم بارعات وآيات بينات وغرائب مدهشات كما أمرهم بالنظر فى عجائب الأمم وأبدانها الباليات وآياتها الباهرات . فمن قرأ العلوم الفلكية والعلوم الرياضية والطبيعية فهو من الموحدين توحيدا حقيقيا أرقى من علم التوحيد المشهور اذا وجه نظره الى نظام العالم العام وتعجب من جمال صنعته . أما اذا قرأه قراءة الغافلين كأكثر من يتعلمون بالمدارس اليوم فأولئك عن ذلك مبعدون وهم عن الله غافلون

وهكذا من قرأ علوم المصريين والبابليين والآشوريين والاوروبيين فى تاريخهم وأحوالهم العجيبة يكون ذلك منه امتثالا للدين وترقية للعقل وله ثواب عظيم مادام يرمى لغرض شريف . ولما كان ذلك لاينتفع به إلا ذوو الاستعداد العقلى أردفه بقوله (وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) بحسب ماسبق به العلم وما نافية (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) مثل وقائعهم كما يقال ﴿أيام العرب لوقائعها﴾ (قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى فانتظروا هلاكى إنى معكم من المنتظرين هلاككم . ولقد جرت عادتنا فيما مضى أنا نهلك الأمم الذين كذبوا (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) من تلك الأمم انجاء كذلك الانجاء ننجى محمدا ﷺ وصحبه حين نهلك المشركين حقّ ذلك ــ حقا علينا ــ وهذا هو تقدير قوله تعالى (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين * قل يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة (إن كنتم فى شك من دينى) وصحته وسداده فهذا دينى فاستمعوا وصفه ثم وصف دينه فقال (فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله) أى الأصنام (ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) يميتكم وانما وصفه بذلك ليريهم أنه هو الذى يتقى ويخاف بخلاف

مايعبدون وهو مالا يقدر على شئ فكيف يخاف (وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى بأن أكون أى ان الله أمرنى بذلك بما ركب من العقل و بما أوحى الىّ فى كتابه (وأن أقم وجهك للدين) أى وأمرت بالاستقامة فى الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح أوفى الصلاة باستقبال القبلة فهذا عطف على أن أكون (حنيفا) حال من الدين أوالوجه أى مستقيما عليه غير معوج عنه الى دين آخر (ولاتكونن من المشركين) مع المشركين على دينهم (ولاتدع) لاتعبد (من دون الله مالاينفعك) فى الدنيا والآخرة إن عبدته (ولا يضرّك) ان لم تعبده (فان فعلت) عبدت (فانك اذا من الظالمين) من الضارين لنفسك (وان يمسسك) يصبك (الله بضر) بشدّة وأمر تكرهه (فلا كاشف له) فلا رافع للضرّ (إلا هو وان يردك بخير) بنعمة وأمر تسرّ به (فلا رادّ لفضله) لامانع لعطيته (يصيب به) بالخير (من يشاء من عباده وهوالغفور الرحيم) فتعرّضوا لرحمته بالطاعة ولاتيأسوا من غفرانه بالمعصية (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحقّ من ربكم) الرسول أوالقرآن وليس لكم بعده عذر (فمن اهتدى) بالايمان والمتابعة (فانما يهتدى لنفسه) لأن نفعه لها (ومن ضلّ) بالكفر (فانما يضلّ عليها) لأن وبال الضلال عليها (وما أنا عليكم بوكيل) بحفيظ موكول الى أمركم وانما أنا بشير ونذير (واتبع مايوحى اليك) بالامتثال والتبليغ (واصبر) على دعوتهم وتحمل أذيتهم (حتى يحكم الله) بالنصر واظهار دينك (وهو خير الحاكمين) لأنه لا يمكن الخطأ فى حكمه لأنه مطلع على السرائر كاطلاعه على الظواهر بخلاف حكام الناس فليس لهم إلا الظواهر

﴿ خاتمة فى عجائب هذه السورة وماتقدّمها من السور ﴾

أنظر الى عجائب هذه السورة وماتقدّمها • أنظر كيف ذكر فى أوائلها بدء الخلق وهو يعيده • وكيف جعل الشمس ضياء والقمر نورا • وكيف قدّر المنازل وعلم عدد السنين والحساب • وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ يذم الذين هم عن آياته غافلون وجعل لهم النار بما كانوا يكسبون • وانظر كيف ذكر فى خواتيمها كما ذكر فى أوائلها • ذكر أنه جعل جثة فرعون الموضوعة فى نجوة أى مكان مرتفع من الأرض آية وذمّ المعرضين عنها كما ذمّ المعرضين عن آيات السموات والأرض • فهناك يقول ــ إنّ الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار ــ وهنا يقول ــ وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ــ فجعل الغافلين عن آيات الله فى الأمم كالغافلين عن آيات الله فى السموات والأرض • عجب عجاب للقرآن وحكمه العجيبة • وهنا أمر بالنظر فى السموات والأرض وأوعد الذين لايعقلون فقال ــ ويجعل الرجس ــ أى العذاب والخذلان على الذين لايعقلون أى لايستعملون عقولهم

فانظر كيف كانت أوائل السورة كخواتيمها • نظر وفكر وتعقل • وذمّ للغافلين • وانظر كيف سوّى بين الجهل بالعوالم العلوية والسفلية والجهل بأحوال الأمم كأمّة المصريين • فهذه من القرآن دلائل واضحات • إن علوم قدماء المصريين وغيرها كعلوم الفلك والطبيعة من تركها من الأمم أصبحوا فى أسفل سافلين ولهم جهنم فى الآخرة وهم فى الدنيا أيضا معذبون لأنهم جهلاء ــ ومن كان فى هذه أعمى ــ لايعرف العلوم الكونية والنظامية والسياسية ــ فهو فى الآخرة أعمى ــ لايرى طريق النجاة والمقصود أن تكون هذه العلوم قائما بها طوائف من الأمّة لكل علم جماعة • فمن قرأ تاريخ المصريين فهو قارئ لآيات الله ومن قرأ علومهم فهو مطالع لآيات الله وكذلك الآشوريون والبابليون وجميع الأمم • ومن درس ماعرفه الألمان والانجليز والأمريكان من علوم الفلاحة والسياسة والتجارة والنجارة والحدادة والدباغة وماشاكل ذلك كان مطلعا على آيات الله بدرسه للعلوم التى يرضاها والحكمة التى للعباد أهداها • فويل للمسلمين الغافلين وويل ثم ويل لهم اذا غفلوا بعد مابيناه وهلاك لهم اذا ناموا بعد مابسطناه

فياليت شعرى ماذا يريد المسلمون أولم يكفهم أن الله سلط عليهم أوروبا فملكت بلادهم شرقا وغربا

وهم نائمون . أولم يكفهم أنه ألهم طائفة من المسلمين الآن فنبهوا المسلمين أن جميع العلوم والصناعات واجبة فرض كفاية وهم غافلون . أوماعلموا أن العذاب حلّ بهم وهم لا يشعرون . وسلام ثم سلام على من يفهمون المسلمين فى الأقطار الاسلامية واجباتهم وعلومهم التى حرموا منها وهم لا يعلمون . وكما فعل ذلك فى هذه السورة فعل فى سورة الأعراف فجعل فى أوائلها ذكر الرياح والسحاب والمطر والماء والثمرات وفى أواخرها النظر فى ملكوت السموات والأرض وحذرهم من اقتراب آجالهم . هكذا فعل فى الأنعام فجعل فى أوّلها خلق السموات والأرض والظلمات والنور . وفى أواخرها أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه رب كل شئ . وفى المائدة ذكر فى أوائلها حلّ الأنعام وحرمتها وقصة ابنى آدم المشتملة على أن الانسان يتعلم من الحيوان . وذكر فى أواخرها أنه له ملك السموات والأرض . وفى سورة النساء ابتدأ بذكر خلق الانسان وأنهم من نفس واحدة . وجعل فى أواخرها ذكر السموات والأرض مكررة

وهكذا سورة آل عمران ابتدأها بوصف الله بأنه الحىّ القيوم وكيف خلق الجنين فى بطن أمّه وصوّره وجاء فى أواخرها ــ إنّ فى خلق السموات والأرض الخ ــ

وهكذا البقرة جاء فى أوائلها ــ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم الخ ــ وفى أواخرها ــ لله مافى السموات ومافى الأرض الخ ــ فهذه السور من ابتداء البقرة الى هذه السورة هذه كانت مبادئها وهذه كانت خواتمها كلها حاضة فى أوائلها وأواخرها على النظر فى علوم السموات والأرض . فأما هذه السورة فقد أبانت أن الغافلين عن علوم الأمم السالفة ملومون غافلون والغافلون معذبون فى جهنم والعذاب هنا فى ترك فرض الكفاية . اللهم ألهم أمّتنا الاسلامية عقولا راقية ونفوسا كبيرة . فوالله لئن لم ينته علماء الاسلام عن هذا التقصير لتكوننّ هذه الأمّة فى الهالكين و يستبدل الله بها غيرها ــ إن يشأ يذهبكم ويستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ــ

فياعجبا لأمّة الاسلام . كيف ينامون . كيف يغفلون . وهذا القرآن بين أيديهم يقرؤنه صباحا ومساء . ولتعلم أيها الذكى المطلع على هذا الكتاب أنك مسؤل عن هذه الأمّة واياك أن تقول من أنا فانك متى كنت مغرما بقراءة أمثال هذا الكتاب فلاجرم تكون نفسك من ذوى الجدّ والعلم الذين يعرفون قيمة أنفسهم وهم مصلحون فلتكن مصلحا ولترشد الناس بقلمك ولسانك وحديثك ولتحرّض الأمّة على حوز العلوم . فلعمرى لقد قابلت طوائف هذه الأمّة المسكينة من أهل جاوه وسومطرة و بلاد الملايو و بلاد سيام و بلاد الغرب وغيرهم من الأمم والممالك ومن بلاد الصين فوجدتهم جميعا خاملين خامدين نائمين لم يفطنوا وذلك لما رسخ فى عقول علماء الدين أن الدين بعيد عن العمران . بعيد عن الأوطان . بعيد عن العلوم . بعيد عن الصناعات فضلوا بذلك وأضلوا وهم لا يعقلون فلتنقذ الأمّة من ضلالها ولتنشلها من وهدتها ولتطلعها على دينها الصحيح فى نحو ماسطرنا وفى مثل ما كتبناه والله هو الهادى الى سواء الصراط . تمّ تفسير سورة يونس عليه السلام

﴿ سورة هود مكية وهى مائة وثلاث وعشرون آية ﴾

﴿ وهى أربعة أقسام ﴾

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى المقصود من الرسالة من أوّلها الى قوله ــ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ــ

﴿ القسم الثانى ﴾ تأنيبهم على استبعادهم البعث والالماع الى نقص الانسان ومقاصد أخرى من قوله ــ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ــ الى قوله ــ هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ــ

﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله ــ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ــ الى قوله ــ بئس الرفد المرفود ــ فى قصص الأمم والأنبياء

﴿ القسم الرابع ﴾ فى طريق هداية الأمم الى الفلاح من قوله ــ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ــ الى آخر السورة

هذه أقسام السورة • ولقد كنت لخصتها منذ ١٤ سنة وأنا مدرّس بدار العلوم وقسمتها على هذا النمط ولكن القسم الثالث تبعه قسمان موضحان له تابعان له فصارت الأقسام ستة • ولما كان للانسان فى كل سنّ من أسنانه عمل يناسبه وانشاء يلائمه ورأى يوافقه رأيت أن أكتب ذلك الملخص لتطلع على ما كتبته إذ ذاك وأنا مدرّس بدار العلوم وتوازنه بما أكتبه الآن فستجد أن الرأى اللاحق هو السابق فسأذكر ذلك الملخص ثم أتبعه بتفسير السورة إن شاء الله • هاك ما كتبته إذ ذاك لتطلع على مجمل تفسيرها كأنه مرآة ثم أذكره مفصلا فى اللاحق

﴿ تفسير هذه السورة • مقاصدها ست • المقصد الأوّل من أوّل السورة الى قوله ــ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ــ ﴾

ابتدأ الله عزّوجل هذه السورة بالمقصود من الرسالة وهو عبادة الله عزوجل والانابة اليه بالتوبة وعدة المؤمنين التائبين بالفوز فى الدارين والسعادة فى الحياتين الدنيا والآخرة وانذارهم بالعذاب إن أعرضوا فقد جمع بين الانذار والتبشير والاخافة والاطماع وهذه هى الطريقة المثلى وذلك فى قوله تعالى ــ الر * كتاب أحكمت آياته ــ الى قوله ــ عذاب يوم كبير ــ ثم أخذ يشرح سعة علم الله واحاطته بالكائنات فلا تخفى عليه خافية بما أبان من اطلاعه عليهم وهم مستغشون ثيابهم فى اختلائهم وفى أسرتهم وعند نومهم ويقظتهم وعلى الدواب البرّية والبحرية فى غدوّها ورواحها وليلها ونهارها وتقديره أرزاقها وقيامه بما يقيم به أودها ويبقى حياتها ويحفظ نسلها الى أجل مسمى • ثم شرح قدرته عزّوجل بما أبدع من عجائب السموات وغرائب الأرض ولم تكن شيأ مذكورا حينما كان عرشه على الماء فما قدّمناه منحصر فى العبادة والتوحيد والانذار اجمالا والتبشير • ولقد كانت العناية بصفات الله أتمّ والاهتمام بقدرته وعامه أعظم ليكون ادعى للخضوع لعظمته والايقان بعامه وحكمته وذلك أدعى لاجلاله والخوف من عقابه وهيبة سلطانه وامتثال أمره واجتناب نهيه والايقان ببديع حكمته حتى لا يكون العالم بلاغاية ولا أعمال العباد بلانتيجة

والمقصد الثانى وهو من قوله ــ ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ــ الى قوله ــ هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ــ • أخذ فيه يؤنبهم على استبعادهم البعث بعد الموت ووصفهم له بالسحر واستبطا ــ لئها عذاب الدنيا إذ يقولون ــ مايحبسه ــ وما أجمل أن يشرح خلق الانسان العام ومافيه من النقص والجهل فهو اليؤس من الفرج • الكفور بالله اذا أصابه الضرّ وهو الفرح البطر الفخور ان أذاقه الله نعمه • ذلك لجهل الانسان وقصر نظره الحيوانى الطبيعى • ولامفرّ من هذه الحلة الشائنة إلا بالصبر فى الضراء والسراء بالعفة والسكينة والوقار وبضبط النفس فى الغنى والتعالى عن الائتناس بالمادّة وأن يفكر فى زوال الحياة وفناء اللذات وانتقال المال من يد الى يد وتصرم الآجال وذهاب الأموال وسرعة تقلب الأحوال وبضبط النفس

فى الحالين من فقر وغنى يصير الانسان رجلا كاملا • وما أنسب أن يسلى النبى ﷺ عما يضيق به صدره عما يقولون عليه تسلية له وتثبيتا لفؤاده فأنزل عليه ما يثلج صدره إذ قال — فلعلك تارك بعض مايوحى اليك — الى قوله — انما أنت نذير —

ثم شرح حال المرائين والمنافقين والمشركين وأبان أن أعمالهم حابطة وأظهر ماعليه المؤمنون والنبىّ وصحة حجتهم ووضوح طريقتهم وتبلج نور شمسهم وانقشاع الغيوم بأضوائه ووضوح الحجة بالقرآن وسطوع النور بالبيان بقوله — أفمن كان على بينة الخ — ولم يبق من أنواع الايضاح إلا أن يمثل أولئك الذين لم يروا شمس الهداية ولم يتبينوا نور العلم والحكمة وسطوع الحجة الواضحة فى القرآن بأنهم عمى لايبصرون وصم لايسمعون والآخرون مبصرون سامعون • فتعجب كيف تدرّج من أول السورة الى هذا المقام من حال الى حال فتوحيد يتبعه عبادة يتلوه نظام وعلم يتلوه انذار بعذاب من بعد ذلك ايضاح وايضاح و بيان يقفوه بيان حتى صار المعقول محسوسا والغائب مشاهدا فصدع بالأمر فوصف قوما بالعمى والصمم • وآخرين بالبصر والسمع فالعمى عن رؤية السموات والأرض والدواب ومستقرّها ومستودعها والصمم عن سماع الموعظة والانذار والتبشير • ولم يبق بعد هذا البيان إلا أن يقصّ القصص ليعتبروا • و يقوّم البلدان ليذكروا • و يسمعهم التاريخ ليزدجروا لعلهم يبصرون عادا إذ قال — وتلك عاد الخ — ولعلهم يسمعون ماحلّ بالأمم الغابرة والأجيال البائدة ولا يكونون صما عن المواعظ عميا فلا يبصرون آثار الأمم البائدة وأطلالها الهامدة وأحوالها الغائبة ذلك هو العجب العجاب

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله — ولقد أرسلنا نوحا الى قومه — الى قوله — بئس الرفد المرفود — وفيه تخطيط البلدان التى سكنتها هذه الأمم والالماع الى تاريخهم • ذكر الله فى هذه السورة عادا وثمود وابراهيم ولوطا وشعيبا • فقوم نوح نبيهم نوح • وعاد نبيهم هود • وثمود نبيهم صالح • وقصص ابراهيم لم يذكر معه قومه فيها • وأهل سدوم بناحية حمص بالشام نبيهم لوط • وأهل مدين نبيهم شعيب • وأهل مصر نبيهم موسى

﴿ مساكنهم ﴾

أما قوم نوح فقيل بالهند • وقيل بالعراق وماوالاها • وأما عاد وثمود فهما بجزيرة العرب حوالى اليمن وأما ابراهيم فقد كان فى تلك الحال بفلسطين من أعمال الشام بعد أن رحل بابن أخيه لوط من أرض بابل فكان هذا بفلسطين وهذا بسدوم وهى خمس قرى بينها و بين فلسطين نحو أربعة فراسخ • وأما أرض مدين فعلى شاطئ البحر الأحمر تجاه بلاد صعيد مصر من الجهة الشرقية • وأما أرض الفراعنة فمعلومة وهى مصر • ألاتتعجب كيف كانت الأمم المذكورة فى السورة محصورة فى جزيرة العرب وماحولها داخلة الآن فى حوزة الاسلام • ليتعجب طلاب العلم وليتذكروا كيف كانت هذه السورة جامعة لقصص الأمم المحيطة بالكعبة أومايقرب منها • وكيف أراد الله ايقاظ أقوام سكنوا تلك الأقطار بعد نومتها وحياتها بعد موتها وعزّها بعد ذلها وشرفها بعد ضعتها • وكيف دخل الاسلام هذه الأقطار وعمّ هذه الديار فدخل اليمن وماحولها وضم جزيرة العرب ومصر والعراق و بعض أقطار الهند • هذه بعض حكم القصص لم يذكرها الله إلا ايقاظا لأهلها فاستيقظوا وتذكيرا لأهلها فتذكروا

﴿ المقصد الرابع استنتاج الأخلاق مما ذكر فى المقصد الثالث ﴾

جرت عادة الله أن لا يهلك أمة • ولايبيد دولة • إلا اذا عاث أهلها فى الأرض فسادا أو بطشوا بطش الجبارين وطغوا و بغوا واستكبروا وأفسدوا فتكون العاقبة الهلاك فى الدارين والعذاب فى الحياتين والشقاء بالويلين • فان الله لايهلك القرى لكفر أهلها اذا كانوا مصلحين لشأنهم منظمين مدنهم حافظين لأمرهم

ضابطين لنظامهم قائمين بأعمالهم كما قال تعالى فى هذه السورة ـ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ـ فأما اهلاك قوم نوح فبسبب الاعراض عن الهدى واستمراء مرعى الجهل والاخلاد الى الأرض والتباعد عن الرشد واتباع طرق الغى والاستكبار على العقلاء الذين آمنوا واسترذالهم واستهزائهم بالعلم والهدى وانفتهم أن يأخذوا العلم عن بشر مثلهم والحكمة عن واحد منهم . الا أن نفوسهم حيوانية وجبلاتهم حجرية كمثل أولئك الذين لايرضخون إلا لمعلم غريب عن الديار نازح عن الأوطان لما أنهم لايعقلون إلا كما تعقل العامة الجهلاء من الخضوع للجبارين والأخذ عن المجهولين أو السحرة الماكرين أو القوم الشاذين لقوة سلطانهم بالترهات وحيلهم بالطلسمات . أما العقول فهم عنها معزولون . ثم إن الكبر والجهل صنوان وهما رضيعا لبان وفرسا رهان وخليلان لايفترقان وشقيقان لاينفصلان فهلكوا بالغرق وبادوا بالطوفان

وأما قوم عاد فلقد طغوا فى الأرض و بغوا وقالوا من أشد منا قوة فأبادتهم الرياح والزعازع وأهلكتهم فأصبحوا لاترى إلامساكنهم . وأما ثمود فكفروا النعمة ولم يشكروها وجمعوا بين نقيصتين تعنت فى طلب الآيات وخوارق العادات وكفر على نعمة أعطوها فلم يحمدوا الله فيشكروها بل ذبحوا الناقة ظالمين وأكلوا لحمها كافرين فاصفرت الوجوه ثم احمرت ثم اسودت ثم أخذتهم الصيحة التى صاحها جبريل وزلزلت الأرض ورجفت بهم رجفة فأصبحوا هالكين . جمعت ثمود بين ﴿ الحسنتين ﴾ معاداة العلم بالتعنت وطلب الخوارق للعادات والبغى والظلم فقد أساءت فى القوة العلمية ولم تحسن فى القوة العملية . وقوم لوط فسقوا وأولعوا بالشهوات الجثمانية ففعلوا مايبيد النسل وطغوا فى شهوة الفرج كما طغى أهل مدين فيما به قوام الأجسام من المكيل والموزون . وماطغيان قوم فرعون إلا كعاد وقوم نوح فالنتيجة أن قوم نوح وقوم فرعون وعادا ملكتهم القوة الغضبية وأضلتهم النفس الشيطانية . وقوم لوط وأهل مدين ضلوا بالقوة الشهوية هؤلاء فيما يبقى الأجسام وهؤلاء فيما يديم النسل . فهؤلاء فيما يسد الجوعة وهؤلاء فيما به يتناسل الحيوان والانسان وقوم شعيب عليه السلام أغمضوا القوة العقلية فاستحبوا العمى على الهدى

هذه مجامع علم الأخلاق ذكرها الله فى السورة تذكرة لهذه الأمم وايقاظا لها وايذانا بأن الأمم التى أهملت شانها فلم تقو ارادتها ولم تستيقظ عقولها ولم تصلح شؤن نفوسها أو تلك التى اغترت بأنفسها وفرحت بما عندها من العلم ونامت على مهاد الراحة واستكبرت عن أخذ العلم ممن كانوا أعلى منهم مقاما وأرقى شأنا وأوسع حكمة كمملكة مراكش أيام استقلالها وعظمتها أو تلك التى أطلقت أيدى العابثين من أبنائها فلم يأخذوا على أيدى الظالمين فساد الفساد بتطفيف المكيال والميزان وعموم الرشوة واعطاء المرء مالايستحق من الأعمال وبخس الفضلاء حقوقهم وترك حبل الامور على غاربها فأولئك لامحالة ذاهبون للدمار واقعون فى شرك الويل والثبور

﴿ المقصد الخامس استنتاج النظام العام الحالى من هذه السورة فى هذه الأمم وكيف كان هلاكهم تابعا لسقوطهم فى الأخلاق والفضيلة والآداب . وكيف رجعوا لتاريخهم القديم اليوم ﴾

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت * فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

إن هذه الأمم التى قصها الله تعالى فى هذه السورة بعد أن هلكوا واستؤصلت شأفتهم ملكت أرضهم وسكنها قوم آخرون وهى الآن بلاد الاسلام فنحن أهلها المالكون وأصحابها المسيطرون . ولما طغى أهلها البائدون أخذتهم صاعقة العذاب الهون . فمنهم من أغرق . ومنهم من أهلك بريح صرصر عاتية . ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفت دياره فصاروا صعيدا جرزا . وتلك القصص من المسلمات عند سامعى القرآن . فلنقس حالنا اليوم بمن حللنا ديارهم واتخذنا مساكنهم وننظر هل أحسنا الخلافة وعرفنا قوله تعالى ـ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ـ

نرى أن البلاد العربية خاوية من العلوم . خالية من النظام . عريقة فى التقاطع والتدابر . وهكذا مصر لما أن رأت بصيصا من النور لم تعرف كيف تبصر ولم تزن أعمالها وخلطت عملا صالحا وآخر سيئا . وهذا القول منذ ١٤ سنة كما قدمت لك . أما الآن فانها آخذة فى الاستقلال والرقى . وهكذا أرض بابل ومابين البحرين فان الجهل لايزال ضاربا أطنابه فى ربوع الاسلام فلذلك أحاطت به من كل جانب المصائب وحاق بنا المكروه من كل جانب وهذا مقدمة لعذاب الخزى فى الحياة الدنيا مثل ماحل بأسلافنا . حذونا حذوهم حذو القذة بالقذة . وماذكر الهلاك الدفعى إلا لينذرنا بالهلاك التدريجى والعذاب العظيم باحتقار الأمم لنا واستهزائهم بنا . فلقد تركنا عقولنا وشأنها فلم نرب القوة العقلية ولم نتم الفكر الانسانى وكثرت الرشا والغش فى المبيعات كما فعل أهل مدين وتجرأنا على المحرمات كقوم ثمود . والطامة الكبرى أننا فرحنا بما عندنا من العلم وصممنا آذاننا عن الحكمة التى أرسل الله أنوار شموسها على أرض المغارب وكسا بها وجه اليابان والصين وأذاقها لأمة الأمريكان فتكبرنا عن العلم ونحن الجاهلون وأعرضنا عن الحكمة ونحن معرضون ونمنا والناس مستيقظون . هذا ماكتبته إذ ذاك ولكن الآن دبت الروح فى جميع هذه البلاد وعسى أن ترقى هذه الأمم وهم فرحون مستبشرون

﴿ المقصد السادس دواء هذا الداء وخاتمة السورة من قوله تعالى — ذلك من أنباء القرى — الى آخر السورة ﴾

لقد بان لك حالنا اليوم وماأحاط بنا من مكروه ومانزل بنا من شر . وكيف أصبحت أمم الاسلام غارقة فى بحار الجهل تائهة فى قفار الضلال بعيدة عن طريق الهداية إلا قليلا . وكيف عكفوا على المجد القديم واستكبروا فى الأرض بغير الحق واكتفوا بما عندهم من علم قديم ومجد موروث وأهملوا الأخلاق والفضائل وقال قائلهم لمن يسأله عن سبب انحطاط أمم الاسلام (انها المعاصى) ولوسألته أى هى لقال الغيبة والنميمة والخمر وما أشبهه وأكثرهم يجهل أن الجهل أكبر المعاصى وأن نظام المدن ورقى التجارة واتقان الصناعة واحكام الزراعة ونظام الامارة من أفضل العلوم والجهل بها أكبر المعاصى وأقبح المخازى وأن عكوف كل امرىء على شأن نفسه وحده وتركه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أسوأ أثرا وأكثر خطرا وأعظم ضررا من غيبة ونميمة . ولاسبيل لصلاح البلاد الاسلامية واسعاد الأمة المحمدية إلا أن يجدوا فى العلوم والصناعات واحكام التجارات والامارات ونظام المدن والجماعات ولم يؤيسنا ربنا من السعادة ولم يقنطنا من اصلاح حالنا وتغيير العادة . ألاترى كيف ذكر الدواء بعد الداء فقال — إن الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين * فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين — فان معناه هلا كان فى الأمم الغابرة والقرون البائدة مرشدون ناصحون وعلماء واعظون وحكماء مبصرون ينهون غوغاءهم ويرشدون جهالهم ويضربون على أيديهم كما فعلت أمة اليابان والصين والأمريكان . فان الأمة اذا اقتربت من العطب وانسل اليها الاهلاك من كل حدب فأيقظ أهلها الموقظون وأرشدها لموضع الداء الناصحون أرجعت العز الى نفسها ونصرت على عدوها واذ ذاك لاينالهم هلاك الدارين ولايحيط بهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولاعذاب السعير فى الأخرى . وتعجب كيف يقول بعد أن أتم قصة فرعون — تلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد — وكيف أرجع الظلم اليهم وقال — وماظلمناهم الخ — ولكن ظلموا أنفسهم فمانفعتهم الآلهة المعبودة . هكذا لم ينفع أهل الشرق اليوم من يمدهم ويمنيهم من بعض الرؤساء الجاهلين بل زادوهم تتبيبا . ثم قاس أحوال الأمم فى الأرض بهذه الأمم المذكورة فقال — وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة — ثم شرح عذاب الآخرة وكيف يسعد قوم بالجنة ويشقى آخرون بالسعير

مقاصد الدين ﴿ أمران ﴾ بقاء الأجسام بنظام المدنية وحفظ النسل وسعادة الأرواح بالعلوم والشوق الى معرفة الله والعبادة ولا أرواح بلاحياة ولاحياة بلانظام ◦ لذلك كان جل مقاصد هذه السورة حفظ الأجسام و بقاء المدن ونظام الجمعية وحفظ الأموال ليهب الناس لجمعها و يتضافروا على العمران و يكثر النسل فنعى الله عليهم البخس فى المبيعات واللواط والاستكبار عن العلم النافع ◦ فهذا كله لبقاء الأجسام وهو النظام المدنى

ولقد أرشد الله لحفظ الأرواح وتزكيتها بالعبادة والتوحيد والأخلاق الفاضلة فتعجب كيف غفل المسلمون اليوم عن النظام المدنى ◦ وكيف يقرؤن ولايعلمون ويعيشون ولايفكرون ◦ إنى أنذر المسلمين اليوم كما أنذرهم الله وأقول لهم ليقم فى كل قطر من أقطار الاسلام رجال يحضون على العلوم ليكثروا ليرشدوا اخوانهم ليأمروا بالمعروف لينهوا عن المنكر ◦ أحذر المسلمين أن يهلكوا كما هلك من قبلهم ◦ إنى أنذرهم صاعقة المدافع والعذاب الواقع ماله من دافع وحصد النفوس وذهاب الفلوس وضياع القرى ومن يعش يره

﴿ آيات الأخلاق ◦ آيات العلوم ◦ آيات الأحكام ◦ آيات النظام العام ﴾

(آيات العلوم من هذه السورة إحدى عشرة آية ﴾

ــ الى الله مرجعكم وهو على كل شئ قدير ــ الى قوله ــ فى كتاب مبين ــ وقوله ــ وقيل ياأرض ــ الى قوله ــ الظالمين ــ وقوله ــ إنى توكلت على الله ربى وربكم ــ الى قوله ــ مستقيم ــ وقوله ــ فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ــ الى قوله ــ حفيظ ــ وقوله ــ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ــ الى آخر السورة

وهذه الآيات فى الأكثر تبيان لعظمة الله عز وجل وجلاله وقدرته وسلطانه وعلمه ورحمته التى وسعت كل شئ ◦ ومن أعجب مافى هذه الاحدى عشرة قوله تعالى ــ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ــ ◦ لن يعقل دقائق لاحاطة الله علما بالدواب إلا من قرأ علوم الحيوان ووقف على غرائزه وعجائبه وبدائع تركيبه ومحاسن صنعته وما أتيح له من أعضاء منظمة ووهب من قوى دراكة وصور براقة ونفوس مختارة ◦ إن فى الحيوان لآيات وفى النحل لعجبا وفى النمل لحكما ◦ واقرأ إن شئت هندسة العنكبوت ونظام بيوت النمل وبدائع دودة الحرير ونظام الجراد ودود القطن وكيف أكلت مما نلبسه ولبسنا مما نسجت أختها دودة الحرير فكيف كانت احداهما تخلع علينا لباسها والأخرى تسلبنا مازرعنا لنلبسه ◦ إن فى الحيوان والانسان لغرائب ــ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ــ ◦ كل ذلك فى كتابى ﴿ جمال العالم ﴾ انتهى

﴿ آيات الأخلاق منها قوله ــ الر * كتاب أحكمت آياته ــ الى قوله ــ عذاب يوم كبير ــ ﴾

فى هذه الآيات الثلاث خلق التوبة ثم إن قوله تعالى بعد ذلك ــ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ــ الى قوله ــ وأجر كبير ــ فيه ذم خلق الأشر واليأس وطلب الصبر على البأساء وضبط النفس فى السراء والغنى وقوله ــ فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا ــ الى قوله ــ وباطل ما كانوا يعملون ــ فيه ذم صفة الرياء وقوله ــ والى ثمود الخ ــ فيها خلق التوبة وشرفه وقوله ــ والى مدين أخاهم شعيبا ــ فيه طلب العدل فى الكيل والميزان وقوله ــ ولولا كلمة سبقت من ربك ــ الى قوله ــ لايضيع أجر المحسنين ــ فيه الأمر بالاستقامة وترك المداهنة والركون الى الظلمة والصدع بالحق والاستعانة بالله وفعل الحسنات والصبر ◦ أما آيات الأحكام فقوله تعالى ــ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين ــ وقد نزلت فى عمرو بن عرفجة بائع التمر وقد قبل اجنبية ◦ وهذه الآية تدل على أوقات الصلوات الخمس ◦ فطرفا النهار الفجر فيه صلاة الغداة ◦ والعشى فيها الظهر والعصر ◦ والزلف أى الساعات القريبة من النهار لصلاة المغرب والعشاء

ولا تكفر الصلاة إلا الذنوب الصغائر على الأوجه . أما آيات النظام العام فهو فحوى السورة ومقصودها والله أعلم

هذا هو الملخص الذي كتبته في ذلك التاريخ . فلأشرع في تفسير السورة تفصيلا بعد ما عرفتها اجمالا وقرأت حكمها الشريفة وعجائبها المنيفة لتكون على بينة من معانيها وفي الفهم على صراط مستقيم

﴿ القِسْمُ الأَوَّلُ ﴾

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الٓرۚ * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا *

لأبتدئ الكلام على البسملة وعلى قوله تعالى ـ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ـ

جرت عادة العلماء في الاسلام أن يسهبوا في الكلام على البسملة في أول كتبهم و يشرحوا ما يخصها من العلوم الاثني عشر الأدبية كالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والانشاء الخ

أما في هذا التفسير فاني تكلمت عليها في أوّل سورة الفاتحة و بينت الكلام في رحمة الله عزوجل أي في المقصود من انزال القرآن الى هذه الأرض . ان أكثر العلماء رحمهم الله أرادوا ترقية العقول واتساع الذهن بالعلوم التي هي آلات الفهم . أما أنا فاني بحمد الله أكتب هذا التفسير لأناس لهم حظ من هذه العلوم فعليّ أن أوجه الهمم الى ما هو المقصود من ذكر الرحمة قد ذكرت شيأ منها في الفاتحة وشذرات في سورة آل عمران عند قوله تعالى ـ بيدك الخير ـ وقوله تعالى ـ وترزق من تشاء بغير حساب ـ فبينت هناك رحمته عزّوجل في الحشرات وغيرها وأنه سبحانه آخذ بناصيتها وهكذا عند قوله تعالى في سورة الأنعام ـ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ـ وكذلك في قوله تعالى في سورة الأعراف ـ ورحمتي وسعت كل شئ ـ وههنا أقول إن الله كرر الرحمة في القرآن في أوّل السور فوق المائتين وهكذا ذكرها في مواضع كثيرة كقوله تعالى ـ وهو أرحم الراحمين ـ في سورة يوسف ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ بل قال في نبينا ﷺ ـ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ ولا جرم أنه الآن في العالم الأعلى فوجب أن نكون نحن المسلمين على الأرض قائمين بالرحمة والرحمة على ﴿ قسمين ﴾ رحمة بالحيوان . ورحمة بالانسان . أما الرحمة بالانسان

فلن

فلن تتم لنا إلا اذا أصبحنا عالمين بقدر طاقتنا بعلوم هذه الدنيا حتى نرقى نفوسنا ونرقى غيرنا . ومستحيل هذا الرقى إلا بنشر العلوم بيننا أوّلا وهكذا الصناعات وحينئذ نرشد غيرنا ونكون رحمة * أما الآن فلا فن يجهل الرحمة العامّة كيف يستعملها وكيف ينشرها بين الناس فرحمتنا على مقدار عملنا فيها وعملنا فيها على مقدار علمنا وعلمنا اليوم قليل . وأما الرحمة بالحيوان فاننا معاشر الأمم الاسلامية لم ننشرها بين الشعب بل حصرت فى كتب الفقه والأمم الاسلامية ساهية عنها لاهية والفرنجة قاموا بجمعيات للمحافظة على الحيوان فى بلاد الاسلام وهذا بسبب كتبهم التى ألفوها لصغارهم وفيها مايرقق القلب على الحيوان ويورث الشفقة

فلأذكر هنا ماجاء فى الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ ثم أتبعه بما يفتح الله به . وقبل أن أذكر الأحاديث أقدّم مقدّمة فأقول

إن العالم على ﴿قسمين﴾ عالم لطيف وعالم كثيف . فالعالم اللطيف لاندرى منه شيأ إلا العلوم والأنوار والجمال . نحن فى هذه الأرض نحسّ بنعمة العلم و بنعمة الجمال و بجمال النور . هذه النعم الثلاثة نحس بأنها خالية من الحزن ومن الكدر والنحس والشقاء . يقف الانسان مبهوتا أمام الجمال فينسى كل حزن ويشعر بسرور وخفة روح ولطف والحبّ الذى سببه الجمال يأخذ بلبّ صاحبه على مقدار الاحساس بالجمال فيغيب عن كل حزن وكدر فى ذلك الزمن الذى غشى الحبّ على قلبه . ولقد عرف الناس أن الحب درجات درجة دنيا وهو حبّ الجهال للجمال الظاهرى فانه سريع الزوال . وحبّ العلماء لجمال العلم . فهذه درجة وسطى . وحبّ الحكماء وأولى الألباب لخالق الجمال . وهذه هى الدرجة العليا . فالجاهل يلهيه الجمال الحيوانى فى وقت ما عن حزنه وغمه وشقائه . والعالم والحكيم يجدان لذة لايحسّ بها الجاهل فى علمهما وحكمتهما وادراك منظم هذا الوجود على قدر طاقتهما وهكذا النور الذى هو عالم وسط بين المادّيات والمعنويات يسرّ النفس على قدر ادراكها له . هذه مظاهر تبعث فى النفوس ارتياحا لعالم المجرّدات الذى لم ننله فى هذه الدنيا . أما عالم المادّيات فان الرحمة فيه لاتكون إلا باستعمال الحكمة واظهار بدائع القدرة واستكمال صور الموجودات بأنواع التنظيم والاحكام . إذ يظهر أن هذا العالم المادّى الذى نعيش فيه عالم متأخر تغلب عليه الشقاوة ولكن يد القدرة وعجيب الابداع والاحكام قرّبه من الرحمة . وفى هذا التفسير من عجائب التدبير لأجل الرحمة ما يكفى اللبيب مثل ما ذكر فى سورة البقرة عند قوله تعالى ـ إنّ فى خلق السموات والأرض ـ وفى آل عمران عند قوله ـ بيدك الخير ـ وفى آخرها أيضا ومثل ماذكر أوّل سورة المائدة . وهكذا ماجاء فى آية ـ ورحمتى وسعت كل شئ ـ فلانعيده ولكن نشير الى هذا الأخير مما ذكر هناك (١) مثل أن الأرض يعوزها مايقابل أضرار المواد الرطبة التى يفسد الجوّ بقاؤها فيحصل الهلاك . لذلك خلق الذباب والجراد ونحوهما من الحشرات (٢) وكثير من هذه الحشرات تضرّ الزرع فجاء البرد أيام الشتاء فقتل تلك الحيوانات (٣) وهذا البرد يضرّ البذر والزرع الناشئ حديثا زمن الشتاء لاسيما فى البلاد التى اشتدّ بردها فجعل لها الثلج واقيا ماتحته من بذر وزرع فى البرّ ومن سمك فى البحر لأن الثلج فوق سطح البحر يمنع البرودة عما تحته فيبقى الماء يغدو فيه السمك ويروح برحمة الله ثم يشتدّ حرّ الشمس فيذيب الثلج فيخرج الزرع نضرا بهيا جميلا . فانظر لتدبير منظم حشرات لاقلال الرطوبة فبرد لقتلها فثلج لاضعاف آثار البرد فشمس لازالة ذلك الثلج ليخرج النبات . هذا مثل واحد من آلاف آلاف الأمثال التى نراها فى هذا العالم تدلنا أن النظام والحكمة والتدبير هى التى جعلت فى عالمنا بعض الرحمة لاكلها . إنّ أرضنا كثيرة التغير سريعة التبدّل قصيرة الأعمار كثيرة الزلازل منيت بالشرّ ممزوجا بالخير فلا خير إلا جعل مصحوبا بشرّ ولانفع إلا مع ضرّ . ذلك كله لأن عالمنا غير مستعدّ لتمام الرحمة فليس من العالم اللطيف الجميل الذى تطول فيه الأعمار ويظهر فيه الجمال ويتلألأ فيه باهر الأنوار المدهشة بل إنّ مالدينا من النور يصرفنا عن

السرور به الرزايا الأرضية . هذا هو عالمنا . لعلك من هذا تفهم الحديث الذى أخرجه الشيخان والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزأ واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ﴾

إنّ هذا الحديث لايعقله إلا من درس علوم الطبيعة والفلك وكلما ازداد الانسان علما ازداد بصيرة . نحن رأينا الناس لايرتقون فى هذه الدنيا فى مال أوعلم إلا بنصب وتعب ورأينا نظام الحيوانات فى البرية مبنيا على المغالبة ورأينا الآساد تأكل الظباء رحمة بالآساد وبالظباء وبالناس فلولا هذه الخصلة لملأت الحيوانات الآكلة العشب السهل والجبل ولملأت رممها عند هلاكها أقطار الأرض فكان الوباء فاقتضت الحكمة بقاء العالم . وليس لهذا طريق إلا أن يخلق حيوانا يقلل ذلك التكاثر ويطهر الأرض من الرمم فيجعلها فى جوفه بحيث يطحنها ويحيلها الى مادّة لاتعفن فيها فيكون بعضها من جملة جسمه وبعضها فضلات خارجات من السبيلين فهذه وأمثالها تدبير ولطف — إنّ ربى لطيف لما يشاء — فهذا التدبير يدهش العقول المفكرة وترى فيه ما لايخطر ببال المشعوذين من الحيل المعجبة الناظرين المدهشة للمفكرين . ولعلّ هناك عوالم ألطف وألطف فتكون الحياة فيها أشرف وأشرف وأبقى وأطول ويكون الأحياء أعلم وأعلم لا كما نحن عليه فى الأرض من رحمة أقلّ وعلم ضئيل حتى خاطبنا الله قائلا — وما أوتيتم من العلم إلا قليلا — قلة علمنا مناسبة لقلة الرحمة الواصلة الينا التى منعها نقص استعدادنا حتى لم ننل من الرحمة إلا واحدا من مائة . وافق الحديث الآية

الحديث ينصّ على أن رحمتنا واحد من مائة والآية جعلت علمنا قليلا . قلّ العلم فقلت الرحمة وليس ذلك كله إلا من نقص عالمنا الذين نعيش فيه ولم نستعدّ إلا له . إن نبينا ﷺ رحمة للعالمين . وقد ورد فى الأحاديث ما أوجب علينا أن نحذو حذوه فيها (١) مثل حديث ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عنه ﷺ أنه قال ﴿ الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله تعالى ﴾ أخرجه أبوداود الى قوله من فى السماء والترمذى بتمامه . والشجنة بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم القرابة المشتبكة كاشتباك القرون * وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ لايرحم الله من لايرحم الناس ﴾ أخرجه الشيخان والترمذى * وفى رواية أخرى لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ ﴿ لا تنزع الرحمة إلا من شقى ﴾

وقد وردت أحاديث فى رحمة الله تعالى منها الحديث المتقدّم الذى جاء فيه ذكر مائة رحمة عن الشيخين والترمذى وورد فيه زيادات لمسلم مثل قوله فيها أى فبالرحمة الواحدة تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض * وجاء فى حديث رواه الشيخان عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قدم على رسول الله ﷺ بسبى فاذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته فقال ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار قلنا لا والله وهى تقدر على أن لاتطرحه قال فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها

وجاء فى رحمة الحيوان (١) ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ بينما رجل يمشى بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيه فشرب ثم خرج واذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له قالوا يارسول الله وان لنا فى البهائم أجرا قال فى كل كبد رطبة أجر . أخرجه الشيخان وأبوداود * وفى رواية أخرى أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فغفر لها به (الموق الخف) * وعن عبد الله بن جعفر رضى الله

عنهما قال كان أحبّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل (الهدف ما ارتفع من الأرض وحائش النخل نخلات مجتمعات) فدخل حائطا (بستانا) فاذا فيه جمل فلما رأى النبيّ ﷺ حنّ وذرفت عيناه فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه فسكت (ذفرى البعير الموضع الذى يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان) فقال من ربّ هذا الجمل فقال فتى من الأنصار هو لى يارسول الله فقال أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها فانه شكا الىّ أنك تجيعه وتدئبه (تتعبه بكثرة استعماله) أخرجه أبو داود * وقال ﷺ ﴿ لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر انما سخرها الله لكم لتبلغكم — الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقّ الأنفس — وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم ﴾ أخرجه أبو داود

وعن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فرأينا حمرة (بضم الحاء وتشديد الميم نوع من الطير فى شكل العصفور) تعرش (ترفرف وترخى جناحيها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع فلما جاء رسول الله ﷺ قال من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها اليها • ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال من أحرق هذه فقلنا نحن قال انه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا ربّ النار

وروى الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ﴿ قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية نمل فحرقت فأوحى الله تعالى اليه أن قرصتك نملة أحرقت أمّة من الأمم تسبح ﴾ اهـ

﴿ نظرة فى هذه الأحاديث وفى الآية التى نحن بصدد الكلام عليها ﴾

يقول الله تعالى — وما من دابة فى الأرض الخ — ويقول هود — مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها — ويقول فى سورة الأنعام — وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ — وها هو رسوله ﷺ يقول شكا الجمل الىّ ويأمر صاحبه بالرفق به • ويقول غفر الله لبغى سقت الكلب بخفها • ويقول فى الطائر من فجع هذه بولدها • هذه الأحاديث توجب النظر والبحث وتوجب على علماء الاسلام فى سائر الأقطار أن ينشروها ويشرحوها ويقولوا للناس فى نشراتهم وفى كتبهم ﴿ ينبغى عدم أخذ صغار العصافير والطير من أعشاشها ﴾

﴿ خطاب الى علماء الاسلام ﴾

أيها العلماء • ويا أيها المسلمون • أما آن لكم أن تذيعوا هذه الأحاديث وتقولوا للأمّة إياكم وأخذ فرخ الحمام من أمّه قبل استكمال تربيته وذبح العجل مادامت أمّه ترضعه • وإياكم وصيد الطيور البرّية ما دامت تربى أولادها وتقولوا يجب دراسة علم الطير والدواب والحشرات وفهم طباعها فهما تاما ثم جعل الأحكام مطابقة لذلك بحيث تحرمون الصيد فى وقت التربية والبيض وما أشبه ذلك • إن هذه الأحكام يختلف فيها العلماء اختلافا كثيرا ولكن لا معنى للخلاف مع وجود الحديث • ولعلّ الأمم المسيحية أقرب الى الرحمة منا

اللهم إنى أبرأ اليك من هذا الجهل الفاشى فى أمّة الاسلام • اللهم قد نبهت وأوضحت وحسبنا الله ونعم الوكيل • اللهم ان نبيك محمدا ﷺ نبىّ الرحمة وقد أنذر وحذر ولكن الناس أهملوا والأمم كلها تيقظت الى هذه الرحمة ونحن اليوم جهلاء بها وأنت أرحم الراحمين فألهم العلماء فى الاسلام اكمال ما ابتدأناه وشرح ما أجملناه • ألهمهم إلهى أن ينظروا فى هذا الوجود • ألهمهم أن ينظروا فى الأمم حولهم ويقرؤا علومهم بلغاتهم فانهم يجدونهم قد عطفوا على هذه الحيوانات وفكروا فيها ومنهم من يرحمها وقد ألفوا جماعات تجوس خلال ديارنا لرحمتها وان كان علمهم أبتر وناقصا • ألهمهم أن يفكروا فى أمر الاسلام وكيف يكون المسلمون أقلّ رحمة بالحيوان من غيرهم غفلة وجهالة وبعدا عن الحقّ وأنت قد ذكرتنا بأن هذه أمم أمثالنا وما فرطت فيها وأن عليك رزقها وانك تعلم مستقرّها ومستودعها وانك آخذ بناصيتها فاذا كانت هذه منزلتها منك فكيف جهل [illegible] المسلمين منزلتها عندنا • أباح المسلمون صيد الحيوان بلا قيد ولا شرط وخالفوا

العلماء وخالفوا رسولك القائل ﴿ من فجع هذه بولدها ردّوا ولدها اليها ﴾ هـذا الحديث مذكور فى كتاب (تيسير الوصول لجامع الاصول) فهو فى حكم الأحاديث الصحاح . ألم يأن للمسلمين أن يدرسوا هذه الأمم درسا مدققا اننا وإياها نكون أسرة واحدة فهى تساعدنا فى الزرع والضرع والسفر وهى المغنيات لنا لتطربنا فى حقولنا والمعطيات لنا ملابس ومساكن ومناظر جميلة . ومنها القاتلات لحشراتنا الفاتكات بزرعنا . وكيف يعرف الناس أن ولد الحمام يخالف ولد البط والاوز والدجاج من حيث عطف الأبوين وأن الفريق الأوّل فى حاجة الى الأبوين معا يعطفان عليه لضعفه ويطعمانه وأن الفريق الثانى يخرج قليل الحاجة الى الوالدين لقوّته بالريش والمنقار والقوّة والاستقلال والجرى وراء أمّه من وقت الولادة وتعاطى الغذاء من الأرض فلذلك لم يحتج الى عطف ذكر البط والديك بخلاف ذكر الحمام الذى يعاون الأم ويعطفان معا على الولد ويتقطع قلباهما أسفا وحسرة وحزنا اذا فارقهما وهو ضعيف . أقول كيف يعرف الناس ذلك كله إلا بالدرس والعلم . أفلا يحسن أن يأمر العلماء وحكومات الاسلام بعد ظهور ما كتبنا هنا الى هذا الأمر ويحرّموا الناس صيد أمثال (الخطاف والعصفور والسمان) أيام تربية الأولاد . وهكذا صيد أفراخها الضعاف أى أن يتركوا الأبوين والذرّية أيام الحضانة ثم يصطادون مايشاؤن بعد ذلك حين استقلال الولد عن الوالدين فيصبح الأفراخ فى غنى عن الأبوين فلا يتقطع قلبهما ولا يترك الأفراخ الصغار مقطوعات لاعائل لها

ومتى زال سبب العطف زال التحريم وهناك يكون المسلمون قائمين بأمر رسول الله ﷺ القائل ردّوا اليها ولدها وذلك لسبب الحزن الشديد والعطف من الأم المرفرفة . فأما بعد الاستغناء فان الأولاد تكون مباحة واذن يصبح هناك فرق بين صغار الحمام وصغار الدجاج فيؤخذ فرخ الدجاج وهو صغير لأن الأم لا يتقطع قلبها أسى وحسرة . أما الحمام فبعكس ذلك . وهكذا بقية الطيور التى يقول فيها الحديث ﴿ ردّوا ولدها اليها ﴾ ويكون ولد البط كولد الدجاج لأن المدار على شدّة العطف وعدمه . هذا ما أراه فى هذا المقام . إن هذا الكتاب عام للمسلمين من جميع المذاهب فلا هو خاص بأهل السنة ولا بالشيعة ولا بالامامية ولا بالزيدية بل هو تفسير للقرآن مع الاستعانة بالسنة . فهاهوذا كتاب الله وهاهوذا حديث رسوله ﷺ وهاهوذا وجدانكم ورحمتكم واحساسكم الشريف أيها العلماء وعطفكم ورحمتكم ورحمة رسولنا ﷺ فهل ترون أننا نكون أقسى الأمم ونبينا بعث رحمة للعالمين . البوذية يحرّمون جميع الحيوان . ونحن أمة وسط فأبيح لنا حيوان وحرم علينا آخر وأمرنا بالنظر والاعتبار وتقدّم فى سورة المائدة أن هناك حيوانات نافعات لنا منعت حكومتنا المصرية صيدها بسبب ما كتبناه كما ستراه فى سورة يوسف قريبا فقلنا فليحرّم صيد هذه الطيور لمنفعتها لنا فى حقولنا ولتجعل هذه قاعدة . إن المسلمين يدرسون علوم هذه الدنيا ويحرمون صيد كل حيوان نافع لهم وهذا أمر يجب ألا يختلف فيه العلماء . فمن قطع أصبع نفسه أو يده حرم عليه هكذا هذه اللاتى تساعدنا قتلها حرام لأن ذلك يفوت منفعتها . أما التحريم الذى أذكره هنا فهو للشفقة والرحمة التى تكررت فى أوّل كل سورة وفى كل ركعة صباحا ومساء وفى القرآن وفى الحديث . فمن الجهالة والتقليد الأعمى المذموم الأبله ألا يفرق المسلم بين أفراخ الحمام مثلا وأفراخ الدجاج فلتأمر حكومات الاسلام قاطبة بتحريم اصطياد كل طير فى فصل الربيع إبان تربية أولادها حتى يستغنى الصغار عن الأبوين ومن هذا الحمام لذى نربيه فى منازلنا . فليحرّموا عليهم ذبح صغار الذرية مادامت فى حضانة الأبوين . فأما الصغار منها اذا استكملت قوّتها فهناك يكون آلام الأمّهات قد قلّ كثيرا وخفّ فلا بأس إذن من أخذها

قد اعتاد المسلمون أن يقدّموا دروس الصلاة والصيام على أمثال هذا . وكان الأجدر أن تؤلف كتب للصغار فيها عجائب هذه الدنيا باختصار ويذكرون فيها بعض الأخلاق ورحمة الحيوان وذلك كله قبل الكلام على أركان الاسلام حتى اذا اشتاقوا لربهم وأحبوه بجمال صنعه وعموم رحمته أخذوا يبينون لهم كيف يصلون

ليصلوا اليه وليقربوا منه فيصلون بحب لما يعرفون من عموم رحمته لهم ورأفته بهم وبالحيوان • هذا ما وفقت له اليوم والحمد لله رب العالمين

فعليك أيها الذكى القارئ لهذا التفسير أن تنشر هذا بين الناس بقلمك ولسانك ومالك من قوة وقدرة أوامارة • فالمسلمون اليوم فى حاجة قصوى الى الذكرى وأنا أرجو أن يحيى الله بك قلوبا وقلوبا فان الكتاب لاعمل له وانما العمل للرجال والله عز وجل يسألنى عن المسلمين ويسألك عنهم مادمت موقنا بما تقرؤه فى هذا التفسير والله هو الولى الحميد وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم • انتهى الكلام على البسملة فلأشرع فى تفسير السورة

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (الر) تقدّم فى أوّل سورة آل عمران هذا (كتاب أحكمت آياته) نظمت نظما رصينا محكما لايقع فيه نقض ولاخلل كالبناء المحكم من الفساد وليس ينسخها دين بعدها وأحكمت بالحجج والدلائل ويصح أن يقال أنها من حكم بالضم اذا صار حكيما فان فيها أمّهات الحكم النظرية والعملية كما قدّمنا فى ملخص السورة (ثم فصلت) كما تفصل القلائد بالفرائد فمن دلائل توحيد الى أحكام الى مواعظ الى قصص أوفصل فيها مايحتاج اليه العباد أى بين ولخص وثم للتراخى فى الحال لا فى الوقت كما تقول محكمة أحسن الاحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل (من لدن حكيم) فلذلك أحكم الآيات (خبير) بتفصيلها فلذلك فصلها • ولما كان فى فصل معنى القول جىء بأن المفسرة فى قوله (ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير و بشير) كأنه قيل أى لاتعبدوا الخ ثم عطف عليه (وأن استغفروا ربكم) من الشرك (ثم توبوا اليه) بالطاعات (يمتعكم متاعا حسنا) يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة و يعيشكم فى أمن ودعة وعيشة مرضية ونعمة متتابعة (الى أجل مسمى) الى أن يتوفاكم (و يؤت كل ذى فضل فضله) و يعط كل ذى فضل فى دينه جزاء فضله فى الدنيا والآخرة وهذا وعد للمؤمن التائب بثواب الدارين (وان تولوا) وان تتولوا (فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) يوم الشدائد فى الدنيا بقحط أوقتل كما حصل فقد أكلوا الجيف كما قيل وقتلوا فى الغزوات النبوية وفى الآخرة أيضا بعذاب جهنم (الى الله مرجعكم) رجوعكم (وهو على كل شئ قدير) فيمتع من يستحق بالرزق و يعطى ذا الفضل فضله و يعاقب المسىء و يثيب المحسن يوم القيامة • وهذه الآيات دالة على قدرة الله تعالى ثم أتبعها بما يفيد عموم علمه كما عمت قدرته فأبان ما كان عليه المشركون فانهم اذا دخلوا بيوتهم يرخون ستورهم و يحنون ظهورهم و يتغشون بثيابهم و يقول الرجل منهم هل يعلم الله مافى قلبى فرد الله عليهم قائلا (ألا انهم يثنون صدورهم) يعرضون بقلوبهم من قولهم ثنيت عنانى وهم قد أرخوا الستور وأحنوا الظهور واستغشوا بالثياب (ليستخفوا منه) ليظهروا الخفاء من الله بتلك الأعمال (ألاحين يستغشون ثيابهم) و يحنون ظهورهم و يرخون ستورهم (يعلم مايسرّون ومايعلنون) فلاتفاوت فى علمه بين سرهم فى تلك الستور والثياب وعلنهم فى المجامع والمحافل (إنه عليم بذات الصدور) أى بالأسرار ذات أى صاحبة الصدور واذا علم ماخفى فى الصدور فعلمه بغيره أولى • ولما أثبت قدرته وعلمه العامّين لجميع نوع الانسان شرع يقرّرهما لجميع الكائنات مبتدئا بالدواب التى هى أقرب الى الانسان لمشاركتها له فى الحس والحركة مثنيا بالسموات والأرض خاتما باستنتاج أنه قادر على البعث فقال (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) غذاؤها ومعاشها (و يعلم مستقرها) فى الأصلاب (ومستودعها) فى الأرحام فاثبات القدرة بعموم الرزق واثبات العلم بأنه يعلم مستقرها ومستودعها كما ذكر فى الانسان أنه يمتع متاعا حسنا متى استحق ذلك وانه يعلم مايسرّ ومايعلن على سبيل اللف والنشر المرتب (كلّ) كل واحد من الدوابّ وأحوالها (فى كتاب مبين) مذكور فى اللوح المحفوظ قبل خلقها (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) تقدّم شرحها

فيما مضى فى يونس وفى أوّل الأنعام (وكان عرشه على الماء) وقد تقدّم تفسير هذا فى أوّل سورة يونس بأن الماء العلم أى وكان ملكه قائما على العلم ولايزال كذلك وانما خلق السموات والأرض ليربى ذوى الأرواح فيهما بالخير والشرّ وهذا قوله (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى ليختبركم بين الحياة والموت أيكم أخلص عملا ولولا ذلك لكان خلق العالم عبثا ــ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ــ بل خلقناهما لنربى فيهما نفوسا ونرقيها لحياة دائمة وغايات شريفة ويكون لها حياة وموت وارتقاء وانحطاط ابتلاء وامتحانا

﴿ لطائف ﴾

(اللطيفة الاولى فى قوله تعالى ــ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الخ ــ)

لما اطلع على هذه السورة بعض العلماء حدّثنى قائلا

إنى رأيت (الر) فى سورة يونس وفى سورة هود قد ذكر الله بعدها الحكمة فهو سبحانه يقول فى يونس ــ تلك آيات الكتاب الحكيم ــ وهنا يقول ــ أحكمت آياته ــ ثم يقول ــ فصلت ــ ثم يصف نفسه بأنه حكيم وأنه خبير • ومعلوم أن كلام الله موزون بميزان • واذا كنا نرى جميع أفعاله موزونة فى أصغر الذرّات فهكذا فليكن كلامه فلماذا أكثر من ذكر الحكمة بعد هذه الحروف

(ج) لوأنك اطلعت أيها الفاضل على ماتقدّم فى هذا التفسير فيما تقدّم لأمكنك الجواب ولعرفت الحقيقة

(س) كيف لا أعرفه وأنا متذكر كل ما قلته أنت فى هذا المقام • أنظر ألم تقل فى سورة آل عمران أن ــ الم ــ جاءت لايقاظ المسلمين للغرور الذى فشا فى الاسلام كما اغترّ اليهود وأن نتيجة ذلك وجوب نشر العلوم الفلكية والطبيعية والرياضية والعقلية والا حقت كلمة العذاب علينا وهذا واضح فى سورة آل عمران وأيضا أنت قلت أن ــ الم ــ فى سورة البقرة مذكر بمسألة الجهاد وبمسألة تحليل العناصر ومعرفة حقائق المادّة بعلم الكيمياء العضوية وغير العضوية لأن هذه الآيات هناك مبدوأة بهذه الحروف ــ الم ــ فقال تعالى ــ ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم الخ ــ وقال ــ ألم تر الى الذى حاج الخ ــ فصارت هذه الحروف مشيرة لعلم الكيمياء وللجهاد ولتعميم العلوم وكذلك فى ــ المص ــ جاء فيها مايقرب من هذا مفصلا موضحا شارحا المقصود من (ص) التى تشير الى القصص وأن تلك السورة قد جاء فيها قصص آدم وبنيه من الأنبياء وأن هناك استنتاجا قد ذكره الله فى نفس السورة ليعلمنا كيف نستنتج من القرآن ومن كل شئ كمسألة اللباس الذى زال عن آدم المذكر بأنه أنعم علينا بالقطن والكتان الخ وأنه أنعم بلباس التقوى الذى هو خير الخ وهكذا توالت قصص الأنبياء هناك وظهر أن كل حجة احتج بها المعاندون كانت أشبه بحجة ابليس كأن يقولوا ــ هذا ماوجدنا عليه آباءنا ــ فصار الاغترار بالآباء أشبه باغترار ابليس بأصله وأنه من نار وأن الناس على الأرض اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم سائرون على هذا النمط • فهذا بعض ماتقدّم فى معانى هذه الحروف فكيف تقول انى لوكنت عرفت ماتقدّم لعرفت الجواب أما أنا فانى بعد ماتقدّم أقول انه لا يكفى للجواب فان تكرار الحكمة والتفصيل وأنه خبير يدل على مغزى أعمّ مما تقدّم وأبعد مدى وأقوى وأهمّ

(ج) إنّ هذه الحروف أنزلها الله فى القرآن ليخرج بها المسلمين من ظلمات الجهالة الى مشارق النور ومباهج الحكمة ومناهج السعادة وباحات الجمال وساحات العلم والكمال • علم الله عزّوجل قبل أن يخلق الخلق أن المسلمين سينامون نوما عميقا وهم غيرمقصرين بل هم مخلصون لربهم ولدينهم فأنزل الله هذه الحروف لترفع الغشاوة عن أعينهم بعد نومتها وتوقظ جماعاتهم بعد غفلتها

(س) أما كون هذه الحروف ترفع عن أعينهم الغشاوة وكونهم هم غيرمقصرين فى نومهم فهذان أمران لا أعقلهما وكيف أعقلهما

(ج) أما كونهم غير مقصرين فى نومتهم فانى أوضحه لك • أنا من البلاد المصرية ولى نظراء من بلادنا

توجهنا الى الأزهر لنتعلم العلم فوجدنا أمامنا النحو والفقه والتوحيد وهكذا علوم اللغة العربية وعلم الاصول وما أشبه ذلك تلك العلوم التى انحدرت الينا عن آبائنا وأجدادنا من عصور مضت وقد سلطت عليهم ملوك وأمراء ووقفوا فيها وقعت فيه الأمم من الضنك ولم يستخلصوا لنا من ظلم الظالمين إلا ماوصل لنا . تعلمنا هذه العلوم ثم نظرنا حولنا فرأينا أمما ودولا وعلوما فرجعنا الى القرآن فوجدنا أن العلوم التى ارتقت بهاالأمم يطلبها القرآن فعلا نصا صريحا فنصحنا الأمة بتلك العلوم . أقول لك لولا اطلاعنا على هذه العلوم ماأمكننا أن ندعو الأمة لها فأسلافنا الذين ورثوا هذا العلم كان أكثرهم لم يطلع على هذه العلوم ومن اطلع منهم ألف ونصح الناس بقراءتها ولكن الجهل كان يمنع الناس من اتباعهم وعلى ذلك نقول أن أحوال الأمم الاسلامية كانت محتمة عليهم أن يعيشوا على هذا المنوال . فاذا كان علماء الدولة العباسية قد حاز كثير منهم المعقول والمنقول ودعوا اليها كالغزالى رحمه الله والرازى ومثلهما ابن رشد بالأندلس وكثير غيرهم فان المتأخرين ارغموا أن يتعلموا العلوم النقلية وقلت فيهم العقلية فهم كانوا لايعلمون . ولذلك ترى كثيرا منهم حاربوا المفكرين فى هذه العلوم كما تراه واضحا فى سورة الأنعام عند قوله تعالى ـ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ـ فاذن علماء الاسلام المتأخرون منهم من عرف ودعا لما عرف ومنهم من جهل ومنهم من عرف أن هذه حق ولكنه خاف على شهرته فحارب القائمين بها وهؤلاء كلهم عند ربهم وهو يجازى كلا بما فعل . فالمدار فى الأمم على شيوع الفكرة فتى شاع أمثال ما كتبنا فى هذا التفسير فان الأمة تسير على منواله ومنوال أمثاله ولاتقصر . والمسؤل الآن عن هذه العلوم أمثالك أنت ممن أيقنوا بهذه الفكرة فهم هم المسؤلون كما انى أنا مسؤل ولكن الله سبحانه أعانني بنشر هذا الكتاب وهو حقا سيعينك كما أعانني بأن تنشر الفكرة بين المسلمين فأنا وأنت وكل من عرف هذه الآراء التى رأيتها فى هذا الكتاب فهو مسؤل . أما الذى لم يطلع فكيف يعلم الناس فالناس على حسب أساتذتهم ومن يعاشرونهم . فعلم الناس فالله سائلك عنهم واحذر من التقصير . هذا معنى قولى انهم غير مقصرين فى قولهم أى غالبا فتجد علماء الدين الاسلامى اليوم راضون بما حصلوا من العلم وذلك بسبب مالقنه الأساتذة لهم والخلف يتبع السلف ولكن هذه النهضة الحالية ستقلب التعليم رأسا على عقب ويصبح الجو الاسلامى جو حكمة وعلم وابداع واختراع ونظام واطلاع على بدائع الجمال الالهى وروائع الاحكام الصمدانى وغرائب النور السماوى . هذا شرح لقولى انهم كانوا غير مقصرين وأما ...

(س) فقال أرجو ألا تجيب عن السؤال الثانى أى ان هذه الحروف سبب فى ازالة الغشاوة الا بعد أن أسألك فى نفس الجواب الأول (ج) سل ما بدا لك

(س) ما أهم الأسباب فى جهل المسلمين بجمال هذا العالم الذى نعيش فيه مع أن الله لايعرف إلا به والحكمة لاتتم إلا به والعقول لاترتقى إلا به ونظام الأمة لايتم إلا به

(ج) قد أشرت اليه فى الاجابة (س) هذا لا يكفى (ج) قد تكرر ذكر هذا فى التفسير فى مواضع كثيرة ﴿ ذلك ﴾ أن الامام الغزالى فى كتاب الاحياء شرحه شرحا وافيا و بين أن علماء الفقه فى زمانه اعتادوا أن يسموا هذه الأحكام الشرعية بلفظ (فقه) ولفظ فقه كلمة ممدوحة فان الله يقول فى القرآن ـ لقوم يفقهون ـ فهى كلمة مدحها القرآن والحديث فجرت على الألسن بأنها الأحكام الشرعية وصرفت الناس عن جمال ربهم وعجائبه ونباته وحيوانه وشمسه وقمره ونجومه الباهرات وعجائبه الظاهرات وآياته المدهشات وحكمه العاليات ثم درج الخلف على ما كان عليه السلف وأصبح العالم فى الاسلام هو من يتعاطى هذا العلم فى ذلك العصر وبه يتولى القضاء و يتصدر فى المجالس و يصبح غنيا بالمال والعظمة والجاه يحتاج اليه الملوك فى تصريف الدولة لأن الفتوى عليها مدار أمر الأمة لأن الدولة اسلامية والأحكام شرعية ذلك هو ملخص ما قاله الامام الغزالى

ثم أخذ يذمّهم و يقول هؤلاء يقرؤن هـذه العلوم للدنيا لا للآخرة وجعلهم شرّا من الشياطين وندّد كثيرا وقال كيف يتركون الطب والسياسة وجميع العلوم و يقولون انهم يقرؤن فرض كفاية مع أن فرض الكفاية جميع العلوم والصناعات ۰ إذن هم لايريدون إلا الدنيا والا فلماذا لايقرؤن الطب وتركوه فى يد النصارى واليهود ۰ هذا ملخص كلام الامام الغزالى فانظر كيف رأينا اننا نحن جئنا فى زمان لادولتنا قوية الجانب فنعتز فى الدنيا بها ولانحن متعقلون فنرضى ربنا ۰ فاذا كان العلماء فى زمن الامام الغزالى يطلبون الدنيا وكانت عندهـم دنيا فكيف نقرأ علم الدنيا الذى لا يأتى بالدنيا أيضا لأن أكثر العلماء من الشافعية والحنفية والمالكية والحنفية فى بلادنا المصرية أكثرهم لايولون القضاء لأن القضاء اقتصرعلى مسالة الأحوال الشخصية وأصبح القانون الفرنسى هوالسارى فى بلادنا ۰ وقد علمنا أن بلاد الترك قد جرت على قانون دولة أوروبية فاذن يكون على رأى الغزالى علماء الدين اذا ساروا على نهج المتقدّمين أسوأ حالا ألف مرة من الذين كانوا فى زمن الامام الغزالى لأن أولئك طلبوا دنيا ولا آخرة لهـم فنالوا الدنيا لأنهـم لهم صولة بصولة الدين ۰ أما المتبحرون فى هذه المذاهب فى هذا الوقت فهم لاينالون دنيا ولا آخرة إلا على نياتهم فقط ۰ أما الدنيا فلا وظائف لأكثرهم ۰ وأما الآخرة فانها لاتنال إلا بأعمال تحتاج لها الأمة وعلوم كذلك والأمة فى حاجة الى صناعات وعلوم أخرى غير القضاء والعلوم التى تنال بها الآخرة هى الأخلاق وتهذيب النفس ومعرفة عجائب الله تعالى فى سماواته وأرضه حتى يكون الانسان موقنا شاكرا

هذا هو السبب الذى حصر علماء الاسلام فى الدوائر الضيقة ۰ وهناك سبب آخر وهو حصر طائفة من الأمم الاسلامية فى حفظ القرآن بلاعقل ولافهم وهذه أيضا نكبة أخرى بل القرآن يفهم و يعقل إمامع الحفظ وهو أفضل واما بلاحفظ ونتيجته ترقية العقول والعلوم والأمّة ومعرفة جلال الله

(س) ماسبب اقتصار طائفة فى مصر و بلاد المغرب و بلاد العرب ونحو ذلك على حفظ القرآن بلاعقل ولافهم

(ج) من أسبابه ما جاء فى ﴿ الاتقان فى علوم القرآن ﴾ للعلامة السيوطى قال فى الجزء الثانى صفحة ١٥٥ مانصه

فصل أما الحديث الطويل فى فضائل القرآن سورة سورة فانه موضوع كما أخرج الحاكم فى المدخل بسنده الى أبى عمار المروزى أنه قيل لأبى عصمة الجامع من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا فقال إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن اسحق فوضعت هذا الحديث حسبة ✻ وروى ابن حبان فى مقدمة تاريخ الضعفاء عن ابن مهدوى قال قلت لميسرة بن عبد ربه من أين جئت بهذه الأحاديث من قرأ كذا فله كذا قال وضعتها أرغب الناس فيها ✻ورو ينا عن المؤمّل بن اسماعيل قال حدّثنى شيخ بحديث أبىّ بن كعب فى فضائل سور القرآن سورة سورة فقال حدّثنى رجل بالمدائن وهو حىّ فصرت اليه من حدّثك قال شيخ بواسط وهو حىّ فصرت اليه فقلت له من حدّثك قال شيخ بالبصرة فصرت اليه فقلت له من حدّثك قال شيخ بعبادان فصرت اليه فأخذ بيدى فأدخلنى بيتا فاذا فيه من المتصوّفة و بينهم شيخ فقال هذا الشيخ حدّثنى فقلت ياشيخ من حدّثك فقال لم يحدّثنى أحد ولكننا قد رأينا الناس قد رغبوا عن القرآن فوضعنا لهم هذا الحديث ليصرفوا قلوبهـم الى القرآن ۰ قال ابن الصلاح ولقد أخطأ الواحدى المفسر ومن ذكره من المفسرين فى ايداعه تفاسيرهم اهـ من (الاتقان) المذكور للعلامة السيوطى رحمه الله تعالى

فاذن ظهر لك ﴿ الأمران ﴾ انكباب الناس على الفقه وانكبابهم على حفظ القرآن ۰ فالأوّل للقضاء فى القرون المتقدّمة وللاتباع وحسن النية فى القرون المتأخرة ۰ والثانى لأجل الأحاديث التى أكثرها موضوعة لأجل حفظ القرآن

(س) الآن قد آمنت بأن هذه هى أسباب الفقه وحفظ القرآن فأرجو الآن أن ترجع للموضوع الذى كنا فيه فقد صددتك عن اكمال الكلام فانك كنت ابتدأت تجيب عن قولك لماذا كانت هذه الحروف هى التى ستوقظ الاسلام

(ج) تبين مما قدمته لك أن المسلمين غالبا تقودهم العادات والاتباع والعامة يتبعون الخاصة والخاصة يتبعون من قبلهم ولايفكرون لماذا سار الأولون على نمطهم . قال نعم . قلت فهذه الحروف قد أنزلها الله فى القرآن وذكر الحكمة والتفصيل وقال ـ من لدن حكيم خبير ـ فالله حكيم والله خبير والله فصل الآيات والله أحكمها . هذا كله ينبئنا عن أمر بعيد الغور عظيم المغزى . فان العاقل اذا سمع هذا القول وعرف أنه قول الله يقول فى نفسه لماذا هذا كله بعد حروف لامعنى لها فيفكر فيها طويلا ثم يقول انما أفردها الله بالذكر فى أول السور لأمر عام هام وهو ما أشرت اليه سابقا ألا وهو قراءة جميع العلوم . إن هذا العصر عصر الكيمياء . إن الكيمياء ترجع المركبات الى عناصرها الأولى والعناصر الأولى قد بلغت ثمانين ولها جدول ستراه فى سورة (العنكبوت) والجدول عجيب شيق جيل يدلنا على حكمة ونظام بديع حتى ان من يطلع عليه يدهشه هذه الحكم فانك ترى أن كل عنصر له مع العناصر التى قبله فى صفه والتى بعده والتى فوقه والتى تحته أى فى الصف الأفقى وفى الصف الرأسى بنسب وزنيه وأخرى طبيعية وكماوية فسترى هناك أن العناصر التى بثها الله فى الأرض والكواكب والنبات والحيوان مثل الاكسوجين والاودروجين الى آخرها عند النظر الى صفاتها الطبيعية والكيمائية والوزنية تصبح متشابهة مرتبة منظمة مصفوفة بحيث لوغاب أحدها لعرف محله من هذه الصفوف . ولقد أخبر العلماء عن بعض العناصر قبل كشفها ولما كشف ثلاثة منها وضعوها فى موضعها فصارت أشبه بجسم انسان واحد عرف موضع عينه وأذنه و بطنه وهكذا فانظر لعناصر متفرقات فى البرارى والقفار والبحار لما جمعها العلماء شكلت شكلا واحدا فى هيئة تدهش العقول

فهذه العناصر هى أصل العالم الذى نعيش فيه وهذه العناصر كلها ترجع الى عالم لم يره أحد يسمى (الأثير) وهو عالم واحد لايشم ولايذاق ولايلمس ولايسمع ولايرى . هذا هو الذى منه كانت العناصر ومن العناصر كانت هذه السموات والأرضون على رأى العلماء فى عصرنا الحاضر الذى هو أقرب الى القرآن والى حروف (ال م) و (ال ر) التى فى هذه السورة . فان القرآن وجميع الكلام فى سائر اللغات مركب من الحروف الهجائية ولن تعرف لغة من اللغات إلا بتحليلها الى حروفها الأولية ولايتسنى الكتابة ولاطبع كتاب ما إلا بافراد الحروف ثم تركيبها . فكما لانعرف اللغات إلا بمعرفة حروفها هكذا لايعرف شئ من هذا العالم إلا بتحليله ولايعيش حيوان ولا انسان إلا بتحليل المواد التى حوله والا لم يكن شئ فى عالم الحيوان ولاعالم النبات فالله عزوجل حكم على عالمنا الذى نعيش فيه ألا يكون حسن قوام إلا بالتحليل ورجوع المركبات الى عناصرها سواء أكانت أغذية للأجسام أوأغذية للعقول فلاغذاء لانسان أوحيوان أونبات ولا علم لعالم بأمر من أمور هذا العالم إلا بتحليل ذلك المعلوم ولارقى فى صناعة أوطب أوزراعة إلا بتحليل الأشياء الى عناصرها

(س) هذا كلام غامض وأى مناسبة بين العلوم وهضم الطعام ان هذا مما يسمى المفارقات لا الموافقات

(ج) إن الذى أذكره الآن هو الحقائق وسأوضحها لك الآن ولتعلم أن هذا هو السر الذى نزلت له هذه الحروف وهذا أوان ظهوره للناس لأن الله علم أن المسلم منقاد للقرآن وقد جعل الله هذه الحروف لتكون نورا يستضىء به المسلمون لأنه حكيم ولأنه خبير ولانه أحكم الآيات ولأنه فصلها ومن تفصيل الآيات أنه أتى بحروف الهجاء التى هى أصول للكلمات فكأن الكلمات فصلت الى حروف . وكما أن الحروف أصول الكلمات هكذا العناصر أصول هذه المخلوقات . فعلى المسلمين أن يبرعوا فى فن التحليل والتركيب فى هذه العوالم التى هى مركبات من العناصر كما ركبت الكلمات من الحروف . هذا هو السر الذى أراد الله اظهاره

فى هذا الزمان

(س) أرجو أن توضح هذا المقام من وجهين ﴿أوّلا﴾ كيف كان الانسان هو الذى يحلل هذه العوالم ﴿ثانيا﴾ كيف تستدل هذا الاستدلال وهل رأيت أحدا من العلماء نحا نحوك فى هذا الاستدلال

(ج) اعلم أن الله وضع هذا الهيكل الانسانى بهيئة ناطقة بما يأتى أى ان الجسم الانسانى كأنه الآن أمامى بهيئة خطاب من الله للعباد وهذا مايسمعه قلبى الآن بكلام أفصح من كلام اللسان وأسرع قبولا فى الأذهان

يقول الله . أى عبادى المسلمين . إن العالم الذى تعيشون فيه خلق لأجل أن تحللوه وتركبوه والا فلابقاء لكم ولاسعادة فى الدنيا ولا الآخرة . أى عبادى المسلمين . ها أناذا خلقتكم على الارض وخلقت لكم النبات والحيوان والمعدن فنفس أحدكم واحدة ولكنها لها قوى ظاهرة وأخرى باطنة . فبالقوى الظاهرة التى لنفوسكم حللتم مركبات العالم حولكم . ألم تروا الى أسماعكم كيف اختصت بعالم الأصوات التى فى المادّة سواء أكانت حيوانية أم انسانية أم نباتية موسيقية وغيرموسيقية . ألم تروا الى أبصاركم كيف اختصت بالصور والأشكال والألوان والأضواء والحركات والسكنات والأحجام والأشكال والسطوح والقرب والبعد . ألم تروا الى أذواقكم المثبتة فى ألسنتكم كيف اختصت بأن تميز الحلو من الحامض والملح والحريف والمز والعفص والمرّ وغير ذلك . ألم تروا الى حاسة الشمّ فيكم التى تميز الروائح الخبيثة من الطيبة والى حاسة اللمس التى تميز الناعم الملمس من الخشن والحارّ من البارد والثقيل من الخفيف والصلب من اللين

أى عبادى هذه صفات المادّة وهى ست وثلاثون صفة مقسمة على حواسكم الخمس . أنا الذى خلقت لكل امرئ منكم نفسا واحدة وجعلت لها خمس قوى وقسمت المحسوسات على هذه الحواس . أنا الذى حللت هذه المحسوسات بهذه الحواس فهذا نوع من التحليل الذى أودعته فيكم ولكنّ أكثركم لايعلمون

إنّ العالم الذى أنتم فيه غليظ ثقيل كثيف فانظروا رحمتى أيها المسلمون كيف تلطفت فجعلت حواسكم وأعضاءكم فلطفت هذا الغليظ فصلح لطعامكم ولعلمكم . حللت الغذاء فى أجسامكم حتى استحق أن يلتحق بجملة أجسامكم وحوّلت صور الموادّ حولكم الى عقولكم فكانت موادّ لها تزيدها ذكاء وفطنة . كل هذا من نوع التحليل . أيها المسلمون فلماذا حرمتم أنفسكم من رحمتى الواسعة التى وسعت جميع العالمين . ضربت لكم الأمثال بأجسامكم و بعقولكم وأريتكم أنى لطفت المادّة فصلحت لأغذيتكم وأدويتكم وتعليمكم وأدخلتها فى عقولكم فامتزجت صور معانيها بعقولكم كما امتزجت لطائف موادّها بأجسامكم . كل هذا أبرزته لكم أيها المسلمون فى هياكلكم رحمة بكم وحنانا وسعادة وأنتم أيها المسلمون تصرون على الجهالة فأبرزت ذلك فى الحروف التى فى أوائل السور لعلكم تعقلون

يعيش ابن آدم و يموت بل ربما يكون من العلماء وهو لايدرى أنى جعلته بطبعه يحلل المخلوقات أمامه بحواسه وهو لايشعر وأكثر الناس لايشعرون

أى عبادى المسلمين . هاأنا ذا قسمت المخلوقات حولكم على حواسكم فجعلت الشموس والأقمار والنيران من قسم الحاسة البصرية وجعلت النغمات فى الجوّ من اختصاص الحاسة السمعية وجعلت الحلاوة ومامعها كلها من قسم الذوق الذى فى ألسنتكم وجعلت رائحة الورد العطرية وضدّها من حاسة الأنف الشمية وجعلت الحرارة والبرودة والنعومة الخ من قسم حاسة اللمس . أليس هذا هو التحليل . لاتقدر حاسة واحدة أن تقوم بهذا كله ففرّقته على الحواس الباطنة

فاذا اجتمعت هذه الصور فى عقولكم استخلصت قواكم الباطنة منها صورا حفظتها عندها فكانت هناك رسوم وأشكال فى عقولكم فيها تتصرّفون و بمعانيها تتغذون كما أنكم بأجسامكم تعيش أبدانكم . فبصور المحسوسات ترتقى العقول و بالتغذى بها تبقى الأجسام

﴿ الأغذية والعلوم لايتمان إلا بالتحليل ﴾

وكأنه سبحانه يقول مخاطبا لنا بهذه البيئة التي نعيش فيها أيضا يقول . أي عبادي هذه الأغذية المحيطة بكم من حيوان ونبات ومعدن بها تعيشون وتتفكهون وتتداوون وتفرحون وتمرحون وتسرّون ولم يتم ذلكم لكم ولن يتمّ إلا بتحليلها الى أصغر أجزائها . ألاترون أن الطعام تتناولونه بقواطعكم وأنيابكم وأضراسكم فكل من هذه يعمل في الطعام عمله . فنها ماهو للقطع كالسكين . ومنها ماهو للتمزيق كالسنان . ومنها ماهو للطحن ثم يبتلّ الطعام بالريق فيساعد على هضمه ثم ينزل في المعدة فتقابله العصارات المختلفات فتزيد في هضمه أي رجوعه الى مادّة أشبه باللبن قد وصلت الى أقصى تحليلها حتى يمكنها أن تركب مرة أخرى في أجسامكم فتصبح لحما وشحما وظفرا وعظما وكبدا وقلبا ورئة وكلية وشعرا ومخا ومخيخا وهكذا فلولا رجوعها الى أدق حالاتها بالتحليل ما أمكن أن يكون هيكلا عظميا أووجها جميلا أوشكلا بهيا عجيبا

أي عبادي المسلمين . هذه أعمالي في بنيتكم تحليل لغذائكم ثم تركيب لأعضائكم . هذا عملي في حياتكم وحياة حيوانكم ونباتكم لولا التحليل التام ما كان هذا التركيب الجميل . هذا هوالذي تشاهدون آثاره . هذا عملي في أجسامكم و يشابهه عملي في عقولكم فأنتم قد خزنتم صور المحسوسات في عقولكم وربيتموها في نفوسكم . وكما أني فصلت المحسوسات على حواسكم هكذا صور المحسوسات في نفوسكم قد قسمتها على قواكم الباطنة . فهذه الصور المرسومة في عقولكم التي اقتبستموها مما تشاهدون قد جعلت فيكم قوى في الدماغ منها مايحلل و يركب لتلك الصور كما تتصوّرون أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ومنها مايحلل المعاني و يركبها بقوّة عاقلة تتصرّف فيها كعلم المنطق وكتدبير المعايش ومنها قوّة تحفظ الصور وأخرى تحفظ المعاني لأجل أن تستحضروا ذلك عند الحاجة اليه وهذا كله تحليل . فهذه المادّة لاسلطان لكم عليها إلا بتحليلها إما تحليلا مادّيا واما تحليلا عقليا والتحليل المادّي إما بالحواس الخمس واما بتحليل الأغذية . والتحليل العقلي بالخيال و بالعقل

أي عبادي المسلمين . هذا هو فعلي في حياتكم الجسمية والعقلية لاحياة لكم إلا بتحليل الغذاء ولا علم لكم إلا بتحليل المعلومات . هذا حاصل عندكم ولكن أكثركم عنه غافلون . لهذا أنزلت هذه الحروف ان هي إلا تحليل للألفاظ لأرشدكم الى مستقبل أمركم . ان مستقبل الاسلام العلم والحكمة وتفصيل هذه العوالم كما فصلت الآيات . ان مستقبل الأمم جمعاء مرتبط بدراسة نظام هذه الدنيا ولادراسة إلا بتحليل الموجودات المادّية والمعنوية . ولاجرم أن الحروف من عالم الكلام وعالم الكلام يكاد يكون وسطا بين عالم الحسّ وعالم العقل وان كان هو من أعراض المادّة ولكنه لطيف يقرب في لطفه من عالم الضوء الذي يقرب من الأثير فيكون تحليل الكلمات الى الحروف رمزا الى دراسة هذه الدنيا كلها دراسة تامّة ترجع الأشياء الى أصلها كما رجع الطعام الى مادّته في أجسامنا وكذلك المعقولات في عقولنا حللت هكذا فليكن مستقبل الاسلام وهو النظر في ملكوت السموات والأرض ولكنه نظر يقيني ولايقين إلا بتحليل العلوم تحليلا تاما . انتهى

ولقد ظهر أن هذا العصر عصر الكيمياء فبها تقدّمت الزراعة والصناعة والطب وجميع مرافق الحياة فالكيمياء الآن عليها مدار الحياة . وناهيك مافي هذا التفسير من خبر كشف استخراج السكر من نشارة الخشب ومن الذرة . وكذلك كشف أن الفحم يقرب في تركيبه من البترول وأن كلا منهما يحتوى على كربون وعلى أكسوجين بمقادير مختلفة وأنهم يجتهدون في أن يجعلوا مقدار الاكسوجين في الفحم مساويا له في البترول فيحوّل الفحم الى بترول وحينئذ يصبح في العالم قوّة جديدة لايستهان بها . و يظنّ قوم أن الناس سيجدّون حتى يخترعوا قوتا لنا كما نشاهده من أضعف الموادّ المخلوقة . هذا فعل الكيمياء في وقتنا

الحاضر فهي قوام المدنية الحاضرة

هذا هو الذي يرمي اليه القرآن . هذا هو بعض السرّ في ذكر هذه الحروف في أوّل السورة وهذا هو بعض الحكمة التي ذكرها القرآن وهذا هو الزمان الذي ناسب ظهور هذه العلوم فيه . فاذن هذه الحروف خزنت في القرآن لأجل هذا الزمان حفظناها وحفظها من قبلنا لنوصلها لمن بعدنا مع مقصودها وهو حوز جميع العلوم وما العلوم إلا بعد التحليل والتحليل هو الذي أتت به الحروف فقل ماتشاء في العلوم وفتش فانك لاترى علما إلا فيه تحليل فتركيب ولاتركيب إلا بعد التحليل التام وأخصها فنّ الكيمياء

إن المخلوقات التي حولنا ونعيش بها ماديا وعقليا كلها ترجع لهذا المعنى . نحن نأكل النبات والحيوان فنتغذى بمادّتهما ونحلل أجزاءهما ونركبها ونقتني صورها في عقولنا ونحللها ونركبها وهكذا نفعل في المعاني وذلك لتغذية عقولنا وترانا نذكر الثور والأسد في كليلة ودمنة وابن آوى ونتخيل حيل ابن آوى وضحكه على الأسد وعلى الثور حتى أوقع بينهما العداوة فافترس الأسد الثور ثم ندم ثم حاكم ابن آوى فقتله بالجريمة السياسية . وترانا نتخيل الحمام وهو يتخلص من شبكة القانص كأهل مدينة واحدة متحدين

وكذلك نرى الغراب والسلحفاة والظبي وماشا كلها قد اجتمعت وهي طوائف متنافرة لمصلحة وهكذا نرى السنور والفأر لما فاجأهما عدوّ لهما أخذ الفأر يقرض قيود السنور ولم يأمن لعدوّه القديم وهو السنور وأبقى بعض طيات الحبل فلم يقطعها حتى اقترب الصياد خيفة أن يفترسه القط

وهكذا تخيلنا وتصوّرنا صورا شتى في الحيوانات كابن عرس والناسك الذي رجع فوجد ابن عرس قد قتل الثعبان الذي أراد أن يفتك بابن الناسك فظنّ حماقة أن ابن عرس قتل ابنه هو فعجل بقتله ثم تبين له أنه أخطأ لأن ابن عرس حافظ على ابنه فندم ندما شديدا وهكذا من الحكم التي لاحظها الانسان وتخيلها ووضعها على ألسنة الحيوانات . كل ذلك لصفاء ذهنه وذكاء عقله وجودة قريحته . وكل ذلك لم يخرج عن كونه تحليلا وتركيبا والتحليل هو الوارد في الحروف التي في أوائل سور القرآن وأعقبها الله بذكر الحكمة والتفصيل والحكمة والتفصيل ظاهران واضحان في هذا الوجود المحسوس والمعقول

أنزل الله القرآن وقال انه أحكمه الخ ومعلوم أن الكلام اسم وفعل وحرف والاسم والفعل كلمتان دلتا على معنى والحرف كلمة لم تدل على معنى في نفسها . أما هذه الحروف التي في أوّل السور فهي حروف لامعنى لها في نفسها ولافي غيرها فأين هي من الحكمة وهي قد نزلت في كتاب مقدّس أنزله الله والكتب السماوية تكون اشارتها أبلغ من عبارة غيرها

﴿ أبو بكر الصدّيق والشافعي وكيف استنتجا من القرآن . تفطن الصحابة والمجتهدون لأمثال هذا المقام ﴾

إن القرآن كتاب مقدّس والكتب المقدّسة شريفة المغزى ولكل حرف ولكل كلمة ولكل آية منها سرّ يلاحظ ويعلم . واذا كان الأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات في وقتنا متى جاء دورهم في القول ونطقوا بجملة تحركت الأسلاك البرقية برا وبحرا ونشروها في أقطار الأرض وشرحوها شروحا وبحثوا ودققوا واستنتجوا وأخذوا بمنطوقها ومفهومها ومقدّمها ومؤخرها وألفوا عليها مايحمله بعيران وثلاثة اذا جمع ماكتب في الأمم كلها فما بالك بمن هو الذي خلق الدول والأمم كلها . فماذا نقول في كلامه . فاذن لنا الحقّ أن نوضح ونستنتج ونفهم ونقول لم جاء بهذه الحروف التي لامعنى لها في أوائل السور بل نقول كيف يفاجئنا الله هكذا في أوّل سورنا القرآنية بهذه الحروف وهي التي لامعنى لها ثم نسمعه يقول لنا بعدها ان هذا الكتاب أحكمت آياته وفصلت ويقول انها من لدن حكيم خبير . كل هذا ليفتح لنا الطريق . ناهيك ما استنتجه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه استنتج من شئ ليس بحرف ولاصوت ولافعل ولا اسم بل هو استنتج من تقديم كلمة على أخرى فقط . وماذا استنتج منها . استنتج منها الدولة الأموية والدولة العباسية .

استنتج منها دولا وممالك وملوكا . لولا هذا الاستنتاج لم تكن تلك الدول ولا أولئك الملوك فى الأندلس وفى الشرق . ألم تر الى ماورد أنه رضى الله عنه لما وقف فى سقيفة بنى ساعدة وخطب أيام وفاة النبى ﷺ والأنصار يقولون ﴿ منا أمير ومنكم أمير ﴾ قال لهم قولا أقنعهم . وماذا قال . قال ان الله قدّم المهاجرين على الأنصار فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . فلما قالها طأطأت الرؤس وخشعت القلوب وخضعت الأعناق ورضى الأنصار بخلافة قريش ولم يعارضوهم . لماذا هذا كله لأمر معنوى هو تقديم وتأخير . قدّم الله كلة على أخرى فأذلت وأعزّت وجعلت دولا وملوكا فى قوم وحرمت آخرين فى زمن ألف وثلثمائة سنة أى ١٣ قرنا . كل هذا لتقديم كلة على أخرى . وترى الامام الشافعى اعتبر هذا فى الوضوء فأوجب الترتيب فى أعضائه . لماذا . لأن الله رتب فقدّم عضوا على آخر . فلذلك يجب علينا تقديمه فى وضوئنا . فاذا كانت هذه حال الصحابة والمجتهدين قبلنا فالأمر هنا أهم وأعظم ذلك ليس تقديما ولا تأخيرا بل هو اثبات لأمور عجيبة مكرّرة فى (٢٩) سورة وهى حروف تبلغ نصف الحروف الهجائية وقد كرّرت فى أوّل القرآن ووسطه وآخره فهذا أمر عظيم أعظم ألف مرّة من تقديم أو تأخير بل هذا أمر أعظم فكيف يأتى فى القرآن إلا لغاية أعظم وأعظم . إن الغاية والسرّ قد ظهرا فى زماننا . فاذا كان تقديم المهاجرين على الأنصار أنام دولا وأقام دولا فهكذا فليكن ما هو أهمّ وأعظم وهى هذه الحروف القرآنية المفرّقة لايقاظ المسلمين فى آلاف السنين الآتية لدراسة جميع العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والنفسية والعقلية والنقلية . ذلك هو السرّ المخزون والجوهر المكنون خزنه الله فى القرآن لأهل هذا الزمان

(س) هل تريد أن الانسان منا يعرف جميع العلوم

(ج) كلا لقد ضرب الله لنا المثل بأنفسنا فلكل امرئ منا نفس واحدة وقد قسمت العلوم بالمحسوسات على حواس متعدّدة . فهكذا فلتكن الآية يخصص نوّاب الأمّة أو رئيس الجمهور أو الملك كل طائفة من الأمّة لعلم من العلوم خاصة أو لصناعة . وهذا هو المسمى فروض كفايات فكما قام السمع بالأصوات والبصر بالصور والأشكال الخ وكان فى ذلك مصلحة جميع الجسم هكذا تكون الأمّة

(س) ان أوروبا قامت بهذا العمل كما طلبه الله فى القرآن وأبرزه فى هذه الحروف

(ج) أوروبا فعلت ذلك بعقولها ونعم مافعلوا أما المسلمون فقد أناموا عقولهم وجهلوا دينهم وهاهوذا الآن قد ظهر سرّه وسيطلع على هذا السرّ المسلمون فى هذا التفسير وفى غيره ويقرؤن العلوم معقولة ومنقولة ويقومون بدورهم فى الحياة ويعرفون علوم الأنفس وعلوم الآفاق والحمد لله ربّ العالمين اهـ

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى _ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾

اعلم أن القرآن أصبح اليوم مفسرا بالعلوم التى عرفها الناس شرقا وغربا . وأن العلماء فى أوروبا قد تبحروا فى علم الحيوان فلما اطلعنا على ما كتبوه فى كتبهم وماترجم عنهم ألفينا هذه العلوم كلها مقصود القرآن فقل لى رعاك الله . يقول الله فى سورة الأنعام _ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم _ وهنا يقول إنه _ يعلم مستقرّها ومستودعها _ ويقول عليه رزقها ويقول إن ذلك كله فى كتاب مبين . واذا كان الكتاب الذى فيه رزق الحيوان ومستقرّه ومستودعه مبينا فان الحيوان يسير على نهج قويم تبعا للكتاب الذى بينت فيه أعماله . ولقد ذكرت حوادث عجيبة للحيوان فى سورة الأنعام فى المجلد الرابع فارجع اليها ان شئت . وههنا أذكر حوادث حيوانية أخرى تعرّفنا كيف كان ذلك فى كتاب مبين وكيف كانت هذه كلها أمما منتظمة المستقرّ والمستودع كما سترى فى سورة النور عند ذكر الطير هناك أن لها رحلة الشتاء ورحلة الصيف كالتى تكون من أواسط أفريقيا الى بلاد الانجليز فى فصل من السنة

وهكذا طيور أوروبا تأتى الى مصر وتونس والجزائر وهو أمر عجب ستراه هناك مفصلا وهكذا النحل والنمل والعنكبوت وعجائبها كل فى سورته فانتظره واقرأ وارق لتكون عليما حكيما . فهاك ما أذكره لك من عجائب الحيوان ومستقرّه ومستودعه

﴿ العجيبة الأولى قضايا الطير وأحكامها ﴾

اعلم أن الناس فى عصرنا الحاضر أدركوا أن للحيوان ادراكا خاصا وتدبيرا محكما على قدره فقد رأوا أوّلا أن الطير قد تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر فمنها مايشاهد فى الغربان ذات القنازع التى تكون بجزائر (شتلندا) فهذه تجتمع فى حقل أوعلى تلّ و ينتظر بعضها بعضا يومين أوأكثر عند توانيه عن الحضور حتى تجتمع كلها معا ثم تفرد اثنين أوأكثر منها جانبا وتقيم عليها غربانا تحرسها فتمنعها من الفرار و يشرع مابقى فى النعيق والنعيب جماعات جماعات أوكلها معا مدّة من الزمان ثم تهجم على المحجور عليها هجمة واحدة ولاتزال تنقدها وتنقرها بمناقيرها حتى تمزقها كل ممزق و يمضى كل منها بعد ذلك فى السبيل الذى جاء منه . فالمحجور عليها بمثابة المجرمين والحارسة لها بمثابة الحرس والجماعات الناعبة والناعقة بمثابة القضاة والمحامين والمنفذين للأحكام . ولذلك زعم المشاهدون لهذه الفعال أن غربان (شتلندا) تقيم المحاكم وتتحاكم كالبشر

(٢) ومنها ماشاهده القس (أدمند فقس) فى غربان بلاد الانكليز المعروفة بالغدفان قال كنت يوما راكبا جوادى فسمعت نعيبا شديدا ملأ الآفاق فالتفتّ واذا غدفان كثيرة فى حقل فدنوت منها ووقفت حيث أراها ولاتراني وجعلت أراقبها فاذا هى منتظمة فى حلقتين حول غداف فى الوسط وكلها تنعق وتصفق بأجنحتها شديدا كأنها تتقد غيظا وتهيج انتقاما والغداف الذى فى وسطها ينعق و يصفق مثلها و يقاومها و يخاصمها والحراس تطير هنا وهناك وكأنها لاتنتبه الى ماحولها لاشتغالها بما هو دائر بين رفقائها ولذلك لم ترنى ولم تنذر بالخطر كجارى عادتها . و بعد هنيهة تغيرت أحوال الغداف الذى فى الوسط بغتة فنكس رأسه وخفض جناحه وأقلّ من النعيب كأنه أقرّ بذنبه فجعل يطلب الصفح عنه وحينئذ وثب عليه غدفان الحلقة الداخلية ومزقته بمناقيرها تمزيقا ونعبت الغدفان كلها نعيبا شديدا وطار بعضها بعيدا و بعضها قريبا اه

والغداف مشهور بالسرقة والاختلاس فتسطو صغاره على عشاش كباره وتسرق مافيها من دقاق الحطب وتبنى عشاشها بها تخفيفا لمشقة جمعها عنها ولكنها لاتفعل ذلك إلا اذا كانت الكبار غائبة عن أعشاشها فلا تراها . ثم متى عادت ووجدت أعشاشها مسروقة لاتزال تبحث عن السارق حتى تعرفه فتشكو أمرها الى جماعة الغدفان فتبعث ثمانية أوعشرة منها الى عشّ السارق فتخربه ولاتبقى له أثرا

(٣) حكى بعض المصعدين فى جبال (الپا) قال كنت يوما أصعد فى جبل من جبال سو يسرا فأتيت مطمئنا من الأرض قد أحدق فيه ستون أوسبعون غرابا بغراب واحد وأكثرت من النعيق والتصفيق كأنها تتشاور فى أمره وكانت تصمت أحيانا فيبتدئ هو بالنعيق والتصفيق كأنه يدافع عن نفسه دفاع المتهمين أمام الحاكمين . ولايزال يفعل ذلك حتى تعود جماعة الغربان الى الصياح والغوغاء و يضيع صوته بين أصواتها فيصمت . واستمرّت على تلك الحال مدّة . وكأنها رأت ثبوت التهمة عليه فأعملت فيه مناقيرها حتى قتلته ومزقته إربا إربا ثم طارت وتفرّقت وغابت عن الأبصار . وهل هذا إلا كونها أمما أمثالنا وقدعلم خالقها مستقرّها ومستودعها

(٤) ومن ذلك مايشاهد فى العصافير وهو أنه اذا تشاجر اثنان منها يذهب أحدهما الى جماعة العصافير ثم يأتى أربعة أوخمسة منها وتنقضّ على المعتدى وتبادره بالنقد وهى تتواقع بعضها على بعض حتى ينال منها كفافه . وكأن جماعة العصافير تصفح عنه بعد ذلك فتعامله معاملة من لم يرتكب ذنبا

وحكى الأب بوجان الفرنسوى أن خطافا بنى عشا فرآه عصفور فدخل اليه وامتنع فيه عليه فاستغاث

الخطاف

الخطاف برفاقه فجاءت مئات وحاولت اخراج العصفور منه فلم تستطع لأنه كان محوطا بالقش من كل جانب وكان ينقد التى تهاجمه من الباب نقدا شديدا فيصدّها و يطردها مولولة من الألم . ولما أعياها أمره رجعت عنه وظنّ الناظرون أن العصفور قوى عليها ولكنها ما غابت حتى رجعت والطين ملء أفواهها فهجمت على المنفذ وسدّته بالطين لتقتل العصفور داخله خنقا جزاء اعتدائه ذلك لأنها أمم أمثالنا علم الله مستقرّها ومستودعها

(٥) ومنها مارواه المرسل الفرنسوى لاكروى عن السبيطر وهو أنه كان يوما راكبا قاربا فرأى جماعة من طائر (السبيطر) المعروف (بمالك الحزين) ترعى فى الماء الضحضاح فقاربها محاذرا لأنها شديدة النفرة والاجفال واختبأ وراء شجرة بحيث يراها ولاتراه . والذى نبهه اليها شدّة لغوها ولغطها فلما وقف لمراقبتها سكتت وأحدقت بسبيطر منها من كل جانب ووقف السبيطر بينها لايبدى حراكا ثم عادت الى ما كانت عليه من اللغط واللغو و بقيت كذلك مدّة ثم سكتت فجأة ووثبت عليه ومازالت تنقره حتى قتلته . قال لاكروى المذكور وكل من رأى مارأيت يحكم أن السبيطر المقتول تعدّى شريعة جماعته فحكمت عليه بالقتل وقتلته

(٦) وروى الكتاب عن (اللقالق) روايات كثيرة تؤيد ماذكرنا وتدلّ على أن (اللقلاق) شديد الأنفة والغيرة على عرضه . من ذلك أن جراحا فرنسويا مقيما فى أزمير رغب فى الحصول على لقلق رغبة شديدة فلم يحصل عليه واتفق أنه عثر على عشّ لقلاقين فاختلس بيضهما منه وأبدله ببيض الدجاج . ولما أفرخ البيض اذا الفراخ كلها دجاج لا لقالق فغاب الذكر ثلاثة أيام ثم عاد ومعه لقالق كثيرة فنزلت كلها وأحاطت بالأنثى وجعلت تلقلق وتلغط شديدا ثم وثبت عليها ومزقتها تمزيقا وطارت ولم يبق فى العش حىّ

ومن ذلك مارواه المطران ستنلى الانكليزى عن لقلاقين فى جوار مدينة (برلين) وهو أنهما بنيا عشهما على مدخنة بيت فطالع صاحب البيت يوما ووجد فيه بيضة فأخذها ووضع بيضة أوزّ مكانها ولم يشعرا بها ثم أفرخت البيضة أوزة فلما رآها الذكر طار وحلق فوق العشّ وهو يلقلق شديدا حتى غاب عن الأبصار و بقيت الانثى فى مكانها تربى فرخ الأوز كأنه فرخها . و بعد أيام سمع أصحاب البيت لغطا شديدا فى حقل بجانبهم فنظروا واذا جماعة من اللقالق قد اجتمعت معا وأخذت تلقلق شديدا حتى سدّت أصواتها الفضاء ثم صمتت ووقف لقلاق على عشرين ذراعا منها وجعل يصوّت كأنه يخاطبها ثم عاد ووقف آخر مكانه ولقلق لرفاقه كالأول وما زالت تفعل ذلك حتى قارب الزوال ثم طارت كلها معا طالبة العشّ وأمامها دليل منها هو صاحب العشّ وكانت أنثاه ملازمة عشها وهى خائفة خوفا شديدا ولاتبدى حركة فلما دنا منها دفعها دفعا عنيفا حتى أخرجها من العشّ ثم انقضت اللقالق عليها ومزقتها ومزقت فرخ الاوز معها وأخربت العش وطارت

وروى (القس موريس) أن بعضهم أبدل بيض اللقالق ببيض الدجاج فى عشّ والانثى لاتدرى ذلك فلما فرّخ البيض ورأى اللقلقان أن الفراخ فراخ دجاج اغتاظا ومزقا الفراخ بمنقاريهما

وحكى آخر أن رجلا أتى بلقلاق ووضعه مع آخر داجن فى بيته فقام الداجن على رفيقه ونقده نقدا مؤلما حتى اضطره الى الفرار وهو على آخر رمق و بعد أربعة أشهر عاد ومعه ثلاثة غيره فهجمت على اللقلاق الداجن ومازالت تنقره حتى أهلكته انتقاما وهذا كله تفسير للقرآن و بيان المستقرّ والمستودع وأنها أمم أمثالنا

(٧) إن الذى يراقب طبائع الحيوان الأعجم يحكم أنه يدرك وجوده حقّ الادراك وما يترتب على ذلك الادراك أيضا . أنظر الى الكلب مثلا تر من أفعاله وظواهره أنه عالم بوجود نفسه . اطرح له عظمة ينهشها فتعلم أنه يدرك حقوقه و يدافع عنها . راقبه جروا ابن سنة أوسنتين يلعب مع ولد ابن أربع سنوات أوخمس تعلم أنهما كليهما ينشرحان باللعب و يفهم أحدهما الآخر فوجدان أحدهما مشابه لوجدان الآخر . وراقبه بالغا يذهب للصيد مع صاحبه فتجد أنه يفهم مايجب عليه فعله و يفعل ذلك الواجب كما يفعله الصياد صاحبه فيتصيد كما يصيد و يفرح عند الفوز بالطريدة و يغتاظ عند الفشل كما هى الحال مع صاحبه

إن الكلب لايستطيع أن يحوّل انتباهه للبحث عن قوى عقله والنظر فى أفعالها وأن يكشف الشرائع التى هى خاضعة لها الى غير ذلك من مباحث الفلاسفة وعقلاء الناس ولكن ذلك لايستطيعه الأولاد الصغار أيضا وربما عجز عنه أكثر العامّة الذين لايهمهم إلا ملاحظة ماحولهم ولايلتفتون الى الكليات والبحث عن أفعال عقولهم ● فعقل الكلب كما قيل مناسب لحاله كما أن عقل الطفل مناسب لحاله ● ولا يمكن أن يعقل الطفل عقل الفيلسوف الكبير مالم يخرج عن الطفولية ● وكذلك لايعقل الكلب عقل الفيلسوف مالم يخرج عن الكلبية ● فالتفاوت فى العقل بين البالغ والطفل والكلب تفاوت فى الدرجة فقط ولايستدلّ منه على أن عقل الانسان نوع وعقل الكلب نوع آخر أوعلى أن الوجدان خاص بالانسان دون غيره من الحيوان

(٨) قد اشتهر الكلب بالأمانة والوفاء وهما من أجلّ الصفات وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الأصناف العليا من الكلاب متصفة بأوصاف أخرى أدبية فكلاب (نيوفوندلندا) التى تنتشل الغرقى ● وكلاب (سان برنار) التى تنبش الناس من تحت الثلوج متصفة بعزّة النفس فلايمكن أن تقبل رشوة ولا أن تسرق شيأ ليس لها وهى تموت حبا بالوفاء فتبذل حياتها دون وديعة أودعتها والحراس التى تقيمها أسراب الوحش والطير لتحرسها من قدوم مفاجئ عليها تثبت فى أماكنها وتفدى رفاقها بأرواحها وتلك صفة من أجل الصفات الأدبية

(٩) ان اناث الوحش والطير تصبر على الجوع والعطش والألم لتطعم صغارها وتسقيها وتنجيها من الأوجاع فلولم تكن تستطيع ضبط أهوائها وشهواتها مافعلت ذلك ● وأسراب القردة والفيلة و بقر الوحش والوعول والطيور القواطع ونحوها يتسلط بعضها على بعض و يخضع بعضها لبعض ● وكلب الراعى يتسلط على الغنم وقد يسوسها كصاحبه وهى تنقاد له انقيادها للراعى ● ومتى اتفقت القردة على نهب حقل من الحقول يتقدّمها كبيرها دليلا فيمشى على رجليه منتصبا و يتكئ على عصا بيديه وهو يتلفت يمينا و يسارا حذرا من عدوّ يفاجئها وهى تتبعه دابة على الأربع متحذرة حتى تصل الى الحقل ثم يقيم الدليل حراسا منها على أطراف الحقل فتقف تحرس ولاتمدّ يدها الى ما أمامها وتتفرّق البقية فى الحقل فتعيث فيه وتمرح وتأكل حتى تشبع ثم يقطف كل منها سنبلتين أوثلاثا و يحملها للحراس فتأكلها متى رجعت الى مخبئها

(١٠) الطائر الذى يبنى عشه فى مكان ظليل يتسلط على الطبيعة وحرها و بردها كالبناء الذى يبنى القصور الباذخة ● وكل بانى وكر وقاطن وجر يسود على الطبيعة فى ذلك لأنه يتخذها لاتمام حاجته وقضاء أغراضه وكل صائد وقانص من الوحش والطير يصيد و يقنص و يطعم صغاره باستخدام الطبيعة إذ لاتأتيه الطرائد عفوا وكل من راقب أفعال الحيوان لايسعه إلا الاقرار بأنه يستخدم الطبيعة على قدر حاجته أيضا ● انتهت اللطيفة الثانية

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ وكان عرشه على الماء ـ ﴾

لقد تقدّم الكلام على هذه الآية بما يشرح صدور الحكماء و يمزج العلم بالدين والحكمة بالقرآن وهناك قد تجلى من المعانى مايبهر الأبصار و يشرح الصدور وفسرت هذه الآية بآيات أخرى فى القرآن

ولأذكر لك هنا وجها آخر لتفسيرها موافقا للذى ذكرناه مشهورا * روى عن رزين العقيلى رضى الله عنه قال قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال كان فى عماء مافوقه هواء وماتحته هواء وخلق عرشه على الماء ● أخرجه الترمذى ● والعمى مقصورا معناه لاشئ ثابت لأنه مما عمى عن الخلق لكونه غير شئ فكأنه قال فى جوابه كان قبل أن يخلق خلقه ولم يكن شئ غيره ثم قال مافوقه هواء وماتحته هواء أى ليس فوق العمى الذى هو لاشئ موجود هواء ولاتحته هواء لأن ذلك اذا كان غير شئ فليس يثبت له هواء بوجه

والعماء بالمدّ السحاب الرقيق وهو حقّ أيضا فان العوالم المحيطة بنا كانت كالبخار المنتشر الذى يدور ويجرى كما فى آية أخرى ـ ثم استوى الى السماء وهى دخان ـ ثم تكوّنت الشموس والسيارات والأقمار • فالمراد بالسحاب الرقيق على هذه الرواية انما هو عالم الشموس قبل تكوينها وقد تقدّم فى تفسير البقرة أن علماء الفلك رصدوا الآن ستين ألف سديم فى حال التكوّن الآن تدور حول نفسها كما كانت شمسنا قبل تكوينها وتمام حالها ثم هذه الستون ألفا بعد آلاف الآلاف من السنين ستكون شموسا كشمسنا ولها أقمار توابع لسياراتها وسيارات كما حصل لأرضنا إذ كانت قديما كذلك فكانت كالدخان المنتشر وهى دائرة ثم تقلصت بعد آلاف الآلاف من السنين حتى صارت على ماهى عليه وهى الآن تتناقص وبعد آلاف الآلاف تخرب أرضنا ثم أخواتها السيارات ثم أمهنّ الشمس • وهذا كله سرّ قوله فى الحديث ﴿كان ربنا فى عماء قبل خلق السموات والأرض﴾ أى كان مدبرا للسحاب عاليا عليه لا انه كان فيه كما فى قوله ـ ولأصلبنكم فى جذوع النخل ـ يعنى على جذوعها وهذا أبلغ فى التمكن فالله تعالى متمكن من هذا السحاب أى البخار المنتشر يتصرف فيه ويدبره وينظمه تنظيما محكما ويجعله سموات وأرضين ويخلق فيه مخلوقات عظيمة * قال أبو بكر البيهقى (على المعنى الأوّل) فى كتاب الأسماء والصفات له وقوله ﷺ (كان الله ولم يكن شئ قبله) يعنى لا الماء ولا العرش ولا غيرهما وقوله (وكان عرشه على الماء) يعنى وخلق الماء وخلق العرش على الماء ثم كتب فى الذكر كل شئ • انتهى

فتعجب كيف ورد الحديث بالمدّ والقصر على اختلاف الروايتين • فاحداهما ذكر فيها أن لا شئ مع الله والثانية أن الله كان مدبرا للسحاب • فاذا لاحظنا أن عالمنا لم يكن موجودا البتة فهناك العماء وهو العدم المحض • واذا لاحظنا أن عالمنا كان بخارا منتشرا بعد انعدامه فهناك تدبير فى ذلك البخار حتى يصير شموسا ثم يتم الخلق ويكون على مقتضى العلم • وهذا هو قوله ـ وكان عرشه على الماء ـ فالعدم ثم الدخان ثم خلق العالم على مقتضى العلم وهو المقصود بقوله ـ وكان عرشه على الماء ـ ولايزال كذلك كقوله ـ وكان الله غفورا رحيما ـ

فتعجب كيف يطابق الحديث ما جاء فى علوم العصر الحاضر وأن العالم كان بخارا وأن هذا أمر مقرّر فى العلوم الحديثة ثم كيف كان هذا العالم الذى نحن فيه منظما على مقتضى العلم • وتعجب كيف اتضح معنى كون العرش على الماء بعد ذلك • ولايتمّ لك فهم هذا المقام إلا اذا قرأت ماجاء فى سورة يونس فى مسألة العرش وهناك ترى العجب العجاب وحكمة الله فى القرآن وجمال التعبير وحسن التنسيق • فما أجل العلم وما أبهج الحكمة اذا ازدانت بالدين والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم • انتهى القسم الأوّل

(الْقِسْمُ الثَّانِى)

وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ *

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت) أى ولئن قلت يا محمد ذلك لهؤلاء الكفار (ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) يعنى القرآن (ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمّة معدودة) يعنى الى أجل محدود * وأصل الأمة فى اللغة الجماعة من الناس فكأنه قال سبحانه الى انقراض أمّة ومجىء أمّة أخرى (ليقولنّ مايحبسه) أى أىّ شئ يحبس العذاب وذلك منهم استهزاء يعنون أنه ليس بشئ (ألا يوم يأتيهم) العذاب (ليس مصروفا عنهم) أى لا يصرفه عنهم شئ (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أى ونزل بهم وبال استهزائهم (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة) رخاء وسعة فى الرزق والعيش و بسطنا له الدنيا (ثم نزعناها منه) يعنى سلبناه ذلك كله وأصابته المصائب فاجتاحته (إنه ليؤس) يعنى يظلّ قانطا من رحمة الله آيسا من كل خير (كفور) أى جحود لنعمتنا عليه أوّلا قليل الشكر لله بل مبالغ فى كفران ما سلف له من النعمة * قال بعضهم ﴿ يا ابن آدم اذا كانت بك نعمة من الله من أمن وسعة وعافية فاشكرها ولا

تجحدها فان نزعت عنك فينبغي لك أن تصبر ولاتيأس من رحمة الله فانه العوّاد على عباده بالخير ﴾ ثم قال تعالى (ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء مسته) أى ولئن أنعمنا على الانسان و بسطنا له العيش بعد الضيق والضنك (ليقولنّ ذهب السيآت عنى) أى المصائب التى ساءتنى (إنه لفرح) يطر بالنعم مغترّ بها (فخور) على الناس مشغول عن الشكر والقيام بحقها • وانما عبر بالمسّ والاذاقة ليبين أن الانسان ييأس و يفخر لأدنى ضرّ وأدنى نعمة ويشير الى أن نعم الدنيا ونقمها قليلة بالنسبة لما فى الآخرة • ثم استثنى من نوع الانسان من صبروا على الضرّاء ايمانا بالله واحتسابا وثقة بعدله ورحمته وانهم بالضراء يرتقون عنده فقال (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) شكرا للنعم التى ذاقوها فى حالة السراء (أولئك لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) وذلك كقوله تعالى ـ والعصر * إنّ الانسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ـ وقوله ـ إنّ الانسان خلق هلوعا ـ ثم فسره فقال ـ اذا مسه الشرّ جزوعا * واذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الخ ـ وهذا المقام قد استوفيته فى سورة البقرة فارجع اليه إن شئت • ولما كان ﷺ كاملا والكامل ينال أعلى الخصال فيصبر على الضراء نبه الله على ذلك تعليما لأمّته أن يصبروا على الضراء كما صبر النبى ﷺ على المستهزئين الذين اذا تلا عليهم القرآن قالوا له هلا أنزل عليك كنز لتنفق منه على الأتباع كالملوك وهلا جاء معك ملك يصدّقك وهذا تضيق منه الصدور و يبعث على كتمان بعض القول حتى لايصاب صاحبه بمكروه وهذه الحال جبلة فى النوع الانسانى لأنه يأس اذا مسه الضرّ وهذا ضرّ عظيم * قال العلماء ولايلزم من توقع الشئ لوجود مايدعو اليه وقوعه لجواز أن يكون مايصرف عنه وهوهنا عصمة الرسل من الخيانة فى الوحى قال تعالى (فلعلك تارك بعض مايوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل اليه كنز أوجاء معه ملك) يقول الله ان هذه الحال تدعوالى كتمان الوحى وضيق الصدر فان الاستهزاء وما أشبهه يدعو لذلك ولكن العصمة النبوية منعت من الخصلة الانسانية العامّة وذلك تعليم لجميع أهل العلم فى الأمّة الاسلامية أن يصبروا كما صبر رسول الله ﷺ وأن لا ييأسوا من روح الله وانهم مستمدّون من هذه الروح الشريفة فليصبروا كما صبر الأنبياء وخاتمهم نبينا ﷺ ليكونوا ممن استثناهم الله فى هذه الآية إذ قال ـ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ـ ثم قال الله له (انما أنت نذير) أى ليس عليك إلا الانذار بما أوحى اليك فسواء ردّوا عليك أواقترحوا فأمرهم هين فمابالك يضيق صدرك وكيف يضيق وأنت قد أدّيت ماوجب عليك من التبليغ فليس عليك هداهم وقد أمرت بصبرك على أذاهم (والله على كل شئ وكيل) فهو يحفظ مايقولون و يفعل بهم مايجب أن يفعل فتوكل عليه وكل أمرك اليه فما عليك إلا البلاغ بصدر منشرح فلا التفات الى استكبارهم ولامبالاة بسفههم واستهزائهم (أم يقولون افتراه) أم منقطعة والهاء ضمير راجع لما يوحى اليك (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) كما افتريت أنا بزعمكم هذا القرآن وأنتم عرب مثلى وفيكم الفصحاء والبلغاء والشعراء فاذا افتريت هذا القرآن فافتروا عشر سور مثله وأظهروا فصاحتكم و بلاغتكم وقد تحدّاهم فى سورة يونس بسورة واحدة فى الاخبار بالغيب والوعد والوعيد والأحكام وما أشبه ذلك لأن الفصاحة والبلاغة بدون ما ذكر أسهل • أما الوعد والوعيد والأحكام والاخبار بالغيب فهى دقيقة المعانى تحتاج الى عقول أنضج ونفوس أكمل حتى تقبل النفوس على آرائها وشتان مابين النائحة والثكلى

فأين الثريا وأين الثرى * وأين معاوية من على

فلما تحدّاهم بهذا الكلام أمره أن يقول لهم (وادعوا من استطعتم من دون الله) حتى يعينوكم على ذلك (إن كنتم صادقين) فى قولكم انه مفترى (فان لم يستجيبوا لكم) باتيان مادعوتم اليه والخطاب للنبى ﷺ وأصحابه لأنهم كانوا يشاركونه فى التحدّى الذى يثبت يقينهم ويكمل ايمانهم ولذلك رتب عليه قوله (فاعلموا

أنما أنزل بعلم الله) ملتبسا بما لايعلمه إلا الله ولا يقدر عليه إلا هو (وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أن لا إله إلا هو فأما تلك الأصنام فليست بآلهة فهى عاجزة عن كل شئ • وفى هذا تهديد واقناط لهم من أن تجيرهم آلهتهم من بأس الله اذا جاءهم ودلالة على وجود الله ووحدانيته بصدق هذا الكلام الثابت بعجزهم عن الاتيان بعشر سور مثله فى البلاغة بل بسورة واحدة فى الأحكام ونحوها • ولما كان هذا الكلام برهانا على صدق النبوّة ووحدانية الله رتب عليه قوله (فهل أنتم مسلمون) الخطاب للمسلمين أيضا أى فهل أنتم ثابتون على الاسلام راسخون فيه مخلصون إذ تحقق عندكم اعجازه كأنه قيل أسلموا وأخلصوا لله العبادة • ولما كان الكفر مع وضوح الحجة وظهور المحجة و بيان عجزهم الظاهر من عدم اتيانهم بعشر سور مثله مفتريات كما يزعمون مزريا بالقوّة العقلية موقعا فى الرياء والتظاهر بخلاف الواقع ناسب أن يؤتى بعدها بما ينفر النفوس من الرياء فوصف المرائين بخمسة أوصاف ﴿الأوّل﴾ انهم يوفون أجورهم على أعمال البرّ فى الدنيا بالصحة والعافية والرزق وما أشبه ذلك ﴿الثانى﴾ انهم لايبخسون أى لاينقصون من أجور أعمالهم فى الدنيا ﴿الثالث﴾ انهم ليس لهم فى الآخرة إلا النار ﴿الرابع﴾ انهم فى الآخرة حبط ماصنعوه فليس لهم عليه ثواب ﴿الخامس﴾ أن عملهم فى نفسه باطل فترتب على بطلانه ماتقدّم فى الرابع مع عدم الثواب عليه وهذا هو قوله تعالى (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها) يعنى بعمله الذى يعمله من أعمال البرّ والطاعات والصدقات كأن يظهر الانسان الأعمال الصالحة ليحمده الناس عليها أوليعتقدوا فيه الصلاح أوليقصدوه بالعطاء وكأولئك المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزوهم مع رسول الله ﷺ الغنائم ولا يريدون ثواب الآخرة وكالذين يتعلمون العلم لغير الله تعالى (نوف اليهم أعمالهم فيها) أى نوصل اليهم جزاء أعمالهم فى الدنيا من الصحة والرئاسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وندفع عنهم المكاره (وهم فيها لايبخسون) لاينقصون شيأ من أجورهم وذلك القول فى أهل الرياء والمنافقين والكفرة (أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار) فى مقابلة ما عملوا لأنهم استوفوا ماتقتضيه صور أعمالهم الحسنة و بقيت النيات السيئة فيستوفونها فى النار • فأما الكافر والمنافق فلهما التأبيد • وأما المؤمن فالعذاب منقطع بعد أجل محدود (وحبط ماصنعوا فيها) أى لم يبق لهم ثواب فى الآخرة لأن الثواب على الاخلاص وهؤلاء لا اخلاص عندهم (و باطل) فى نفسه (ما كانوا يعملون) لأنه لم يعمل على ماينبغى و بطلان العمل ترتب عليه عدم الثواب وعدم الثواب ألزمهم النار فالجملة الأخيرة علة لما قبلها وهى علة لما قبلها فافهم • ولما كان ماتقدّم رافعا لشأن المخلصين فى أعمالهم واضعا لشأن المرائين أردفه بما يفيد أنه لاتقارب بين الطائفتين تأكيدا لما تقدّمه فقال أتجعلون الفريقين فى منزلة واحدة فمن كان على بينة من ربه كمحمد ﷺ ومؤمنى أهل الكتاب وكل مؤمن مخلص كمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها • إن بين الفريقين تباعدا وتباينا فالهمزة للانكار (على بينة من ربه) أى على برهان من الله و بيان أن دين الاسلام حقّ وهو دليل العقل (و يتلوه شاهد منه) أى و يتبع ذلك البرهان الذى هو دليل العقل (شاهد منه ومن قبله كتاب موسى) شاهد من الله يشهد بصحته وهو القرآن و يتلو ذلك البرهان أيضا من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة حال كونه أى كتاب موسى (اماما) كتابا مؤتما به فى الدين قدوة فيه وحال كونه (رحمة) أى نعمة عظيمة على المنزل اليهم لأنهم به يفوزون فى الدار الآخرة (أولئك) أى من كان على بينة من ربه (يؤمنون به) بالقرآن (ومن يكفر به من الأحزاب) من أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﷺ (فالنار موعده) يردها لامحالة (فلاتك فى مرية منه) من الموعد أوالقرآن (إنه الحقّ من ربك ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون) لقلة نظرهم واختلاف فطرهم ولما نفى التوازن والتقارب بين الفريقين شرع يفصل الكلام على الفريق الكاذب فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن أسند اليه مالم ينزّله أونفى عنه ما أنزله (أولئك يعرضون على ربهم) فى الموقف

بأن

بأن يحبسوا وتعرض أعمالهم (ويقول الأشهاد) جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب أوشهيد كأشراف جمع شريف وهم الملائكة والنبيون والجوارح لأن الأفواه يختم عليها وتتكلم الأيدى والأرجل وهذه لا كذب عندها لأن شهاداتها فطرية لادخل للكذب فيها بخلاف اللسان فهؤلاء كلهم أشهاد يقولون (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم) أى فى الدنيا وهذه الفضيحة تكون فى الآخرة لكل من كذب على الله (ألا لعنة الله على الظالمين) وهذا تهويل عظيم لظلمهم بالكذب على الله (الذين يصدّون عن سبيل الله) يصرفون الناس عن دينه (ويبغونها عوجا) يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردّة (وهم بالآخرة هم كافرون) أى والحال انهم كافرون بالآخرة وكررهم للتأكيد . ثم وصف هؤلاء الظالمين ﴿ بثمانية أوصاف ﴾ فقال

(١) فهم لايعجزون الله فى الدنيا أن يعاقبهم لوأراد عقابهم

(٢) وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه

(٣) وعذابهم يضاعف لأنهم أضلوا الناس كما ضلوا

(٤) ما كانوا يستطيعون استماع الحق

(٥) وما كانوا يبصرون الحق

(٦) وهم الذين خسروا أنفسهم حيث اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله

(٧) و بطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ما كانوا يفترون

(٨) ـ لاجرم ـ أى لامحالة ـ أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ـ أى لا أحد أبين وأكثرخسرانا منهم

وهذا قوله تعالى (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب) الى قوله (هم الأخسرون) ثم أتبع هؤلاء بضدّهم فقال (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم) اطمأنوا له وخشعوا له من الخبت وهو الأرض المطمئنة (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون . ولما وصف كلا من الفريقين بأوصاف على حدة أخذ يضرب لهم مثلا مجتمعين فقال (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع (هل يستويان مثلا) هل يستوى الفريقان تمثيلا وتشبيها وهومنصوب على التمييز (أفلا تذكرون) تنتفعون بضرب المثل . انتهى التفسير اللفظى

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها الخ ـ ﴾

لقد حملنا الآية على عموم الكافرين والمنافقين والمؤمنين الذين يطلبون بعملهم الرياء والسمعة

(١) روى عن رسول الله ﷺ أنه قال قال الله تبارك وتعالى ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ﴾ أخرجه مسلم

(٢) وقال ﷺ ﴿ من تعلم علما لغير الله أوأراد به غير الله فليتبوّأ مقعده من النار ﴾ أخرجه الترمذى

(٣) قال ﷺ ﴿ تعوّذوا بالله من جبّ الحزن قالوا يارسول الله وماجبّ الحزن قال واد فى جهنم تتعوّذ منه جهنم كل يوم ألف مرّة قيل يارسول الله من يدخله قال القراء المراؤن بأعمالهم ﴾ أخرجه الترمذى

(٤) وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال ﴿ إنّ الله لايظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى اذا أفضى الى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا ﴾ أخرجه البغوى بغير سند

﴿ تحذير ﴾

إياك أن تصدّك الآيات والأحاديث الواردة فى ذمّ الرياء عن فعل البرّ والطاعات . فاذا خطر لك أمر

فزنه بالشرع فان كان مأمورا به فبادر اليه فانه من الرحمن فان خشيت وقوعه على صفة منهية كعجب أو رياء فلا بأس عليك فى وقوعه عليها من غير قصد بها بخلاف ما اذا أوقعته عليها قاصدا لها فعليك إثم ذلك فتستغفر الله منه * قال السهروردى صاحب ﴿عوارف المعارف﴾ لمن سأله ﴿أنعمل خوف العجب أولا نعمل حذرا منه . فقال اعمل وان خفت مستغفرا منه﴾ أى ان وقع قصدا * وقد قيل ﴿إن ترك العمل للخوف منه من مكايد الشيطان﴾ كما فى جمع الجوامع وشارحه . وهذه إحدى مصائب المسلمين اليوم فالصالحون يخافون الرياء والطالحون يعملون الشر . انتهى تفسير القسم الثانى من السورة

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا بَرِىءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ

مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهُ
وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي
مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ
عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي
وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ *
قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ
مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ
مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ
بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ
فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ
آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ *
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ
عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ * وَإِلَى ثَمُودَ

أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ
فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ
* قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ
عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي
أَرْضِ اللّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ
ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا
فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ * وَلَقَدْ
جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمّا
رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ
لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحقَ يَعْقُوبَ * قالَتْ
يا وَيْلَتى ءَأَلِدُ وَأَنا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ
رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ
وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ * يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ
عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً
سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ
كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي
ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
ما نُرِيدُ * قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قالُوا يا لُوطُ إِنّا رُسُلُ رَبِّكَ
لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ
مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ *

(قصة نوح)

هذه القصة تبين مايلاقيه الدعاة الى الخير من مصادمة الظالمين الذين يردّون الدعوة ولايسمعون الحجة ويودّون لو يكونوا بلاعلم يسمعونه ولادين يتبعونه ولاهدى ولا كتاب منير . فانظر كيف ابتدأ الدعوة بالانذار والتخويف . وكيف قابله عظماء قومه بطعنهم أوّلا فى شخصه هوقائلين أىّ مزية لك علينا وأىّ فضل . وكيف ينزل الوحى عليك دوننا ومادمنا متماثلين فى الخلقة متشاركين فى العقل فمن ذا الذى يصدّق بامتيازك علينا واختصاصك بفضيلة دوننا . وثانيا ان الذين اتبعوك ماهم إلا سفلتنا وأراذلنا كالحاكة

والأساكفة وسائر أصحاب الصناعات الخسيسة • فكيف نتبعك وأنت ومن معك على ما وصفنا • ثالثا ان هؤلاء الأتباع مع خستهم ودناءتهم ما اتبعوك إلا وقت حدوث ظاهر رأيهم أو أوّل رأيهم فاتباعهم لك ليس عن روية ونظر وتعمق فى الفكر وانما هو عن شئ دنّ لهم بديهة فهؤلاء مع فقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية فلا جاه لهم ولامال ولاشرف فى الحياة الدنيا لم يتبعوك عن فكر ونظر الخ فقوله ـ بادى الرأى ـ من بدا يبدو ظهر أو بدأ يبدأ اذا فعل الشئ أولا وانتصابه على الظرف • رابعا ويلزم من ذلك أنه لافضيلة لك يانوح ولا لمن اتبعك ثم إنا فوق ذلك نظنك كاذبا فى دعوى النبوّة ونظنهم كاذبين فى دعوى العلم بصدقك فلانبوّة لك ولاعلم لهم بصدقك وهذه هى حجج قومه وهى موافقة لما يحصل فى كل داع وأتباعه فان الناس لا يزالون يكذبون الداعى و يصفونه بالكذب ونحوه ثم يعطفون على أتباعه فتارة يذمّونهم بأنهم ليسوا على شئ وتارة بانهم اتبعوه لجهالتهم وقلة عقلهم • فالطعن إما فى المتبوع واما فى التابع واما فى العلاقة القائمة بينهما وقد تمّ كل ذلك فى الآية ووضح وهذا تعليم من الله لنا أن نشمر عن ساعد الجدّ ونقوم بالأمر ولا نبالى بالذمّ فينا ولافيمن معنا من الصالحين ولافى العلاقة القائمة بيننا بل يجب أن تكون تلك الأقوال مشجعة لنا ونحرص على ما أنعم الله بها علينا كما فعل سيدنا نوح فانظر ماذا قال فى الردّ عليهم فانه ردّ على الأوّل قائلا ـ ولا أقول إنى ملك ـ ردّا على قولهم ـ مانراك إلا بشرا مثلنا ـ • ورد على الثانى وعلى الثالث معا فقال (ولا أعلم الغيب) حتى أطلع على مافى نفوس أتباعى وضمائرهم أى لا أقول عندى خزائن الله ولا أقول أنا أعلم الغيب (ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) أى ولا أحكم على من استرذلتموهم من المؤمنين لفقرهم (لن يؤتيهم الله خيرا) فى الدنيا والآخرة لهوانهم عليه مساعدة لكم ونزولا على هواكم (الله أعلم بما فى أنفسهم) من صدق الاعتقاد وانما علىّ قبول ظاهر اقرارهم إذ لا أطلع على خفى أسرارهم (إنى إذن لمن الظالمين) إن قلت شيأ من ذلك وقوله ـ تزدرى ـ من زرى عليه اذا عابه • وقال أيضا فى الردّ (وما أنا بطارد الذين آمنوا) حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معه (إنهم ملاقوا ربهم) فيشكوننى اليه إن طردتهم وقال أيضا (و ياقوم من ينصرنى من الله) من يمنعنى من انتقامه (إن طردتهم أفلاتذكرون) تتعظون • وردّ على الرابع قائلا (ولا أقول لكم عندى خزائن الله) فأدّعى فضلا عليكم بالغنى حتى تجحدوا فضلى بقولكم ـ ومانرى لكم علينا من فضل ـ • وقد تقدّم أن القسم الرابع جزآن ﴿الجزء الأوّل﴾ ادّعاؤهم أنه لافضل لنوح وأتباعه عليهم وهذا ردّ عليه ﴿والجزء الثانى﴾ انهم يظنونهم كاذبين فردّ عليهم قائلا (ولكنى أراكم قوما تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل وتجهلون لقاء ربكم كما تجهلون انهم خير منكم • وهذا هو قوله تعالى (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) الى قوله (إنى إذن لمن الظالمين) ـ أرأيتم ـ أخبرونى ـ على بينة من ربى ـ بيان ويقين من ربى الذى أنذرتكم به (وآتانى رحمة من عنده) هديا ومعرفة ونبوّة (فعميت عليكم) أى أخفيت عليكم أو ـ خفيت ـ على القراءتين • ومعنى عميت بالتخفيف لم تهدكم كما لو عمى على القوم دليلهم فى المفازة فبقوا بغير هاد فالحجة كما تكون بصيرة ومبصرة تجعل عمياء لأن الأعمى لايهتدى ولايهدى غيره (أنلزمكموها) أنلزمكم على الاهتداء بها (وأنتم لها كارهون) لاتختارونها ولاتتأمّلون فيها (و ياقوم لا أسألكم عليه مالا) أجرا يثقل عليكم ان أدّيتم أو علىّ ان أبيتم (إن أجرى إلا على الله) و بقية الآيات ظاهرة المعنى فلاتطويل بذكرها وهى آيات اعتراض القوم فقد لخصناها آنفا وهى مذكورة فى المتن • ولما كانت حجج نوح قد وضحت وردّ عليهم وقرر الردّ وأبان ولم يترك لهم بابا بل أربى عليهم وطوّقهم بالبراهين المقنعة (قالوا يانوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) كما ظهر فيما تقدّم (فائتنا بما تعدنا) من العذاب (إن كنت من الصادقين) فى الدعوى والوعيد • فأما مناظرتك فلاتؤثر فينا (قال إنما يأتيكم به الله إن شاء) عاجلا أوآجلا (وما أنتم

بمعجزين) بدفع العذاب أوالهرب منه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم) أى ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهوجواب لما أوهموا أن جداله كلام بلاطائل ثم قال (هو ربكم) خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته وقد جرى علمه القديم على مقتضى الحقائق الواقعة الالهية وانكم تخلقون على حال لا ينفع فيها النصح (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم • ولما كانت هذه القصة عجيبة والجدال فيها مؤثراذكر الله مايختلج فى عقول بعض الكفار أن هذا وأمثاله مختلق مفترى من عند النبى ﷺ فقال تعالى هذه الجملة المعترضة (أم يقولون افتراه) أى بل أيقولون اختلق القرآن محمد (قل) يامحمد (ان افتريته فعلىّ اجرامى) إثم اجرامى * والاجرام اقتراف السيئة واكتسابها * يقال جرم وأجرم أى اكتسب الذنب وافتعله (وأنا برىء مما تجرمون) يعنى من الكفر والتكذيب • وهذاقول مقاتل وأكثر المفسرين أن الخطاب لنوح عليه السلام • ثم أخذيتمم القصة فقال بعد أن انتهى الجدال وجاء القول الفصل (وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) فلا تحزن حزن بائس مستكين والابتئاس افتعال من البؤس وهو الحزن والفقر والمعنى فلاتحزن بما فعلوه من تكذيبك وايذائك فقدحان وقت الانتقام من أعدائك وهذا هوالتاريخ العام وكل مصلح فى الأرض فأوّلا ذمّ له ولأتباعه والرابطة بينهما ثم الردّ عليهم ثم العناد التام ثم ظهور الحقائق واضحة جلية • فلذلك دعا نوح على قومه فقال ـ ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ

﴿ فصل ﴾

(١) صنع السفينة (٢) استهزاء قومه به (٣) النجاة من الهلاك بركوب السفينة (٤) هلاك من عصاه من أهله (٥) المقصود من القصة وهو أن العاقبة للمتقين وأن الصابرين ينالون الفوز فى آخر الأمر

﴿ صنع السفينة واستهزاء قومه به ﴾

قال تعالى (واصنع الفلك بأعيننا) أى ملتبسا بأعيننا كأنّ لله أعينا تكلؤه وتحفظه لئلا يزيغ فى صنعته عن الصواب (ووحينا) وانا نوحى اليك ونلهمك كيف تصنع (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا) ولاتراجعنى فيهم ولاتدعنى باستدفاع العذاب عنهم (انهم مغرقون) محكوم عليهم بالاغراق وقد قضى به وجفّ القلم فلاسبيل الى كفه (ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه) استهزؤا به لعمله السفينة فى برية بعيدة عن الماء • وأيضا كانوا يقولون يانوح قد صرت نجارا بعدأن كنت نبيا (قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) اذا أخذكم الغرق فى الدنيا وجهنم فى الآخرة (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) ويعنى به إياهم ويريد بالعذاب عذاب الدنيا وهو الغرق (ويحلّ عليه عذاب مقيم) وينزل عليه عذاب الآخرة الذى هو دائم وقوله ـ وكلما مرّ عليه ملأ من قومه ـ أى جماعة منهم الى قوله ـ عذاب مقيم ـ جملة حالية فقوله ـ ويصنع الفلك ـ متصل بقوله (حتى اذا جاء أمرنا) عذابنا أى وكان يصنعها الى أن جاء وقت الموعد فحتى هذه هى التى ابتدأ بعدها الكلام أدخلت على الجملة من الشرط والجزاء وهى غاية لقوله ـ ويصنع الفلك ـ وقوله (وفار التنور) أى وجه الأرض أوأشرف موضع فيها

﴿ نجاته هو ومن آمن معه ﴾

قال تعالى (قلنا احمل فيها) فى السفينة وهو جواب الشرط (من كلّ) من كل نوع من الحيوانات (زوجين اثنين) ذكرا وأنثى والزوجان كل اثنين لايستغنى أحدهما عن الآخر كالذكر والأنثى والعينين والأذنين يقال لكل واحد منهما زوج • والنعلان فى الرجلين يقال لكل واحد منهما زوج فقوله ـ من كلّ ـ إما منونا أى من كل نوع زوجين واما غير منوّن أى ـ احمل فيها من كلّ زوجين اثنين ـ والمعنى واحد على كل وقوله (وأهلك) عطف على زوجين وقوله (إلا من سبق عليه القول) به من المغرقين يريد به ابنه

كنعان وأمّه المسماة واعلة فانهما كانا كافرين (ومن آمن) أى والمؤمنين (وما آمن معه إلا قليل) * قيل كانوا (٧٩) زوجته المسلمة و بنوه سام وحام و يافث ونساؤهم و (٧٢) رجلا وامرأة من غيرهم • ولقد ذكر العلماء طولها وعرضها ولافائدة فى ذلك لنا * و يقال انه جعل فى أسفلها الدواب والوحش وفى وسطها الانس وفى أعلاها الطير وكانت ثلاثة بطون (وقال اركبوا فيها) أى صيروا فيها وانما سمى ركوبا لأن السفن فى البحار كالدواب على الأرض وقوله (بسم الله مجريها ومرساها) جملة حالية من ها أى اركبوا فيها حال كونها اجراؤها وارساؤها كائنان باسم الله على وجه ومجريها ومرساها بفتح الميم والراء من جرى مصدرا ووقت و بضم الميم وفتح الراء من أجرى للوقت وللمصدر يعنى أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله * يقال انه كان اذا أراد أن تجرى قال بسم الله فجرت • واذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست (إنّ ربى لغفور رحيم) أى لولا مغفرته لما فعلتم من الذنوب ورحمته لكم ما نجاكم ثم ركبوا فيها يقولون بسم الله كما أمروا (وهى تجرى بهم) وهم فيها (فى موج كالجبال) الموج ما ارتفع من الماء اذا اشتدّت عليه الريح فشبهه سبحانه بالجبال فى عظمه وارتفاعه وكل موجة منها كجبل من تراكمها وارتفاعها

﴿ هلاك من عصى من أهله ﴾

قال تعالى (ونادى نوح ابنه) كنعان وكان ابنه من صلبه (وكان فى معزل) عن أبيه وعن السفينة وعن دين أبيه وهو مفعل من عزله اذا نحاه وأبعده (يابنى) بفتح الياء * وفى قراءة بكسر الياء والاولى اقتصار عليه من الألف المبدلة من الياء • والثانية اقتصار عليه من ياء الاضافة (اركب معنا) فى السفينة أى أسلم واركب معنا (ولاتكن مع الكافرين) فى الدين والانعزال (قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء) أن يغرقنى (قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) أى إلا الراحم وهو الله تعالى أى لا عاصم اليوم من الطوفان إلا مكان من رحم الله من المؤمنين فلا يعصمك الجبل ولاغيره وانما يعصمك مكان المؤمنين وهى السفينة و يصح أن يكون الاستثناء منقطعا أى لكن من رحمه الله يعصمه (وحال بينهما الموج) أى بين نوح وابنه (فكان من المغرقين) فصار من المهلكين بالماء (وقيل يا أرض ابلعى ماءك و ياسماء أقلعى) جعل الأرض والسماء كأنهما من العقلاء يطيعان مايؤمران به اظهارا لنفاذ الأمر وسرعة الانجاز وحصول المأمور به حالا كما يفعل المأمور المقهور مع الآمر القاهر القادر • والبلع النشف والاقلاع الامساك ثم قال (وغيض الماء) نقص (وقضى الأمر) وأنجز ماوعد به من اهلاك الكافرين وانجاء المؤمنين (واستوت) واستقرّت السفينة (على الجودى) يقال انه جبل بالجزيرة بقرب الموصل (وقيل بعدا للقوم الظالمين) يقال بعد بعدا لمن لايرجى عوده ثم استعير للهلاك وخصّ بدعاء السوء (ونادى نوح ربه) أى أراد نداءه (فقال ربّ إنّ ابنى من أهلى) أى بعض أهلى لأنه كان ابنه (وانّ وعدك الحقّ) وأن كل وعد تعده فهو الحقّ الثابت الذى لاشك فى انجازه والوفاء به وقد وعدتنى أن تنجى أهلى فما بال وعدى (وأنت أحكم الحاكمين) أى أعلم الحكام وأعدلهم فلا فضل لحاكم على غيره إلا بما تجمل به من العلم وما اتصف به من العدل وأيضا انه يحكم بالحقائق لاطلاعه على بواطن الامور ودخائلها • أما الحكام الأرضيون فانهم يحكمون بالظاهر ويذرون البواطن لمن هو أحكم منهم وهو أحكم الحاكمين (قال) الله (يانوح إنه ليس من أهلك) إذ لا ولاية بين مؤمن وكافر ثم علل ذلك بقوله (إنه عمل غير صالح) أى انه ذو عمل فاسد وجعل نفس العمل الفاسد للمبالغة * وقرئ ـ إنه عمل غير صالح ـ أى عمل عملا غير صالح (فلاتسألن) نجاة (ماليس لك به علم) أنه ليس أهلا للنجاة • وذلك أن نوحا عليه الصلاة والسلام سأل الله أن ينجى ابنه من الغرق وكان من أهل النفاق يظهر الايمان ويخفى الكفر كالمنافقين زمن النبى ﷺ فلم يعلم حتى أعلمه الله كما حصل لسيدنا محمد ﷺ كما تقدم فى سورة التوبة فقوله ـ إنه ليس من أهلك ـ أى من الذين وعدت النجاة

لهم وهم المؤمنون حقيقة فى السر والظاهر وقد خاطبه الله بقوله (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) ثم اتبع الأمر بعدم السؤال بقوله (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) ومعنى ـ أعظك ـ أنهاك وهذا كما نهى رسولنا ﷺ بقوله ـ فلا تكونن من الجاهلين ـ (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك) فى الاستقبال (ماليس لى به علم) مالاعلم لى بصحته (والا تغفر لى) وان لم تغفر مافرط منى من السؤال (وترحمنى) برحمتك التى وسعت كل شئ (أكن من الخاسرين) أعمالا (قيل يانوح اهبط بسلام منا) أى انزل من السفينة الى الأرض مسلما من المكاره كالغرق من جهتنا أو بتحية منا (وبركات عليك) وهى الخيرات النامية وهى فى حقه كثرة أولاده وأتباعه فقد جعل أكثر الأنبياء وأئمة الدين من ذريته (وعلى أمم ممن معك) أى وعلى أمم ناشئة ممن معك وهم الأمم الى آخر الدهر لأنهم ذرية من معه فى السفينة (وأمم سنمتعهم) أى وأمم كافرة يحدثون بعدك سنمتعهم فى الدنيا الى منتهى آجالهم (ثم يمسهم منا عذاب أليم) فى الآخرة ثم خاطب النبى ﷺ فقال (تلك) أى قصة نوح مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أى بعضها وقوله (نوحيها اليك) خبر ثان (ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا) وهذا خبر ثالث (فاصبر) على مشاق الرسالة وأذى قومك كما صبر نوح وتوقع فى العاقبة لك ولمن كذبك نحوما كان لنوح وقومه (إن العاقبة) فى الفوز والنصر والغلبة (للمتقين) الذين يذرون الشرك والمعاصى • وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ـ وقيل يا أرض ابلعى ماءك الخ ـ ﴾

هذه الآية فى غاية الفصاحة والبلاغة حتى خصصها بعض العلماء بالتأليف لفخامة لفظها وحسن نظمها ودلالتها على الحال مع الايجاز البديع • فانظر كيف ابتدأ الكلام بلفظ ـ قيل ـ بالبناء للمجهول فلم يذكر الفاعل لعظم قدره وجلالته • وكيف خاطب الأرض أن تبلع والسماء أن تقلع وهو مجاز عجيب • وكيف كان ـ غيض الماء ـ يغنى عن جمل كثيرة ـ وقضى الأمر ـ قام مقام العبارة الطويلة الدالة على هلاك قوم ونجاة آخرين وهكذا فكل جملة كأنها درس خاص مع الجزالة وحسن التعبير وفى هذا المقام من المحاسن مالامتسع للعبارة عنه والذوق كاف فيه

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اعلم أن هذه القصة قديمة العهد ذكرت فى الكتب السابقة ومامقصودها إلا ابراز رجال فى الأمم يكونون قدوة للصالحين ومنبعا للكمال اليهم تشد الرحال وعليهم يعول الرجال وبهم تصلح الحال • ولو أنك درست تواريخ النابغين فى سائر الأمم والأجيال لم تر أحدا منهم نبغ إلا على مثال نبوغ نوح عليه السلام ولم يخلق الله فى الأرض نبيا ولاحكيما ولاعالما إلا اذا صادفه مثل ماصادفه نوح عليه السلام بل أقول أنظر أيها الذكى القارئ لهذا التفسير • ألم تجد فى نفسك مثال ماجرى لنوح من بعض الوجوه وكيف قرأت العلوم ودرست الكتب ثم وصلت لهذا التفسير وقرأته ما كان ذلك إلا بعد ماجاهدت جهادا آذاك فيه الأقربون والغرباء ثم لم تعبأ بذلك ونصرت وفزت بالعلم وضل سعيهم وخاب فألهم فلعمرك لم يفز أحد فى الدنيا بطائل إلا بعد أن يناله النصب ويغشاه التعب ويحل به الألم ويسومه أهله وذووه سوء العذاب • فانظر رعاك الله قصة نوح ووازنها بسيرة سيدنا محمد ﷺ

(١) النبى ﷺ قال له قومه ـ لولا أنزل عليه كنز أوجاء معه ملك ـ وقالوا ـ لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ فى مقابلة جدال نوح وقومه

(٢) طلب كفار قريش من النبى ﷺ أن يطرد من معه من المجلس احتقارا لهم وهم يجلسون بدلهم فقال الله له ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ـ الى قوله ـ فتطردهم فتكون من الظالمين ـ وهذا كقول نوح ـ الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين ـ

(٣) يقول الله تعالى لنبينا ﷺ ـ قل ما أسألكم عليه من أجر ـ ونوح يقول ـ وياقوم لا أسألكم عليه مالا ـ

(٤) صنع نوح السفينة لنجاة قومه وأمر النبيّ ﷺ أتباعه بالهجرة الى الحبشة ثم هاجر هو وهم الى المدينة وهذه فى مقابلة السفينة

(٥) ـ تبت يدا أبى لهب ـ وهوعم النبى ﷺ وطرد ابن نوح من رحمة الله ولم ينفعه أنه ابن نبى

(٦) سخر قوم نوح منه فأفهمهم أنه هو الناجى وهم الخاسرون • وقد كان المنافقون يقولون ان محمدا يعدنا ملك كسرى وقيصر وأن أحدنا لايقدر أن يقضى حاجته خارج المدينة وكان كفار مكة يسخرون منه فكرّر فى القرآن أن الله سينصره وقد تمّ ذلك

(٧) حمل نوح معه من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكرا وأنثى لبقاء النسل وهكذا جميع الأنبياء والمصلحين انما خلقهم الله فى الأرض للمنفعة العامّة ولاعلامة لرجال الاصلاح والعظماء إلا قصد المنفعة العامّة وسيدنا محمد ﷺ فى مقابلة ذلك قيل له ـ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ـ لافرق بين حيوان وانسان وغيرهما من المخلوقات

(٨) وكما غرق الكفار من قوم نوح قتل الكفار من قريش

(٩) وكما نجى المؤمنون من قوم نوح نجى المؤمنون من العرب وأصبحت جزيرة العرب كلها اسلاما كما تقدّم فى سورة التوبة

(١٠) قال تعالى ـ فاصبر إنّ العاقبة للمتقين ـ أى كما نصرت نوحا وكانت العاقبة له فسيكون النصر لك فاصبر الخ

ألاتعجب من هذا القول كيف كانت هذه السورة تتلى فى مكة ولاجيش ولاجند ولامال لصاحب الرسالة ثم يتلو عليهم هذا القول ويقول الله له ستكون عاقبتك النصر كما كانت عاقبة نوح وبعد ذلك بزمن قد تمّ هذا • ولعمرى إنّ هذه هى المعجزة الحقة فانه قصّ قصة نوح وقد حصل له مثل نوح أوّلا وآخرا وقد تلاه عليهم فى أوّل أمره بحيث لايختلج فى النفس أقلّ أمل فى نجاح دعوته وأن العرب وغيرهم يتبعونه • ذلك هو المعجزة الصادقة وذلك هو الذى به يصدّق العاقلون

﴿ مقصود القصة لسائر الفضلاء ﴾

أيها الذكى إنّ هذه السورة تقرأ دائما يقرؤها المسلمون ويكرّر نظيرها فى الكتب السماوية قبل القرآن بل ان لها نظيرا كما سيأتى فى كتب الدين الهندية • فلعمرك مابقيت هذه القصة فى الديانات المتلاحقة على مدى الأزمان لألفاظ يكرّرونها ولا لمجرّد آيات يقرؤنها وانما هى حكم ومواعظ وآداب يتحلى بها الفضلاء والنابغون • فاذا رأيت فى نفسك ميلا الى فضيلة أوعلم أونفع عام فجاهد فى سبيلك واعلم أن الله معك مهما اعتراك من ضيق أوهمّ أومرض أوعداوة واعلم أنّ الله لم يعطك الميل لتلك الفضيلة ولم يزرع فى قلبك حبّ ذلك العلم إلا وهو يريد سقيه وانزال الغيث عليه لينميه فاعزم وتوكل على الله واتل قوله تعالى ـ واصبر إنّ العاقبة للمتقين ـ وهذه القصة تنطبق على كل من يقوم بعمل شريف فى نفسه وفى قومه • فاذا أراد المرء عملا نافعا لنفسه أولأمّته لاموه أولامته نفسه لوما شديدا فى أوّل الأمر كجدال قوم نوح ثم يبطل الجدال ويجاهد الانسان حتى يرسم له طريقا للخلاص كالسفينة ثم يعاديه أهله وولده ففى الحديث ﴿ أبغض الناس الى العالم أهله وجيرانه ﴾ فليسر فى طريقه ولايبالى بهم ثم يسير فى طريق الفلاح وينجو فى الكفاح وهو سفينة نجاته ملاح ويقال له ـ فاصبر إنّ العاقبة للمتقين ـ

﴿ اللطيفة الثالثة • الطوفان فى العلم الحديث ﴾

الطوفان

(الطوفان عام وخاص ـ الطوفان العام)

اعلم أن الأرض مكوّنة من (٢٦) طبقة عامّة متميزة وهـذه الطبقات تـكوّنت فى ستة عصور كما تقدّم مرارا كل عصر منها يبلغ مئات الملايين بل آلاف الملايين من السنين وهى العصر الأصـلى والعصر الانتقالى والعصر الثانوى والعصر الثالثى والعصر الطوفانى والعصر اللاحق للطوفانى أوالعصر الحالى ـ وفى كل عصر من هذه العصورالستة تـكوّنت طبقات فى الأرض وهى مختلفة كما قد تقـدّم ذكرها فى التفسير وانما الذى يهـمنا فى هـذا المقام العصر الطوفانى فقـد قال علماء العصر الحاضر أن تغيرا عظيما فجائيا طرأ على وضع محور الأرض وقطبيها فاندفعت على أثره المياه على سطحها اندفاعا عاما وانقرض فى هـذا الطوفان كثير من الحيوانات ولجأ بعضـها تخلصا من الغرق الى شقوق ومغاور فى أعالى الجبال فهلـكت جوعا هناك أوبافتراس بعضها بعضا أوخنقا فى وسط المياه المندفعة عليها وقد كشف العلماء كثيرا من تلك المغاور الحاوية عظاما عديدة من الوحوش الـكواسرالتى عاشت قبل حصول تلك الفاجعة وهذا الرأى هوالذى يفهمنا كيف نقصت الحرارة فجأة فى الأقطار القطبية ـ انها نـكبة عامّة سريعة قلبت وجه الأرض وبها انقرضت أنواع من الحيوان على بكرة أبيها وتحوّلت المياه فجأة من مجاريها واندفعت بعزم على اليابسة فحطمت على الصخور واقتلعت الغابات وجردت الجبال من حللها السندسية وتركت رواسب جديدة يقال لها فى علم الجيولوجيا (الطبقات الطوفانية) وفى هذا العصر بدأ القطبان يكتسيان بالجلد وهذا دليل على تناقص جسيم فى حرارة الأرض ـ والتناقص المذكور حصـل فجأة وليس بالتدريج فان علماء (الجيولوجيا) استدلوا على ذلك من آثار فيلة بل أجسام صحيحة من (الماموث) كشفوها فى وسط الجليد الشمالى فحكموا بحصول برد فجائى باغتها وقتلها قبـل أن تتمكن من المهاجرة الى أقطار أوفر اعتدالا وأقرب الى مزاجها ـ ولما استتبت السكينة على وجه الأرض بدأ العصر الحالى وهوالسادس وفيه ثبتت اليابسـة وازداد الهواء نقاء وأرسلت الشمس أشعتها المنعشة فطابت النباتات وأنس الحيوان وظهر بعدها الانسان ـ ولايعلم أحد الآن هل كان الانسان قبـل العصر الحالى أى هل كان قبل الطوفان المذكور ولقد وجدوا آثارا تدلّ على ذلك ـ هذا هوالطوفان العام

﴿ أين الطوفان الخاص الذى جاء به القرآن والـكتب السماوية كما فى هذا المقام ﴾

اعلم أن الطوفان المذكور فى الـكتب السماوية لم يعلم عنـه علماء (الجيولوجيا) إلا ما يأتى وهو أنهـم كشفوا أنه كان هناك بحر عظيم يمتدّ قديما من البحر الاسود الى الاوقيانوس الشمالى وهذا البحر من آثاره بحر الخزر و بحر الاوزوف والبحيرات الـكثيرة التى فى بلاد الروسيا وهى مالحة منتشرة فى سهول التتر ومفاوز روسيا ـ ولما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه الى الاوقيانوس الشمالى والقسم الآخر انقلب الى الاوقيانوس الهندى فغرقت بلاد مابين النهرين وجميع البلاد التى يسكنها أسلاف الشعب العبرانى وقد حفظت هذه الحادثة فى تقاليد سائر الشعوب الذين يسكنون تلك البقاع ـ وجاء فى أسفار (الفيدا الهندية) فى هذا المقام ﴿ تحوّل براهمـا الى صورة سمكة ﴾ وجاء يقول الى الملك الصديق (فايفاسواتا) ان زوال زمان العالم قد دنا وعن قليل تباد كل نسمة من الوجود على وجه الأرض فاصـنع لك سفينة تدخلها بعد أن تأخـذ معك بزورا من كل النباتات وانتظرنى فأوافيـك وعلى رأسى قرن تميزنى به ـ فأطاع الملك الصديق أمر براهمـا وعمر سفينة ودخلها بعد أن ربطها بحبل متين بقرن السمكة فسارت السفينة فى الظلمة سـنين عديدة فى وسـط عواصف قاصفة واستقرّ أخيرا على رؤس جبال همالايا اهـ

هذا هو العلم الذى يعرفه الناس الآن من علماء طبقات الأرض ومن علماء الديانات ـ فهاأنت ذا رأيت الطوفان العام الذى هو قبـل التاريخ ورأيت الطوفان الذى عرفه بنواسرائيل عن أسلافهم الذين كانوا بين النهرين وعرفت البحر العظيم الذى خلف بحيرات فى أوروبا الآن وعرفت كلام البراهمة عن هذا الطوفان

ثم اعلم أنى ما كتبت لك هذا لأفسر به القرآن . كلا وانما أكتبه لتحيط علما بهذه المسألة ولتعشق العلوم ولتبحث فى عجائب صنع الله وفى تقلبات هذه الدنيا وعجائبها وتتعجب من هذه الأرض كيف تكوّنت وكيف كان القطبان أشبه بخط الاستواء تعيش فيهما الفيلة العظيمة التى لانظير لها الآن بل هى أشبه بالفيلة التى كانت قديما تحمل مئات من الناس على ظهرها ثم طرأ عليها البرد فجأة فماتت حالا وبقيت الى الآن دلالة على قدرة عظيمة . وكيف كان هناك بحر ثم زال من الوجود . وكيف كانت هذه القصة قد لهج بها أكثر الأمم العظيمة المتدينة

فأما القرآن فانه قصّ علينا هذه القصة ليرقينا بها وليدلنا على أن الصابرين فائزون . وقد أبنا هذا أيما تبيان . فافرح بما آتاك الله من فضله . واعلم أن الله عزّوجل ماأنزل هذه القصة لأجل المباحث التى ذكرناها ونحوها وانما أنزلها لما فيها من القدوة الحسنة واليقين . إن الذين هم مصلحون وقلوبهم مفطورة على الاصلاح فائزون فى آخر أمرهم . ولعمرك ان هذه القصة فى القرآن تعطى المصلحين ايقانا وايمانا وعلما أنهم بعد الصبر فائزون . وهذا قد أوضحناه تمام الايضاح . انتهى الكلام على قصة نوح عليه السلام . ثم قال تعالى (والى عاد أخاهم هودا) أى وأرسلنا الى عاد الخ عطف على قوله ــ نوحا الى قومه ــ وهودا عطف بيان (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) على الله لاتخاذكم الأوثان شركاء وجعلها شفعاء (ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلاعلى الذى فطرنى) وذلك كخطاب نوح لقومه بذلك وخطاب النبيّ ﷺ لأن النصيحة مادامت مشوبة بالمطامع لاتنجع (أفلاتعقلون) أفلاتستعملون عقولكم فتعرفوا الحقّ من الباطل والصدق من الكذب (وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) اطلبوا مغفرة الله بالايمان به ثم توبوا اليه من ذنوبكم السالفة (يرسل السماء عليكم مدارا) كثير الدرور (ويزدكم قوّة الى قوّتكم) وكانوا قوما أصحاب زرع و بساتين وكانوا مدلين بما أوتوا من قوّة وبطش * وقال بعضهم حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم هود عليه السلام على الايمان والتوبة بكثرة الأمطار وتضاعف القوّة بالتناسل * يقال ان الحسن بن على رضى الله عنهما قال لحاجب معاوية لما شكا له قلة الولد ﴿ عليك بالاستغفار﴾ فكان يستغفر فى اليوم سبعمائة مرة فولد بنين ولما سئل الحسن عن سبب ذلك استدلّ بهذه الآية وبآية نوح ــ ويمددكم بأموال وبنين ــ (ولاتتولوا) ولا تعرضوا عما أدعوكم اليه (مجرمين) مصرين على اجرامكم وآثامكم (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة) كما قالت قريش للنبى ﷺ ــ لولا أنزل عليه آية من ربه ــ لجحود الطائفتين آيات النبيين (ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى ومانترك آلهتنا صادرين عن قولك . فقوله ــ عن قولك ــ حال من الضمير فى تاركى آلهتنا (ومانحن لك بمؤمنين) أقنطوه من اجابته وتصديقه (إن نقول إلا اعتراك) أى أصابك من عراه يعروه اذا أصابه (بعض آلهتنا بسوء) أى مانقول فيك قولة إلا هذه المقالة وهى ــ اعتراك بعض آلهتنا بسوء ــ فأنت ياهود لست تخالفنا وتسبّ آلهتنا إلا لما أصابك بعض آلهتنا بخبل وجنون لأنك سببتهم فانتقموا منك بذلك ونحن لانفهم أمرك إلا على هذا الوجه (قال) هود مجيبا لهم (إنى أشهد الله) على نفسى (واشهدوا) أنتم علىّ أيضا (أنى برىء مما تشركون من دونه) وهى الأصنام التى كانوا يعبدونها (فكيدونى جميعا) احتالوا فى كيدى وضرّى أنتم وأصنامكم التى تعتقدون أنها تضرّ وتنفع فانى أرى انها لاتضرّ ولاتنفع (ثم لاتنظرون) لاتمهلون ثم أكد هذا بقوله (إنى توكلت على الله ربى وربكم) أى انه فوّض أمره الى الله واعتمد عليه (مامن دابة إلا هوآخذ بناصيتها) الناصية مقدم الرأس وسمى الشعرالذى عليه ناصية للمجاورة * وكان العرب اذا أرادوا اطلاق أسيرجزوا ناصيته ليمنوا عليه و يعتدوا بذلك فخرا عليه فخاطبهم الله بما يعرفون يعنى أن الله هو مالكها والقادر عليها وهو يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد

قهرته . والدابة كل مايدب على الأرض ويدخل فيه جميع بني آدم والحيوان لأنها جميعها تدب على الأرض (إنّ ربى على صراط مستقيم) أى انّ ربى وان كنتم مسخرين له مقهورين لايعاملكم إلا بالانصاف والاحسان والعدل فيجازى كلا بما فعل المحسن باحسانه والمسيء باساءته (فان تولوا) أى تتولوا وتعرضوا عن الايمان — بما أرسلت به اليكم — فلم يقع منى تقصير فى التبليغ وانما التقصير منكم (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم) أى انكم ان أعرضتم عن الايمان يهلككم الله ويستبدل بكم قوما غيركم أطوع منكم وهذا عذاب الاستئصال (ولاتضرّونه شيأ) بتوليكم عن الايمان (إنّ ربى على كل شئ حفيظ) رقيب عليه مهيمن فما تخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم وهو يحفظنى من أن تمسونى بسوء فكما يحفظ أعمالكم ويعاقبكم يحفظنى من السوء (ولما جاء أمرنا) باهلاكهم وعذابهم (نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا) ذلك أن العذاب اذا نزل عمّ فلما أنجاهم الله كان ذلك رحمة من الله وأيضا الايمان والطاعة من رحمة الله فما تسبب عنهما من رحمة الله لأن كلا من عند الله (ونجيناهم من عذاب غليظ) شديد (وتلك عاد) وهذه قبيلة عاد كأنه قيل سيحوا فى الأرض فانظروا اليها واعتبروا بقبورها وآثارها ثم وصف حالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم) أى كفروا بها (وعصوا رسله) لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسولا فقد عصى الجميع (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أى اتبعوا أمر كبرائهم الطاغين وعنيد من عند عنودا اذا طغى فعصوا من يهديهم وأطاعوا من يغويهم (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) أى أردفوا لعنة تتبعهم واللعنة الطرد والابعاد من رحمة الله (ويوم القيامة) أى وفى يوم القيامة أيضا تتبعهم اللعنة كما أتبعتهم فى الدنيا ثم ذكر السبب لزيادة الايضاح فقال (ألا إن عادا كفروا ربهم) أى كفروا بربهم (ألا بعدا لعاد) أى هلاكا لهم أو بعدا من الرحمة (قوم هود) عطف بيان لعاد . والقصد من هذا العطف المبالغة فى التنصيص للتأكيد . انتهى التفسير اللفظى لقصة عاد وماقبلها

﴿ جوهرة فى معنى قوله تعالى — مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم — ﴾

يعيش الناس ويموتون وتتلاحق الأمم وتتسابق فى هذه الحياة ثم يردون أحواض المنايا أمة بعد أمة ودولة بعد دولة وهم يأكلون الحيوان ويشربون ألبانه ويلبسون صوفه وفراءه ثم أكثرهم يموتون ولاهم يذكرون لايذكرون عجائب هذا الحيوان وغرائبه وغرائب النبات ولا الحكمة المدبرة التى خصصت لكل طائفة منه لونا وشكلا وأحوالا خاصة . ينظر الناس الى هذه الصور والأشكال ثم لايذكرون لم هذا الاختصاص

(١) ولم نرى الزنبار مثلا محلى بشكل جميل مزوقا بهجا ولكنه يحمل سلاحا يعدو به على من يمسه بسوء

(٢) ونرى الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط إما رمادية اللون أوسوداءه

(٣) ولماذا نرى بعض السمك مرقشا منقوشا بهيئة بهجة كأنها هيئة البساتين الجميلة . والأكثر على خلاف ذلك إذ يكون ظهره أزرق مائلا للسواد أوللخضرة وهو من أسفل أبيض اللون

(٤) ولماذا نرى الجمل والأسد لهما لون خفيف رملى أوصخرى رملى

وهكذا من أمثلة كثيرة لايخطر للناس أن يفكروا فيها وانما الرأى العام عند هذا النوع الانسانى أن ذلك أمر عادى . والجواب على ذلك هو عين مانقل عن الكسائى لما سئل لم بنيت أىّ على الضم فقال ﴿ أى هكذا خلقت ﴾

هذا الانسان أوّله وآخره قديمه وحديثه عالمه غالبا وجاهله مستوون فى الغفلة والاعراض عن بحث ماحولهم وفهم الدروس التى ألقاها الله عليهم . هذه هى الدروس الحقة والعلوم التى أنزلها الله للناس وآيات تنزلت عليهم وطلاسم وألغاز وزينة زين بها الأرض لامتحان عباده لينظر أفيشكرونه بمعرفتها أم يكفرونه بالتلهى ببهجتها والغفلة عن معرفتها ذلك هو مثل المسلمين وغير المسلمين الحاليين الذين سكنوا هذه الأرض وهم عن

آياتها معرضون

اللهم انك أنت الذى أسكنت أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية وأحطتنا بعوالم خلقت من الجمال وحفظت من الوبال وأحطتها برحمتك وكلأتها بمنتك فهى بعنايتك وكلاءتك فى بهجة وسرور ونعيم وحبور وجعلتها بحسب حقائقها مكللة بالنور مرموقة بنظرك مكفولة بحفظك وجعلت أعيننا غالبا فى غطاء عن جمالها رحمة منك لنا وعطفا وإحسانا . ذلك لأن هذا الجمال الكامن فى تصويرها وخلقها لو تبدّى لنفوسنا دفعة واحدة وعرفناه لسكرنا ولذهلنا ولذابت مهجنا من الاطلاع على أسرارها لأنها من النور خلقت ومن الحكمة صنعت وكيف نقوى أرواحنا التى لم يكمل حظها من القوّة ولم تصل الى غاية الكمال أن تغرق فى بحر الحكمة الذى ليس له قرار

اعلم أنى لما وصلت الى هذا المقام حضر لى صديق صالح فاطلع على هذا فقال . هذه المقدّمة لم تخرج عن مقدّمات كثيرة من المتصوّفة الذين تنشرح صدورهم فينشؤن المقالات تلو المقالات ولم يزدد الناس من مقالاتهم كمالا فى علم ولامعرفة لحقيقة إلا قليلا منهم ــ وقليل من عبادى الشكور ــ . ابتدأت المقال بأسئلة فى الفيران والجمال وأمثالها ولم تجب عليها ثم أخذت تتغزّل فى الوجود وهذا الغزل أراك ورثته من كتب المتصوّفين . إنّ الأمم الاسلامية اليوم لن تقوم من كبوتها إلا بعلم يفتح أعينها لهذا الوجود . فأما اذا أكثرت فى الاغراب وأبعدت فى الارقال وزوّقت الجمل وجئت برائع الكلام وبديع النظام فما علمت حرفا ولازدت للناس ذكرا فاهجم على الحقائق هجوما كما رأيته فى كثير من الأجزاء السابقة فى هذا التفسير . إن الكتب اذا خلت من الحقائق المشاهدة عكف الناس على قراءتها وغفلوا عما حولهم فهل تحبّ أن يقرأ الناس هذا التفسير وهم مغمضون . فقلت له هدّئ روعك وأحسن ظنك واعلم أن المقال الذى شرعت فيه الآن علم عزيز وفنّ شريف جميل سيريك

حكما نسجت بيد حكمت * ثم انتسجت بالمنتسج

انك سترى من آيات الله وعجائب حكمه مالم يعلمه أكثر المتعلمين فى العالم الانسانى . ذلك انى اطلعت على عشرات من عجائب ألوان الحيوان وأشكاله وكيف كان ذلك كله قد وضع بدقة وحكمة وغاية مقصودة اطلعت على ذلك فى كتب الفرنجة أى فى موسوعات علومهم . وهذه الكتب لايؤلفها إلا المختصون بالعلوم ثم لايطلع عليها أغلب المتعلمين لأن أكثرهم لايسعى إلا لغذائه ولردائه ولمظهره بين الناس وأمثال هذا انما تتحلى به العقول وتساق به الى الكمال . وأكثر الناس فى الشرق والغرب عن هذه المعالى معرضون

﴿ تشبيه الأرض بدرّة ﴾

إنّ ما سألقيه عليك اليوم هو النور والبهجة والجمال . إن هذه الأرض فى حقيقتها بعد ما تسمع اليوم ما أتلوه عليك أشبه بدرّة بهجة جميلة متلألئة قد سطعت عليها أنوار الكواكب وأشرقت عليها أضواء السيارات يتلاقى على ظهرها ﴿ الجمالان ﴾ جمال الأنوار وجمال الدرّة . فترى أرضنا قد امتزجت على سطحها الألوان السبعة التى فى قوس قزح بأضواء هذه الجوهرة فتداخلت الأشكال وتشابكت الألوان وامتزجت الصور فى أمواج فوق أمواج وبحار من الصور والأشكال والبهجة والجمال . تلك صور هذه الأرض فى عقولنا بعد أن ترى ماسأقصه عليك الآن بل هذه هى الصورة التى ظهرت فى خيالى بعد ماقرأت هذا الموضوع الذى أنا بصدد ذكره الآن على أن هذا التشبيه دون الحقيقة

نعم الله نور السموات والأرض والنور على ﴿ قسمين ﴾ نور محسوس . ونور معقول . ونور النجوم والشموس والأقمار وضوء الجواهر . كل ذلك محسوس ولامناسبة بين المحسوس والمعقول . إن النور المحسوس بالابصار قد سبق ذكره فى سورة الأنعام وسورة يونس وقد رسمت هناك الصور الشمسية والأشكال

الـكوكبية والمجرّة وأنواع السدم والقنوان • قد تقدّم هذا كله وتقدّم شرح ذلك من علم الفلك بحيث يسهل على القارئين فهمه ولـكن هذا كله هو النور الحسى • أما النور العقلى فهو أكمل وأكمل وهو النور الذى أنزل فى هـذه السورة (سورة هود) إذ يقول الله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ فى كتاب مبين ـ ثم يذكر أنه استوى على العرش وأن عرشـه على المـاء وانه يدبر بالحـكمة • فهذا باب آخر من أبواب العلم وهو علم الحقائق • ويقول هود ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ الأخذ بنواصى الدواب ليس بالأمر السهل انه يحتاج الى علم الأمم كلها ودرس هـذا الوجود كله

أنزل الله القرآن وقال لنا ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ـ فى سورة يونس ومدح المفكرين فيها وهكذا فى سورة الأنعام وغيرها • ولـكن فى سورة هود أتى بما هو أبعد مرمى وأدقّ مغزى يدل على ذلك قوله ـ كتاب أحكمت آياته ـ اشارة الى الحـكمة المودعة فى الحيوان وغيره وقوله ـ ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ فيه اشارة الى عجائب الوجود الذى نعيش فيه سيفصلها الله ويظهرها للناس والا فـكيف يقول لنا ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ والناس فى الشرق والغرب لايرون هذا الأخذ بناصية الدواب لأنهم يرون الدواب ولايرون الآخذ بنواصيها • فالآخذ بالنواصى لايرونه ولـكن نفس الأخذ بالنواصى هو الممكن للناس معرفته ولا يمكنهم ذلك إلا بالعلوم والحـكمة • أنزل القرآن على أمّة العرب وأمّة العرب نشرت القرآن ثم نامت ولـكن الله لاينام لأنه هو القائل ـ ثم إنّ علينا بيانه ـ والقائل ـ سأريكم آياتى فـلا تستعجلون ـ والقائل ـ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ـ

فهاهو ذا أرانا بعض آياته فى كتب أسـلافنا المتقدّمين وفى كتب المتأخرين من الفرنجة أولئك الذين عرفوا بعض العلوم ونبغوا فيها ولـكنهم لايعلمون أن هذا يطلبه القرآن بل هم فوق ذلك يكتبون العلم محققين لمسائله ولايفـكرون إلا فى الصنعة أما الصانع فلايعوّل أكثرهم على ذلك أثناء كتاباتهم • أما أنا فانى أقول بأعلى صوتى أيها المسلمون كتاب الله المنزل عليكم لاتدرك بعض أسراره إلا بقراءة جميع علوم الشرق والغرب ثم لايتمّ مقصوده إلا باجتهاد أبناء الاسـلام بعد قراءة علوم القوم إذ يزيدون على ماعلموه وهـم مجدّون • وأقول أيضا ـ هـذه بضاعتنا ردّت الينا ـ هى هى منطبقة تمام الانطباق على آيات القرآن • فهاأناذا الآن أيها الأخ أريك العجب وستعلم أن هـذا من بيان الله الذى سخر له الفرنجة وهو الذى أعثرنى عليه وهدانى لفهمه فهـذه البضاعة بها يمير الله قراء هـذا التفسير ويحفظ بها سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ويزيدهم علما بجدّهم واجتهادهـم أسوة باخوة يوسف إذ قالوا ـ هذه بضاعتنا ردّت الينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير الخ ـ

فقال صاحبى الصالح فأجب أوّلا عن الأسئلة المتقدّمة ثم اذكر ماتريد ذكره من عجائب الحيوان • فقلت ان الألوان على ﴿ قسمين ﴾ ألوان براقة بهجة ذات أشكال تلفت الأنظار وألوان خفيفة لطيفة ليس لها بريق ولمعان • أما الأولى فانما أعطيت لحيوانات عندها مايحميها من أعدائها ويحفظها من المغيرين عليها فأما الألوان الخفيفة اللطيفة فانما تعطى الى الحيوانات التى من مصلحتها ألاتظهر بوضوح لأحـد ﴿ أمرين ﴾ إما لأنها عرضة للمغيرين عليها • واما لأنها لهـا فريسة • فخفة ألوانها ولطفها أقرب الى اختفائها عن أعين فرائسها فيمكنها أن تنال منها غذاءها ولو بنصب وتعب فى العشىّ والابكار • هذه هى القاعدة العامّة ذكرتها الآن توطئة لمـا أفصله فأقول

من عادة الحيوان أن يكون لونه مشاكلا لمـا حوله وهذه المشاكلة تـكون سببا لوقايته لأنه بها يختفى عن أعين الرقباء

﴿ الكلام على الزنبار ﴾

(١) نخذ الزنبار مثلا تره زاهى اللون منقشا مرقشا . لماذا لأنه أعطى حمة بها يهجم على من يؤذيه لذلك اقتضت حكمة الله عزّوجل أن يكون بمظهره المعلوم لأنه لايخاف عدوّا يغير عليه فهو فى مأمن سلاحه الذى يحمله • فالزنابير إذن أشبه بالأمم القوية إذ يجوس رجالها خلال البلاد فى الشرق والغرب ظاهرين لأن لهم دولا تحميهم وتحافظ عليهم • ودولة الزنبور هو سلاحه • فسلاحه يقوم مقام سلاح الدول فى حفظ رعاياها

ألست ترى أن الله أخذ بناصية هذا الزنبار فجعل له شكلا جميلا مزوّقا وأعطاه سلاحا وقال له كن حرا طليقا أيها الزنبار لأنى أنا الآخذ بناصيتك وأنا على صراط مستقيم • اللهم إنا نحمدك على العلم ونشكرك على الحكمة

﴿ الكلام على الفيران والوطاويط والبوم ﴾

(٢) وخذ الفيران مثلا آخر والوطاويط التى تكون إما رمادية اللون واما سوداءه فسبب ذلك أن هذه الحيوانات من الحيوانات الليلية لخوفها من الحيوانات القانصة المهلكة فهى أبدا فى النهار مختفيات فاذا ظهرت ليلا وكان لها لون غير السواد وما قاربه نم ذلك اللون عليها فعرّضها للعطب فكانت من الهالكات

وانظر الى البوم فانك تجد لونه ترابيا فيه بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا وذلك ليحصل التشابه بينه و بين قشر الشجر والأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل • أليس هذا الصنع معناه أن الله آخذ بناصية (البوم) • نعم أخذ بناصيته فلوّنه على الهيئة التى بها يعيش فيأكل الفيران وغير الفيران لمصالح هذا المخلوق • والا فلماذا يختص (البوم) باللون الذى يكون حافظا له و بغير هذا اللون المخصوص يفنى (البوم) ولا يكون فى الوجود

﴿ الكلام على السمك ﴾

(٣) وانظر الى السمك فان الذى نراه لامعا بهجا فانه يكون عيشه فى قاع البحر محوطا بالجمال الرائع من أعشاب بحرية لامعة ومرجان نابت فى قاعها بهيج ونبات من الشقائق بهية فيكون ذلك القاع أشبه بحديقة خيالية عبقرية حسنة فيخلق ذلك السمك مناسبا لما حوله حتى يختفى فيما هناك من الأشكال و بذلك يتوارى عن الأبصار . أما السمك الذى يرى ظهره أزرق مائلا للسواد أوللخضرة و بطنه أبيض فذلك لأنه يعيش أقرب الى سطح الماء فى البحر فصار ظهره مناسبا للجوّ ولزرقة الماء فى البحار فيختفى عن أعين الطيور القانصة للسمك وجعل بطنه أبيض ليختفى عن أعين السمك المفترس فيتشابه لون بياض بطنه بلون الماء فلايفترسه السمك المغير

﴿ الكلام على لون الجمل والأسد ونحوهما ﴾

(٤) أما الجمل والأسد ونحوهما وتلونهما باللون الخفيف الرملى فذلك لأنهما من سكان الصحراء والصحارى لا أشجار فيها ولا مراعى • فالأسد لو كان لونه زاهيا كالزنبور لفرّت منه فريسته • والجمل لو كان كذلك لكان عرضة لافتراس الحيوانات المفترسة فتهجم عليه كالنمر والأسد والذئاب فأعطى كل منهما لون ما حوله من الرمال ليشتبه بها و بالصخور الرملية التى تحيط به • وهكذا ترى القنبر وأنواعا أخرى من الطير وكل ماله فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد بعض الحيات والضباب • كل ذلك ملوّن بلون الرمال وقاية من الله وحفظا لتلك الحيوانات فسبحان الخلاق العظيم • فلما سمع صاحبى ذلك قال انى وجميع المتعلمين من أبناء مصر و بلاد الشرق وأكثر بلاد أوروبا يقولون غير ماتقول • يقولون ان الوسط قد أثر فى هذه الحيوانات فهذا أمر طبيعى لاغير • فأما الأخذ بالناصية الذى ذكرته فان المتعلمين لايقولون به • قلت له حياك الله و بياك ألم تذكر أنى بينت لك أن هذا العلم لا يكون عند المتوسطين فى العلوم • إن هذه الآراء

انما

انما يعرفها الحكماء فى أوروبا وفى الشرق . فأما تلاميذ المدارس فى كل أمّة فانهم كالعامّة فى هذه النظرات بل هم المتحيرون فى هذا الوجود ولايحظى بالحكمة منهم إلا الأقلون أولئك هم المفكرون . فقال هات برهانك وانقل لى ما قاله أكابر حكمائهم فى عصرنا حتى لاتتهم بأنك انما تحاول أن تجعل القرآن موافقا للعلوم بالحق أو بالتحايل . فقلت قد جاء فى كتاب ﴿ موسوعات العلوم ﴾ المسمى (ساينس فورألل) فى المجلد الثانى صفحة ١٢٨ وما بعدها ما يأتى

﴿ إن المفكر العادى يرى أن ألوان الحيوانات قسمت ووزعت بلاصنعة ولاعلم . وترى المناطق الحارّة الاستوائية كل شئ فيها لونه بهيج زاه زاهر فى حيوانه ونباته بخلاف ماعندنا . ثم ان بيان السبب فى أن هذا أحمر وذاك أبيض الخ . كل ذلك عند أكثر الناس لايفيد ولاينتج بل هو عبث . ثم قال وسأبين لك أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها بل ان كثيرا منها تتوقف حياتها على حماية ألوانها لها ولولا تلك الألوان لانقرضت تلك الحيوانات وبادت من الوجود ﴾ ثم أخذ يبين تلك الحيوانات واحدا واحدا بدقة وحكمة وفقه وتفكير فى الهواء والبرّ والصحراء والجبل والبحر والأقطار الحارّة والباردة وفى هذه قال

نبحث فى جهات القطب الشمالى فان لون البياض هو السائد فى تلك الأقطار . وقد ترى هناك السواد والسمرة اذا كان ذلك أصلح للحيوان فى تلك الأقطار

﴿ الأرنب والدب والثعلب القطبيات ﴾

ثم قال كل دبّ فى الأرض أسمر أو أسود إلا دبّ القطب الشمالى فهو أبيض . وهكذا أرنب القطب والبوم . كل هذه بيضاء أوقريبة من البياض . والثعلب القطبى أبيض . والأرنب الذى يسكن الجبال العالية فهذا يتغير الى البياض زمن الشتاء . وهناك طائر يسمى (بسترميمن) وهذا خير مثال للحماية بالألوان فهو موافق لألوان الأحجار التى يقع عليها و يلازمها ولايقدر الانسان أن يميز سربا منه وهو فى زمن الشتاء يلوّن بالبياض لأجل حمايته بمشاكلته للثلوج فهو يلوّن فى الصيف بلون الأحجار وفى الشتاء بلون الثلج لحمايته أيضا

﴿ الغنم القطبية والسمور والغراب وألوانها هناك ﴾

ثم قال وهناك ﴿ ثلاثة أنواع ﴾ من الحيوان تخالف لون الثلج فى تلك الأقطار ﴿ أوّلها ﴾ نوع من الغنم يسمى (غنم مسك) فهذه لونها السمرة مع السواد فتستبين وتظهر وسط الجليد وسبب هذا أنه يعيش جماعات وليس لفرد منه أن يعيش وحده فلون السواد والسمرة الذى يظهرها وسط الثلوج ظهورا واضحا ضرورى حتى يعرف كل خروف منها أصحابه ولو كان لونها كلون الثلج لضلّ القطيع وتفرّق وافترسته المفترسات فهذا النوع بين نارين إما حياة محمية بالسمرة مع السواد ليتعارف أفراد السرب الواحد و يغتفر فى جانب هذا أن ينفرد الواحد بعد الواحد ضالا الطريق أومريضا فتختطفه المفترسات كالثعلب القطبى . أما أفراد السرب فهى متعاونات لها حراس يعرفون مواقع الخطر فيفرّون بالقطيع كله فيعيشون ويكثرون واما لون كلون الجليد به لايميز بعضها بعضا فتهلك كلها . لاجرم أن أوّل الأمرين خيرهما وهذا هو الذى حصل فى الوجود ﴿ النوع الثانى السمور ﴾ فانه يحتفظ بفروته العظيمة الثمينة الجميلة السمراء فى أيام شتاء (سيبريا) القارس . وذلك لأنه يلازم الأشجار و يأكل من ثمارها وهو نشط و يختطف الطيور بين الأشجار فيقتنصها فيأكلها ولو كان لونه السواد لميزته الطيور ففرّت منه فلم يأكلها ﴿ النوع الثالث الغراب ﴾ انه يكون فى أقصى الأقطار القطبية الشمالية ولكنه دائما أسود . ذلك لأمرين ﴿ أوّلا ﴾ انه لاعدوّ له يفاجئه اذا تميز فى وسط الثلوج ﴿ الثانى ﴾ أن فريسته وهى الجيفة لاتفرّ منه اذا أراد أكلها فلذلك حفظ له سواده ولم يغير ذلك كله لمنفعة الغراب نفسه . ثم قال هذه المسائل الثلاثة من البراهين الدالة على ماذكرناه من أن الألوان مقصودة

لحماية الحيوان وهـذه الحجة صادقة ومكذبة لمن يقولون ان البياض فى الأقطار الشمالية من أحد ﴿أمرين﴾ إما من تأثير البرد مباشرة على الحيوان . واما من تأثير انعكاس البياض من الثلج على الحيوان . فهذه الأنواع الثلاثة علمتنا أن بياض الحيوان انما يكون لما ينفعه البياض ويحفظه فى حياته . أما التى لاتحتاج الى حماية البياض أوتلك التى ينفعها السواد فانها تلون به ولاتلون بالبياض . ثم قال إذن سبب التغير لا يرجع عقلا الى الامور الخارجة عن الحيوان بل هو راجع الى قوانين مختلفة تدور كلها حول حفظ الحيوان ومنفعته لاعلى الوسط الذى تعيش فيه حشرات تلوّن بلون جذوع الأشجار وحشرة أبى دقيق التى تلوّن بلون الأوراق الجافة . فلما أتممت هذا القول أخذ يقول ياعجبا أهذا كلام الحكماء بأوروبا فى عصرنا . فقلت نعم هذا هوالذى رأيته ونقلته وسأشرح هذا المقام إن شاء الله و بقيت حيا فى سورة ـ قد أفلح المؤمنون ـ عند قوله تعالى ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ وهناك أبين هذا المقام بايضاح وأثبت لك الصورالتى رسمها القوم بالتصوير الشمسى فترى هناك ان شاء الله حشرات طائرات ثم انها تجثم على شجرة عتيقة فيخيل للرائى أنها عبارة عن غصن غليظ من الشجرة قد كسر أعلاه حديثا . وما ذلك إلا أن هـذه الحشرة قد خلقت بحيث تكون على هذه الحال لئلا يعرفها قانصها من الطيور آكلات الحشرات . وهكذا ترى هناك صور حشرات ألوان أجنحتها تشبه تمام المشابهة ألوان الأوراق الجافة حتى لايفطن لها آكل الحشرات . وهكذا بعض الحشرات من أبى دقيق الذى تراه هناك مرسوما على الشجرة وهو لايتميز من أزهارها التى تلون بلونها . كل ذلك ستراه إن شاء الله ولايسع المقام ذكره هنا . فقال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

﴿ بيان أن هذا معنى قوله تعالى ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها الخ ـ ﴾

فقلت أليس هذا يكفيك فى معنى قوله تعالى على لسان هود ـ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ـ . فانظر الى التعبير بربى وربكم فهو ربى هود ورب قومه وهو رب كل حيوان وحافظه وهو على صراط مستقيم أى هو عدل لايجور والجور هنا اعطاء الحيوان مالاينفعه أومايضرّه فلوأنه أعطى السمك الذى فى قاع البحرلون الذى عند سطح الماء فكان فى ظهره زرقة مع سواد أوخضرة لامتاز بهذا اللون فتعرّض للمهلكات ولوأعطى السمك الذى عند سطح الماء ما أعطاه للسمك الذى يعيش فى قعر الماء فى البحار الحارّة التى يكون قاعها مزدانا بجمال الحيوان والنبات لامتاز هذا بلونه البرّاق البهيج عند سطح الماء فرآه مافوقه من الطيور الصائدات وماتحته من السمك المفترسات . إذن ثبت بالعلم الذى نشر اليوم فى أنحاء أوروبا وأمريكا واليابان وجميع العالم الانسانى أن هذه الآية يفسرها حكمة الحكماء وعلم العلماء ويضعف عن فهمها أكثر رجال الدين فى البلاد الاسلامية الذين لم يعرفوا نظام ربهم واكتفوا بايمان العجائز . وهكذا أكثر المتعلمين بمدارس مصروالشام والعراق وأوروبا وأمريكا واليابان فان هؤلاء كالفقهاء فى الاسلام والفرق بينهما أن الفقيه يقول هذا فعل الله . وهؤلاء الذين أخذوا شهادات عالية من المدارس يقولون هذا فعل الوسط والبيئة وأن الثلج أثر على ماحوله من الحيوان فأعطاه البياض وأن الرمل فى الصحراء أثر فى الجمل والأسد فجعل ألوانهما كألوان رمال الصحراء وقد ظهر لك بطلان ذلك كله بالبرهان

﴿ العرش والرحمة والعلم ﴾

قد جاء فى أوّل هذه السورة أنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وأن كل ذلك فى كتاب مبين وأن عرشه على الماء . وجاء فى سورة أخرى ـ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ـ فالذين يحملون العرش أى الملك والذين حول العرش هم المدبرون لهذا العالم من العوالم

المجرّدة عن المادّة والعوالم المادّية كأرضنا ترى فيها نفوس صغيرة فى أجسام انسانية لتزداد علما و بعضها يرتقى الى أن يصير مع أولئك المجرّدين عن المادّة من الملائكة ويدبرون كتدبيرهم كلّ بقدره . فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون . والتسبيح يرجع لمعرفة أن الله مترفع عن المادّة وما يناسبها وعن سائر المخلوقات . والتحميد لاحقيقة له إلا بادراك الحقائق فان الحمد انما يكون على نعمة . والنعمة ان لم تعرف فلا حمد عليها . وكلما كان الانسان أو الملك أكثر علما كان أكثر حمدا . والحمد جاء فى اسم سيدنا محمد ﷺ وجاء فى قول المصلى قبل كل مكتوبة ﴿ اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ﴾ فذكر الحمد وتكراره فى الصلاة والدعاء كله راجع للعلم فلا حمد إلا على علم والمجهول لاحمد عليه . فهؤلاء الملائكة يسبحون بحمد ربهم وهم علماء بما حمدوا عليه وهم مؤمنون لأن الحمد لايكون إلا مع ايمان ولكون المؤمنين شاركوهم فى الايمان العام أخذوا يستغفرون لهم ويقولون ــ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ــ . فياليت شعرى كيف نعلم أن الله وسع كل شئ رحمة وعلما إلا بمثل ماذكرناه . وتعجب من ذكر الرحمة مصحوبة بالعلم لأن الرحيم الجاهل لايقدر أن يضع الأمور فى مواضعها فيعطى السمك الذى عند سطح الماء لون المرقش المزين الذى فى قاع البحر الحارّ فيموت السمك فريسة هذا النقش والتصوير والتزويق ويعطى بجهله الجمل لون الطاووس وكذلك الأسد فيهلك الأوّل بالحيوانات المفترسة والثانى بفرار الغزلان والبقر والجاموس والغنم والمعز اذا رأينه فى عرض الصحراء . فالرحمة لاتكون إلا مع العلم والرحمة بلاعلم حماقة وهذا المعنى هو المذكور هنا وهو قوله ــ إنّ ربى على صراط مستقيم ــ ولن يكون على صراط مستقيم أى عدل إلا اذا علم طرق المنافع والمضار فأعطى الأوّل ومنع الثانى . فقوله هناك ــ ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما ــ يقرب من قوله هنا ــ إنّ ربى على صراط مستقيم ــ

فقال صاحبى مامعنى قوله فى أوّل السورة ــ كلّ فى كتاب مبين ــ بعد ذكر أن كل الدوابّ عليه رزقها هل الكتاب الذى كتب فيه كل شئ اطلعنا عليه وأبان لنا شيأ من تلك العلوم . فقلت كتاب الله ولوحه المحفوظ لايعرفه إلا هو ومن يريد تعليمه ولكن هذا الكتاب له آثار . فقال وماهى الآثار . قلت انظر الى التصوير الشمسى . ألست ترى الناس يصوّرون الجبال والأنهار والكواكب والمزارع والحصون بالتصوير الشمسى فيعرفونها معرفة عامّة . قال بلى . قلت فهل الصورة الشمسية فيها مزايا الأصل من كل وجه . قال . كلا . قلت هكذا هنا ان الله وان لم يطلعنا على اللوح المحفوظ أطلعنا على الصورة المنطبعة فى الأرض منه . فهذه الطوائف الحيوانية والنباتية التى قرأت بعضها هنا وفيما تقدّم فى هذا التفسير والتى ستقرؤها ان شاء الله فى سورة ــ قد أفلح المؤمنون ــ اذا درسناها حقّ دراستها أرتنا جمال ذلك اللوح المحفوظ فان الاتقان فى الصنع بحيث ترى الفأر والأسد والجمل وطوائف الحشرات والسمك كل واحد منها قد أعطى مابه حياته . ذلك كله نظام وترتيب . والنظام والترتيب انما يكون من العلم . فالعلم والحكمة المخبوآن عنا المحفوظان عند الله قد ظهرا فى هذا الوجود و بانا أيما تبيان لمن يدرسون . أما الذين يعيشون وهم ساهون لاهون مكتفون بقشور العلوم و بما نالوا من شهادات من مدارس عالية فأولئك ربما كان غرورهم بعلمهم القليل يحملهم على انكار مالم يعرفوا والتظاهر بالانكار ليدفعوا بذلك الانكار والتكبر الخزى والعار أمام الذين يعلمونهم فاذا سئلوا فى مثل هذا المقام قالوا هذه أشياء يقتضيها الوسط والبيئة وأحوال الجوّ وهكذا . واعلم أن الله عزّ وجل حجب أكثر النوع الانسانى عن معرفة هذا وأمثاله رحمة منه بهم كما قدّمت فى أوّل المقال ولو أنهم عرفوا ذلك لسكروا ولانبهروا فكان فرحهم عظيما لكن الله برحمته شغل الناس باطعام أنفسهم و بملابسهم و بعداوانهم وأعمالهم فهم فى شغل شاغل . كل ذلك ليقوّى عقولهم حتى يستأهلوا لمعرفة هذا الوجود ولو عرفوه الآن لذابت أكثر النفوس فهو هنا حجبها ليقويها ولا يعطيها من العلم إلا بمقدار على حسب

قابليتها • فاذا رأيت زيدا يحقر هذه المسائل فلاتعجب لأنه الآن يربى بالنقم والنعم والعز والذل والفقر والغنى لتتربى نفسه فى الصيف والشتاء والخريف والربيع فتشتدّ وتقوى حتى اذا فارقت روحه بدنه استحق من العلم على مقدار ما استعدّ له فحجب الناس عن العلم لم يكن بخلا ولكنه يحرمهم منه الى أمد معلوم لمنفعتهم لا لغير واذا رأيت نفوسا متعطشة الى هذه المعارف ونالت بعضها فاعلم أنها استحقت ذلك • ذلك هو الصراط المستقيم والحمد لله رب العالمين

﴿ التسبيح والتحميد ﴾

استيقظت قبيل فجر يوم الأحد ٣١ يوليوسنة ١٩٢٧ فخطر لى أن هذا الموضوع يعوزه التمام فهاأناذا ذاكر ما انشرح له صدرى تتميما للمقال فأقول

لقد علمت أن الألوان جعلت لحماية الحيوان فيما تقدّم وفيما سيأتى فى سور أخرى فاعجب لذلك واعجب لقوله تعالى — وان من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم — من هنا فليقرأ المسلمون التسبيح والتحميد • التسبيح تنزيه • والتحميد آثار للنعم • هـذا هو مقصود التسبيح • أمرنا بالتسبيح فى صلواتنا وسبحنا فى الركوع وسبحنا فى السجود فى كل واحد (١١) مرة وحمدنا فى الرفع والاعتـدال فقلنا ﴿ ربنا لك الحمد ﴾ وحمدنا فى أوّل الفاتحة فى كل صلاة فنحن قوم حمادون ونحن الذين قيل لنا — فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحـمد فى السموات والأرض — وجاء فى سورة يونس السابقة قوله تعالى — وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين — هـذا المقام هو سر التسبيح وسر التحميد الذى لانفهمه نحن سبحنا وتسبيحنا لفظى • وحمدنا وحمدنا لفظى • فاذا لم نتبع اللفظ معناه كنا ضالين • ومعنى الحمد ومعنى التسبيح يظهر فى أمثال هذا المقام مقام الألوان • الله أكبر جلّ الله وجلت الحكمة • اللهم انك أنت الذى أبرزت هذه الأشكال الحيوانية الآتية صورها فيما سيأتى وأنت الذى رسمت عليها تسبيحك وحمدك • فبالأوّل نزهناك عن العبث فى صنعك والبعد عن الصواب فى خلقك • لقد كسوت الحيوانات أكسية لونتها بألوان خاصة فكانت وقاية لها • فألبست الدب فى الأقطار الشمالية قباء أبيض وخلعت على الزنبور حلة مزركشة مزوّقة براقة يراها الناظرون وحبوت سكان الصحارى من الدواب ألوان رمالها وأفضت بنعمك على تلك المخلوقات التى هى فى كلاءتك وزينت بعض الحشرات بزينة تشبه زينة حيوانات من نوعها وبهذه المشابهة أوهمت أعداءها أنها لها سلاح كسلاح المشبه به اقتصادا منك فى عملك ولطفا منك بمخلوقاتك ورحمة بها فحميتها من أعدائها بمجرد المشابهة اللونية لما له سلاح من نوعها كما سيأتى صور ذلك فيما سيأتى من مجلدات هذا التفسير فى محله إن شاء الله • واذا رأينا حشرة كزرق الطير • واذا رأينا طائرا ليليا يسمى (سكانك) فى أمريكا الشمالية قد ازدهى لونه وجمل شكله فصار فى الليل ظاهرا واضحا وقد طال ذنبه الأبيض الزاهى الذى هو علم له يرفعه ليعرف • أقول اذا رأينا هـذا وذلك فاننا نقول اننا نزهنا الله بعقولنا لا بألفاظنا فقط • نزهناه عن العبث أى العبث فى وضع هذه الألوان وهذه الأشكال فنرى أن شكل زرق الطير للحشرة المذكورة انما جعله الله وقاية لها فليس هـذا ازدراء واحتقارا ولهوا ولعبا بل الحكمة أصبحت معروفة لنا فان الطير لايشك فى أن هـذا زرقه فيصدّ عنه فيكون هذا الشكل رحمة بالحيوان فاذا سمعنا الله يقول — وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا * ذلك ظنّ الذين كفروا — فذلك لأن الذين كفروا بالله يقولون إن العالم جاء بالمصادفات والامتزاجات وهكذا ظنّ جميع الجهال وجميع المتعلمين تعليما ناقصا ولكن الذين اتبعوا الأنبياء منهم يؤمنون ويصدّقون ولكنهم لايفقهون الحقائق ويخطر لهم أن هذا العالم باطل ولكنهم يدفعونه بإيمانهم وتصديقهم والايمان غير اليقين • وهكذا نقول فى الطائر المذكور الآتى شرحه فى المجلدات الآتية إن شاء الله تعالى • نقول إن هـذا الطائر الأمريكى قد أعطاه الله سلاحا وهو أنه ينشر رائحة

كريهة بها يدفع كل هاجم عليه فجعل الله هـذا الذيل الطويل البهج الجميل الأبيض ليكون علما له يرفعه فتراه الطيور الكواسر فتفر منه ولاتقرب به لأنه نشر علمه يقول أنا البطل المغوار أنا الليث الكرار أنا الذى أدفع أعدائى بسلاح عجيب النشأة غريب . قلدنى الانسان فاخترع الغازات الخانقة والمعمية فأنا أول من حارب الأمم بالغاز الكريه شمه وأعدائى من الحيوان ليس عندها وقاية تقيها على أنوفها من رائحتى الكريهة كما استعمل جيوش الحلفاء أكنة على أنوفهم فى الحرب الكبرى وقاية لها من غازات الألمان الذين قلدونى فى اختراعى فلى السبق عليهم فى هـذه الصناعة . اذا فهمت هذا فهمت معنى قوله تعالى ـ وان من شئ إلا يسبح بحمده ـ فجعل التسبيح ملتبسا بالحمد وهذا هو الحق فان الحشرة التى على لون زرق الطير قد كتب على بدنها مانصه ﴿ أنا أنزه الله عن العبث فى وضعى على هيئة قذرة فلم يجعل هذا عبثا وانما جعله لمنفعتى ﴾ فقول الحشرة إن هذا الوضع ليس عبثا وانه لمنفعتها تضمن التسبيح والحمد معا لأن النعمة هنا هى الوقاية من الهلاك والوقاية مرتبطة بهـذا الشكل القذر فقذارة الشكل بها النجاة فتى قلنا بها النجاة نزهنا الله عن العبث وصارت له منة على الحيوان فالتسبيح هنا ملازم للحمد . فهذا هو سر ـ وان من شئ إلا يسبح بحمده ـ فالتسبيح هنا مع الحمد لاينفصل أحدهما عن الآخر . فهذا الشكل أفادنا الأمرين معا تنزيه الله عن العبث وفضله على عباده . ومثل هذا نقول فى الطائر الأمريكى فرائحته الكريهة التى يطلقها على عدوه هى شئ قذر والله لم يخلق هذا القذر الكريه الرائحة عبثا بل جعله وقاية لمن اتصف به فصل ﴿ الأمران ﴾ تنزيه الله عن العبث فى وضع هذا القذر المكروه الرائحة والمنة والنعمة على الحيوان . فالتسبيح والتحميد متلازمان وهذا يفهمنا معنى قوله تعالى فى سورة يونس قبل هذه ـ دعواهم فيها سبحانك اللهم ـ الى قوله ـ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ـ فهذا المقام فتح لنا باب فهم ذلك على قدر طاقتنا البشرية . إن تسبيح أهل الجنة وتحميدهم ليس كتسبيحنا ولا كحمدنا بل هـم يسبحون ويحمدون بطريق الالهام كما ورد فى الآثار انهم يلهمون التسبيح والتحميد كما نلهم نحن النفس فالتعبير بالالهام يفيد أن ذلك التسبيح وذلك التحميد قد ظهر الآن فى هذا التفسير شعاع نور منه فان ألوان الطيور وأشكالها وهكذا كل حشرة وكل حيوان جميعها امتزج فيها التسبيح بالتحميد ولكنه معقد غير معقول إلا لقليل من الناس ولذلك قال لنا ـ ولكن لاتفقهون تسبيحهم ـ إن تسبيحهم مندمج فى حمدهـم . إن هـذه العوالم كلها عبارة عن كتاب كتبته بيدى يدل دلالة أوضح من دلالة ماتكتبونه بأيديكم وماتتلفظونه بألسنتكم ولكنكم تقصرون عن ادراك ذلك وأنتم فى هـذه الأرض ولايفهم بعضـه إلا أناس اخترتهم لذلك وهم الذين قلت فيهم ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ولايتم الفهم إلا بعد الموت لأولى الألباب ولذلكم جعلت تسبيح أهل الجنـة مفصولا عن حمدهم والتسبيح على قدر التحميد أريد بذلك أن المعانى المعقدة عليكم والمعانى المخبوءة فى هذه الصور والأشكال التى هى حروفى وكلماتى التى خفيت عليكم وأنتم هنا فلاتفهمونها هى التى ستظهر لأهل الجنة فيعقلونها بطريق الالهام فتفصل لكم الأشياء تفصيلا كما فصلت الحمد هنا عن التسبيح بحيث تعقلون جمالى وقد قويت أرواحكم فحملت ذلك فصارت فى لذة لايحلم بها ولايقدر على تحملها أهل الأرض . هذا تحقيق بعض المعانى فى قوله تعالى ـ ولكن لاتفقهون تسبيحهم ـ الممتزج بالتحميد بخلاف أهل الجنة إذ يسبحون ويحمدون بالفهم والعقل لا بمجرد اللفظ كما تفعلون . هذه هى المعانى التى خبأها الله فى صور الحيوانات التى تعيش بين ظهرانينا فهو آخذ بناصيتها وهى أنفسها تسبيح وهى أنفسها حمد ونحن اليوم لانعقلها وسنعقلها بعد الموت . واعلم أن هـذا التفسير فتح لباب هـذه المعانى وسيكون فى هذه الأمة حامدون ومسبحون بطريق العلم والحكمة ويكونون نورا للناس وتكون هذه العوالم فى نظرهم جنة عرضها السموات والأرض وأى جنة وأى لذة أبقى وأرق وأعلى من الوقوف على الحقائق التى ستكون نورا لنا فى هـذه الدنيا ويوم

القيامة نهتدى به لعلوم أعلى والعلوم هى حقائق التسبيح والتحميد

اذا علمت هـذا علمت كيف أمر المسلم بالاكثار من التسبيحات والتحميدات بكرة وعشيا . ولماذا يقول ﷺ لفاطمة رضى الله عنها لما سألته خادما كما فى البخارى ﴿ اذا أخـذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثا وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين وكبرا ثلاثا وثلاثين ﴾ ثم ذكر أن هذا خير لهما من خادم . أليس ذلك معناه أن العلم هو اللذة القصوى . فاذا كان الخـدم لراحة بدن المخدوم ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ اذا كانت الحياة فيها لذات كالبقاء فيها وكالتلذذ بالمـال والخدم والحشم فان هنالك ماهو خـير لسعادة الانسان وهى ادراك الحقائق الذى دخل تحت التسبيح والتحميد والتكبير وذلك كله مخبوء فى العوالم التى نشاهدها أمثال هـذا الطائر الأمريكى وهو بدن مركب من أجزاء أوكلمة مركبة من حروف دلت على معان لايفهمها إلا الخاصة ولايفهمون منها إلا قليلا وفهمها هو عزّ الدنيا وعزّ الآخرة وسعادة الروح وسعادة البدن وهـذه الكلمة من كلمات هى المذكورة فى قوله تعالى ـ قل لوكان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبـل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا ـ فها أنت ذا أيها الذكى أخذت تقرأ فى هـذا التفسير بعض كلمات الله فى اللوح المفتوح أمامك وهو هذه الدنيا وأكثر الناس حولك لايعلمون والحمد لله ربّ العالمين

﴿ المتعاسون تعلما أوروبيا فى الشرق يجهلون حقائق العلم فى أوروبا وفى الاسلام ﴾

تبين لك من هذا المقال فى تفسير قول هود ـ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هوآخـذ بناصيتها الخ ـ أن كل دابة لاتعطى لونا ولاشكلا إلا لمنفعتها بحسب الاستقراء حديثا وهاك ماكتبه العـلامة (روبرت برون) فى كتاب موسوعات العلوم المتقدّم ذكره قال ماترجمته فى صفحة (٢٨٤) من المجلد الثانى (لقد كتبنا فى مقال سابق من صفحة (١٢٨) الى صفحة (١٨٧) (أقول هى المقالة التى استخلصنا بعضها هنا وستذكر فيما بعد) فى الألوان الحافظة للحيوان واجتهدنا أن نلق شـعاعا من العلم ووضوح الحقيقة فى المقصود من هذه الألوان الخاصة وفى أصولها من حيث انها بها يختفى الحيوان عن أعدائه الآكلات له وعن فريسته التى لابدّله من اصطيادها . ولقد أبنا هنالك كيف كان موضوع الألوان متسعا متشعب الأطراف فى الطبيعة وكيف ان ماكان يظهر للناس من الألوان انه للزينة وللزخرف (١) حينما كنا نبحث الحيوان وهو محبوس فى أقفاصنا (يريد أمثال الطاووس) (٢) وحينما نلاحظ صورته فى دار التحف) ظهر الآن انه خطأ محض وضـلال مبين لأن تلك الألوان جميعها لحفظ كيان الحيوان والمحافظة عليـه اذا درسناه وهو فى وطنه الأصلى أورأيناه وهو جاثم للاستراحة وقد اتخذ شكلا به ينجو من خطر الهجمات . انتهى بايضاح قليل

وهذا القول يفيدنا فائدتين ﴿ الفائدة الأولى ﴾ ان الناس فى غفلة معرضون عمـا حولهم وأن المتعلمين فى بلاد الشرق الذين قرؤا لغة أولغتين مع بعض العلوم هؤلاء هم كأكثر فقهاء الاسلام وهؤلاء ممن قال الله فيهم ـ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ وان هم الا يخرصون ـ أما ظنّ هؤلاء المتعاسين تعلما أوروبيا فانه اتجه بغرور الى أن ما أخذوا فيه شهادة من مدارس أوروبا هو العلم كله وهم فى الوقت نفسه يجهلون حقائق العلوم عند الاوروبيين فأكابر علمائهم فى العلوم الطبيعية قد رأيت الآن نص مانقلته عنهم وانهـم يعيبون الذين يكتفون من الحيوان بظواهره ولايعقلون حقائقه . وأما ظنّ الفقهاء فظاهر انهم يتركون النظر فى هذا العالم ظانين انهم عرفوا كل شئ فالأوّلون منهم كفروا لقلة علمهم والآخرون جهلوا مايطلبه الايمـان ولوأن الطائفتين كانوا غير مخدوعين لدرسوا وحققوا فالكفر فى الأوّلين للغرور والجهل فى الآخرين للغرور وهاهى ذه علوم أوروبا التى نقلناها عن حكمائهم فى عصرنا فأعداء الشرق هـم الفقهاء الغافلون ومتعلمو العصر المغفلون فالفقهاء بادّعائهم نصر الدين قد هدموه وهم غافلون والمتعلمون تعلما أوروبيا بتركهم الدين واحتقارهـم كل دين أعربوا عن جهلهم بعلوم ساداتهم فى أوروبا . و يقول الله فى

الطائفتين

الطائفتين - فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن - وهذا تمام الفائدة الأولى

﴿ الفائدة الثانية ﴾ ان هودا عليه السلام كان يناوئه قومه و يعادونه وهكذا سائر الأنبياء فهؤلاء كلهم قد آذتهم أممهم فقال لهم هود أنا لا أخاف منكم - إنى توكلت على الله ربى وربكم - واحتج على ذلك بدليل وهو أن الله آخذ بناصية كل دابة فان وقع بى مكروه فهناك أحد ﴿ أمرين ﴾ إما أنه ينجينى منه واما أن ذلك المكروه يكون سببا فى ثواب الآخرة كما قال تعالى على لسان نبينا ﷺ - قل هل تربصون بنا إلا احدى الحسنيين - فجعل النصر حسنى والقتل فى سبيل الله حسنى وهذا هو معنى التوكل أى ان الانسان يجتهد فى عمله والنتيجة تسلم لله وتكون هى خيرا للانسان بحسب حاله كما اننا رأينا الطائر الأمريكى قد جعل المكروه من رائحته والمحبوب من شكله الزاهى الزاهر كلاهما لحفظه وكما رأينا تلك الحشرة التى شكلها شكل زرق الطيور قد جعل ذلك الشكل القبيح لوقايتها فهنا قبيح وحسن لوقاية الحيوان وقبيح خالص لوقايته أيضا هذا هو الذى يقصده هود عليه السلام • يقول إن الله تكفل بالحيوان وجعل المكروه والمحبوب لمنفعته فها أنا ذا أتوكل على الله وأقول ان المكروه والمحبوب نافعان لى والشر كالخير لأن النتيجة هى الفائدة لى وربى الذى رأيناه جعل المكروه والمحبوب نافعين للحيوان هو نفسه الذى قدر لى المكروه والمحبوب • فبالقياس على الحيوان يكون المكروه كالمحبوب فالأول للذتى فى الحال والثانى للذتى فى الاستقبال وهذا هو قوله - إن ربى على صراط مستقيم - اهـ

﴿ زيادة ايضاح - إن ربى على صراط مستقيم - ﴾

انه يربينا على صراطه المستقيم وهو يهدينا الصراط المستقيم كما قال تعالى - وانك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله - فقول المسلم - اهدنا الصراط المستقيم - يريد صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وأن الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض يدبرهما بالقسط والعدل فيجعل الفأر أسود والزنبور أحمر والطائر الليلى الأمريكى فيما تقدم أبيض ذا ذيل طويل والحية والضب بلون الرمال ولا يجعلهما كالطاووس وهكذا مما لانهاية له يفعل ذلك على صراطه المستقيم فلو عدل عن هذا الصراط لفنيت الفيران بظهور ألوانها ليلا ولو لم يعط الزنبور حلته البراقة الدالة على ماله من سلاح لهجمت عليه الطيور الآكلات للحشرات وهكذا مما علمته • هذا فتح لنا سر القضاء والقدر • القضاء والقدر سرهما محجوب عن الناس جميعا لأننا فى الأرض محبوسون وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس ذلك بخلا من الله كما لم يكن منع اعطاء الفأر لون الطاووس بخلا منه بل ذلك منة منه وفضل ولكن ماذكرناه هنا فيه بصيص من نور ذلك السر

ذلك أنه جاء فى سورة الأنعام - سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلوشاء لهداكم أجمعين - الله أكبر جل الله وجل العلم وظهر بعض السر وأذن الله بارتقاء المسلمين و بعلو كعبهم فى العلوم • إن هذا التفسير منحة من الله • ذلك أن أبواب العلم اليوم قد فتحت ومن أجلها ماذكره فى هذا المقام • ذكر الله أن الذين أشركوا سيحتجون بالقضاء والقدر على صاحب الرسالة و يقولون اذا كان كل شئ بمشيئة الله فلم هذا الوعيد والانذار على الكفر والذنوب ومنهم أكثر المتعلمين اليوم والجهلاء فأجابهم أولا بالتهديد بأنهم يذوقون البأس كأمثالهم من الأمم وثانيا يصفهم بالحرمان من العلم ولو كان عندهم علم لهداهم والعلم شئ والظن شئ فالعلم اليقينى هو النظر فى هذا الوجود والنظر به يكون اليقين الذى اتصف به الخليل وهذا اليقين انما يكون بمثل النظر فى أنواع الحيوان المذكورة • إن الناس فى مستقبل الزمان سينالون حظا عظيما من علوم الحيوانات وغيرها وهنالك يدرسون بالعلم والحكمة أن الله لم يعط حيوانا لونا ولا شكلا ولا هيئة إلا جعل ذلك نافعا له وعند التحقق من هذا

يزول الاعتراض بالقضاء والقدر لأن القبح والحسن وغيرهما كلها لمنفعة نفس الحيوان فهـذا هو العلم وهذه هى الحجة البالغة التى كتبها الله لنا بخلق صور الحيوان ولست أقول لك ان هذا كل الحجة بل هو فتح لبابها يجيب الله كل سائل متكل على القضاء والقدر بأن العلم هو الذى يعرّفه صراط الله المستقيم ومتى علم الناس أدركوا بعض حجة الله البالغة وأىّ حجة أبلغ من خواص الحيوان وعجائبه

ظهر مما تقدّم ومما سيأتى فى سورة المؤمنون أن كل حيوان يجب أن يكون على ماهو عليه والا هلك فهنا أمور ﴿ الأوّل ﴾ أن لكل حيوان شكلا ولونا لايصلح لغيره ﴿ الثانى ﴾ أن هذا هو العـدل وسواه ظلم لأنه يترتب عليه هلاك الحيوانات ﴿ الثالث ﴾ أن النقص لافرق بينه و بين الكمال والحسن والقبح كذلك فكل ذلك لبقاء الحيوان فيكون نقصه بالنسبة لغيره كمالا بالنسبة له • هذه هى حجة الله البالغة هدانا الله الى أوائلها فى هذا التفسير • هذا صراط الله المستقيم فكيف يكون صراطنا نحن فى قوله لنا

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

قد علمت أن الله يقول لنبيه ﷺ ــ وانك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الخ ــ فصراطنا هو نفس صراط الله ولكن صراطنا على حسب أحوالنا ﴿ أوّلا ﴾ أن نعلم أن ما يحصل لنا من الحوادث ونراه نقصا لنا أوضرّا نتيجته المنفعة لنا قياسا على الحيوان الذى عرّفنا كيف كان الله على صراط مستقيم ﴿ ثانيا ﴾ أن نذر الافراط والتفريط فى الامور ونكون وسطا فى كل شئ فى الكلام والأكل والحبّ والبغض وهكذا وهذا ملخص علم الأخلاق ﴿ ثالثا ﴾ تزيد علما حتى توقن أن ما أصابنا من مكروه فهو نعمة علينا كما أن سواد الفأر نعمة عليه بل الذنوب التى تورثنا ندما ربما كانت سبب اشراق قلوبنا فاذن لا يكون فرق بين المرض الجسمى والمرض الدينى وهو الذنب فى أن كلا منهما قد ينير العقل ﴿ رابعا ﴾ أن نكون حكماء فلا نقول كلمة أو نعمل عملا إلا اذا وزناه كما رأينا الله وزن الألوان والأشكال ولم يعطها إلا لأربابها فلا بخل عنده ولا هو حائد عن الصراط المستقيم اهـ

﴿ بهجة الأنوار فى عجائب الحيوان ﴾

يظهر لى أن هذه الدنيا لانهاية لعجائبها ولاغاية لبدائعها • هاأناذا ألمعت الى ماستقرؤه فى سورة ــ قد أفلح المؤمنون ــ من عجائب الألوان فى الحيوان و بعد ما كتبت ذلك عثرت على أمر يدهش العقل ويحير اللبّ ستقرؤه فى سورة الرعد عند قوله تعالى ــ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ــ سترى هناك أمرا عجيبا • ذلك أن من النبات ماهو مفترس لايتغذى من التربة ولايتعاطى خلاصة النبات كالغزلان والجمال بل لا يأكل إلا اللحم أو الحشرات وله طرق خاصة لصيد فريسته ومنه مايسمى (بالنبات الجزار) لأنه متى وقعت فريسته فى قبضته لم تفلت منها بل يفترسها وسلاحه فى ذلك ﴿ أمران ﴾ حسن ألوانه مع الجمال ومقدار من العسل موهوب له من الله • فهذان أعطيا له ليكونا سببا لخداع الحشرات فتسرع اليه فتكون غذاء وهناك ترى صور تلك النباتات وشرحها

أليس هذا من قوله تعالى ــ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ــ • أخذ الله بناصية هذه الدواب النباتية اطلع عليها فعلم أنها لاقوّة لها لتنتقل بها من الأرض • فماذا فعل لها • أمر الحشرات أن تطوف حولها وأعطى هذه الدواب المذكورة من نعمه عسلا ومنظرا حسنا ليكونا سببا فى دخول هذه الحشرات فى المذبح فلاتخرج منها وانما تدخل فى ضمن غذاء ذلك النبات • اللهم إنا نعجب من صنعك وحق لنا أن نعجب • أخذت بنواصى كل دابة • يعيش أقوام ويموتون من أهل الأديان ومن الملحدين وأكثرهم يغفلون لايفطنون • يسمعون أن ذلك النبات يفترس الحيوان فيمرّون عليه مرّ الكرام فلا المتدين يدهش لذلك ويكون سببا فى بحثه وسعادته وجمال العلم فى قلبه ولا الملحد يعقل كيف خلق هذا وكيف سهلت له الأسباب

حتى

حتى حظى بغذائه بدون انتقال وعذب الانسان والحيوان فى طلب الرزق ولم كان البذل مقدرا بمقدار الحاجة عجز النبات الحيوانى عن السعى فأرسل له ما يأكله بحيل خلقت فيه وأعطانا وأعطى سائرالحيوان قوّة فأبعد مطالبنا على مقدار قوانا • اللهم انى أعجب لهذه الدنيا اختلفت أعمالها واتفق نظامها

﴿ حياة الأرضة ﴾

ثم إنى اليوم نظرت فيما قاله العلامة (مترلنك) الذى أبدع فى حياة النحل وألف فى حياة (الأرضة) على وزن بقرة وهى دودة عمياء و يسمون هذا النوع بالنمل الأبيض أوالنمل الأعمى والحقيقة أنها ليست بنمل ولاهى بيضاء بل لونها جمع بين البياض والكدرة وهو (الأغبس) من الغبس وقد عرفته ﴿و بعبارة أخرى﴾ لونها لون الأرض التى تعيش فيها وهى الآتية إن شاء الله فى قوله تعالى ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته الخ ـ فى سورة سبأ فأحببت أن أوجز فى وصفها ليزداد علمنا بقوله تعالى ـ مامن دابة إلاهو آخذ بناصيتها ـ يقول هذا العالم ان هذه الدابة عاشت قبل الانسان مائة ألف ألف سنة وهذا بحسب ظنه وظن علماء زماننا • ويقول ان حضارة هذه الحشرة أقوى من حضارة النمل والنحل وقد درس هذه الحشرة علماء مثل (كونج) و (هنرى سميثمان) وغيرهما من فطاحل العلماء وهو حيوان يتراوح بين (٣و١٠) مليمترات طولا وأغلبه لا يكون له أجنحة وهو بطىء الحركة ولايعيش فى غير البلاد الحارة ولايرى الشمس لئلا يموت ولا يعيش إلا فى الرطوبة وهو أنواع كثيرة فمنه ماهو بناء يقيم هضابا فوق الأرض ومنه مايعيش فى العراء ويمشى بين صفين من الجنود يحتمى بها من الأعداء ومنها مايفتك بالأشجار وقد تكون مساكنها تعلو فوق الأرض أربعة أمتار ومحيط قاعدتها (٣٠) قدما كأنها قالب سكر ومنها مايبدو كالقناطر نصبت فوق أعمدة متعوّجة وقد يستطيع الفارس أن يمشى من تحتها • ومن مساكنها ماشوهد فى أفريقيا الوسطى ولاسيما فى (كنغو البلجيك) حيث يبلغ العلوّ من ستة أمتار الى ثمانية أمتار • ومن عجب أن هذه الحشرة يظن العلماء أنها قد أعطيت علما بالكيمياء لم يعرفه الناس فانها تعيش فى أصقاع لا أثر للماء فيها ولا للحياة يقولون انها ربما أخذت (الأوكسوجين) من الهواء وجمعته الى (الاودروجين) الذى تجده فى غذائها النباتى ليتكوّن منهما الماء • ومعنى ذلك انها تقدر أن توجد الماء بطريقة كيمائية عجز عنها الناس فى الأرض • وهذه الحشرة لها ملكة كما للنحل سترى رسمها ان شاء الله فى سورة سبأ وبجانبها الملك فهى تملأ اليد وهو كالأنملة وحولها الضباط المحافظون على حياتها والكشافة الصغار المحيطون بها وهناك الذين يطعمونها عند فمها والذين يتلقون بيضها عند مؤخرها ثم انها لاتقوم من مرقدها حتى آخر أجلها وهناك جنود وعمال والجنود والملك والملكة لايتعاطين الطعام إلا مما تعطيه لهن العاملات اللاتى تشبه من النحل العاملات فيه وهى الشغالة

ومن عجب أن تلك المملكة العظيمة يقوم بها الملك والملكة والعمال والجند فى الظلام وقد تفتك بالأشجار والمنازل والملابس والقرى ولولا النمل ومحاربته لها لأهلكت الحرث والنسل وأخربت كثيرا من بلاد نوع الانسان • ومن عجب أن هذه الدولة يتربى تحت اشرافها وفى مدينتها فى الظلام جماعات كثيرة ذوات عيون وأجنحة • فاذا ولى الخريف ودنا موعد المطر وتلك المخلوقات لم تزل فى تلك القرية المحكمة السدّ المسدودة الكوى الكثيرة الجنود ذوى القوّة والبسالة اللاتى يبلغن خمس عدد القرية • هنالك يحصل أمر عجب لا يدرى من أين جاء فما هو إلا أن يرى الانسان هؤلاء الجنود (الذين وقفوا على الفتحات التى تأتى بالهواء ليلا ونهارا لايتركون موقفهم لحظة طول السنة) قد تخلت عن أماكنها لحظة واحدة فى كل باب وخرجت آلاف الآلاف من تلك المخلوقات ذوات الجناح والبصر خرجت هذه المخلوقات فرحات اذا هناك جماعات يعلمن وقت خروجهن من العصافير والحيات والهررة والكلاب وسائر الحشرات لاسيما النمل فتهجم على هذه الفرائس التى خرجت فى الجوّ كالعرائس لأنها قد أعطيت قوّة الذكورة والانوثة بخلاف التى فى المدينة فان الذكورة والانوثة

فيها قد صارت آثارا لاعمل لها . فهذه العرائس تفتك بها هـذه الجيوش التي حضرت لتقتات منها وهكذا بنو آدم يحضرون و يقتسمون تلك الغنيمة مع الحيوان فيجمع الانسان مايراه بالمجرفة و يأكله بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز و يبيعه فى السوق كما فى جزيرة (جاوه)

هذا ما أردت ذكره من هذه الأرضة التي لاتبقى ولاتذر حتى انها فعلت مالاحدّ له من عجائب التخريب فقد تأتى على الشجرة الكبيرة فتأكلها و يبقى هيكلها كما هو فاذا جلس أحد بجانبها واتكأ عليها انهارت ووقعت كأنها دخان وذلك لأنها تحاذر أن يكون التلف ظاهرا فهى تأكل جميع ماتحت القشر وترققه ولها كثير من العجائب عسى أن أذكرها هناك فى سورة سبأ إن شاء الله تعالى . وههنا يأتى العجب فنرجع الى الفكرة العامّة فى هذا الوجود

﴿ نظرتى فى هذه الدنيا ﴾

أرجع فأذكر لك أيها الأخ فكرتى أيام الشباب فقد كنت أقول . هذا الوجود ان كان منظما فله إله وان لم يكن منظما فليس له إله . وصرت أقول فى نفسى ان هـذا الوجود اذا كان بصنع مبنى على تدبير وحكمة فاننا معاشر الأحياء نكون سعداء . واذا كان هذا الوجود عبارة عن مصادفة عمياء فالحياة هباء لاقيمة لها

فلما اطلعت على مارأيته فى هذا الكتاب وغيره ظهر لى مايأتى

لقد تبين لى من صانع هذه الدنيا أنه عمد الى المادّة وعلم أنها قابلة لما لانهاية له من الصور والأعاجيب فتلطف وابتدع كل وسيلة لبلوغ النهايات المختلفة من الصور . فبينما نراه قد خلق حيوانا يأكل الحيوان والنبات اذا به قد خلق نباتا يأكل من الحيوان و يأكل من النبات كما تقدّم . ألاتراه قد جمع بين الضدّين آكل ومأكول و يظهر لى أنه كما سحر عقولنا بما خلق من النبات الذى يأكل الحيوان وهو لم ينتقل من مكانه سحر عقول عوالم أخرى بخلقنا نحن إذ جئنا نحن فى الأرض وفينا المتناقضات . فنحن يحتاج بعضنا لبعض فى الشرق والغرب وكل لكل محارب فاذا اطلعت عوالم أخرى علينا أدهشها هـذا الصنع الغريب فيقولون قوم يحتاج بعضهم لبعض وهم يقتتلون كيف يعيشون . وهكذا يرون فينا أفانين الأخلاق و بدائع المدنيات واختلاف الديانات . وكيف كان فينا من لايعقل إلا شهواته . ومنا من يدرس الدنيا كلها وهكذا فيعجبون من متناقضاتنا عجبنا من تباينات الحيوان والنبات

هـذا فيما نراه حولنا من هـذه الدنيا والمادّة التى نعيش فيها وفى أحوالنا العامّة . فأما أجسامنا نحن وعقولنا فأمرهما عجب . فعل الله بها مافعله بالمادّة وبالحيوان والنبات . وذلك أنه كما عمد الى المادّة فخلق منها مادقّ من الذرات وماعظم من الجبال وهكذا الصلب والصخر ثم الماء والنور . وكذلك خلق الموز والحنظل والحلو والمرّ . أعنى أنه استخرج من المادّة كل ما يمكن حصوله منها . هكذا نراه خلق فينا المتضادّات الصغر والكبر والعزّ والذلّ والصحة والمرض والحزن والفرح

هذه هى صفات أجسامنا صفات تدلّ على أنه استخرج من أجسامنا وأرواحنا كل ما أمكن حصوله منها فهى تفرح وتحزن وتمرض وتصحّ وتضعف وتقوى . إذن أجسامنا أشبه بالأرض فهى مزارع فكما زرع فى الأرض الحلو والمرّ زرع فينا المحبوب والمكروه وكأنه سبحانه رأى من العدل أن يعلمنا بكل ما نستعدّ له أى انه يفهمنا كل ماتستعدّ له أجسامنا وأرواحنا هذا هو فعل صانع العالم يستوى عنده محبوبنا ومكروهنا كما استوى عنده المرّ والحلو فى الأرض والصلب واللين فى المادّة والهواء والصخر . إذن صانع هذا العالم يريد أن يستخرج فينا كل شئ كامن فى استعدادنا أسوة بالمادّة التى نعيش فيها . هذاهوالنظام الذى رأيناه منذ عشنا فى هذه الأرض

إذن

﴿ إذن مانتيجة هذا النظام ﴾

نحن الآن فى الأرض قد حبسنا فيها وليست عقولنا هى المسيطرة لأنها محبوسة وانما يمكننا أن نتلمس الجواب مما عرفناه فى هـذه الطبيعة . لقد جاء لنا وحى الديانات كلها بأن هناك عالم الآخرة وعالم الآخرة تظهر فيه أرواحنا بمظهرها الحقيقى والذى جاء فى الدين كلام اجمالى ونحن الآن نبحث فى طبائعنا فنقول

لعلّ هذه الأرواح اذا خرجت من الأجساد ينفعها أنها ترى مزرعة الفرح والحزن والألم واللذة التى ابتليت بها فى الدنيا فيكون ذلك لها درسا . ثم ان حيوانات الغابات تقلّ عندها الأمراض والشرور التى ابتلى بها الانسان فكأن كثرة العطب تتبع الرقى والا لكان الحيوان أرقى من الانسان . وكما اننا فى الدنيا تسرّنا دراسة المرّ والحلو والغـذاء والدواء ونرى فى ذلك لنا حكمة . هكذا اذا متنا واطلعنا فى نفوسنا على ماقاست من ألم وماأصابت من لذة . وهكذا ما أحسنت من خير وما أساءت من شرّ . كل ذلك ليظهر لها مزارع ومناظر تتأمّلها النفس فترى فى ذلك درسا يعينها على رقى آخر فى عوالم أخرى . ولعلنا اذا لم نجرّب الخير والشرّ والضرّ والنفع والصحة والمرض هنا نجد أنفسنا فى نقص هناك ونحسّ بجهـل عميق لأن الروح لم تدرس نفسها ولم تعقل ما كمن فيها فتكون إذن جاهلة بحال نفسها وهذا الجهل يضرّ بها هناك . وربما كانت بعض النفوس ستتولى ادارة بعض النفوس أوالعوالم بأمر الله تعالى كما قدّمناه فى بعض هـذا التفسير عن العـلامة الرازى واخوان الصفاء وعلماء الأرواح فى أوروبا فربما كان اتصاف الانسان بالآلام واللذات يعطيه فهما لما يتصرّف فيه باذن ربه فههنا حالان للنفس مكروه ومحبوب كالمرض والموت والصحة والحياة

فالذى ظهر لنا أن صانع العالم لما له من العلوّ والعظمة والكبرياء والبطش الشديد مع الرحمة التى لانهاية لها . قد خلقنا ولم يبال باحساسنا بل نظر نظرة إلهية لانظرة يجارى بها حواسنا وعواطفنا . خلق الحواس والعواطف لأعمـال فى الحياة ولـكنه هو نظر الى ماهو أسمى . فانظر ماذا ترى . تراه يتلطف بالجنين فى بطن أمّه و يعطف عليه قلب والده و يخلق له اللبن ويحبب فيه المعلمين ويخلق الزراع والتجار والجنود . كل هؤلاء للمحافظة بالرحمة . ونراه يتلطف مع (النبات الجزار) المتقدّم فيعطيه العسل خاصة ويجمل لونه ليكون ذلك بابا لرزقه وفتحا عليـه . هذا لطف عظيم ولـكنه يأتى بعـد ذلك فيقلب الوضع فيأتى للنبات من يقلعه وللانسان من يقتله أوهو يموت فأين هذه الرحمة والعطف . إذن نقول نقيس ماغاب على ماشوهد ونقول اذا قتله أوأماته فمعناه انه جعله فى مكان آخر بحال أخرى ثم أتبعه بالرحمة التى كان يكلؤه بها فى الدنيا

وإذن نقول . بهـذا نفهم الحديث الوارد فى الرحمة وانها مائة جزء وقد ادّخر الله منها تسعا وتسعين فى الآخرة وأعطى واحدة لأهـل الأرض بها يتراحم الانسان والحيوان حتى ان الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصـيبه . هذه الآراء التى لاحظناها فى هـذا الوجود هى التى قد خبئت فى قوله تعالى ـ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة والينا ترجعون ـ أى اننا استخرجنا منكم كل ما كمن فيكم من الشرّ والخير كما استخرجنا من المادّة كل ما كمن فيها ثم انكم ترجعون الينا وقد عرفتم مافيكم من الصفات علما لاتشوبه شائبة لأن أعظم العـلم ما كان باحساس الحى نفسه وتجربته هو نفسه . ويظهر لى أن نوع الانسان لا يكمل إلا اذا بلغ فى العلم مبلغا به يستوى عنده الموت والحياة تبعا لسنة صانعه هـذا هو الحق . أما الانسان اليوم فهو لايزال جهولا كفارا . إذن عمل الله تعالى هكذا

(١) أب وأم (٢) زراع تجار وأطباء (٣) حكومات (٤) معلمون (٥) منافع عامة فى المخلوقات الحيوانية والنباتية وغيرها

(١) أعداء محاربون (٢) فقر وذل ومرض (٣) اضطراب (٤) جهل (٥) الآساد والحيوانات الذرية للحمى والطاعون والموت

هـذان الجدولان وان كانا ليسا كاملين قد تناوبا على الانسان فهو حىّ ميت سـعيد شقىّ مريض صحيح . واذن الله تعالى من رحمته التى هى أعلى من احساسنا قد أحيانا وأماتنا وأتى لنا بالمتناقضات وهـذا

انما جاء من طريق الوحى . أما من جهة العقل فهو من طريق التمثيل والقياس فكأننا نقيس ماغاب على ماشوهد لأن علومنا ناقصة لنقص هذا العالم الذى نعيش فيه بالنسبة الى غيره

﴿ شرف درس الحيوان ونظام الدنيا ﴾

أمامى الآن كتابان من كتب الفرنجة أحدهما ﴿ مملكة الظلام ﴾ المسمى أيضا حياة الأرضة المترجم حديثا الى العربية الذى ذكرته قريبا ومؤلفه (مترلنك) والثانى كتاب ﴿ موسوعات العلوم ﴾ باللغة الانجليزية للعلامة (روبرت براون) المتقدّم ذكره . وفى الأوّل ماملخصه ان النحل قد يترك عاداته القديمة فيدرك فائدة مايصنعه الناس من أقراص الشمع ليضع فيها العسل فيختصّ إذن بعمل العسل وحده وهكذا نراه اذا نقل الى (أوستراليا) أو (كاليفورنيا) إذ يجد نفسه فى صيف دائم ويدرك أنه لايحرم أبدا من الأزهار فيكتفى بكسب قوته اليومى ولايصنع العسل . هكذا اذا وجد مايعتاض عنه كما فى مصانع السكر ثم يقول ان النملة عندها حماقة تضاد ماعرفت من تعقل النحل وذكر من ذلك أنها تخزن من الحبّ مايزيد عن حاجتها فاذا جاء المطر نبت ذلك الحبّ فيعلم به الفلاح فيهدم القرية الخ ثم قال هل النمل أقلّ ذكاء من النحل لاشئ مما نعرفه عنه يثبت ذلك وربما كنا قاصرين عن فهم حاله لأن درس القرية أصعب من درس القفير وأصعب منهما درس الأرضة . ولايخفى مافى هذا الدرس من الأهمية لأنه متى عرفنا سليقة الحشرات وحدودها وعلاقتها بالذكاء (وبالعقل العام) سهل علينا فهم سليقة أعضاء جسمنا التى تختفى فيها أسرار الحياة والموت . انتهى

وهو قد وضح فى موضع آخر من الكتاب أن الحشرات فى تقلبها وتصرفها ونظامها بحكمة وانتظام الجنود والعمال والملك والملكة مع كثرة الأعداد بما لاحصر له لاسيما فى حشرة الأرضة المتقدّمة لا يمكن ذلك إلا اذا كانت تلك الجموع أشبه بأعضاء لجسم واحد كما أن أعضاءنا كلها متحدة معا مرتبطة غاية الأمر أن جسمنا مندمج وجسم تلك الحشرات منتفش متفرّق فى الهواء النقى . هذا ما قاله الأول

وجاء فى الثانى فى المجلد الأوّل منه صفحة ١٨١ ماترجمته أن فى أجسامنا من الوظائف والأعمال وأنواع الاحساس عجائب وغرائب مدهشات ولكن لما كنا معتادين عليها أصبحت لاتستلفت النظر ولاتدهش العقل فان المألوف يظنّ أنه معروف لاعتياده والدأب عليه . وانما الذى يلفتنا لغرابة هذه الأعمال فى أجسامنا والاحساس فى ادراكنا انما هى المواهب العلمية الخاصة فهى التى تدفع ما أسدلته يد العادة على عجائب أعمالنا واحساسنا من الأستار وتوحى الينا جمال أنفسنا وغرائب أجسامنا وبدائع تركيبها بطرق الملاحظات والتفكير فيما حولنا وما يحيط بنا من العوالم

ثم قال . ان دراسة العوالم التى تحيط بنا أسهل تناولا من دراسة أنفسنا . إن دراسة أنفسنا جسما وعقلا قد عجزت عن ايقافنا على بعض من عويصات المسائل المادّية والعقلية . أما دراسة العوالم المحيطة بنا فهى نبراس لدراسة أنفسنا الخ

فهذان النصان المتطابقان يرجعان لغرض واحد وهو أن دراسة هذه العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة أنفسنا . فاذا درسنا النبات والحيوان وفهمنا قوله تعالى ــ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ــ ودرسنا نظير ذلك فى أوّل السورة وقرأنا علوم الأمم فى هذا المقام فاننا نكون إذ ذاك قد فهمنا لماذا قدّم الله العوالم الأرضية على النفسية فى قوله تعالى ــ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلاتبصرون ــ أفلاتعجب معى أن أن يكون علماء أوروبا يقولون هذا القول وهو نفس القرآن . يقدّم الله النظر فى الأرض على النظر فى النفس ويقول علماء أوروبا نفس هذا القول . يقولون ان درس الحشرات يعلمنا علم وظائف الأعضاء ويقولون ان دراسة العوالم المحيطة بنا تعرفنا دراسة جسمنا . الله أكبر جلّ العلم وجلت الحكمة وأشرقت

الارض

الأرض بنور ربها

﴿ لطيفة ﴾

ها أنت ذا رأيت حشرة الأرضة وانها تعيش فى الظلام . أليست هذه الظاهرة من العجائب التى تقرب لنا حال الأرواح الشريرة فى الآخرة . هذه الأرضة تعيش فى الظلام لاترى النور وهى محبوسة عاملة ناصبة واذا قايسناها بالطيور كانت الآخرة أشبه بمن فى الجنة والاولى أشبه بمن فى النار . أنظر الى هذه الدنيا كيف كان الفرق بين حال حشرة الأرضة وحال النملة أوالطيور كالفرق بين الحياة والموت فاذا كان هذا الاختلاف فى أرض واحدة صغيرة فكيف يكون الاختلاف فى عالم الآخرة بين عوالم كثيرة اه

﴿ فائدة هذه المباحث فى آيتنا وهوقوله تعالى ـ إنى توكلت الخ ـ ﴾

اعلم أن ماتقدّم به نعرف نظام هذه الآية فهو يقول ـ توكلت على الله ـ والبرهان على أنه جدير بتوكلى انى رأيته أخذ بنواصى الدواب جميعها فهو يحفظها ويغـذيها و يرحمها كما رأيت فى هذا المقام وانما استدللت بالدواب لأننى ألحظها وعسير علىّ أن ألحظ نفسى ففهم رحمة الله فى الحيوان أسهل من فهمها فى الانسان كما أن دراسة نظام الحيوان وغـيره حولنا أسهل من دراسة أنفسنا . هذا هوالسبب فى استدلال هود بالأخذ بنواصى الدواب فانظر وتعجب كيف يقول فلاسفة أوروبا قولا هوالذى فهمناه من نظام الآية وهـذا من عجائب القرآن

﴿ وحدة هذا الوجود ﴾

ان نظام الأرضة المذكورة ونظام النمل والنحل ونظام الانسان بعد أن درسناه وشرحنا كثـيرا منه فى هـذا الكتاب أفادنا أن كل هـذه العوالم مشتبكة مرتبطة يخدم الانسان الحيوان والحيوان الانسان . والأرضة مثلا نراها تصدر آلاف الآلاف كل سنة فتأكلها الكلاب والطيور والهرر والانسان كما تقدّم فهذه الأرضة تهضم فتات الخشب الجاف من الورق فينقلب الى أجسامها ثم أجسامها طعام لنحو العصافير ثم العصافير طعام الخطاف والانسان وهكذا

فهذا يدلنا أن هذا الوجود كله مدبر بعقل واحد كما ذكرناه فى غيرهذا المقام إذ يظهرأن الله الذى خلق هذه المادّة خلق لها أمرا آخر يسميه الفلاسفة عقلا وهذا العقل من نور الله وأشعة هذا العقل وهذا العقل مثل شمس معنوية تصـير فى كل شئ بحسبه فهى فى الجماد تلاصق وجاذبية وفى المعدن صلابة ولمعان وقوّة خاصة وفى الهواء لطافة وفى الماء سلاسة وفى النبات نموّ وذبول الخ وفى الحيوان حسّ وحركة وفى الانسان ازدياد الفكر والعقل وفى الكون سير منظم وحركة دائمة فلعلّ هذه الأشعة العقلية العامّة أشبه بما نرى فى أجسامنا إذ اننا نرى الرجل الشهوى يقلّ عقله والعفيف الذى حفظ شهوته قد يحفظ عقله . وهكذا نجد من أنهك قواه فى عمل ما ظهرأثرذلك فى تفكيره فكأن فى الجسم قوّة واحدة اذا مالت الى جهة حرمت الأخرى منها فهى فى السمع قوّة لقبول الأصوات وفى البصرقوّة لقبول الصور وهكذا ويجد الناس أن العمى أذكى من المبصرين فكأن قوّة البصر تأخذ من القوّة العاقلة نصيبا فتضعفها . إذن هذا العالم فيه شعاع عقلى عام يتشكل فى كل شئ بحسبه . ولعـل لذلك الاشارة بقوله تعالى ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ والا فلماذا نرى هذا التعاون مع شدّة التفاوت وماهـذه المبانى التى تبنيها حشرة (الأرضة) المتقدّمة التى قد تمتدّ أميالا وترتفع أمتارا وتصبح فيها مراع خصبة للحيوان أخصب من غيرها ولماذا ينبت المرجان فى البحار جزائر وجزائر يسكنها الحيوان وينبت فيها النبات ثم يسكنها الانسان برّ وبحر كلاهما تكون فيه دابة حقيرة تبنى مساكن لنفع الحيوان والانسان وهكذا مما لايتناهى . ولعـلّ لهذا الاشارة بقوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ أى منوّرهما . فهاهوذا أظهر لنا أن نور الادراك والنظام سار فى عوالمنا المتجاذبة

المتعاونة المتحدة . فاننا نرى الجسم الأكبر كالشمس يجذب الأصغر كالأرض والأرض تجذب ماحولها وتجذب قمرها . هكذا نجد العقل الأعلى يجذب العقل الأدنى فكأن أمثال الأنبياء شموس وكأن عظماء أممهم كالسيارات وهكذا . ونجد المدرّسين يتبعهم تلاميذهم والرجل الصالح يلتف حوله ألوف من الناس فدلنا هذا على أن نظام الأرواح كنظام الأجسام الكبير فى الأرواح من حيث الكمال تتبعه الضعفاء الصغار فى ذلك الكمال والكبير فى الأجسام حجما تتبعه الصغار حجما أيضا فالكبر والصغر فى كلّ بحسبه حسا ومعنى

﴿ فصل ﴾

(١) الوحدة فى العالم اقتضت أن يفدى بعضه بعضا

(٢) وفى ذلك تلطف وحسن سياسة

(٣) وفساد شئ صلاح آخر

(٤) والاماتة شريعة كشريعة الحياة . وذلك لتخلو الأرض للباقين بعد الهالكين

ولما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه أحد الفضلاء . قال لوأنك أقفلت هذا الباب لكان أولى فلقد أثرت ثائرة فى نفسى وأخذت أقول . أليس من الظلم أن يتربى الأفواج من حشرة الأرضة لتكون طعاما للهرّة والكلبة . أولم يكن من الغشّ والخداع أننا نراها تخرج من قراها مسرعة لتفرح بالحياة الزوجية اذا المنون حاضر لديها . وهل من الصدق أن تخدع الحشرة المسكينة بقطرة من العسل عند النبات الجزار المتقدّم و باللون الجميل . إنّ الذى يقرأ هذه العلوم يغمره الشك ويغشاه الكفر وكراهة هذا الوجود

فقلت أما كون الأرضة طعاما للكلبة والهرة فهذا هو نظام هذا العالم الذى نعيش فيه وأنا وأنت نفتخر بأن نكون طعاما لحيوان فكيف تنكر ما تستحسن وتظهر الكراهة لما أنت محبّ له وتقع فى هاوية المتناقضين . فقال هذا لا أعقله ومابى من جهالة . فقلت ألم تر الى أهل الأرض قاطبة أليسوا جميعا يفتخرون بانهم يقدّمون أنفسهم للقتل وهم يجاهدون فى سبيل حفظ الشرف أوالمال أوالوطن أوالدين ومن ذا الذى يضنّ بنفسه على حفظ عرضه وشرفه . ومن ذا الذى يرى زوجه أوأخته قد أهين شرفها أومست بسوء ثم لايهجم على من فعل ذلك ولايقاتله واذا خرّ صريعا هو عدّ ذلك فخرا له ولأعقابه الى حين . إنّ أهل الشرق والغرب يحارب بعضهم بعضا على الوطن وعلى الدين وعلى المال وعلى العرض وهم جميعا متفقون أن هذا شرف وفخر للمقاتلين وهكذا أكثرالديانات . ومن عجب أن النصارى دينهم ينهاهم عن قتال عدوّهم ولكن الفطرة غالبة فهم الآن أوّل المقاتلين للأمم يعدّون ذلك فخرا سواء أكان ذلك أخذا للثار أم ظلما لاجتياح الديار ولأخذ الدرهم والدينار . فقال إن الأرضة المذكورة قد أكلها الكلب أوالهرة أوالانسان وفرق بين القتل وابتلاع الحيوان . فقلت اننا معاشر بنى آدم نقتتل فى السفن الحربية ونقع فريسة للسمك ونحن جميعا نعلم ذلك ونفتخر به وهكذا نقاتل فى الطيارات فنهلك فتتخطفنا الطير ويحلّ بنا الهلاك . فقال نحن نحارب لشرفنا مثلا ونموت ولكن لماذا تكون هذه الخدعة فى الحيوان فهذه الحشرات الجاريات للهلاك بذبح النبات الجزار وأنواع الأرضة التى خرجت للعرس فصارت فريسة . كل هذه مخدوعات وأين الصدق إذن . فقلت له ونحن أيضا مخدوعون ولسنا بمعترضين على الخداع بل نعدّه شرفا فان أحدنا يأكل لصحة بدنه فيكون ذلك البدن طعاما للدود ويحارب العدوّ ليغيظه فيكون طعاما للسمك أوالعقبان فهو فى الأوّل قصد حياته وفى الثانى انقاذ شرفه لا أنه يكون طعمة للسمك ونبنى الدور ونزرع النخل ويتمتع بذلك غيرنا بل أعداؤنا . فقال وكيف يصح هذا الخداع . قلت ليس خداعا بل تلطف وحسن سياسة يعيش الحىّ مطمئنا ولاقلق لديه ولا اضطراب . وقد تقدّم فى سورة الأنفال تكثير القليل وتقليل الكثير للسياسة واصلاح الحال . فقال ولكن هذا لايشفينى . ولماذا يكون الانسان فداء لغيره وهكذا الحيوان . فقلت

للوحدة العامّة فالعالم كله كانه شخص واحد والبعض يخدم البعض - ولكنّ أكثر الناس لايعلمون - وإذن تكون هذه الدنيا ليست للحياة وحدها فالحياة بنظام والموت بنظام وموت الحي لتخلو الأرض للباقين ولولا الموت ما كانت الحياة . فاذا أكل الدود لحم الانسان وأكل الأسد لحم الغزلان وأكلنا نحن لحم الخرفان فان ذلك لتنظف أرضنا به وتخلو لمن بعدنا ليكثر الأحياء بفضل هلاك الأموات . فالموت مقصود والحياة مقصودة - كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون -

﴿ موازنة بين حياة وموت الحيوان ونظيرهما فى الانسان ﴾

يموت الجراد بأكل الطيور والانسان له فيحصل فائدتان خلو الأرض منه لما يخلفه وانتفاع الأحياء بجسمه لأنه لامعطل فى الوجود . أما التقاء الجيوش الانسانية برا أو بحرا فهاك فوائدها

(١) تعليم الصبر والشجاعة (٢) والصناعات الحربية كالطيارات والسفن العائمة والغاطسة فى الماء (٣) واحراز الشرف للأحياء (٤) والعطف من الشعب على الأموات فى القتال وهذان فى الأمم الغالبة (٥ و٦) ومثل هذين فى الأمم المغلوبة (٧ و٨) وظهور الاتحاد فى كليهما (٩) وأن تكون الجثث فى البحر وفى البرّ طعاما للسمك وللطيور التى خلقها الله

هذا فى القتال أما فى حال الطاعون وأكثر الأمراض فان الاقتصاد فى طبيعة الوجود قضى أن ترسل جماعات من الحيوانات الذرّية لها نظام خاص فى الجسم فتأكل اللحم وتشرب الدم لأنه ليس من الحكمة أن يبنى الحي جسمه بالأغذية الجيدة فاذا مات لم تكن له فائدة . كلا بل يرسل تلك الآلاف المؤلفة فتكون طاعونا أوجدريا أوحمى تيفوسية أوتيفودا أوسرطانا أوما أشبه ذلك فتتناسل وتتكاثر وتربى فى الأجسام كما تربت الأجسام فى الأرض ثم يكون الموت فتتولى تلك الرمم حيوانات أخرى أوّلها الدود ويعقبه غيره كالخنافس ونحوها وهكذا . ذلك لئلا يكون فى الوجود معطل إن هذا الوجود مبنى على الاقتصاد

ألاترى أن اللسان يمضغ الطعام ويذوقه ويدبر نظام الكلام . فهذه ثلاث فوائد فى عضو واحد ظاهرة للناس فصانع هذا العالم عظيم الاحكام والنظام متقن حكيم . كل ذلك من قوله تعالى - مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها - فهاهوذا قد أخذ بناصية الأحياء اذا صحت أجسامهم وأخذ بناصية الحيوانات الذرية العائشة فى الأجسام التى يراد اهلاكها وهكذا . فلما سمع ذلك صاحبى قال إذن الحرب أمر حتم لرقى الانسان لأنك أتيت فيه بمجمل الفوائد التى تبلغ نحو العشر مع انك تقول إن السلام أمر لابد منه فى نوع الانسان

وأيضا نرى البوذية يحرقون موتاهم فأين فائدة أجسامهم التى لم يأكلها دود ولاغيره . فقلت أما الجواب على السؤال الثانى فهو أن هؤلاء تتفرّق عناصر أجسامهم فى الهواء والأرض فينتفع بها فى الوجود

فقال وهل هذه شريعة اسلامية . فقلت . كلا ولكن نحن الآن فى تبيان الحقائق التى نزل لها القرآن ولكن متى جاء ذكر الشرائع بينا تحريم ذلك فالحقائق مطلوبات والشرائع مصونات

واذا كنا نجد مسألة الولادة ليست على وتيرة واحدة إذ نرى الانسان مثلا قد عمت الولادة فيه جميع الأسرات فى العالم ولكنها فى النمل وفى الأرضة مثلا قد اختصت بها الملكة فأما البقية فقد توافروا على خدمة المجموع وبذل كل مالديهن من قوّة للجمهورية

الانسان لايعرف اختصاص أحد بالولادة وانتاج الذرّية ولكن النحل عرف ذلك . هكذا أمر الحياة فما من امرئ إلا وهو موقن أنه لابدّ لكل حيّ من رأس أوجلد أوأعضاء ودم فكذب هذا تلك الحيوانات الدنيئة التى لارؤس لها والتى لاجلد لها كالحيوانات الهلامية والحشرات إذ لاجلد لها ولاعظم ولادم وانما هى لها قشور حلقية داخلها سائل أبيض لاعظم فيه ولادم . وترى أمثال ذلك فى الرزق فأكثر الحيوان يسعى اليه على مقتضى احتياجه . وترى النبات الجزار المتقدّم تسعى اليه الحشرات ليأكلها بجاذب يجذبها من تلك

النباتات التي تأكل اللحوم . فقال صاحبي لقد أحسنت كل الاحسان وأتيت بعلم جم لم يكن في الحسبان . ولكن أسألك سؤالا واحدا وهوانك تقول إن الأرضة تأكل ماخرج منها فأين هذا . قلت ستراه ان شاء الله عند الكلام عليها في سورة سبأ فأما اذا كان هذا غريبا عندك فلتعلم أنها في ذلك كالانسان لأننا نأكل فضلاتنا وفضلات الحيوان بواسطة إذ نحن نسمد بها أرضنا فتنقلب تلك الفضلات في زرعنا حبا وعنبا وتفاحا وغيرها وترجع الينا فنحن والأرضة سيان ولكن هي أكلت فضلاتها مباشرة ونحن أكلناها بعد أن دخلت في معامل النبات فرجعت الينا . فقال صاحبي لله درّ العلم يقرّب البعيد ويجمع المتفرّقات — وقل ربّ زدني علما — والحمد لله ربّ العالمين

ثم قلت أما مسألة الحرب وانها ترقي الانسانية واني ذكرت أن السلم أمر لابدّ منه . فلتعلم أننا الآن نصف ما وجدناه ونبين حكمة الله فيه كما بينا فوائد اللسان الظاهرة الثلاث فليس معنى هذا أننا اذا متنا لا يكون هناك حكم في حال الروح . كلا بل الحكمة هناك أجل وأعلى ولكنا لانعقلها الآن واذا وجدنا مملكة (الأرضة) المتقدّمة وكان لأفرادها عقل وسألناهنّ لذكرت لنا فوائد البراز الذي يكون لأفرادهنّ أشهى طعام ثم هو ملاط لبنائها وسدّ لثغورها مع الرمل وطعام لصغارها و يقوم مقام الأسفلت في تحسين طرقها . وهكذا من الفوائد . أقول فليس معنى هذا أنه ليس هناك نظام في الوجود أحسن من هذا . كلا . هكذا هنا فان الأمم اذا غيرت أخلاقها و بطلت الحرب حصلت هناك حال جديدة أرقى وأرقى في نظام المدن والأخلاق مثال ذلك في الثاني أن تبدل عاطفة الانتقام من الأعداء الذي يورث الفضائل المتقدّمة بفضائل العطف مثلا على الضعفاء فيتحد رجال أمّة على ترقية وتحسين أمّة جاهلة ويكونون بالنسبة لهم كالآباء والأمّهات بالنسبة لصغارهم وهناك تكون فضائل لاتعدّ كالفضائل التي تكون للأبوين بالنسبة لأبنائهما كالعطف والحنان وبذل النفس والمعاونة بالنفس وانكار الذات والصبر على هذه المشاق والاتحاد بين هؤلاء المحسنين وحبّ المحسن اليهم للمحسنين واتحاد الأمّتين وتبادل المنافع ثم مقابلة الاحسان بالاحسان ونموّ الاخلاق . وهكذا مما لاحصر له فليس هذا الوجود له حدّ في تصرّفاته وقابلياته

﴿ عجائب القرآن وعجائب الطبيعة التي نزل لفهمها القرآن ﴾

فههنا أذكر عجيبتين ﴿ العجيبة الاولى ﴾ ان القرآن تراه يدخل في غضون الكلام ماهو حكمة بحيث يكون كزهرة في شجرة ويكون هو أهمّ المقصود من الكلام وهذه الطريقة بعينها هي التي درجت عليها الأمم في فكاهاتها ورواياتها المؤلفة لاستيقاظ الشعوب . فانظر الى قوله تعالى — اذا الشمس كوّرت ❊ واذا النجوم انكدرت الخ — فانه ذكر الشمس والنجم والجبل والابل والوحش والبحر والنفس والصحف والسماء والجحيم والجنة . هذه ذكرها الله على هذا الترتيب ولكن أدخل في غضونها كلمة واحدة حفظت نصف النوع الانساني من الهلاك وهي — واذا الموؤدة سئلت ❊ بأيّ ذنب قتلت — هذه هي الجملة التي أدخلها الله في وسط تلك العوالم المذكورة من أرضية وسماوية فما نطق بها حتى امتنع العرب عن قتل البنات بدفنهنّ الذي يسمى (وأدا) فانظر للتعليم والتربية . يذكر المخلوقات والمعارف العامّة ويدخل في وسطها جملة قضت على قتل النساء . هكذا فعل في قصة هود وقومه هنا أدخل في غضونها الأخذ بنواصي الدواب . أفلايكون هذا دافعا للمسلمين الى دراسة علوم الحيوان بعد هذا البيان كما دفع آباءنا الى حفظ البنات وعدم قتلهنّ بالوأد بجملة واحدة

هذه هي سياسة القرآن . هاهوذا أتى بقصة عاد يسمعها العاقل فيرى ما الذي سيقت له فيرى أجله علم الحيوان . اللهم أنت النور الهادي فاهد المسلمين الى الرقي إنك أنت السميع المجيب

﴿ العجيبة الثانية المادّة والكلام . زيادة ايضاح ﴾

أنظر الى ماتقدّم من تنوّع الحيوان والنبات والابداع وتأمّل أحوال اللغات الشرقية والغربية . هاأنت ذا رأيت المادّة كيف تنوّعت تنوّعا يقلبها على سائر وجوهها كما وضحناه . تقلبت المادّة على وجوه تظهر كل ما كمن فيها فاعلم يقينا أن الله عز وجل علم أن أكثر الناس لايدركون سرّ المادّة التى يعيشون منها . لذلك ألهمهم اللغات فنطقوا بها وتصرّفوا فيها تصرّفا هو عين التصرّف فى المادّة . إنّ المادّة كما تكون هواء وماء وسماء وأرضا وصلبا ونحاسا وجواهر وحيوانا مختلفا أنواعه الخ هكذا اللغات المعبرات عن ذلك كله يتصرّف فيها الانسان وهى التى تعبر عن كل ما صوّرته المادّة ولايدرك تصريفها حقّ ادراكه إلا علماء الصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع أولئك الذين يركبون الجمل المختلفة و يشتقون من المصادر أفعالا وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين والصفات المشبهات وأسماء التفضيل وأسماء الآلات وأسماء الزمان وأسماء المكان وهكذا هذا تصريف المفردات فهكذا تصريف الجمل من اسمية وفعلية وشرطية وحالية وماضوية ومضارعية ومؤكدة وغيرمؤكدة وهكذا مما لاحصرله . تبارك الله خلق المادّة وخلق اللغات وجعلهما فى التصريف كفرسى رهان وذلك لحكمة الحكيم . ذلك ليعلم الصغار فى أوّل أمرهم أن اللغة لاتقف عند حدّ لأنهم إذ ذاك لايقدرون أن يعقلوا تصرّف المادّة . ولاجرم أن هذا يعد أذهانهم الى ادراك تصريف المادّة اذا كبروا . خلق الله علوم الصرف والنحو وغيرهما لصغار العقول ولصغار العلماء فى الأمم لتفتح أذهانهم لمعرفة جمال صنعه وباهر ابداعه وبالغ حكمته فى تصريف هذه الكائنات . وهل ترى أبدع وأجمل وأشرف وأبهى وأبهر مما رأيت فى هذا المقام من جعل النبات المأكول للحيوان آكلا له . أوليس هذا بعينه هو مايفعله علماء النحو إذ يجعلون المفعول فاعلا والفاعل مفعولا تدريبا للتلاميذ . يقول الاستاذ للتلميذ اجعل المفعول فاعلا فى هذه الجملة مع التصرّف فيها وهى (يضرّ الانسان الخمر والخدر والشاى والقهوة ودخان التبغ) فيقول التلميذ هكذا ﴿ متى عقل الانسان ترك الخمر والخدّر الخ ﴾

فهاهوذا التلميذ أتى بالجملة مع حفظ المعنى وجعل المفعول فاعلا وهكذا فعل الله فى المادّة بجعل المأكول وهو النبات آكلا للحيوان مع حفظ النظام فجلّ الله وجلّ العلم فبهذا فليفرح قراء هذا التفسير وليكونوا نورا وهدى للعالمين . وأنا بذلك من الموقنين

﴿ وحدة الوجود والانسان عالم صغير ﴾

لعمرى لايعرف الناس معنى وحدة الوجود ولا أن الانسان عالم صغير إلا بالتبحر فى مثل ماذكرناه لك فيما تقدّم

﴿ شمس هذا العقد الثمين ﴾

إنّ النحل والأرضة والنمل كلها تتقرّب من ملكاتها وتربها أعمالها وترجع اليها وهكذا جمهور نوع الانسان يفعل مع رؤسائه ولكن هناك فى الانسان طائفة هم فوق الجميع يعملون وينصبون وتكون لهم خلوات مع ربهم فى قلوبهم يعرضون عليه أعمالهم فى بهجة الأنوار وبهاء الأسرار اهـ الكلام على قصة عاد فلنشرع فى الكلام على قصة ثمود بتفسيرها اللفظى قال تعالى (والى ثمود) أى وأرسلنا الى ثمود وهم سكان الحجر (أخاهم صالحا) يعنى فى النسب لافى الدين (قال ياقوم اعبدوا الله) أى وحدوا الله وخصوه بالعبادة (مالكم من إله غيره) فهو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام ثم ذكر الدلائل العقلية على وحدانيته وكمال قدرته فقال (هوأنشأكم من الأرض) هوكوّنكم منها لاغيره فانه خلق آدم وحوّاء وهو الذى خلق النطف والأغذية منها تتكوّن الأجسام وكلها من التراب (واستعمركم فيها) أى عمركم فيها واستبقاكم من العمر أو أقدركم على عمارتها وأمركم بها (فاستغفروه ثم توبوا اليه إنّ ربى قريب) قريب الرحمة (مجيب) لداعيه

(قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا) لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد فكنا نأمل أن تكون مستشارا أوسيدا عظيما ولكن هذا القول أيأسنا منك وانقطع رجاؤنا فيك إذ ذممت آلهتنا وخالفت ديننا (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) ومن ذا يخالف ما درج عليه الآباء (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد (مريب) فوقع فى الريبة من أرابه (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) بيان و بصيرة وأتى بان وهى للشك باعتبار المخاطبين (وآتانى منه رحمة) نبوّة (فمن ينصرنى من الله) فمن يمنعنى من عذابه (إن عصيته) فى تبليغ رسالته ومنع الناس من الشرك به (فما تزيدوننى غير تخسير) فأنتم باستتباعكم إياى لاتزيدوننى غير أن تخسرونى بابطال مامنحنى الله والتعرّض لعذابه (وياقوم هذه ناقة الله لكم) حال كونها آية وعاملها معنى الاشارة ولكم حال من آية مقدّمة (فذروها تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها (ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) عاجل لايتوانى عن مسكم لها بالسوء إلا يسيرا وهو ثلاثة أيام (فعقروها فقال تمتعوا فى داركم) عيشوا فى منازلكم أوفى داركم الدنيا (ثلاثة أيام) ثم تهلكوا (ذلك وعد غير مكذوب) أى غير مكذوب فيه (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ) أى ونجيناهم من ذلّ يومئذ وفضيحته • وأىّ خزى أعظم من خزى من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه (إنّ ربك هو القوىّ) القادر على تنجية أوليائه (العزيز) الغالب باهلاك أعدائه (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) أى صيحة أتتهم من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) صرعى هلكى (كأن لم يغنوا فيها) أى كأن لم يقيموا فى تلك الديار ولم يسكنوها مدّة من الدهر يقال غنيت بالمكان اذا أقمت به (ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) أى الحى • واعلم أن هذه القصة جاءت فى سورة الأعراف بأحسن تفسير على ما أعلم فارجع اليه إن شئت

﴿ قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام ﴾

قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بشرى الملائكة المختلف فى عددهم فقيل ثلاثة وقيل أكثر باسحق ويعقوب وباهلاك قوم لوط (قالوا سلاما) سلمنا عليك سلاما (قال سلام) أى وعليكم سلام والجلة الاسمية فى الردّ أبلغ من الفعلية فى الابتداء فافهم (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ فى المجىء به والحنيذ المشوى بالحجارة المحماة (فلما رأى أيديهم) أى أيدى الأضياف (لاتصل اليه) أى العجل المشوى (نكرهم) أى أنكرهم وأنكر حالهم لامتناعهم عن الطعام (وأوجس منهم خيفة) ووقع فى قلبه خوف منهم • والايجاس الاضمار وقيل الادراك (قالوا) له لما أحسوا منه أثر الخوف (لاتخف إنا أرسلنا الى قوم لوط) إنا ملائكة مرسلون اليهم بالعذاب فأما كوننا لم نمدّ للطعام أيدينا فذلك أننا معاشر الملائكة لانأكل (وامرأته قائمة) وراء الستر تسمع محاورتهم أوعلى رأسهم للخدمة (فضحكت) سرورا بزوال الخيفة أو بهلاك أهل الفساد (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) وانما خصت بالبشارة لأنه أوّلا لم يكن لها ولد ولابراهيم ابنه اسماعيل • ومعلوم أن النساء أعظم سرورا بالأولاد أى فبشرناها باسحق ووهبنا لها يعقوب من وراء اسحق وعلى قراءة رفع يعقوب يكون مبتدأ والجار والمجرور قبله خبره (قالت ياويلتا) أصله ياويلتاه نداء للندبة وهى كلة يستعملها الانسان عند رؤية مايتعجب منه مثل ياعجباه (أألد وأنا عجوز) * يقال انها كانت بنت تسعين سنة (وهذا بعلى) يعنى زوجى (شيخا) وكان سنّ ابراهيم مائة وعشرين سنة يومئذ كما قيل (إنّ هذا لشئ عجيب) يعنى الولد من هرمين وهذا تعجب بحسب العادة (قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) قالوا ذلك منكرين عليها فان خوارق العادات عند أهل بيت النبوّة ليست ببدع فمثلهم لايستغربونه كأنه قيل إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم وأهل البيت نصب على الاختصاص (إنه حميد مجيد) أى محمود لانعامه العظيم ظاهر الكرم إذ

اكرمكم

أكرمكم بولد صالح (فلما ذهب عن ابراهيم الروع) الفزع وهو ما أوجس فى نفسه من الخوف حين نكر أضيافه (وجاءته البشرى) بالولد أقبل (يجادلنا فى قوم لوط) أى لما اطمأن قلبه بعد الخوف وامتلأ حبورا بالبشرى أقبل يجادلنا أى يجادل رسلنا وصورة مجادلته إياهم انهم قالوا له إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال أرأيتم لو كان فيها خمسون مؤمنا أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله (إنّ ابراهيم لحليم) غير عجول فى الانتقام ممن أساء اليه (أوّاه) كثير التأوّه من الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله • والمقصود من ذلك أن الحامل له على المجادلة انما هى رقة قلبه وحلمه ورحمته وحبه للناس قالت الملائكة (يا ابراهيم أعرض عن هذا) الجدال (إنه قد جاء أمر ربك) قضاؤه بعذابهم من الله وهو أعلم بحالهم (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) غير مصروف بجدال ولا بدعاء • ثم خرجوا من عند ابراهيم متوجهين نحو قوم لوط وكان بين قرية ابراهيم وقوم لوط أربعة فراسخ (ولما جاءت رسلنا لوطا) لما أتوه ورأى جمالهم وهم كانوا على هيئة غلمان حسان (سىء بهم) أحزن لأنه ظنّ أنهم من الناس فخاف عليهم أن يفحش بهم قومه مع عجزه عن مقاومتهم (وضاق بهم ذرعا) تمييز أى وضاق بمكانهم صدره وذلك كناية عن شدّة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه المتوقع حصوله لهم من قومه بفعل الفاحشة (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شدّه * ويقال ان امرأته أخبرت بهم قومها (وجاءه قومه يهرعون اليه) يسرعون كأنهم يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه (ومن قبل) ومن قبل ذلك الوقت (كانوا يعملون السيآت) كانوا يعملون الفاحشة حتى مرنوا عليها وقلّ عندهم استقباحها حتى جاؤا وهم مجاهرون بها يهرعون اليها (قال ياقوم هؤلاء بناتى) أى هؤلاء نساؤكم اللاتى هنّ بناتى فان كل نبىّ أبو أمّته من حيث الشفقة والتربية * وفى قراءة ابن مسعود ـ وأزواجه أمّهاتهم وهو أب لهم ـ أوهؤلاء بنات قومى (هنّ أطهر لكم) أنظف فعلا (فاتقوا الله) بترك الفواحش (ولا تخزون) ولا تهينون ولا تفضحون من الخزى (فى ضيفى) فى حق ضيوفى لأن من خزى ضيفه أوجاره فقد خزى وذلك من دواعى المروءة والكرم (أليس منكم رجل رشيد) أى رجل واحد يهتدى الى سبيل الرشاد فيكفّ عن فعل السوء (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حقّ) حاجة لأننا نودّ الاقتراب من الذكور لا من الاناث (وانك لتعلم مانريد) وهو اتيان الذكور (قال لوأن لى بكم قوّة) أى لوانى أقدر أن أتقوّى عليكم (أوآوى الى ركن شديد) أى أوأنضم الى عشيرة يمنعونى منكم وجوابه لقاتلتكم * قال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿ مابعث الله نبيا بعده إلا فى منعة من عشيرته ﴾ وقال رسول الله ﷺ ﴿ يرحم الله لوطا لقد كان يأوى الى ركن شديد ولولبثت فى السجن ما لبث يوسف ثم أتانى الداعى لأجبته ﴾ فالمراد بالركن الشديد هو الله كما قال محيى الدين النووى فى الحديث فانه أشدّ الأركان وأقواها * روى أنه أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوّروا الجدار فلما رأت الملائكة ماحلّ بلوط من الكرب (قالوا يالوط) ركنك شديد كما مرّ فى الحديث (إنا رسل ربك لن يصلوا اليك) بمكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم كما قال تعالى ـ فطمسنا أعينهم ـ فصاروا لايعرفون الطريق فخرجوا به وهم يقولون النجاء النجاء ان فى بيت لوط أسحر قوم فى الأرض وقوله ـ لن يصلوا اليك ـ جملة موضحة لما قبلها (فأسر بأهلك) فسر بأهلك ويقال أدلج بهم (بقطع من الليل) فى بعض من الليل أى آخر الليل عند السحر (ولا يلتفت منكم) ولا يتخلف منكم أولا يلتفت الى ماوراءه أو لايلتفت بقلبه الى ماخلف (أحد إلا امرأتك) منصوب على الاستثناء أو مرفوع على البدل من أحد • فكأنه قيل لايتخلف منكم أحد إلا امرأتك فانى

لا أنهاها عن ذلك (إنه مصيبها ما أصابهم) أولايلتفت منكم الى ماوراءه أحد إلا امرأتك فانها ستلتفت فأنا لا أنهاها ـ إنه مصيبها الخ ـ والنهى لها لايفيد * روى أنه أخرجها معهم وأمر ألا يلتفت منهم أحد إلا هى فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت ياقوماه فأدركها حجر فقتلها * وروى أيضا أنه أمر بأن يخلفها مع قومها فان هواها اليهم فلم يسر بها فأصبحت هاتان الروايتان محتملتين فاما أن تكون بقيت واما أن تكون خرجت والتفتت . فاحدى الروايتين عليها المعنى ولازال مبهما . هذا تحقيق المقام واياك أن تظنّ أن مثل هذا التحقيق هوالمقصود من القرآن بل المقصود هو مافى القصة من الحكم فلنسر فى طريقنا ولتجد فى هذه السورة من الحكم والعجائب مايبهر الأبصار قريبا * روى أنه قال لهم متى موعد هلاكهم قالوا (إنّ موعدهم الصبح) فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا (أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا) عذابنا (جعلنا عاليها سافلها) قلبها جبريل فجعل أسفلها أعلاها إذ رفعها الى السماء ثم قلبها عليهم (وأمطرنا عليهم) على المدن (حجارة من سجيل) من طين متحجر * وسجيل أصلها سنككل فعرّب (منضود) نعت لسجيل أى متتابع أومجموع معدّ للعذاب (مسوّمة) نعت لحجارة أى معلمة للعذاب (عند ربك) فى خزائنه أوفى حكمه (وماهى من الظالمين ببعيد) أى وماهى من ظالمى هذه الأمّة من مشركى مكة وغيرهم ـ ببعيد ـ فما من ظالم إلا وهو معرّض للعذاب المعبر عنه بسقوط حجر عليه * روى أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمّتك مامن ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة (والى مدين) أى وأرسلنا الى مدين (أخاهم شعيبا) اسم مدينة بناها مدين بن ابراهيم عليه السلام أى وأرسلنا الى أهل مدين * وقيل مدين اسم للقبيلة التى هى من ذرّية مدين بن ابراهيم (قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وحدوا الله ولاتعبدوا معه غيره . ولما شرح أمر العبادة شرع يذكرهم بما يفعلون من نقص الكيل والميزان فقال (ولاتنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير) بسعة تغنيكم عن البخس أو بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ماتفعلون (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) مهلك كما فى قوله تعالى ـ وأحيط بثمره ـ وأصله من احاطة العدوّ وهو اما عذاب الاستئصال فى الدنيا واما عذاب الآخرة (وياقوم أوفوا المكيال والميزان) أتموهما (بالقسط) بالعدل والنهى المتقدّم لتقبيح البخس والتنفير منه والأمر هنا للترغيب فى الفعل الحسن وهو ايفاء الكيل والميزان فهناك للتنفير من الشرّ وهنا للترغيب فى الخير وبهما معا يعتدل الناس ويتمّ الوعظ فليكن القسط والعدل بلانقص ولازيادة فالازدياد وان كان مندوبا قد يكون محرما اذا كان كيلا أووزنا ليتيم أوفى مال الحكومات أوكان البائع وكيلا . فكل ذلك تكون الزيادة فيه حراما فوجب العدل (ولاتبخسوا الناس أشياءهم) أموالهم وغيرها سواء أكان بكيل أم بوزن أم بزرع أم بمساحة أم بتقدير فضل فى أعمال عامّة كالنظر فى رجال الحكومة وتقدير قيمهم وأحوالهم وكفاآتهم وما أشبه ذلك مما لايعدّه الحصر (ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) العثى والعيث أشدّ الفساد كالسرقة والغارة وقطع السبيل ويشمل البخس والتطفيف فانه عثى فى الأرض وافساد فيها . ومن العثى المكس (بقية الله) أى ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم (خير لكم) مما تجمعون بالتطفيف وبالبخس (إن كنتم مؤمنين) أى ان كنتم مصدّقين لى فى قولى لكم ويصح أن تكون البقية الطاعة فيما ذكر وغيره لقوله تعالى ـ والباقيات الصالحات ـ (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم عن القبائح وأحفظ نعم الله عليكم وما أنا إلا ناصح أمين وقد أعذرت حين أنذرت (قالوا ياشعيب أصلاتك) أى كثرة صلاتك (تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا) من الأصنام (أوأن نفعل) أو ألا نفعل (فى أموالنا مانشاء) من البخس فى الكيل والوزن (إنك لأنت الحليم الرشيد) السفيه الضال . وهذه تسمية مقلوبة استهزاء به كقوله ـ ذق إنك أنت العزيز الكريم ـ وهذا ردّ لما طلبه من عبادة الله وحده ومن العدل فى الكيل والميزان (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة

من

من ربى ورزقنى منه (رزقا حسنا) من لدنه وهى النبوّة والرسالة والمال الحلال بلا بخس ولا تطفيف • يقول أخبرونى إن كنت على حجة ظاهرة من ربى وكنت نبيا على الحقيقة أيليق بى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى • وهل بعث الأنبياء إلا لذلك • ولست أمنعكم عن تطفيف الكيل وبخسه وعن بخس الناس أشياءهم وأنا أستبدّ بذلك • كلا (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) يقال خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مولٍ عنه وخالفته عنه اذا وليت عنه وهو قاصده (إن أريد إلا الاصلاح) ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهيى عن المنكر (ما استطعت) أى مدّة استطاعتى للاصلاح ومادمت متمكنا منه (وماتوفيقى إلا بالله) وماتوفيقى لاصابة الحق فيما أفعل وما أترك إلا بمعونته (عليه توكلت) اعتمدت (واليه أنيب) أرجع فى السراء والضراء • ثم اعلم أن جرم مثل كسب يتعدّى الى مفعول والى مفعولين كما فى قوله تعالى (وياقوم لايجرمنكم) لا يكسبنكم (شقاقى) خلافى (أن يصيبكم) اصابة العذاب (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أوقوم هود) من الريح (أوقوم صالح) من الرجفة وان وصلتها ثانى مفعولى جرم (وماقوم لوط منكم ببعيد) فى الزمان فهم أقرب الهالكين منكم وفى المكان فمنازلهم قريبة منكم (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إنّ ربى رحيم ودود) عظيم الرحمة فاعل بهم من اللطف والاحسان مايفعل الكثير المودّة بمن يودّه • وذلك وعد من الله أن يقبل التوبة بعد وعيده للمذنبين على اصرارهم على المعاصى (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) استهانة بها وعدم مبالاة (وانا انراك فينا ضعيفا) لاقوّة لك ولاعزّ فيما بيننا فكيف تقدر على الامتناع منا (ولولا رهطك لرجمناك) ولولا عشيرتك لقتلناك بالرجم وأىّ قتل شرّ من الرجم وكان رهطه على دينهم فلذلك أظهروا الميل اليهم (وما أنت علينا بعزيز) فعدم قتلك لم يكن لعزّك علينا وانما يعزّ علينا رهطك (قال) فى جوابهم (ياقوم أرهطى أعزّ عليكم من الله) أى أهيب عندكم من الله حتى تركتم قتلى لعزّة رهطى عندكم فكيف لم يكن حفظى لأجل الله لا لرهطى فكيف تركتم أمره (واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه كأنه شئ ملقى (إنّ ربى بما تعملون محيط) أى عالم بجميع أحوالكم لاتخفى عليه خافية منها فيجازيكم عليها (وياقوم اعملوا على مكانتكم) أى اعملوا قارّين على جهتكم التى أنتم عليها من الشرك والشنآن لى وهى مصدر مكن مكانة فهو مكين اذا تمكن من الشئ (إنى عامل) على مقتضى مايأتينى الله من النصرة والتأييد ويمكننى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) من استفهامية علقت فعل العلم عن عمله أى سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يفضحه وأينا هو كاذب وهذا هو قوله (ومن هوكاذب) عطف على ـ من يأتيه ـ أى سوف تعلمون من المعذب والكاذب منى ومنكم وكان مقتضى الظاهر أن يقال ومن هو صادق لينصرف الأوّل لهم والثانى له لكنهم لما جعلوه كاذبا قال ـ ومن هوكاذب ـ أى فى زعمهم (وارتقبوا) وانظروا ما أقول لكم (إنى معكم رقيب) منتظر والرقيب المراقب (ولما جاء أمرنا) بعذابهم وهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) يعنى بفضل منا لأنا هديناهم للايمان وجعلناهم مطيعين (وأخذت الذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بالشرك والبخس (الصيحة) إذ صاح جبريل عليه السلام بهم صيحة فخرجت أرواحهم وماتوا جميعا أوأتتهم صيحة واحدة من السماء (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى ميتين * يقال جثم الطير اذا قعد ولطأ بالأرض فهو هنا استعارة (كأن لم يغنوا فيها) يعنى كأن لم يقيموا بديارهم مدّة من الدهر من غنى بالمكان اذا أقام فيه مستغنيا به عن غيره (ألا بعدا لمدين) البعد والبعد الهلاك كالرشد والرشد (كما بعدت ثمود) قوم صالح وكان عذاب قوم شعيب بالصيحة من فوق رؤسهم وعذاب قوم صالح بالصيحة من تحت أرجلهم إذ أصابهم حرّ شديد * قال ابن عباس ﴿ لم تعذب أمّتان قط بعذاب واحد إلا قوم شعيب وقوم صالح • فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم • وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم ﴾

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) بحججنا والبراهين التى أعطيناه الدالة على صدق نبوّته (وسلطان مبين) ومعجزة باهرة ظاهرة دالة على صدقه (الى فرعون وملئه) أى أتباعه وأشراف قومه (فاتبعوا أمر فرعون) أى ماهو عليه من الكفر وترك الايمان بما جاء به موسى (وما أمر فرعون برشيد) أى وماطريق فرعون بسديد ولامحمود العاقبة (يقدم قومه) يتقدّم ويقود قومه (يوم القيامة) الى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا الى الضلال . يقال قدم بمعنى تقدّم (فأوردهم النار) جعل بصيغة الماضى كقوله تعالى ـ أتى أمر الله ـ وجعل النار بمنزلة الماء فسمى اتيانها موردا ثم قال (وبئس الورد) المورد (المورود) الذى وردوه فجعل فرعون كالفارط الذى يتقدّم الواردة الى الماء وشبه أتباعه بالواردة ثم قال ـ بئس الورد المورود ـ الذى يردونه النار وكيف لا يكون كذلك . والورد انما يراد لتسكين العطش والنار بضد ذلك (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى يلعنون فى الدنيا ويلعنون فى الآخرة (بئس الرفد المرفود) رفدهم أى بئس العون المعان أو بئس العطاء المعطى . انتهى التفسير اللفظى

﴿ ياقوتة مضيئة فى قوله تعالى ـ إنّ ربى رحيم ودود ـ على لسان شعيب عليه السلام ﴾

اعلم أن المودّة انما تكون غالبا بين اثنين لهما علاقة واتصال وتجانس وتشابه فى الطباع والعادات والأخلاق . ولذلك ترى المتشاركين فى صناعة أوعلم أولغة أووطن أودين أوجنس أوأمر ما فانهما يتوادّان ويتحابان وذلك لاقتراب الصفات . وكلما تباعدت الصفات تباعد الودّ ولذلك تجد الأمم اليوم فى عصرنا رجعت الى الجنسية فالألمان والفرنسيون واليابانيون والصينيون كل يقترب من جنسه بعد أن كانوا قديما يتوادّون بالديانات وهذا كله قديما وحديثا دال على أن المودّة تابعة لتقارب الصفات . هذا هو المعلوم فى الأمم قديما وحديثا ولكن الله تعالى اذا وصف نفسه بأنه رحيم فانا نفهم ذلك على معنى أنه مفيض الاحسان وهذا أمر مفهوم فانا نرى الملك والأب والأم وأمثالهم يفيضون الاحسان على الرعية والولد وهكذا فالأعلى يرحم الأدنى ولاغرابة فى ذلك . فالله رحيم . أما الودّ فأمره مشكل إذ المودّة انما تكون بين المتجانسين وقال فى سورة مريم ـ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا ـ فذكر الرحمة هناك كما ذكرها هنا وأتبعها بالودّ ولكن الودّ هناك مفهوم لأنه بين متجانسين فى الدين إذ الانسان كلما عمل الصالحات اقترب من أهل دينه للتجانس . أما الودّ هنا فهو الذى يحتاج الى بيان . أقول ان هذا يحتاج لدرس العلوم جميعها من فلك وطبيعة وطبقات أرضية وعلم الحيوان والنبات والتشريح . هذه هى العلوم التى تعرّفنا معنى الودّ فى هذا المقام

إنّ هذا التفسير فيه نبذ كثيرة من هذه العلوم والذكى اذا قرأها أصبح عنده مجموعة سهلة فيها خلاصة العلوم . هذه الخلاصة هى التى تفهمنا معنى الودّ أى ودّ الله للمخلوقات . أنظر الى السمك والى النحل والى الجراد والى الدود والى النعامة والى الدجاجة والى النبات والأزهار والى الانسان فسترى فى سورة النمل . كيف ترى أن لها قرى ومساكن وجيوشا منظمة وأطعمة وأظافر راجع ظاهرا وجرا على مقدار أسنان الأطفال كما يفعل الناس

إن خالق العالم لما خلق النمل أعطاها من القوى والقدر والعلم على مقدار مايناسبها . فكما يقول الحبيب لحبيبه أنا أقدّم لك هدية من الفاكهة التى تحبها فيزيد ذلك فى المودّة لعلم كل من الخليلين بما فى جبلة الآخر من المعاشرة . هكذا هنا أعطى الله النمل جيوشا منها على مقدار طاقتها وألهمها أن تتبع ملكتها وتنظم الحجرات وتربى الذرّية كل منها فى حجرة خاصة كأنها مدارس فجعل مدارسها على مقدار حاجاتها ولم يحملها مالاتطيق من مدارس الانسان وجيوشه وأساطيله ولم يجشمها مشاق السفن والأساطيل البرّية والبحرية وهكذا سترى فى سورة النحل ما أعطاها الله من قوت وما أفاء عليها مما يلائم حاجاتها . ألا ترى الى ما سيأتى فى سورة الحجر عند قوله تعالى ـ وأرسلنا الرياح لواقح ـ من جمال الزهر وبهجته وكيف لوّنت

الأزهار بألوان جميلة ليعشق النحل ذلك الجمال فيطير سراعا ليشرب من الرحيق المختوم فى أسفل الزهرات ثم يطير الى أخرى وقد حمل على جسمه غبار الطلع فوضعه فى الزهرات التى فيها أعضاء الاناث وألهم النحل أن لايدخل ويخرج من زهرة الى زهرة إلا اذا كانا من نوع واحد ليسهل الأمر عليه فلايصادف عناء فى معالجة فتح الزهرات فى ذلك اليوم . ومعنى هـذا أن النحل أعطى مايوافق مزاجه من العسل ومن ألوان الزهر ومن نظام الزهرات ليسهل عليه . ومن الالهام أن لايدخل زهرة غير التى هى من جنس مادخلها أوّلا ذلك ليكون متمتعا بالنعـمة والسعادة وليكون ذلك أصون لطلع الذكور من ذلك النوع من الزهر ليوضع على الاناث منه ليدوم النبات كل سنة بالالقاح رحمة بالنمل أيضا . أليس الرجل يقول لابنه انى سأعطيك ثيابا فاخرة وهدايا اذا نجحت فى كذا وكذا . ويقول التلميذ لصاحبه أنا قرأت كتاب كذا وهو أسهل فاقرأه . كل ذلك للمشاكلة والمقاربة . إن المودّة تقتضى أن يتلطف الودود لصاحبـه بما يلائم طباعه لأنه عرفها بكثرة المخالطة . وترى الجراد ألهم أن لا يدّخر وأن يضع بيضـه فى أرض صالحة له على بعد مخصوص من سطحها بحيث تصلح الأرض لأن تكون له كالرحم لتحفظه الى وقت الحاجة . وانما ألهم أن لا يدخر لأنه هو وأمثاله من الذباب والناموس التى ألهمت ألاتدخر لاتعيش الى عام قابل فان البرد والحرّ يتعاقبان عليها فتهلك فاذن سعيها للادّخار عبث فلذلك لم تلهم الادخار . أما النحل والنمل فانهما يعيشان سنين فاذا جاء الشتاء نامت ولكن لاتموت كما يموت الجراد والذباب والناموس . لذلك ألهم هذان النوعان الادخار وأنزل الله سورتين باسمهما سورة النمل وسورة النحل تنبيها على الفرق بينهما و بين غيرهما من الحشرات . ويقول الله تعالى ـ وأوحى ربك الى النحل الخ ـ وهذا الوحى للنحل وللنمل ولغيرهما وحى بما يلائم كما يفعل الصديق الودود بصديقه . وترى الدود لاحاسة له إلاحاسة اللمس فلاسمع ولابصر ولاذوق للطعام ولاشم . وانما حاسة اللمس له هى القائمة بتدبيره بل هى وزارة المعارف العامّة للدود بها تمتصّ ماحولها من الرطوبات وتسبح فى بطن البقرة والأسد والانسان وفى لبّ الثمر وفى دود المشّ وهى فرحة سعيدة بما يناسب مزاجها وكأن الله بودّه لها منع عنها مايزعجها مما لاتحتاج اليه . فالسمع والبصر والشم والذوق والقوّة العاقلة والمدارس كل هـذه عبء ثقيل عليها فلوأعطيت ذلك لكان لافائدة منه بل يضرّها ولاتعيش به . وترى النعامة فى العراء تقسم بيضها ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ فتحضن بعضا وتجعل بعضا قوتا لذرّيتها و بعضا آخر تعرضه للحشرات فتقع عليه فتطعمه لذرّيتها اذا قويت على أكل تلك الحشرات . وترى الدجاجة لم يساعدها الديك فى تربية أولادها لما أعطيت الأفراخ من قوّة الريش والعدو السريع وعكس ذلك الحمام . وترى أمر النبات كله عجبا ويقول المحققون ان له نوعا من الاحساس والشعور على مقدار طاقتـه . وتراه فى أثناء هذا التفسير فى مواضع منه ولقد نال لطفا من الله . ألاترى الى ماستقرؤه فى سورة الحجر من الزهر وكيف تنوّعت أشكاله تنوّعا بديعا ولكل نوع منها حشرات خاصـة تنام اذا أغمض الزهر أجفانه وتستيقظ اذا تفتحت الأكمام وضحكت الأزهار وهناك تأتى تلك الحشرات وهى تغنى فرحات بعرائس الزهرات ذات الحلل السندسية والروائح العطرية والولائم العسلية والمحاسن والبدائع الهندسية فى الأوراق والأزهار ونظامها هكذا نراه يفعل مع الانسان فى نظام جسمه وعجيب تركيبه وفى إلهام العقلاء فكما يلهم النحلة عملها نراه ألهم الناس فصنعوا مايلائمهم من جرى السفن فى البحار والقطرات فى البرّ بالبخار والكهرباء وألهمهـم أن يقطعوا البحار لطلب الرزق والحرب ويجوبوا الفيافى ويغوصوا على الدرّ والمرجان فى البحر ويحفروا فى الجبال وغيرها فيستخرجوا المعادن

أعطى الله الدودة رطوبات . والنحلة زهرا وعسلا . والانسان معادن وكهرباء . وألهم كلا من هذه المخلوقات ما استعدّت له . هذا هو ودّ الله لمخلوقاته ـ وهو معكم أينما كنتم ـ فكما أن الصديق مع صـديقه يعرف مايلائمه هكذا نرى صانع الكون لكونه مع كل مخلوق أعطاه مايلائم طبعه وأبعد عنه مالايلائمه ولذلك

تراه لما علم أن عقولنا قاصرة لأننا فى العالم الأرضى الضعيف تحجب عنا معرفة العوالم التى تسكن فى المريخ أو المشترى مثلا وهكذا التى تسكن الكواكب الثابتة الكبيرة • علم ذلك من طباعنا لأننا لو عرفناها واطلعنا عليها لذهلنا من ذلك الجمال ولدهشت عقولنا ولانبهرنا فمنعنا عن ذلك كما منع الدود أن يعرف السمع والبصر والا لم يطق ذلك — ولاتقف ماليس لك به علم —

فالله ودود ومن ودّه ما ذكرناه • واعلم ان كل من قلد الله فى الودّ كان أقرب اليه • فكلما كان الانسان أكثر نفعا كان أكثر للناس ودّا • ان الأم والأب بتربيتهما لولدهما قد ودّا ولدهما ودّا شريفا لأنهما قد جاوزا سنه فهما أعلى منه وقد تنزلا اليه وتلطفا فهما بهذا قد ارتقيا الى نحو الودّ الالهى • هكذا العلماء والحكماء والمؤلفون يتنزلون لعقول الشعب وعلى مقدار تنزّلهم يقتربون من ربهم

إنّ الانسان على مقدار منفعته وعموم فضله للناس يكون قد اقترب من الودّ الالهى وعلى مقدار اتصافه بهذه المودّة العامّة يقترب من ربه كما ان الأب والأم اقتربا من ربهما على مقدار ماعاما ولدهما . هكذا سائر المصلحين • إن الرحمة والودّ مقرونان فى قرن فالذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا على مقدار ماقاموا به للمنافع العامّة • فالرحمة هنا تساعد على الودّ لأن الودود يعطى من يودّه مايناسبه • وهذه المناسبة تقتضيها الرحمة ولكن الرحمة أعمّ فكما تكون مع الودّ تكون مع العذاب • فكم من عذاب فى التعليم وبالحرب وبالضرّ كانت نتيجته العزّ والرقى كما قال (أرسطاطاليس) فى كتابه الى اسكندر المقدونى تلميذه ﴿ إن الأمّة اذا أرخى لها العنان والترف أهلكتها البطنة والناس لايحتملون الراحة ولكنهم يحتملون المشقات فى الحرب وغيره فهم فى حربهم نشطون فرحون وفى أمنهم ودعتهم أشرون بطرون ثم يهلكون ﴾

اذا فهمت هذا عرفت بعض سرّ قوله تعالى فى سورة مريم — يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن — فان اقتران العذاب بالرحمة هناك راجع الى ما ذكرنا • فالأمّة المعذبة بالحرب والضرّ وكثرة الأعداء تكون مستيقظة نشطة كما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى ﴿ اذا أردت رقى أمّة فأوقد لها نار حرب فانها تستيقظ من سباتها ﴾ وقال تعالى فيها — إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا — فالرحمة جاءت مع العذاب كما عامت وجاءت مع الودّ • إذن الرحمة عامّة والودّ فرع من فروعها • وههنا شعيب عليه السلام يقول — إنّ ربى رحيم ودود — ومن ودّه أنه ألهمنى أن أعلمكم الدين لأرقيكم وعلى مقدار مودّة الأنبياء والحكماء والعلماء بالتعاليم يكون قربهم من ربهم وشرفهم • انتهى القسم الثالث

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ

خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ * فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص * ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب * وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون * وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين * وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون * ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين * وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ذلك) النبأ مبتدأ خبره (من أنباء القرى نقصه عليك) خبر بعد خبر (منها) من القرى (قائم وحصيد) أى بعضها باق و بعضها عافى الأثر كالزرع القائم على ساق والذى حصد وهذه الجملة مستأنفة (وماظلمناهم) باهلاكنا إياهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بارتكاب مابه أهلكوا وذلك لما جبلت نفوسهم عليه من النقص الذى هو نتائج أسباب خافية وظاهرة فى هذا العالم الذى فطر على الخير والشر ولكن الشر جاء عرضا ولا يترك الخير الكثير للشر القليل ككفر هؤلاء فلابد من نفاذ أمرنا لأن تلك هى حقائق الوجود الثابتة التى تعلق علمنا بها فهكذا علمنا وهكذا خلقنا وهكذا رتبنا ونظمنا المخلوقات (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولا دفعت عنهم (آلهتهم التى يدعون) يعبدون (من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك) عذابه ولما منصوب بما أغنت (ومازادوهم غير تتبيب) تخسير * يقال تب اذا خسر وتببه غيره أوقعه فى الخسران أى مادفعت عنهم عبادة غير الله شيأ بل أهلكتهم (وكذلك) أى ومثل ذلك الأخذ ومحل الكاف الرفع (أخذ

ربك اذا أخذ القرى) أى أهلها (وهى ظالمة) حال من القرى (إنّ أخذه أليم شديد) مؤلم صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرهم فليبادر الظالمون بالتوبة ولا يغرّهم الامهال (إنّ فى ذلك) فيما قصه من قصص الأمم الهالكة وفى غيرها من السور (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) أى اعتقد صحة وجوده • فأما من يرى أن العالم لافاعل له وإنما هى ذرات تتكوّن وتنحل فلايقول بحساب ولاعقاب فليس لهذا عبرة عنده (ذلك) أى يوم القيامة (يوم مجموع له الناس) أى يجمع له الناس لامحالة والناس لاينفكون عنه (وذلك يوم مشهود) أى مشهود فيه أهل السموات والأرضين وقد اتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به • وليس المقصود أن اليوم مشهود فى نفسه والا لبطل الغرض من تعظيم اليوم بتمييزه فان سائر الأيام مشهودة (ومانؤخره) أى اليوم (إلا لأجل معدود) الأجل يطلق على مدّة التأجيل كلها وعلى منتهاها (يوم يأت) بحذف الياء وباثباتها ـ يأتى ـ والحذف فى مثل هذا كثير فى لغة هذيل ونظيره قوله ـ ماكنا نبغ ـ والفاعل ضمير يرجع الى قوله ـ يوم مجموع له الناس ـ (لاتكلم) لاتتكلم (نفس إلا باذنه) أى لايشفع أحد إلا باذن الله ـ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ـ (فمنهم) أى من أهل الموقف وهم الناس المذكورون فى قوله ـ مجموع له الناس ـ (شقىّ وسعيد) فمنهم معذب ومنهم منعم (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير) هو أوّل نهيق الحمار (وشهيق) هو آخره أوهما اخراج النفس وردّه والجملة حال والعامل هو الاستقرار المقدّر فى النار (خالدين فيها) حال مقدّرة (مادامت السموات والأرض) أى مدّة دوام السموات والأرض وذلك للتأبيد ونفى الانقطاع كما تقول العرب « مالاح كوكب » والمقصود التأبيد (إلا ماشاء ربك) هو استثناء من الخلود فى عذاب النار فان أهل النار يخرجون من النار الى الزمهرير وأنواع من العذاب غير النار • وكذلك أهل الجنة يتصلون بجناب القدس وبرضوان الله وهذا اعلى من الجنة أو ماشاء بمعنى من شاء وهم قوم يقال لهم الجهنميون يخرجون من النار ويدخلون الجنة فهم مستثنون من أهل الجنة أيضا لمفارقتهم إياها بكونهم فى النار أياما فهؤلاء لم يشقوا شقاوة من يدخل النار على التأبيد ولاسعدوا سعادة من لم تمسه النار هكذا روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة وهؤلاء هم فساق الموحدين * وقيل ان ـ إلا ـ هنا بمعنى سوى والمعنى سوى ـ ماشاء ربك ـ من الزيادة التى لا آخر لها على مدّة بقاء السموات والأرض فالاستثناء راجع إما

(١) لنوع العذاب كما يرجع لنوع النعيم فيما سيأتى فالمقصود انهم ينقلون من عذاب الى عذاب كما ان أهل الجنة ينقلون من نعيم الى نعيم

(٢) أولنفس المعذبين فمنهم من لايخلد فى أحدهما كأهل المعاصى الموحدين

(٣) أوللمدّة التى تزيد على زمن السموات والأرض التى نشاهدها وتكون ـ إلا ـ بمعنى غير

(٤) وهناك وجه رابع وهو مدّة لبثهم فى الدنيا والبرزخ فليسوا فى جهنم ما داموا فيهما والاستثناء إذن من أصل الحكم

(٥) وقيل الزفير والشهيق هما المقيدان بتلك المشيئة لا الخلود فالزفير والشهيق دائمان إلا فى أوقات يعلمها الله

ثم قال تعالى (إنّ ربك فعال لما يريد) من غير اعتراض لأنه بناه على الحكمة العامّة فى العالم وليس للناس مايؤهلهم للوقوف على تلك الحقائق كاملة (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) وقد تقدّم انهم قوم موحدون عاصون لايدخلون الجنة إلا بعد العذاب اذا كانت ـ ما ـ بمعنى من أوانهم ينالون ماهو أعظم من الجنة وهو رؤية الله تعالى ورضوانه (عطاء غير مجذوذ) غير مقطوع فهذا الثواب لاينقطع (فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء) أى فلاتشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص فى سوء عاقبة عبادتهم وانهم آيلون الى الهلاك وأن الأنبياء ومن تبعهم ناجون فى الدنيا والآخرة وهذا

عدة بالانتقام منهم ووعيد لهم وتسلية للنبي ﷺ ولكل من سار على قدمه من المؤمنين وأن الله ناصره وناصرهم وخاذل أعدائه وأعدائهم كما جربناه في هذه الحياة مرارا وهم مايعبدون إلا كما عبد آباؤهم من قبل وقد قصصنا عليك مانزل بآبائهم فسيلحقهم مثله فان المشابهة في الأسباب تستدعى المشابهة في المسببات وقوله ـ كما يعبد آباؤهم ـ أى كما كان يعبد آباؤهم وهذا قوله تعالى (مايعبدون إلا كما يعبد) الى قوله (وانا لموفوهم نصيبهم) من العذاب (غير منقوص) حال من النصيب لتقييد التوفية دفعا لما يحتمل أن التوفية تكون للبعض مجازا (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) فآمن قوم به وكفر قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن (ولولا كلمة سبقت من ربك) أى كلمة الانظار الى يوم القيامة (لقضى بينهم) بين قوم موسى وقومك بالعذاب المستأصل (وانهم) وان كفار قومك (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع للريبة (وان كلا) وان كل المختلفين المؤمنين منهم والكافرين (لما) إلا والله (ليوفينهم ربك أعمالهم) وقرئ ـ لما ـ بالتخفيف فاللام إذن موطئة للقسم والثانية للتأكيد ومازائدة للفصل بينهما (إنه بما يعملون خبير) فلايخفى عليه شئ • ولما أبان الله في هذه السورة كيف كانت عاقبة العاصين وخاتمة الصالحين أمر نبيه ﷺ ومن اتبعه قائلا (فاستقم كما أمرت) أى استقم على دين ربك والعمل به والدعاء اليه كما أمرك ربك أى دم على ما أنت عليه من الاستقامة (ومن تاب معك) من الشرك والكفر وهو عطف على ضمير الرفع في استقم (ولاتطغوا) ولاتخرجوا عما حد لكم أولاتغلوا في الدين فتجاوزوا ما أمرتكم به (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه وهذا في معنى التعليل للأمر والنهي * قال ابن عباس مانزلت آية على رسول الله ﷺ هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال شيبتني هود وأخواتها (ولاتركنوا الى الذين ظلموا) ولاتميلوا اليهم أدنى ميل فان الركون هو الميل اليسير كالتزيي بزيهم وتعظيم ذكرهم والميل بالقلب اليهم وطاعتهم ومداهنتهم وتكثير سوادهم والرضا بأعمالهم (فتمسكم النار) أى فتصيبكم النار بحرها كما يحصل اليوم في الأقطار الاسلامية من التشبه بالفرنجة وتقليدهم ومداهنتهم والتزيي بزيهم واحترام تجاراتهم وآرائهم وأخلاقهم وفسوق الفاسقين منهم • فلذلك حكم الله على أكثر الأقطار الاسلامية أن يصيبها نار الاستعباد في الدنيا والذل والفقر والاحتلال والاختلال والنذالة والضعف والجبن والخوف وهذه مقدمة لعذاب جهنم ـ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ـ

وقد بينا في هذا التفسير في مواضع كثيرة أن الفرنجة ضحكوا على ذقون الشرقيين الغافلين وألبسوهم ثوب المذلة والعار ومزقوهم شر ممزق وكل ذلك لأنهم ركنوا اليهم وصدقوهم • ولقد قدمت انهم أشبه بالمسيخ الدجال فانهم يظهرون جنة اللذات ويخفون نار الاستعباد • وقد ركن كثير من الأمراء الى نار شهوات المال الذي يعطونه لهم أوالألقاب الحقيرة الكاذبة التي يسمونهم بها أوالوسامات التي يعلقونها على صدورهم فأوقعوهم في نار الاستعباد والمذلة والخزى المبين • هذا كله سر هذه الآية ثم قال تعالى (ومالكم من دون الله من أولياء) من أنصار يمنعون العذاب عنكم والاستعباد والاحتلال واستنزاف الثروة وحلول الفقر بكم في الدنيا (ثم لاتنصرون) أى ثم لاتجدون لكم من ينصركم ويخلصكم من عقاب الله أى عذاب يوم القيامة وفي الدنيا الذي هو مقدمة لعذاب الآخرة وفيه وعيد لمن ركن الى الظلمة أورضى بأعمالهم

ومن عجيب الأمر أن النبي ﷺ يقول شيبتني هود وأخواتها • ولعمرك ماشيبته هود وأخواتها إلا لما في هذه السورة من العذاب الذي حاق بالأمة الاسلامية أسوة بالأمم الأخرى

﴿ مصداق هذه الآية في تاريخ الأندلس وفي الدولة العباسية بغزوة التتار ﴾

وتعجب كيف تم ما قاله الله تعالى وهو أن الركون الى الظلمة يعرض المسلمين الى الهلاك والدمار ثم يقول الله ـ ثم لاتنصرون ـ ولقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين غير منصورين بل هم في قبضة الفرنجة

كل ذلك جاء مصداقا لهذه الآية . يقول الله — ثم لاتنصرون — وقد حصل ذلك وأصبح أكثر المسلمين كعبيد للفرنجة لأنهم ركنوا اليهم والله لم ينج من مذلة الفرنجة إلا الذين استقلوا بأعمالهم وتركوا الركون اليهم ورجعوا الى أنفسهم ولم يتكلوا عليهم واعتبر ذلك فى الأمّة الأندلسية إذ كانوا فى أوّل أمرهم حين كان الاسلام عزيزا مهابا محافظين على أخلاقهم القومية وعاداتهم العربية وشيمهم النبوية ثم تحوّلت الحال وساءت وأصبح المسلمون بعد الأنفة والعزّة والشرف أسرى الأوهام . ومبدأ ذلك أن الفرنجة تعاهدوا مع أمراء الأندلس ورئيسهم ابن عباد . وتلك المعاهدة احتوت على مايأتى ﴿أوّلا﴾ حرّية الدين ﴿ثانيا﴾ حرّية التجارة ﴿ثالثا﴾ حرّية التعليم . ولما تمت تلك المعاهدة أقام ابن عباد احتفالا ومهرجانا وأفراحا دامت عشرات الأيام ولقد حضر الأمراء جميعا تلك المعاهدة ووقعوا عليها وكان بعضهم قد ركبوا على جياد نعالها من ذهب . ولما تمت تلك الوليمة والأيام الراقصة رجعوا الى ديارهم آمنين مطمئنين ولم يرفض التوقيع على هذه المعاهدة إلا ابن مصعب فانه قال ﴿ويحكم يا أبناء العرب وعظماء الاسلام كيف تبيحون حرّية التجارة والتعليم فى دياركم . أفلاترون أن القوم سيعلمون أبناءكم تاريخ أممهم ويحقرون آباءكم . أولاترون أن الخمر يباع فى بلادكم بعد الآن لحرّية التجارة وسينشر فى البلاد الترف والنعيم ويكثر المترفون والفسقة والفجار والخلاعة وينتهى الأمر بفساد البلاد وخراب العباد وطرد العرب من الأصقاع الاوروبية . فلما سمع القوم مقالته هزؤا ساخرين ونبذوه أجمعين وقالوا لست فى العير ولافى النفير وهل يطاع لقصير أمر أو يقام لغير رشيد وزن — وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا — وقالوا إن هذا كلام الذين لايعرفون السياسة ولاهم من السياسيين﴾ . فماذا جرى بعدذلك . قضيت سنون تلتها سنون وصحّ ماتنبأ به ابن مصعب وانتشر الخمر والفسوق وصار ﴿كتاب الأغانى﴾ هو العمدة فى البلاد وانتشرت الخلاعة والفسوق وصار الشبان يغازلون الفتيات فى الطرقات شاربين وشاربات وسكرين وسكرات وكثر الترف والنعيم ولبسوا الحرير وتختموا بالذهب وصارت الخلاعة مشرب الأدباء وخلق الكبراء فذهبت النخوة والدين وسرى ذلك من الأحداث الى العظماء والكبراء حتى ان أحد أمراء بنى ذى النون اختطف فتاة رومية من أبيها وأدخلها قصره فلجأ الى أمير آخر مسلم فأدّته مروءته أن يكاتب ابن ذى النون ذاكرا له عظم هذا الذنب وقبحه فأبى أن يقبل قوله فاتحد ذلك الأمير مع بعض بارونات أوروبا وهجموا على ذلك الأمير ومزقوا شمله وخربوا قصره وأولم الأمير الغالب للفرنجة الحاضرين معه وليمة دامت أياما فرحا بالانتصار واظهارا للافتخار والأمّة العربية إذ ذاك فى انتحار وهى لاتعلم ماخبأه لها الزمان وكان العربى إذ ذاك فى الأندلس يحقر نسبه وأخلاق آبائه وآراءهم وتاريخهم ولايأنس إلا بالاوروبيين الذين ربوه فى مدارسهم . ولقد تجاوز هؤلاء الأساتذة حدّ العادة فى تغيير أخلاق المسلمين حتى ان راهبا فى قرطبة من أساتذة المدارس التى يتعلم فيها المسلمون اشترى عنب قرطبة كله وعصره خمرا وحلف أن لا يبيعه لأحد إلا لتلاميذه من أبناء المسلمين لحبه إياهم فصار الخمر من مستلزمات المدنية والعمران . فماذا جرى . سارت الأمّة شوطا بعيدا حتى قرعت القارعة ووقعت الصاعقة وأتى الملك (فرديناند) والملكة (ايزابله) وقصما ظهر البلاد وأزالا ملك بنى عباد وأمراء الأجناد وقبروهم أجمعين إلا قليلا منهم رموهم فى البحر أجمعين وقتلوهم مجندلين — وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون — وما الله بغافل عما يعمل الظالمون . كل هذا مصداق لقوله تعالى — ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون — فلم يجد أبناء الأندلس أولياء ينصرونهم لما أحاط بهم الافرنج من كل جانب وهم غافلون لأنهم ركنوا الى الفرنجة فأصبحوا حصيدا خامدين

﴿ التتار فى الشرق ﴾

وقد كان المسلمون قبل ذلك بنحو ثلاث مائة سنة فى بلاد الشرق قد ثملوا بعزّتهم وسكروا بجاههم فلم يظنوا فى الأرض قوّة أعظم منهم أيام قطب أرسلان إذ أرسل اليه (جنكيزخان) المسمى تموجين رجالا من قومه ليتاجروا مع المسلمين بأموالهم ومعهم مال عظيم ومتاجر كبيرة فخاف تجار المسلمين على أنفسهم وضياع تجاراتهم وبخس بضاعاتهم لمزاحمة أولئك الواردين لأن بضاعاتهم أجمل وأبهج وأبهى وأرخص قيمة فأرسل هؤلاء التجار الوطنيون رجلا منهم فقال لقطب أرسلان . هل لك أن تأخذ التجارة من هؤلاء الذين حضروا وأن مامعهم يكون غنى لدولة الاسلام وعزا وجاها للحكومة ففرّه مايقول وأخذ المال الذى مع التجار الذى قيل إنه كان كثيرا جدّا فأخذ تجارتهم وقتلهم أجمعين . فلما ورد الخبر الى (جنكيزخان) أرسل له خطابا مع جماعة يحذره من عاقبة ظلمه يقول فيه كيف تسيؤن الجوار وتظلمون الناس ونبيكم ﷺ لم يقل به وعلىّ بن أبى طالب كذلك . أولم يخبركم نبيكم قائلا ﴿ اتركوا الترك ماتركوكم اننا نحن أمّة يأجوج ومأجوج وقد أوعدكم الله بأنهم سينسلون عليكم من كل حدب . فلما جاء الخطاب الى (قطب أرسلان) مزّقه وصلم آذان الرسل المرسلين من قبل (جنكيزخان) فصام هذا الذى يعبد النار ثلاثة أيام تضرّع فيها الى الله أن ينصره على المسلمين الذين هم يخربون بلاد الله وهو يسعى الى الاصلاح ولم يأكل ولم يشرب فى تلك الأيام الثلاثة ثم قام بجموعه وهجموا على الاسلام فأزالوا دولة العباسيين ومزّقوا المسلمين شرّ ممزق وانتشروا فى الهند وفى الروسيا ولاتزال بقاياهم الى الآن على نهر (فلجا) وغيره ولكنهم أسلموا بعد حين وهذا مصداق لقوله ﷺ ﴿ ويل للعرب من شرّ قد اقترب ﴾ وسيتضح هذا المقام فى تفسير سورة الكهف عند قوله تعالى ـ حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ـ وسترى فيه نص الخطاب الذى أرسله (جنكيزخان) لتعلم أن المسلمين كما ركنوا الى أوروبا فزالت دولتهم ركن مسلمو الشرق الى فجار التجار منهم فسلطوا الملوك على ايذاء الجيران فآذوهم فسلط الله عليهم التتار . ذلك لأنهم ركنوا الى الذين ظلموا وهم تجار المسلمين . وأيضا كان المسلمون غافلين جاهلين لم يعرفوا قدرة بلاد التتار ولم يدرسوها فهم كانوا بجغرافية البلاد المجاورة لهم جاهلين فلما آذوهم سلطهم الله عليهم وهم لايعلمون قوّاتهم ولامقدار جيوشهم ولاعددهم ولاصبرهم على القتال . ذلك كله مصداق لقوله تعالى ـ ثم لاتنصرون ـ

﴿ مصداق هذه الآية فى الأمم الاسلامية اليوم ﴾

ولقد قدّمت مرارا فى هذا التفسير كيف استولت الفرنجة على بلاد الشرق وقلت انهم استولوا عليهم بنفس الطريقة التى أهلكوا بها بلاد الأندلس فانهم كما أهلكوا الأندلسيين بالشهوات واللذات وفتحوا لهم باب الترف فكثر الدين والاسراف والخمر والمجاهرة بالمعاصى مع الغانيات ولبس الحرير والتنعم والربا واحتقار تاريخ الآباء وآرائهم وأعمالهم وخصالهم وماهم عليه من التمسك بالدين وما أشبه ذلك . هكذا فعلوا ذلك مع أهل الشرق من التونسيين ورجال الجزائر والمراكشيين والمصريين بحيث ترى الأغنياء من بلادنا الآن لايهنأ لهم طعام إلا فى مطاعمهم ولاشراب إلا فى قهواتهم وباراتهم ولامغازلة إلا مع نسائهم ولاشراء إلا من محال تجاراتهم ولالباس إلا على زيهم ولاخادمة إلا من أحسن نسائهم ولا استدانة إلا من مصارفهم . واذا أرادوا عملا عاما لا يكون إلا فى أماكنهم التى لهم فى بلادنا

اذا علمت هذا علمت جواب رسول الله ﷺ الى أبى بكر لما سأله قائلا قد شبت يارسول الله إذ قال ﷺ شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعمّ يتساءلون واذا الشمس كوّرت * وفى رواية غيرها ﴿ قال قلت يارسول الله عجل اليك الشيب قال شيبتنى هود وأخواتها الحاقة والواقعة وعمّ يتساءلون وهل أتاك حديث الغاشية ﴾ ويقول العلماء لأن هذه السور فيها ذكر القيامة والبعث والحساب الخ . فهذا صريح فى أنه يخاف

عذاب الآخرة • ولاشك أن مما فى سورة هود حساب الأمة المحمدية فى الآخرة على أنها تركن الى الذين ظلموا وقد أظهر الله مقدمات هذا الحساب ودلائله فيما ذكرناه • وورد أيضا ﴿ويل للعرب من شر قد اقترب﴾ وقد حصل ذلك بظهور التتار وغلبهم للمسلمين كما سيتضح فى سورة الكهف وكما قدمناه الآن فليعتبر المسلمون • ولما كان اختلال الأمة ينشأ من ركونها الى الذين ظلموا وكانت اقامة الصلوات فى أوقاتها مما يجمع القلوب ويؤدى الى اتحادها أعقب ماتقدم بقوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) غدوة وعشية وهو منصوب على الظرفية لأنه مضاف الى الظرف وصلاة طرف النهار الأول الصبح وطرف النهار الثانى الظهر والعصر (وزلفا من الليل) الزلف جمع زلفة من أزلفه اذا قربه أى وساعات من الليل قريبة من آخر النهار وهى صلاة المغرب والعشاء (إن الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن السيآت) أى الذنوب * وفى الحديث ﴿ان الصلوات الخمس تكفر مابينها من الذنوب﴾ ومثل الصلوات جميع الطاعات * قال عليه الصلاة والسلام ﴿وأتبع السيئة الحسنة تمحها﴾ ومن الطاعات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم • وقد ورد فى الحديث أيضا أنها مرادة بهذه الآية * وفى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال أرأيتم لوأن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ قالوا لا قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا

إن الذنوب الصغائر تكفرها الصلوات والطاعات • أما الذنوب الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة النصوح بالاقلاع عن الذنوب بالكلية وبالندم وبالعزم التام ألا يرجع الى الذنب * وفى الحديث ﴿إن الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر﴾ وفى سبب النزول أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال انى قد أصبت من امرأة غير انى لم آتها فنزلت (ذلك) اشارة الى ماتقدم مما فى هذه السورة من هلاك العاصين ونجاة الصالحين وماولى ذلك من قوله ـ فاستقم كما أمرت ـ ومابعده (ذكرى للذاكرين) عظة للمتقين وتبصرة للمفكرين فيعرفون كيف تهلك الأمم اذا ظلمت وكيف تمسهم النار فى الآخرة اذا ركنوا الى الظالمين وأن الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى هذه السورة لم ينصروا الا بعد الصبر ولذلك قال (واصبر) على ماتلاقى من قومك ومجادلاتهم وعداوتهم كما صبر الأنبياء قبلك المذكورون فى هذه السورة وقد علمت أمرهم وانه لم يضع أجرهم اذ أحسنوا فى أعمالهم (فان الله لايضيع أجر المحسنين) أى المصلحين أعمالهم كالاستقامة وعدم الركون الى الذين ظلموا واقامة الصلاة وفعل الحسنات وجميع الأعمال الظاهرة والباطنة فاحسان العمل الباطنى يرقى أخلاقنا واصلاح العمل الظاهرى كالصناعات يرفع قدر الانسان ويرقى عقله ويكسبه الغنى وهذا ممدوح والله لايضيع أجره كما هو مشاهد محسوس • فكل من أحسن عملا لايضيع أجره وهذا يوجب على المسلمين أن يحسنوا مايصنعون فى أعمالهم الظاهرة والباطنة

ولما كان القول المتقدم وهو الأمر بالاستقامة للنبى ﷺ ومن اتبعه ونهيهم عن الطغيان وعن الركون الى الذين ظلموا حتى لاتمسهم النار كما مست الأمم السابقة لما طغوا كما هو مذكور فى هذه السورة أشبه بالتخلية ثم أمرهم بما هو كالتحلية من الصلاة بالليل والنهار مرتبا على ماذكر فى هذه السورة من اهلاك الأمم السابقة فى الدنيا لكفرها وفى الآخرة بالنار • لذلك أيضا رجع الى تفصيل الكلام على تلك الأمم قائلا هلا كان من هؤلاء الأقوام الذين ذكروا فى هذه السورة وغيرهم من الأمم السالفة قبلكم رجال أولوا رأى وعقل ينهون الناس عن افسادهم فى الأرض بتطفيف الكيل والميزان وبخسهما وفعل الفاحشة التى لم يأتها أحد من العالمين والكفر والمعاصى الكثيرة • نعم ان بعضهم نهى عن الفساد فى الأرض فنجيناهم • فأما الأكثرون فانهم لم ينهوا عن الفساد فى الأرض واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه بالتنعم والترفه وحب الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنىء ورفضوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونبذوه وراء ظهورهم (وكانوا

مجرمين

مجرمين) وحكم عليهم بأنهم قوم مجرمون وهذا قوله (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية) من الرأى والعقل أو أولوا فضل وانما سمى بقية لأن الرجل يستبقى أفضل مايخرجه • ومنه فلان من بقية القوم أى من خيارهم (ينهون عن الفساد فى الأرض الا قليلا ممن أنجينا منهم) أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لأنهم كانوا كذلك فالاستثناء منقطع فهؤلاء المستثنى منهم لم ينهوا عن الفساد فى الأرض (واتبع الذين ظلموا أنفسهم فلم ينهوا الناس عن الفساد (ما أترفوا فيه) أى ما عرفوا فيه التنعم والثروة الخ (وكانوا مجرمين) ولما كان ماتقدم يستدعى سؤالا فيقال ياعجبا إن الله عزوجل رحيم وكيف يهلك الناس اذا كفروا • وهانحن أولاء نرى الحيوانات راتعة فى الماء والهواء والتراب فلم خص الانسان بالاهلاك فى الدنيا فليكن الكافر فى الأرض كالحيوان أفلايسع الله هؤلاء فى أرضه فما باله يهلكهم فى الدنيا وينزع ملكهم ويشتت شملهم • لذلك قال الله (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم) بشرك (وأهلها مصلحون) أى وما كان ربك ليهلك القرى بمجرد شركهم اذا كانوا مصلحين بأن يعامل بعضهم بعضا بالصلاح والسداد • ولذلك قيل ﴿ الملك يبقى مع الكفر ولايبقى مع الظلم والمعاصى ﴾ وكأن هذا تقرير لما تقدم فى السورة كأنه يقال اذا أهلكت قوم لوط وقوم شعيب وغيرهما فانما اهلاكهم للذنوب المخلة بالامن الضارة بالمجموع • واذا كان المجموع فاسدا فلابقاء له بل يكون كالجسد الميت تنتن رائحته • فالأمة التى تكذب وتظلم وتفسق ويرتشى حكامها وتضل فى أعمالها ولاتحسن عملا حكمت عليها بالهلاك لأنها مجموع مختل غير منظم وهذه قاعدة طبيعية فالأمة كالجسم اذا اختل خللا عظيما رئيسيا مات وهذه حال كثير من أمم الشرق والاسلام الآن وسيغير الله الحال بل ابتدأ سبحانه يفعل ذلك الآن • ولما كانت الأمم الاسلامية اليوم قل فيها علم الأخلاق والعمل بها صارت قلوب أهلها متباعدة متباغضة وهم لايحسنون كثيرا من الأعمال وهى بأيدى غيرهم سلط الله عليهم الفرنجة لأنهم لاينهون عن الفساد فى الأرض وقليل منهم الآن انتظموا فى أعمالهم فاستقلوا فى بلادهم وطردوا الفرنجة والحمد لله • فتعجب كيف أبان الله فى هذه الآيات أن خراب الأمم تابع لظلمها الداخلى فى أعمالها لا ايمانها وعلى ذلك لايبالى بايمان بلاعمل صالح بل ينزل بأهله العذاب الشديد فى الدنيا كما أشار اليه فى قوله تعالى – ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار – ومن الظلم ترك النهى عن المنكر • واعلم أن الفقهاء لأجل هذه الآية قدموا عند تزاحم الحقوق حقوق العباد على حقوق الله تعالى

واعلم أن هذا المقام يقتضى أن يسأل سؤال فيقال اذا كان الله هو الخالق للعالم المنظم له وهو واحد فلم تطورت الأمم وكانوا مختلفين أخلاقا وديانات وآراء وكفرا وايمانا • وهلاجعل الله الناس أمة واحدة ولم هذا الاختلاف • واعلم أن هذا السؤال يرد على عقول كثير من الناس وهو بهذا المقام أليق لأنه فى مقام هلاك الأمم وبقائها وتقرير حقائقها وقد تم البحث هنا ودقق أيما تدقيق • واعلم أن العالم لولم يكن مختلفا لكان معدوما • ألاترى أن الحكماء قد قرروا أنه لايتساوى اثنان فى الوجود فلارجل ولا امرأة من الناس يماثلان غيرهما من الرجال والنساء بل كل فرد من الناس والحيوان والنبات والمعادن والكون لانظير له فى الوجود • وقد برهنوا على ذلك ببرهان قاطع لامحل لذكره هنا • فمادام هناك خلق فلابد من اختلافه فالاختلاف ملازم للخلق • وما دام هناك خلاف فهو فى الأجسام والألوان والعقول والآراء والديانات والأحوال وفى كل شئ • فالعاقل الحكيم يعتقد أنه لا يكون وجود بغير اختلاف الموجودات والجاهل يقول لم خلق الله الاختلاف مع أنه لا يمكن الخلق إلا مع الخلاف • ولافرق بين الخلاف القليل والكثير • فكما يأتى بساعات النهار المختلفة أضواؤها يأتى بالليل الذى هو غاية الخلاف مع النهار هكذا يفعل فى الديانات

فكما يخلق تقيين متقاربين كأبى بكر وعمر وهما كساعتين يخلق كافرا ومؤمنا كأبى بكر وأبى جهل كما خلق الليل والنهار فالنظام واحد فى الأطوار الانسانية والأحوال الكونية ونتيجة ذلك هو أعلم بها وهذا قوله

(ولوشاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة) متفقين فى الايمان والطاعات ولكنه لم يشأ ذلك لأن المشيئة تتبع العلم والعلم يتبع المعلوم والمعلوم ليس يكون إلا على النظام الأكمل والنظام الأكمل لا بدّ أن يكمل فيه جميع الأحوال كما كملت أحوال الليل والنهار بالظلام والضياء المتباين النتائج والثمرات (ولايزالون مختلفين) فى دياناتهم كما اختلفوا فى جميع أطوارهم وهذا الاختلاف يقلق راحاتهم ويزعج نفوسهم ويكون سبب النزاع فيما بينهم (الا من رحم ربك) من أناس يكون اختلافهم غيرداع الى النزاع بل هو كالوفاق حينما يرتقى نوع الانسان ويكونون كأسرة واحدة يحبّ بعضهم بعضا ويكون اختلافهم فى جميع أحوالهم ليتكملوا به ولكل منهم عمل خاص ينتفع الجميع به فيكون الاختلاف فيما بينهم كاختلاف البنوة والابوة والذكورة والانوثة كل له عمل ينفع به المجموع وتكون جميع أهل الديانات على حال لايلعن بعضهم بعضا بل يكونون أشبه بأعضاء أسرة واحدة • ذلك هو العصر الذهبى الذى عبر عنه بأنه ينزل فيه عيسى ابن مريم فتصلح القلوب بالمحبة ويصبح الناس ــ اخوانا على سرر متقابلين ــ فى الدنيا * وقد ورد أن دين الاسلام يعم المسكونة إذ ذاك • ولما كان الخلاف فى جميع الأحوال أمرا طبيعيا أعقبه سبحانه وتعالى بقوله (ولذلك خلقهم) أى خلق الناس (وتمت كلمة ربك) وهى قوله للملائكة (لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين) لنقصانهم وبعدهم عن الكمال فاذن أضعهم فى المنازل التى استأهلوا لها كما أخلق الدود فى الطين والحيات والعقارب فى التراب والحشرات فى القاذورات ولقد أكثرت فى الدنيا من هذه المخلوقات فى تلك الأماكن لئلا يبقى مكان فى العالم معطلا بلاخلق ولم أخلق الخلق عبثا بل كلا لحكمة فأنا لا أذر الروث والطين المنتن والقاذورات بلامخلوقات فأكثرت خلقها فهكذا • إن أكثر النفوس الانسانية تموت ناقصة فأضعها فى قاذورات العالم الثانى لأعمال أنبها عليم فتكون معذبة وعذابها بحسب استعدادها كما خلقت الدودة فى الروثة وكما أن الناس يأنفون من الروث ويقولون لوخلقنا دودا لتمنينا الموت ولكرهنا الحياة والدود محصور رمغمور مسكين يعيش كأنه ميت ولايعلم من الحياة إلا مايمسّ جلده فهو خال من السمع والبصر والشمّ والذوق • هكذا يكون فى الآخرة خلق من الناس يأنف أهل الجنة أن يكونوا معهم لما هم فيه من العذاب بالنار والجحيم فضلا عن خسة الحياة ودناءة الموقف وعذاب الخزى والذلة والمخافة والضياع وانحصار القوى وانحباس النفوس • والى هنا قد تمّ الكلام على الأمم وأحوالها وما استنتج الله منها وعلم نبيه وأمّته ووعظ وذكر وحذر وأنذر • ثم شرع سبحانه يبين للنبيّ ﷺ ولأمّته مقصود هذه القصص وأمثالها وأن المقصود من هذه الأخبار تثبيت فؤاده ﷺ وفؤاد كل مؤمن يقرأ هذه القصص فان الانسان اذا علم ما أصاب المصلحين قبله من البأساء والضرّاء ثم تمّ النصر لهم فى آخر الأمر يثبت قلبه وهكذا ﷺ لما علم من هذه السورة كما علم من غيرها كيف كانت عاقبة الأنبياء وعاقبة أممهم من الأتباع والكفار تأسى وصبر وثبت قلبه لعلمه بالعاقبة وهذا قوله تعالى (وكلا) وكل نبأ (نقصّ عليك) وقوله (من أنباء الرّسل) بيان لكل وقوله (مانثبت به فؤادك) بدل من ــ كلا ــ (وجاءك فى هذه الحق) أى فى هذه السورة (وموعظة وذكرى للمؤمنين) وتثبيت قلبه معناه زيادة يقينه فان تكاثر الأدلة أثبت للقلب وهكذا توارد القصص المتشابهة المغزى فى موضوع واحد توجب الاستئناس • هكذا قراءة المؤمنين لأمثال هذه القصص تورثهم موعظة من المعاصى وتذكرهم أحوال الأمم فيقيسون عليها أنفسهم

ولما كان ماتقدّم نافعا له وللمؤمنين أمره أن يخاطب الكافرين قائلا اعملوا على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها (إنا عاملون) على مكانتنا وهذا كقوله ــ لكم دينكم ولى دين ــ (وانتظروا) بنا الدوائر (إنا منتظرون) أن ينزل بكم مثل مانزل بالأمم السابقة كما قصه الله فى هذه السورة من الهلاك اللاحق بهم لما كفروا كما كفرتم • ثم ختم السورة بالتوحيد وارجاع الامور كلها لله تعالى فقال (ولله غيب السموات والأرض) وحده لايخفى عليه شئ فيهما (واليه يرجع الأمر كله) ومنه أمرك وأمرهم فيثيبك ويعاقبهم

(فاعبده وتوكل عليه) أى فمن كان كذلك فهو مستحق للعبادة لاغيره فاعبده وحده — وتوكل عليه — يعنى ثق به فى جميع أمورك فانه يكفيك كما فى قوله — إياك نعبد وإياك نستعين — (وما ربك بغافل عما تعملون) أنت وهم وجميع الخلق فهو يحفظ أعمالهم جميعا لايخفى عليه منها شئ فيجزى المحسن باحسانه والمسىء باساءته والله أعلم • انتهى التفسير اللفظى

﴿ لطيفتان ﴾

﴿ الأولى ﴾ فى قوله تعالى — فأما الذين شقوا الخ — ﴿ الثانية ﴾ ما أهمّ العلوم التى كان يرمى اليها الأنبياء فى هذه السورة وكيف خزنها الله فى القرآن للمسلمين فى هذا الزمان وكل زمان

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن من علماء الأمّة الاسلامية من نظروا فى هذه الدنيا ونظامها وحكمة خالقها ورحمته التى وسعت كل شئ • وأن رحمته سبقت غضبه • وأن أوّل كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم وصلاة المسلم كلها دعوات تسند جميع أفعال الخلق الى الله تعالى • وهذا كله مما يوقع فى النفوس أن خالق هذا العالم عنده رحمة عظيمة فوق رحمة الناس وفوق مايعرفه الناس • كيف لا وهو القائل فى هذه السورة — ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرّها ومستودعها — وهو القائل على لسان بعض رسله — ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم — فالنظر فى العالم والنظر فى بعض الآيات والأحاديث جعل بعض العلماء يفكر فى هذه الآيات و يقول إن العذاب ليس يكون بلانهاية * قال العفيف التلمسانى اذا بلغ الانتقام الغاية انقلب رحمة * وقام المصطفى ﷺ لجنازة فقالوا انه يهودى فقال أليس الملك معها أليست نفسا

قال العلامة زين الدين محمد المدعو عبد الرؤف الحدّادى القاهرى المعروف بالمناوى المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٣١ هـ فى شرحه على (قصيدة النفس) لابن سينا مانصه

قال فى الفتوحات المكية ﴿ هذا أرجى مايتمسك به أهل الله اذا لم يكونوا من أهل الكشف ولا التعريف الالهى فى شرف النفس الناطقة وأن صاحبها وان شقى بدخول النار فهو كما يشقى هنا بأمراض النفس والعلل والهموم وأن ذلك كله غير مؤثر فى شرفها إذ كانت من العالم الأشرف فقام لها لكونها نفسا أى لذاتها وهذا يؤذن بتساوى النفوس

وفى رسالة القشيرى عن بعض الصلحاء أنه ذمّ من رأى نفسه خيرا من فرعون • قال وهذه مسألة من أعظم المسائل تؤذن بشمول الرحمة وعمومها لكل نفس وان عمرت النفوس الدارين • ولابدّ من عمارة الدارين كما ورد أن الله سيعامل النفوس بمايقتضيه شرفها بسبب لايعلمه إلا أهل الله فانه من الأسرار المخصوصة بهم • فكما أن الحدّ يجمعهم كذلك المقام يجمعهم لذاتهم إن شاء الله تعالى • وقال تعالى فى الذين شقوا — إنّ ربك فعال لما يريد — ولم يقل — عطاء غير مجذوذ — كما قال فى السعداء • وقال أيضا — رحمتى سبقت غضبى — وقال — ورحمتى وسعت كل شئ —

كل ذلك منه منة فانه كتب على نفسه الرحمة • قال المناوى الى هنا انتهى كلام ابن عربى

أقول ولم يقتصر الأمر على الصوفية رحمهم الله بل تعدّاهم الى غيرهم * قال ابن زيد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بالذى يشاء لأهل الجنة فقال تعالى — عطاء غير مجذوذ — ولم يخبرنا بالذى يشاء لأهل النار

وروى عن ابن مسعود أنه قال ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعد مايلبثون فيها أحقابا * وعن أبى هريرة نحوه • وقال المناوى انه قد جاء فى بعض الآثار مايدل على خلاص الكل وأن النار تفنى و يزول عذابها دون الجنة • قال ابن تيمية نقل ذلك عن عمر وعن ابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد وغيرهم • وأخرج عبد الحميد بن حميد عن عمر باسنادين رجالهما ثقات ﴿ لولبث أهل النار فى النار كعدد

رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه ﴾ وتداوله أئمة غير مقابلين له بالانكار قال أعنى ابن تيمية وانما أرادوا جنس أهل النار الذين هم أهلها واما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علموا هم وغيرهم أنهم لايلبثون قدر رمل عالج ولاقريبا منه . ولفظ أهل النار يختص بمن عدا المؤمنين كما يشير اليه عدّة أحاديث ولايناقضه قوله تعالى ـ خالدين فيها * وماهم منها بمخرجين ـ الى أن قال . لكن اذا انقضى أجلها وفنيت كما تفنى الدنيا لم يبق نار فلم يبق عذاب . قال وورد فى عدّة طرق عن ابن عمر ﴿ وليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد مايلبثون فيها أحقابا ﴾

وجاء نحوه عن ابن مسعود وأخرج عبد بن حميد عن الشعبى ﴿ جهنم أسرع الدارين عمارا وأسرعهما خرابا ﴾ ثم ان ابن تيمية رحمه الله أورد قول من يقول ان الاجماع على خلاف ماذكر ونحوه ورد هذا القول قائلا انما يظنّ الاجماع من لايعرف النزاع . والمسلمون جميعا أجمعوا أن عذاب جهنم دائم لاينقطع . هذا قام عليه الاجماع . ولكن اذا بطلت جهنم بالكلية لايقال انهم خرجوا من جهنم بل يقال انها فنيت فهم يعذبون مادامت باقية فاذا خربت فأين يعذبون وفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله و بين من يبطل حبسه بخراب الحبس . هذا ملخص ماقاله المناوى . ثم قال حكى ذلك كله ابن القيم وأطنب فيه ودفع قوادحه فى نحو كراسة . ثم قال والذى نعتقده ماعليه هداة هذه الأمّة وجمهور الأئمة أن النار لاتفنى ولايزول عذابها . قال ووافق ابن القيم على نحو مازعمه جمع من الصوفية كما تقدّم اهـ

هذا وانما أريتك هذه الآراء المختلفة فى هذا المقام لتعلم مقدار ماوصل اليه علماؤنا والمحققون منهم فى هذا المقام والله يتولى هدايتنا

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اعلم أن هذه السورة أشبه بثمرة الجوز المقسمة الى بيوت كل واحد منها فيه اللبّ الشهى النافع للأجسام المغذى لنوع الانسان . وانما شبهتها بتلك الثمرة لأن الجوز له قشر يحيط بلبه وفى داخله بيوت منظمة محتوية على اللبّ المطلوب للآكلين . هكذا هذه السورة فيها القصص الدالة على نجاة الطائعين وهلاك العاصين . والمقصود من ذلك كله العلم بنظام العالم وجماله وبدائع حكمته وغرائب خلقته . ولعلك تقول . ياللعجب كلما وصلنا الى آية أوقرأنا حكمة أرجعتها الى الحكم الكونية والغرائب الخلقية . فياليت شعرى مالقصة نوح فى سفينته وهود فى قبيلته وصالح وناقته وابراهيم وامرأته ولوط وقريته وشعيب وجماعته وموسى ونبوّته

فأين قصص هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأفلاك فى دورانها والأسماك فى بحارها والنباتات فى حقولها والحيوانات فى فلواتها . والذى يخيل لى أنك مغرم بالعجائب الكونية تدور حولها كلما سنحت سانحة أوبرقت لك بارقة

اذا قلت هذا أيها الذكى أقول لك لاتعجل وانظر ما أقول ابتدأ الله السورة بأن الكتاب محكم الآيات مفصل كما تفصل الفرائد وهو حكيم خبير . وأفاد أن علمه يعم مابطن وماظهر . وأن عليه رزق جميع الدواب وهو العالم بمستقرّها ومستودعها وأن ذلك عنده فى كتاب وقد أسس ملكه جميعه على العلم فلادابة فى الأرض من طير يطير وبهيمة تسير وسمك يجرى وحشرة تسرى إلا وهو قائم بنظامه عالم بما يحتاج اليه رازق له منظم لأعضائه وحياته معطيه رزقه . فاذن ليس لدابة فى الأرض إلا خالقها ومنها الانسان وهو أشرف المخلوقات . فهذا أساس هذه السورة . ألاترى الى قول هود ـ إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ـ . أنظر كيف استدلّ بعلم الدواب وأن الله قابض على ناصيتها عالم بمستقرّها ومستودعها . أليس هذا ترديدا لما فى أوّل السورة دلالة على أنها مؤسسة على هذا الأساس مبنية على هذا المبدأ قائمة على قرار مكين من علم شامل وعمل دائم وحكمة عالية

هاهوذا النبى هود يقول — إنى توكلت على الله الخ — وما برهانه إلا ماجاء فى أوّل السورة وهوجوهرها ومقصودها • فيقول ان الله ممسك بنواصى الدواب و يعلم مستقرّها ومستودعها فكيف أكون نبيا وأخاف من المخلوقات والله آخذ بناصيتى وربى على صراط مستقيم لايبقى إلا ما كان أنفع فى الوجود • ولاشك أن العلم أبقى على العالمين والجهل أردأ للمخلوقين وأنا قد أرسلت بالعلم فهل يخذل الله المصلحين وينصر الجاهلين كلا ثم كلا • وانظر الى نوح كيف يقول الله له — واصنع الفلك باعيننا ووحينا — وذلك للمبالغة فى الحفظ والرعاية كأنه يراه بعيون كثيرة على سبيل التمثيل حتى لايلحقه ضيم فهو المنجى له • وهذا كقوله فى المبدأ — و يعلم مستقرّها ومستودعها —

وقال الملائكة للوط — إنا رسل ربك لن يصلوا اليك — ولقد نجى الله شعيبا و بقية الأنبياء • فانظر كيف رجع أمر الأنبياء جميعا الى مراعاة الله لكل مادبّ على الأرض من الانسان والحيوان وحفظه لها وأخذ الأنبياء يردّدون ذلك المعنى حتى قال لرسوله محمد ﷺ فى آخر السورة ماجمع ذلك كله فقال — ولله غيب السموات والأرض — وهذا كالذى ذكر فى الأساس من عموم علم الله وقوله — وتوكل عليه — هو عين ماقاله جميع الأنبياء لرسلهم وقوله — ومار بك بغافل عما تعملون — هوكقوله تعالى — ويعلم مستقرّها ومستودعها — • فأوّل الأمر وآخره فى هذه السورة أن الله محيط بعالم الحيوان وغيره قائم بتدبيره وأن الأنبياء جميعا قد حققوا هذه الفكرة وعرفوها بما أوحى اليهم فلايبالون بأعدائهم وهم متوكلون على الله والآية التى ختمت السورة أتت بمجمل ماجاء فيها • هذا هو مقصود السورة • وهذا هو اللبّ

واعلم أن ارسال الأنبياء والقصص الواردة فى الكتب السماوية والأمر والنهى وغيرها ليس يقصد منها إلا ترقية الانسان واخراجه من ظلمات الجهالة بالعرفان وكل ماورد من علوم الأخلاق والآداب لم يقصد منها إلا ترقية العقول بالعلوم • وههنا قد وصلنا الى المقصود فنقول • كيف يعرف الانسان أن الله آخذ بناصية كل دابة وانه يعلم مستقرّها ومستودعها إلا بدراسة علم الحيوان • ياعجبا كيف يعرف الناس أن الله آخذ بناصيتها إلا بالدراسة التامّة • ومامثل الناس فى ادّعائهم أنهم يعرفون علم الحيوان وهم لم يدرسوه الا كمثل الجمال والبقر إذ تزعم أنها تعرف الحيوان المحيط بها من الجمال و بقية الدواب • أوكمثل من يظن أنه عالم بالشمس والقمر والكواكب وهو لم يعرف إلا صورها الظاهرة • ولم يدرس من علم الفلك درسا واحدا • فكم فى الأرض من مغرورين • وكم فى بلاد الله من غافلين • وكم من صم بكم عمى فهم لايعقلون

أنزل الله سورة هود و بنى حجج الأنبياء على التوكل عليه لأنه القادر العالم الخالق العليم بأحوال الحيوان فعلى المسلمين دراسة علم الحيوان كما يدرسون علم الفقه كلاهما فرض كفاية • فلأذكر لك أيها الذكى فى هذا المقام عشرين عجيبة من عجائب الحيوان بعد ماقرأته فى هذا التفسير و بعد مابينته فى هذه السورة نفسها لتكون أنسا لك وجمالا وكمالا ولتقبل بقلبك على دراسة العجائب الالهية ولتكون من الموقنين

﴿ خزائن الجواهر فى سورة هود ﴾

اعلم أن هذه العجائب الكونية الحيوانية الآتية وغيرها من جواهر مخزونة فى سورة هود مقصودة لنفسها فلعمرك ليس يراد من الانسان إلا كماله الجسمى وكماله العقلى والأخير أرقاهما مقاما ولن يتمّ ذلك إلا بنظام هذا العالم • ومن نظامه الجواهر التى خزنها الله فى سورة هود • نعم خزنها للأجيال المقبلة و بعض الذين سبقوا من أولى العلم والحكمة الذين هم لله شاكرون — وقليل من عبادى الشكور —

وأكثر الناس لايشكرون الله لأنهم جهلاء بالحقائق مكتفون بالظواهر فلايعرفون من سورة هود مثلا إلا التاريخ وتطبيقه والنحو واعرابه والبيان ومجازه والمعانى وحقائقه والبديع وجناسه و يتلهون بالبلاغة وأن القرآن معجز العالمين تارة بعشر سور وتارة بسورة واحدة من مثله • كل ذلك اكتفى به أكثر الناس

عن الحقائق وضلوا طريق الدقائق وما وصلوا الى ماهم له طالبون . ولعمرك لم يتعدّ أمثال هؤلاء أوّل الطريق ولاقاموا للدين بادنى نصيب ومانالوا من ذلك كله إلا تصديق النبوّة ولكنه تصديق يتبعه الأعمال والعلوم . أما الأعمال فكالأخلاق التى تؤخذ من هذه القصص . وأما العلوم فهاك هذه العشرين عجيبة تذكرة و بشرى للعاقلين الذين درسوا هذه الكائنات وأحكموها وفقهوا بعض أسرار هذا الكون وادركوها وهم طوائف من أمم شتى وأزمان مختلفة . اختلفت دياناتهم وشرائعهم و بلدانهم وأزمانهم وهم فى الحقيقة متحدون لأن علمهم الذى حصلوه هو نظام هذا الوجود وعجائب هذا الملك نذكرها عشرين عجيبة عسى أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم ــ إلا من رحم ربك ــ فانهم لما أدركوا عجائب صنع الله لم يختلفوا فيها بل اتحدوا وعرفوا بواطن الامور ولم تلههم القشور

﴿ العجيبة الأولى . لغات الحيوان ﴾

من غرائب أمر الحيوان أن لأنواعه طرقا لتأدية المراد كما أبان أهل العلم والاختبار وقد شاهدوه فى ادنى الحيوان كالنمل والنحل وقالوا ان النمل يفهم أمثاله بطريقة اللمس بالقرون وفى تلك القرون من قوّة اللمس ماليس للانسان * ويحكى أن (فرنكلين) كانت عنده جرة من القند (عسل قصب السكر) ازدحم النمل فيها نخشى (فرنكلين) على قنده فعلق الجرة بحبل من السقف فرأى نملة خرجت من الجرة وصعدت على الحبل و بعد نصف ساعة رأى مالايحصى من النمل نازلا على الحبل الى الجرة وكانت النملة حين تشبع تخرج تاركة مكانها لغيرها . وظلّ النمل بين صاعد وهابط الى أن فرغت الجرة من القند اهـ

وعلى ذلك نقول ان النملة أخبرت النمل حتى جاء الى الجرة . وليس يلزم من قولنا ان للنمل لغة أن تكون لغتها كلغاتنا بل المقصود أن يفهم عنها مايلزمها . فالمراد باللغة هنا كل ما أفهم المراد . ومن هذا نفهم ــ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرّها ومستودعها ــ ومن هذا وأمثاله فليفهم القرآن . وبهذا وأمثاله فليرتق المسلمون

﴿ العجيبة الثانية . نظار النمل ﴾

قال بعض علماء العصر الحاضر . ان رؤساء العمل فى النمل تضرب بقرونها حثا للعملة فتسرع وتبذل كل مجهود فى العمل . ولقد شاهد ذلك فى حرب النمل فترى أنه عند التقاء الجيشين يضرب أمراء الجيش الأرض بقرونهم فتلتحم الحرب و يشتدّ الكرب و يعظم الهول ويحمى الوطيس وتقوم الحرب على قدم وساق وتفتك الأبطال بالأبطال ويكثر النزال ويحمل الجحفل على الجحفل وتحتجب الجنود فى ظلام القسطل وتظلّ نار الحرب تلظى الى أن يتمّ النصر للقادرين وهم الغانمون ويجتمع النمل على مدبّ كنصف محيط دائرة و ينطح المنذرين (بفتح الذال)

وبهذا نفهم ــ ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرّطنا فى الكتاب ــ أى اللوح المحفوظ ــ من شئ ــ

﴿ العجيبة الثالثة لغة النحل ولغة النمل متقاربتان ﴾

يقال ان لغة النحل ولغة النمل متقاربتان كالانجليزية والفرنسية . وذلك أن هؤلاء العلماء جدّوا حتى سمعوا الأصوات منهما بطرق طبيعية ووجدوا لصوتهما ولتنوّعاتهما مشابهة

﴿ العجيبة الرابعة . حكاية نملة ﴾

استيقظت نملة صباحا نحو الساعة السادسة من تلقاء نفسها بلامنبه فغسلت وجهها وأصلحت من شأنها بالمفرشة والمشط اللذين وهبا لها من الله بحسب جبلتهما وهما فى طرف قائمتيها المقدّمتين ثم نظفت القائمتين بفمها وخرجت فى سرب من أخواتها ماشيات فى بعض دهاليز المنزل نحو غرفة الملك فالتقت بأسراب أخرى

سائرة الى أشغال أخرى . و بينما هنّ سائرات وقفت هذه النملة فنزعت قشة علقت ببدن احدى أخواتها فى أثناء الطريق كما يلتقط الرجل خيطا علق برداء صديقه . فلما فرغت من ذلك أسرعت للحاق بسائر الرفاق فاعترضتها فى أثناء الطريق نتف من القش" فنظفت الطريق منها وهى مع ذلك تغتنم الفرص للبحث على ماقد تعثر عليه من أطراف الجذور أوقطع الأوراق أوغير ذلك لتدّخرها لطعامها اهـ

﴿ العجيبة الخامسة . الزنابير وتناسلها ﴾

ومن عجب أن المسلمين فى أنحاء الكرة الأرضية إلا قليلا ينظرون الزنابير السود والصفر والحمر وهم عن آياتها معرضون و يطردونها عن النحل وهم بعلمها جاهلون . تبارك الله عزّ وجل . فانظر أيها الذكى كيف تبيض الأنثى وكيف يخرج الدود و يأكل ماتقتنصه الأم له وكيف تصبح الدودة بعد ذلك (شرفيلجة) وكيف تصير بعد ذلك زنبورا كاملا يطير بجناحين . إن الأنثى قبل أن تبيض بيضها الذى لايحتوى على غذاء لصغارها كما يحتوى بيض الدجاج و بيض الاوز تذهب فتقتنص بعض الهوام كالخنافس والذباب والفراش والبعوض أوالديدان أوالعناكب . وتختلف الفريسة باختلاف أنواع الزنابير فان أتت الأم بالفريسة ميتة فبها ونعمت وان كانت حية أفرغت عليها من ابرتها سما يسكرها و يخدرها فتعطل حركتها وهى محبوسة فى نفقها المبنى لبيضها ثم تلقى بيضها على تلك الفريسة وتسدّ القفير سدّا محكما . و بعد يومين أوثلاث يفقس البيض وتخرج ديدان تغتذى من جسم الحشرة التى هى عليها حتى تنقضى المدّة الدودية ثم تصير شرنقة ثم تصير طائرا فتطير وماذلك الطير إلا الزنبور

فانظر يارعاك الله كيف عامت أنثى الزنابير بلامعلم ولا كتاب ولانبىّ أرسل اليها ولادراسة ولاتجربة . ان بيضها الذى ستلقيه لاقوت فيه لأبنائها وكيف ألهمت أن تعوض بدله خنافس أوديدانا أوذبابا وكيف أعطيت مادّة سمية لتخدربها تلك الفريسة وكيف ألهمت استعمالها وكيف كانت تلك المادّة السمية لاتقتل الحشرات لئلا ينتن جسمها ولاتبقيها قوية لئلا تهرب أوتكثر الحركات بل بقيت بين بين حتى يحصل المقصود للدود الذى يخرج من البيض وكيف تأكل منه الذرّية وهى فى عيشة راضية مرضية . فانظر هذه الحكم الستة فى الزنابير التى تعيش فى سقوفنا وحيطاننا ونحن غافلون والله يقول – وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون –

﴿ العجيبة السادسة . زنبور يلسع دودة ﴾

لبعض الزنابير طريقة عجيبة فى قتل الحشرات التى أعدّها لصغاره فانه يختار دودة لها نحو (١٣) حلقة ومعلوم أن لكل حلقة مركزا عصبيا ولابدّ من لسعها فى جميع هذه المراكز وأهمها مابين الحلقة الثالثة والرابعة فانه فى الدود أشبه بالمخيخ فى الانسان فان هذا المخيخ اذا أصيب مات الانسان حالا . يعلم ذلك الزنبور علما حقا اجماليا بالغريزة فيأتى الى الدودة و يقاتلها وتدافعه مرات كثيرة حتى اذا أخذت تضعف عن المقاومة رفعها الى أعلى وطرحها على الأرض ثم لسعها فيما بين الحلقة الثالثة والرابعة فتخرّ صريعة مخدّرة ثم يبقى الزنبور ساكنا مما حلّ به من التعب حتى يستعيد قوّته فينقضّ عليها ثانية وهى خاشعة فيلسعها فيما بين الحلقة الثالثة والثانية ثم فيما بين الحلقة الثانية والأولى ثم يطير حولها مدّة و يعود اليها و يلسعها فيما بقى من الحلق فتخشع خشوعا تاما مخدرة ساكنة وتبقى حية على الأغلب لتكون غذاء لصغار الأولاد

﴿ العجيبة السابعة . الحشرات الصائدة بلونها المشبهة الزهرة ﴾

كل فلاح فى بلادنا المصرية وغيرها رأى حشرة تطير بين الأشجار يسميها الناس فى بلادنا «فرس النبى» ويسميها الترنسفاليون والافرنج (الجندب المصلى) ويسميها غيرهم (فرس الشيطان) وهذه الدابة قادرة على الاحتيال بما يحير الألباب فهى تتلوّن بلون ماتقع عليه فهى خضراء على الورق الأخضر حمراء على

الزهر الأحمر كثيرة الألوان على الزهر المتلوّن • وربما رأيتها على غصن من الأغصان أشبه بزهرة من الزهرات بحيث لايفرق الناس ولا الحشرات مابينها و بين زهرات تلك الشجرة حتى اذا جاءت ذبابة بقربها انقضت عليها فقنصتها • ومن عجيب أمرها أن حيلتها تتمّ بكمالها فاذا تشكلت بشكل الزهرة وهي على الغصن صارت من الشجرة فى جميع أطوارها فحركاتها الطبيعية معدومة فهي أبدا ساكنة واذا هبت الرياح والعواصف والزعازع تحركت كأنها زهرة تلعب بها الرياح كما تلعب بغيرها • وهذا يفهم من قوله تعالى — وما كنا عن الخلق غافلين — وقوله فى هذه السورة — مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم — ولقد تقدّم قريبا فى هذه السورة ماجاء فى العلم الحديث أن ألوان الحيوان انما جاءت لحمايته ولبقاء حياته

﴿ العجيبة الثامنة • الحباحب ﴾

وتعريف الحباحب أنه ذباب يطير فى الليل له شعاع فى ذنبه كالسراج وهذا النوع فى العلم الحديث ظهر منه أنواع كثيرة تشترك كلها فى الاضاءة بأشعة تشع من بؤرة فى ذنبه وليس لها مظهر إلا بالليل كالقمر والنجوم • وقال العلامة (شونز) ان للذكر منها بؤرتين واحدة منهما وراء الأخرى وكل منهما مركبة من ﴿ طبقتين ﴾ عليا يشع منها النور وسفلى يظنّ انها تعكسه الى ماحول الحشرة و يقال ان الأنثى لاتضىء وقد وجدت الأنثى فى ايطاليا كالذكر فى الاضاءة • وأعظم الحباحب ماوجدت فى جزائر الهند الغربية بأمريكا الوسطى يسمونها ﴿ذبابة المصباح﴾ لأنها تنير كالمصباح وأهل تلك الجزائر فى كوبا وجامليكا وسان دومينيكو يستخدمونها كالمصباح والسياح يستخدمون هذه الحشرة لاضاءة السبل فيعلقون واحدة أواثنتين فى أحذيتهم فتضىء الطريق أمامهم وهى كما تكون هدى للمسافرين جعلها النساء زينة لهنّ وجمالا فى كوبا يغرسنها فى شعورهنّ بين الضفائر بدل الحلى من ألماس وعقيق وذهب • وهذه تكسب نساء (كوبا) جمالا وبهجة وحسنا يفوق الجواهر المعدنية والأحجار الثمينة

وأهل تلك البلاد ينتفعون بهذه الحشرة فى الاستضاءة ليلا للخياطة فلو رأيت ثمّ رأيت جماعة من هؤلاء وقد علقوا قنديلا فى سقف البيت بينهم وليس فيه إلا تلك الحباحب والضوء منثور عليهم وهم يخيطون وهم فرحون بلا كهرباء ولانار ولكن بالحباحب السارّة للناظرين • وهذا من سرّ قوله تعالى — الله نور السموات والأرض —

﴿ العجيبة التاسعة • صاحب السفينة ﴾

إن فى الحيوان لعجبا وأىّ عجب • فبينما تراه ذا فقرات كالانسان وذوات الأربع والسمك والطير وأكثر الحيوانات والزحافات ترى منه ماليس له فقرات ولاعظم له البتة • وهذه الحيوانات تسمى بالحيوانات الرخوة • فانظر كيف كان العمود الفقرى والعظام عليها مدار القوّة والحركة • فأما هنا فقد انعكس الوضع وأعطى بدلا من الهيكل العظمى كساء خارجيا تتصل به العضلات للحركات الانتقالية وهذا الكساء الخارجى الذى قام مقام العمود الفقرى والعظام إما أن يكون جلديا واما أن يكون كالغضروف واما أن يكون كالعظام وهو عبارة عن كساء كلسى واما أن يكون أصلب من العظم وهو الصدف وهذه الحيوانات تسمى ذوات الأصداف ومن أنواعها (١) القوقع الذى منه الحلزون المعروف فى البحار • ومنه الأبواق الكبيرة الهائلة • وهذا الكساء إما مستدير كالصحن وهو طبقة أوطبقتان مثل (أم الخلول) و (الكندوفلى) و (البطلينوس) وقد يكون هرمى الشكل كالأبواق وقد يكون حلزونيا وقد يكون مستطيلا كالأنبوب

والذى يهمنا فى هذا المقام أن نذكر هذا الحيوان الذى نحن بصدده فانه من الحيوانات ذوات الصدف والصدف هنا فى هذا الحيوان كالسفينة يستخدمها كما نستخدمها نحن • انه يعوم بها فوق الماء فى بحر الهند خصوصا بجوار (جزيرة ملقا) وقد أعطى ثمانية أصابع منها اثنان يجعلهما كشراع السفينة ينشرهما فى الهواء و بهما تسير السفينة كما يريد وهو يحوّلهما نحو الريح كما يحبّ • وأما الأصابع الست الباقية فانها

جعلت كالمجاديف يرسلها على الجانبين وبها تسير السفينة بقوّة التحريك ويسيرها الشراعان بقوّة الهواء الضاغط عليهما وهما منشوران غشائيان • فاعجب لسفينة حقيقية لم تلتصق بجسم الحيوان لها شراعان غشائيان كأنهما من نسيج القطن أوالكتان والمجاديف تحيط بها والنوتي يعيش فيها • ومتى طرأ عليه خطر أوأحس بأيّ مؤذٍ قبض المجاديف والشراعين واختفى فى الصدفة وغاص فى قاع البحر ونجا من الخطر الداهم – وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون –

﴿ العجيبة العاشرة • سمك يطير ﴾

ان من السمك مايعيش فى مياه الولايات المتحدة والبرازيل وفى البحر الأحمر يبلغ نحو شبر ألوانه جميلة زاهية سماوية وفضية وله زعانف بها يطير فى الجوّ أسرابا مسافات طويلة ثم يخوض فى الماء ويعود فيطير • ومن عجب أن هذه الموهبة العجيبة والنعمة العظيمة وهى تمتعه بالهواء فى جوّ السماء وسعادته بولوج ماء البحر قد قوبلت بما يناسبها من المهالك فهو يكون فريسة السمك الكبير فى البحر اذا غطس فى الماء وتصيده طيورالبحر اذا علا الى الجوّ وانظر قوله تعالى – ووضع الميزان * ألاتطغوا فى الميزان – فقدوزنت النعمة بالنقمة ليعتدل العمل ويقوم الأمر بالقسط • فاذا أعطى السمك الطيار نعمتين فقد سلطت عليه نقمتان – وما ربك بظلام للعبيد – وانما يضع الموازين القسط

﴿ العجيبة الحادية عشرة ﴾

(الحيات التى لاسم لها أكثر من ذوات السم والثعبان الذى لاسم له ولكنه يبتلع الانسان)

قرأت فى قصة (روبنصن) السويسرى المترجم بقلم المرحوم صديقى صالح بك حمدى حماد • قال ان الحيات السامّة تبلغ نحو مائة صنف من الحيات • أما الحيوانات التى ليست بسامّة فهى تقرب من أربعمائة نوع • ثم قال ان الأصناف السامّة تعيش عادة فى الأحراش الكثيفة والمستنقعات الدائمة والسم الذى فيها لا يكون إلا من تعاطيها الحشائش السامّة والأبخرة الخبيثة والروائح الكريهة فى الهواء الفاسد فى تلك المستنقعات وكذلك ماينبعث من الأراضى الرطبة التى لم تزرع فذلك كله يحدث السم فى تلك الحيات • ومتى أصلحت الأرض التى تأوى اليها تلك الهوام وزرعت وعمرت بالمساكن والقرى اختفت منها تلك الأنواع ومن أهمّ الحيات التى لاسمّ لها (البوا) وهو عظيم الجثة يختطف الرجل والحمار كما اتفق لروبنصن أن حماره كما فى قصته الخيالية اختطفه ذلك الثعبان العظيم وابتلعه من قبل رجليه حتى اذا انتهى الى رقبته ضربه (روبنصن) وأرداه بالبندقية فخرّ صريعا

وأقول ان المسافرين الذين يجوبون الأقطار التى يسكنها يعرفون طبعه وأنه يقتنص الانسان من جهة رجليه فاذا نام الرجل منهم وسع مابين رجليه فاذا جاء ذلك الثعبان وابتلع رجل النائم استيقظ حالا وسلّ مديته وقطع بها حلقومه فيموت حالا – إنّ ربك هو القويّ العزيز –

﴿ العجيبة الثانية عشرة • العصفور الخياط ﴾

مالى أرى أمّة الاسلام قد نامت نومة عميقة • لماذا لايدرى المسلمون العلوم التى بها أمر الله • ياعجبا كيف يعتنى الانجليز فى متحفهم البريطانى بأنواع العش الذى يخيطه ذلك العصفور • ليستيقظ عقل الشبان لما فى هذا العالم من الجمال وأمة الاسلام نائمة عاكفة على الجهالة فى النوم العميق • ان نوعا من العصافير التى أنعم عليها بطول ذيولها تخيط أعشاشها خياطة يحار فيها الناس بلا ابرة ولاخيط ولا آلة خائطة • فيعمد العصفور الى ورقة شكلها أشبه بالرمح وهى فى غصنها نابتة ويأتى العصفور بورقة أخرى أصغر منها ويخيطها عليها بقطع من عيدان دقيقة على نسق عجيب • فاذا فرغ العصفور من الخياطة عمد الى القطن فحشاه به وذلك كله قبيل وضع الأنثى فتضع عليه بيضها ومتى فقس عاشت الفراخ أيامها الأولى على ذلك الفراش الناعم

فى بيت معلق فى الهواء يتحرّك بأخفّ النسيم

﴿ العجيبة الثالثة عشرة . العصفور النساج ﴾

إن من العصافير نوعا يصنع عشه كهيئة الجراب قد نسجه من قطع القشّ وأقامه بين الأغصان وهو كروى أو اهليلجى أو مخروطى وله فتحة يدخل منها العصفور الى أفراخه وفى الجدار من دقة الصنع وحسن الصورة العملية مايدهش أولى الألباب

﴿ العجيبة الرابعة عشرة ﴾

(العصفور الذى يبنى بيته و يصنع له بابا يقفله عند الحاجة فهو أرقى من بعض المتوحشين والعصفور الذى يحبس زوجته)

إنّ هذا العصفور يبنى عشه فى أواسط أفريقيا فيفتح باب عشه و يقفله متى أراد . وقد رأى العلماء من الناس من لا يصنعون لمنازلهم أبوابا . وذكر العلامة (جبرون) فى كتابه المسمى ﴿طيور الهند﴾ أن بعض العصافير اذا آن زمن التفريخ استعدّت له كما يستعدّ الناس زمن الحمل فترى النساء يحضرن اللفائف قبل الوضع وترى اللبن يتقاطر الى ثدى المرأة شيأ فشيأ . فهذا النوع إذ ذاك يحبس ذكره أنثاه فى عشها و يقفل عليها بابا من الطين وفيه ثقب لا يسع إلا منقارها لتلتقط به الطعام وليدخل منه الهواء . أما الأنثى فانها لا تأكل إلا مايحضره لها الذكر فتلتقطه بمنقارها والعصافير فى هذا أشبه ببعض الناس إذ يتجنبون المرأة أيام نفاسها وهذه الأنثى لا تزال محبوسة حتى يتمّ الافراخ و بعد ذلك يتعاون الزوجان على كسر ذلك السجن

﴿ العجيبة الخامسة عشر . العصفور الذى يصنع عشا كالجيب ﴾

ذكر العلماء ومنهم الرحالة (سونراث) الرحالة الشهير طيرا يجعل عشه كالقنينيه الكبيرة أو كالجرة و يتخذ له مكانا فى داخله عند مدخله ليكون حارسا لها وحافظا لأولادها وذلك لأن الأنثى اذا آن زمن وضع البيض اختفت فى عشها لا تخرج منه حتى يتمّ التفريخ . فياعجبا نوعان من العصافير اتفقا أن أنثى كل منهما تبقى محصورة بطبعها جاثمة على بيضها وأحد الذكرين يحميها بأن يسدّ عليها بالطين والآخر يحميها بأن يحرسها فى باب عشها حتى لا يفاجئها خطر . وهذان النوعان من العصافير أشبه أولهما الناس حين يتخذون الحصون ردأ يتقون بها الخطرات . والثانى أشبه الناس حين يفتحون حصونهم و يوقفون جنودهم وهم شاكو السلاح

ومن العجيب أن النوع الثانى الذى نحن بصدد الكلام عليه اذا أراد الزوجان سياحة أو خروجا لغرض ضرب الذكر بجناحيه باب العش فينطبق على مافيه من الفراخ حتى يرجعا وهما آمنان على الأفراخ

فانظر كيف قام الصنف الثانى بالطريقتين . فاحداهما حين وجود أنثاه . وثانيتهما عند خروجهما من المكان فيجعل العشّ حصنا للذرّية حتى يرجعا الى المكان

﴿ العجيبة الملحقة بالخامسة عشرة كيف تعيش جماعات هذا النوع من العصافير ﴾

إن جماعات هذه العصافير تعيش أسرابا وتكون أعشاشها مدينة عامرة حول جذع شجرة ضخم وقد يجتمع حول ذلك الجذع نحو (٣٠٠) عشّ صغير . وقد نقل بعض العلماء عشا من هذه من أفريقيا وقد حملها بضعة رجال ونقلت فى مركبة خاصة فى سكة الحديد . ومن نظر اليها من بعد خالها سقوفا معلقة بجذوع الشجر والعصافير تلعب فوقها

﴿ اللطيفة السادسة عشر . العنقاء ﴾

هل العنقاء موجودة . كلا . هذا هو الرأى المعروف فى العالم الانسانى ولكن الذى ظهر وتحقق الآن أن العالم الأرضى كان فيه حيوانات كبيرة من سائر الأنواع ثم انقرضت فنها (المموث) وهو الفيل العظيم الجثة لم يبق إلا آثاره . وقد عثر الاستاذ (اوين) فى زيلانده الجديدة على عظام من طيور ونقلها الى كلية الجراحة فى لندن فوجدوا فيها هيكل عظم لطائر كبير ارتفاعه عشرة أمتار وأدق عظامه وأصغرها لا ينقص عن فخذ الانسان القوى وهذا الحيوان يسمى (الدينورنيس) وقد انقرض من أجل غير بعيد وسكان زيلاندا

يتناقلون خبره فيما بينهم • فأيّ مانع يمنع أن تكون العنقاء قد انقرضت من بلاد العرب و بقي الناس يتناقلون أخبارها وأصبحت خرافة وليس ينقص تحقيقها إلا العثور على بقايا عظامها كما عثر على طير زيلاندا ويا ليت شعري أي عظمة للعنقاء وأيّ غرابة فيها بعد ماتبين أن هناك طيورا هائلة بقيت آثارها الآن وهي أعظم من العنقاء وأن هناك في متحف باريس بيضة لطائر منقرض يسمى (ابيورنيس) كان في مداغسكر وحجم هذه البيضة يزيد على ستة أضعاف بيضة النعام الكبرى وهي تساوي (١٢٠٠٠) بيضة من بيض الطيور الصغيرة وثخانة قشرتها تساوي مليمترين بحيث لاتكسر إلا بالمطرقة فعلى ذلك تكون قوّة منسر فرخ هذا الطائر عند خروجه من البيضة كقوّة المطرقة حتى يتيسر له الخروج من البيضة بمنقاره

فاذا سمعنا القزويني يقول العنقاء أعظم الطير جثة وأكبرها خلقة تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر لم يكن في ذلك بعدا لا انه مبالغ فيه ويكون ذلك حيوانا انقرض أشبه بما ظهر اليوم في العالم كما تقدّم • و يقول علماء طبقات الأرض انها كانت في غابر الدهور أوفر حرارة وأقوى حيوانات وكان نباتها وحيوانها أعظم جدّا من النبات والحيوان اليوم • وكلما مرّت عليها دهور صغرت حيواناتها • و يقول علماء الأرواح ان الأرضين التي حول الشموس مثل أرضنا تكون الأجسام فيها أعظم في أوّل أمرها • فاذا جاء دور انحلالها أخذت المخلوقات التي فيها تصغر أجسامها ولكن عقول العقلاء فيها تقترب من عالم الأرواح وتكون أكثر صفاء وأجمل أخلاقا وأحسن علما — والله يعلم وأنتم لاتعلمون —

﴿ العجيبة السابعة عشر • الحرباء ﴾

هذا الحيوان وديع جبان يعيش في الأقاليم الحارّة مثل افريقيا واسبانيا وأمريكا وهو من رتبة الورل ورأسه كبير بالنظر الى جسمه وظهره ذوأسنان وذنبه ولسانه طويلان وطول لسانه يساوي طول بدنه • وفي هذا الحيوان ﴿ ثلاث عجائب ﴾ أصلية لسانه • وتغيير ألوانه • وطول أناته وصبره • أما لسانه فهو عدة حرب يقوم مقام المدافع والأساطيل والجيوش لفتح المدن لقصد تحصيل الغذاء • لعمري لم يحارب الناس ولم يجمعوا الجيوش إلا لصد عدوّ أوجرّ مغنم وكل ذلك لمقصد الحياة • فهذا الحيوان اذاجثم على غصن يوقع في وهمك أنه مائت • ذلك لأنه يبقى زمنا طويلا لا حراك به وليس له رائد إلا عيناه يقلبهما ليراقب حشرة طائرة ومتى مرّت به فما هو إلا كلمح البصر حتى يختطفها به و يبتلعها و يتغذى بها وذلك أن لسان هذا الحيوان مكسوّ في آخره بمادّة لزجة متى لامست حشرة التصقت بها بسبب تلك المادّة • ولهذا الحيوان أربع أرجل لكل رجل خمس أصابع وهذه الأصابع حزمتان متقابلتان • وبهذه الأرجل وأصابعها يتشبث بالأغصان واذا انتقل فانما يكون ذلك ببطء وحذر فلسانه وصبره هما عدته لاجتلاب الغذاء • أما عدته لدفع الأعداء فهو تغير ألوانه • إن لون هذا الحيوان يتغير تبعا لما يحيط به وقد قالوا إنه يغير لونه كيفما أراد في أي وقت شاء وذلك ليشاكل مايحيط به من المخلوقات فان كان بجانب شجرة صار أخضر مشاكلة لها • ذلك ليكون بمأمن من مفاجأة العدوّ المغير فلولا اللون وتغيره لأصبح فريسة الحيوانات القانصة ولكان ذلك مفزعا للحشرات فلاتقترب منه • وهذا الحيوان اذا أخذه الانسان باليد صار أبرش وأكدلونه وظهر في جسمه بقع سود وحمر ومابينهما واذا غضب اشتدت سمرته حتى يصير أسود اللون • وقد تمثلوا في الحزم بالحرباء ومن أمثالهم أيضا ﴿ أصرد من عين الحرباء ﴾ أي أبرد يضرب لمن أصابه برد شديد لأن العرب تعتقد أن عين الحرباء تدور مع الشمس ويستقبلها بعينه ليستدفئ بها • ولذلك شبه ابن الرومي الرقيب بالحرباء * قال

مابالها حسنت وان رقيبها * أبدا قبيح قبح الرقباء

ماذاك إلا أنها شمس الضحى * أبدا يكون رقيبها الحرباء

فانظر كيف كان الصبر والاناة وسكون الحركات سببا لاقتراب الحشرات منه • وكيف طال لسانه حتى

يختطفها . وكيف انتهى بمادّة لزجة فالتصقت بها الحشرات . وكيف تفنن فى ألوانه ليشا كل ماحوله دفعا للمامات وطلبا للخيرات فاقرأ — وما كنا عن الخلق غافلين — واقرأ — وان من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم — واقرأ — سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوّى * والذى قدّر فهدى — فهذه هى الهداية وهذا هو قوله تعالى — ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها — فاقرأ القرآن فى هذه العجائب ولاتكن من الغافلين النائمين

﴿ العجيبة الثامنة عشر . من أهمّ سلاح بعض الحيوان الجلود المتينة ﴾

إنّ لكل حيوان سلاحا فالفيلة بالخرطوم والانسان بالعقل والسلاح المشهور والوحوش بالأنياب والسباع بالبراثن والفيران ونحوها بالعدو والطير بالتحليق فى الجوّ والثور بالقرون وما أشبه ذلك . وهناك حيوانات لاسلاح لها إلا جلودها كالتمساح انه لايخترق جسمه الرصاص وكذا السلحفاة فاذا مشت ترى عليها قبة قوية متينة فاذا خافت مما يؤذيها انكمشت وأخفت رأسها وأرجلها فى ذلك الحصن الحصين . ومن هذا النوع السرطان والقنافذ وغيرها

﴿ العجيبة التاسعة عشر شريعة الغربان ﴾

وقد تقدّمت فى هذه السورة فلانعيدها

﴿ العجيبة العشرون . الفرس الحاسب المتعلم ﴾

كان قدماء العلماء يقولون إن الحيوان يتقابل مع الانسان فى أوصاف شتى ففى الهيكل الظاهرى كالقرد وفى الذكاء كالفيل وفى الأدب كالفرس وفى النطق كالببغاء وفى حمل الأثقال كالجمال . فكل حيوان من هذه اقترب من الانسان بخصلة ولم يقدر حيوان ما أن يشارك الانسان فى سائر أحواله . ولقد كان الفرنجة فى أوّل نهضتهم يظنون أن القرد وحده قد اختصّ بالقرب من الانسان . ولكن لما استمروا يجدّون فى العلم ألحقوا به الفرس والكلب والهرّ والفيل . ولقد كان العالم الألمانى المسمى (هرفون أوستين) يقيم فى شمالى برلين متفرغا لدرس طبائع الحيوان مدّة (١٤) سنة ووجه عنايته الى فرس عنده وعلمه فنجح خير نجاح وقد سمى هذا الحصان (حنا النبيه) ولقد علمه على أحدث طريق تعليمى مدرسى بالطباشير والألواح السود و بالخرز و بالروائح العطرية والألوان وعلمه الحساب بالأرقام فعلمه الجمع والطرح والضرب والقسمة والكسور العشرية وغير ذلك . ولما شاع أمر هذا الفرس شكلت لجنة من علماء الحيوان فامتحنوه فأقرّ العالم (هرشيلنس) اشهر علماء الحيوان فى (برلين) أن هذا الحصان يقرأ الخط و يعرف الأعداد والنقود وكم الساعة دقائق وساعات وأجوبته على مسائل الحساب بالضرب على الأرض بحافره . واذا أراد تأكيد الجواب ضرب الأرض بحافره الأيسر ورفس رفسا شديدا . ولما غالطه أستاذه إذ قال له اثنين واثنين عبارة عن خمسة ضرب بحافره الأرض أربع مرات ومع كل منها ضربة بحافره الأيسر . وسألوه فى عملية حسابية طويلة فأجاب ولم يخطئ . وملؤا قفة خرقا بألوان مختلفة وسألوه عن كل واحدة بألوانها فكان يجيب ولايخطئ وسألوه كم عدد الذين يتقلدون النظارات . وعن السيدة التى على رأسها قبعة خضراء فأجاب ولم يخطئ . واللجنة لما رأت هذه النباهة أخرجت الأساتذة الذين سألوه وابتدأ غيرهم فى السؤال فقدّم أحدهم له ريالا وقال متى الساعة فلم يجبه . وقال بعضهم نظف معلفك بخرقة وأنا أزيد فى علفك فالتفت يمينا وشمالا حتى وقع نظره على خرقة أمام الاستاذ (شيلنس) فالتقطها بفيه وأسرع الى الاصطبل وأخذ يمسح معلفه بتلك الخرقة حتى نظف تماما ثم أعاد الخرقة . ولقد أتواله بثلاثة أسلاك فى واحد أربع كرات وفى الثانى ست وفى الثالث ثلاث كرات وعلقوها بين يديه وطلبوا منه جمعها فضرب الأرض بحافره ١٣ ضربة . وهو يعرف الحروف بالأعداد فلكل حرف عنده عدد . وأتوا له بصحيفة عليها رقم خمسة وسألوه كم واحدة من

هذه تساوى عشرين فضرب برجله الأرض أربع مرات وقد ميز أمامهم بين الذهب والفضة والنحاس وجعل للذهب ضربة وللفضة ضربتين . وأروه ساعة وكان الوقت ١١ ونصفا فضرب أوّلا ١١ ضربة وصبر قليلا ثم ضرب ثلاثين ضربة . وقال العلماء ان نباهة هذا الفرس تقابل نباهة الانسان وعمره ١٣ سنة وكان يوم امتحانه مشهودا حضره الأطباء والعلماء وأعضاء الأكاديميات العلمية وكثير من الأمراء والأشراف وكان أمرا عظيما . ولما عرف ذلك واشتهر طلب أحد الأمريكان أن يشتريه بمبلغ (٥٧٠٠) جنيه فلم يقبل صاحبه وقال أنا لا أبيعه بأىّ ثمن لأنى لا أطيق فراقه . ووقع العلماء والفضلاء ورجال الأكاديميات على الشهادة بما شاهدوه من هذا التلميذ النبيه

ولقد أجمعت جرائد برلين أن ﴿ حنا النبيه ﴾ يمثل أعظم حادث يتعلق بعلم النفس فى المملكة الحيوانية هذه هى العجائب العشرون التى وعدتك بها تذكرة لقوله تعالى ـ ومامن دابة فى الأرض إلاعلى الله رزقها الخ ـ فبمثل هذا يدرس القرآن . و بمثل هذا فليرتق المسلمون . وبمثل هذا يكون مصداق قوله تعالى ـ ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون ـ . بمثل هذا يا أمة الاسلام ترتقون وعلى ذلك فلتعوّلوا هوخيرعما تقرؤن من العلوم القشرية . فاياكم أن تقفوا على القشور فاخترقوها واطلبوا الألباب . هذه هى الخزائن الالهية فى الآيات القرآنية . انما مثل سورة هود كمثل قصر مشيد فيه حجرات فاخرة فى كل حجرة ماغلا من الثياب وماجل من المتاع وفى داخل تلك الثياب الجيلة جواهر يتيمة كل جوهرة منها فى حجرة وتلك الجواهر هى عجائب الحيوان كما وضحته عند مامثلت ذلك بثمرة الجوز فمن اكتفى بالثياب غابت عنه الجواهر فلم ينلها وخرج صفر اليدين منها . إن القرآن يقرؤه الناس ويكتفون بظواهر القصص وهم عن الجواهر معرضون . انما هذه القصص بحر فيه أنواع المخلوقات ولكن أجلها وأغلاها وأضوأها وأبهرها الجوهر المكنون فى صدفه فهاهى ذه الجواهر فى القرآن

لقد ضلّ قوم انصرفوا عن الجواهر الى الأصداف فقال الله فيهم ـ يضلّ به كثيرا ـ واهتدى قوم الى الجواهر فقال الله فيهم ـ ويهدى به كثيرا ـ

إنّ الكثير من المهتدين سيكونون من الآن الى مستقبل الأزمان . إن المسلمين سيقوم فيهم جيل جديد يتبعه أجيال وسيكون هذا التفسير وما ماثله فى أمم الاسلام من أنجع الوسائل لترقية المسلمين . إنى بذلك موقن ولولا ايقانى به ما كتبت حرفا ولا أضعت وقتا . ومتى أراد الله أمرا هيأ أسبابه

وقبل ختام التفسير فى هذه السورة أذكر ﴿ حادثتين * الأولى ﴾ انى قرأت فى الجرائد هذين اليومين أن الأب (موفيه) الفلكى الشهير ومدير مرصد بورج صرّح بنبوءة أحدثت جزعا . ذلك أنه تنبأ بوقوع حرب كبرى سنة ١٩١٨ أوأزمة خطيرة فى العالم وقال إن الأمم تتأثر بنشاط الأفلاك فى حركاتها ومواقع الشمس والنجوم وكذلك الأفراد . وقد حذر الأب (موفيه) المذكور حينما كان فى بروكسل سنة ١٩١٠ حكومات أوروبا من مصاب هائل يوشك أن يعصف بالعالم مابين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ وهاهوذا الآن يحذر العالم من جديد . و يقول ان الاضطراب فى مواقع الشمس يؤثر فى الجهاز العصبى الانسانى كما يؤثر فيه الاقليم وهذه المقالة كتبت فى جرائدنا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٤ وانما كتبتها لمناسبتها لما نحن فيه . ألاترى أن هذا العالم فى نظر الحكماء كجسم واحد وحيوان واحد وانسان واحد ـ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ـ والا فبالله أى فرق بين تأثير الزنبور فى الدودة كما قدّمنا وتأثير الشمس فى الأمم والأفراد . إن العالم كشخص واحد فالكواكب والأقمار والنجوم لها ارتباط بكل حيوان وكل انسان تلك هى الوحدة العامّة فى العالم والمحرك لها نظام واحد لايختلّ وماقتل الزنابير للدود ولافتك الآساد بالغزلان والذئاب بالحملان إلا حركات متصلة بالمبدأ الأعلى فظاهرها اختلال و باطنها حساب ونظام

﴿ أعمال تطابق غرائز الحيوان وديانات الانسان ﴾

ومن هذا المقام أن ذلك المبدأ الأعلى أوحى الى أمثال تلك الزنابير فقال لها متى اقترب زمان بيضها أن اقتنصى الذباب واصطادى العنكبوت وأجذبيهما وأمثالهما الى منزلك المنظم وأنزلى عليهما مالديك من المادّة السامّة واتركيهما ثم بيضى عليهما فاذا فعلت ذلك باضت وتركت بيضها ليتغذى دودها الذى سيخرج من البيض بما تحته من هذا المصيد . إن هذه الحادثة التى قدمنا ذكرها وما ماثلها فما ذكرناه ترينا نظاما واحدا فلكل حيوان نظام تام ليعيش به وليعدّ العدّة لأولاده . باض الطير فألهم أن يجثم على بيضه أياما ولم يلهم أن يجتذب حشرات لأولاده لأن مافى البيضة من الغذاء كاف . حملت البقرة والشاة والمرأة ولم يحتجن قط الى ما احتاجت اليه الدجاجة من حضنها بيضها ولاحشرة الزنبور من احضار الصيد لأولادها ذلك لأن اللبن عندها قائم مقام ماذكرناه . يا أيها الناس . يا أيها الأذكياء . انظروا كيف تمّ هذا النظام . كيف ألهم كل حيوان قبل وجود أبنائه بما قصرت فيه الطبيعة فأحضره لذرّيته المقبلة . انظروا لهذا النظام . انظروا كيف كان الالهام مطابقا للاحتياج ولايلهم الحيوان إلا حاجته ويمنع عنه ماليس اليه حاجة . نعطف على الانسان وننظر فنجده من أوّل التاريخ الى الآن لايزال يجدّ فى العبادة وينصب التماثيل تارة ويوحد تارة أخرى وترسل له الأنبياء فيقولون أيها الناس هناك عالم آخر فاستعدّوا له فتراهم يعبدون ويوحدون ومهماسافرت فى البلاد واخترقت الطرقات وجبت المدن لم تجد إلا مآذن شامخة ومساجد مشيدة وكنائس مبنية وبيعا منصوبة وآيات مكتوبة وأذكارا مقروءة ودعوات مطلوبة وأورادا متلوة ودروسا مفهومة وعلوما مروية وأحاديث مرفوعة وكتبا مقدّسة مسموعة ونواقيس مدقوقة ومؤذنين يؤذنون وقراء يرتلون وصوّاما يجوعون وقواما بالليل يصلون . أليس ذلك من الاستعداد للعالم الذى سنصل اليه بالوحى والالهام كما استعدّت الطيور فى أعشاشها والحشرات فى أماكنها للذرّية المستقبلة . واذا كان الجراد لايضع بيضه إلا على بعد مخصوص فى مكان مخصوص ثم يتركه ويموت ويكون هذا الوضع وفق المطلوب وبه يعيش الجيل الجديد فكيف لا يكون الانسان وأنبياؤه قد استعدّوا للمستقبل كما استعدّ أقلّ الحشرات وسائر الأمّهات لمستقبل الأبناء والبنات

إن صغار العقول من بنى الانسان قد استهزؤا بالديانات وقد جهلوا نظام الأرض والسموات ونظام الذكران والاناث من أنواع الحيوان وغفلوا عن قوله تعالى ــ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ــ ثم هو لايلهمها إلا على مقدار احتياجها فألهم الانسان ميعاده كما ألهم الحيوان مايربى أولاده هذا هو المعنى من هذه الآية . وهذا هو الذى قصده الأنبياء إذ استدلوا بهذه على الله وعلى الميعاد وتمت السورة بقوله تعالى ــ ولله غيب السموات والأرض الخ ــ فهل يصدّق الحيوان ويخطئ الأنبياء والانسان وهما فى النظام سيان وفى الخلق صنوان وهل يصدّق المفضول والفاضل فى بهتان إن العدل ينكر ذلك والميزان

﴿ الحادثة الثانية ﴾ أن سيدة من أشراف السيدات اطلعت على ماكتبته هنا فى أمر الحباحب فدهشت وقالت ياعجبا اذا كانت الحباحب هكذا تضىء على الناس فكيف يكون نور الله ففكرت فى نفسى وقلت ان الحباحب المضيئة من العالم الأرضى والأرض مشتقة من الشمس وهذه الحشرة أضاءت أمّها الكبرى وهى الشمس ونسبة ضوء الحباحب الى ضوء الشمس كنسبة الحباحب نفسها الى الشمس . إن عقولنا لها نور معنوى فنورها مستمدّ من نور معنوى أوسع ونسبة ادراك عقولنا الى ذلك العقل العالى المستمدّ من الله المدبر للعالم كنسبة ضوء الحباحب الى ضوء الشمس . هاتان الفكاهتان ختمت بهما تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء السابع وأوله تفسير سورة يوسف عليه السلام)

﴿ الخطأ والصواب ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٥	٤	رابك	ربك
٨	٣	الأوّل بالانجليزية والثانى بالفرنسية	الأوّل بالفرنسية والثانى بالانجليزية
٩	٩	لصفا النفوس والمروه	لصفاء النفوس والمروءة
٩	١	كان	كانت
٩	١	يؤدّى	تؤدّى
٩	١٣	بعلم	علم
١٥	١٣	نعم	وانما
٣٤	١٤	لوكان	توكان
٣٦	٨	(شكل ٨)	(شكل ٩)
٣٦	٩	(شكل ٩)	(شكل ١٠)
٥٤	١٧	الهيبة	الهيئة
٦٣	١٢	العلم	العالم
٦٩	١٣	للعدول	للعقول
٧١	٧	الانكارى	انكارى
٧٩	١٣	فيكون	يكون
٩٤	٣١	وكرهوا	وكرعوا
١٠٠	٥	الحرايه	الخرابه
١٠٠	٣٥	وبالقرآن بحصر الفكر	بحصر الفكر وبالقرآن
١١٤	٢١	القرون	العروق
١١٦	١٠	يامر	يتنبه
١١٨	١٣	فيما تقدّم	
١١٩	٢٠	راضون	راضين
١٢١	١٣	بنسب	نسب
١٢٣	٣٥	كما	عما
١٢٥	١٨	الآية	الأمّة
١٢٩	١٦	العماء	العمى
١٦٦	٤	فوقع	موقع
١٦٩	٢٦	وانظروا	وانتظروا
١٧١	١١	الحاجة	معلوم
١٧٤	٣	الهالكة	الهالكة فى هذه
١٨٠	١٦	ان	انا
١٨٤	٣٤	جبلتهما	جبلتها

﴿ فهرست الجزء السادس من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ هجرية وشارحه السيد الشريف المتوفى سنة ٨١٦ هجرية فهما قالا بدوران الارض لا الشمس وقد سبقا (كوبرنيكوس) بأكثر من قرن

٢٣ بيان الادلة العلمية على دوران الارض من مسألة وضع الزيت فى الكؤول ومن ذبذبة البندول ومن تغير ظل الأرض ومن أن الجسم الأكبر لايدور حول الأصغر ومن المشابهة للكواكب فى دورانها حول نفسها

٢٤ ان علماء الاسلام قد كرهوا المذهب القديم لأن فيه النحس والسعد وفيه أنه لاخرق ولا التئام فى الفلك وأن الأفلاك لها نفوس وأن بعد الهواء كرة النار وكل ذلك باطل عند المسلمين إذن المذهب الجديد هو الموافق للاسلام . الشمس وشفاء الأمراض

٢٥ الاستشفاء بنور الشمس . الحمام الشمسى وذلك بتعريض الجسم للشمس بالاحائل بالتدريج بحيث يرفع ملابسه عن يديه وساعديه وقدميه وساقيه خمس دقائق وفى اليوم الثانى عن أطرافه العليا والسفلى خمس دقائق وفى الثالث يرفع عن البطن الخ وهكذا الى السابع فيعرض الجسم كله ساعة فذلك قوة لجميع الجسم ظاهرا و باطنا . و بيان أن هذا الأمر محتم فى أوروبا لتقوية الأطفال صورة أوجه القمر (شكل ٢)

٢٧ المقام الثانى وهو بيان أن المساحة والميزان والمكيال فى بلادنا المصرية تابعات لسير الشمس وأن الرطل والاوقة والوقية والدرهم والقنطار والكيلة والملوة والأردب والقصبة والفدان والذراع النيلى والذراع البلدى والهنداسة . كل هذه مبنية على سير الشمس ذلك لأن محيط الهرم الأكبر جزء من مليار من محيط مدار الشمس السنوى . و بيان ارتفاعه وضعف الارتفاع وضلع الهرم ونسبة الذراع البلدى اليه وأن الدرهم منسوب لربع الذراع البلدى المكعب والاردب ذراع بلدى مكعب والفدان (١٠٠) هنداسة فى (١٠٠) هنداسة الخ

٢٨ والذراع النيلى ٥ من ٦ من الهنداسة . هذا فعل قدماء المصريين وهو نفسه قول الله ـ لتعلموا عدد السنين والحساب ـ والكلام على المتر وهو مقياس الفرنسيين وانه منسوب لمحيط الكرة الأرضية وعلى الياردة عند الانجليز وهى منسوبة للساق المعدنى الذى هو رقاص الساعة المجذوب بالجذب العام

٢٩ من العار على المسلم أن يموت وهو لايعلم أن الكيلة والذراع البلدى الخ لها اتصال بدوران الشمس تذكرة للأمة المصرية وللأمم الاسلامية وفيها صورة المذكرة المرسلة لمجلس الشيوخ والنوّاب والوزراء فى اصلاح التعليم الثانوى وأن الابتدائى ليس كافيا لاتحاد العقول والعالى للاختصاص والثانوى هو الذى يصقل العقول ويقربها وهو فى زمن الاحتلال ضعيف لقلة العلوم الطبيعية والفلكية . فالطالب يجهل مافوقه وماتحته واذن لابدّ من رجوع هذه العلوم التى كانت قبل ٣٥ سنة فى بلادنا

٣١ جوهرة سنية فى أن جمال الكواكب قبسة من عوالم الجنات عجلت فى هذه الدنيا والجمال على قسمين جمال يثير الشهوات وهذا عذاب معجل فى الدنيا كجمال بستان نملكه يخالطه تكاليف الحياة وهمومها وجمال بستان عام فلاحسد فيه ولاتكاليف . ومن هذه البساتين المعدّة للجمهور فى كل أمّة لراحة الناس من مشاق الحياة وهذا للجهلاء وهناك بساتين للحكماء هى النجوم الجميلة التى تظهر ليلا الكواكب جنات عجلت للمفكرين ولكن أكثر الناس عنها محجوبون و بيان أن العامّة اذا فرحوا بالزهر فالخاصة بالنجوم بدل الأزهار . و بيان أن من الكواكب مالايصل ضوؤه الينا إلا بعد ألف ألف سنة وستين ألف ألف سنة وقد يكون الكوكب أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرة بل أكثر

صحيفة

من ذلك . ثم ذكر رياض الجنات التى أعدّها الله فى هذه الدنيا للعارفين

٣٣ طريق التبانة وهى المجرّة وعـدد كواكبها ٢٤٢ ألف ألف شمس . ورسم صورتها (شكل ٣) وهذه الرياض ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ قنوان يمكن تحليلها . وقنوان يحلل بعضها . وقنوان لاتحلل

٣٤ المجموعات الكوكبيـة . اسم بعض المجموعات الكوكبية التى فى الجنوب (شكل ٤) وأشهرها قنوتوكان (شكل ٥) . القسم الثانى السدام التى يمكن تحليل بعضها مثل (شكل ٦) وفيه ست مجموعات فى الجوزاء وفى الدلو وهكذا . وشكل ٧ يقرب من المستقيم الخ

٣٦ السدام الذى لايحل مثل (شكل ٩) ومثل (شكل ١٠) . سديم المرأة المسلسلة وسديم الأسد

٣٧ و بيان انهم كشفوا نحو (ألفى ألف) سديم و بعدها عنا (١٤٠) مليون سنة وفى كل سديم منها مادّة تكفى لتكوين مليون شمس مثل شمسنا وهذا قوله تعالى ـ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم الخ ـ جوهرة فى اشراق نور العلم فى القلوب باشراق نور الكواكب

٣٨ صفة المجرّة هى كحبة عدس قطرها (٥٠) ألف سنة نورية وهناك عالمان آخران يبعدان نحو ٢٠٠ ألف سنة نورية والكلام على سديم المرأة المسلسلة المتقدّم وأنه يبعد عنا مليون سنة نورية وقطره ٥٠ ألف سنة نورية وفيه ألوف الملايين من النجوم وهى شموس أضوأ من شمسنا أضعافا مضاعفة . هذا معنى قوله تعالى ـ ويخلق مالاتعلمون ـ

٣٩ بيان أن هذا معنى ـ إنّ الذين لايرجون لقاءنا الخ ـ وذكر أن المسلمين فى حياة المؤلف و بعد موته سيهرعون الى بناء المراصد الفلكية وانهم كانوا أول المعلمين لأوروبا كما قال (سديو) ثم جهلوا فخربت بلادهم وهاهوذا أوان مجدهم ورقيهم

٤٠ (شكل ٨) وهو السدام الحلقى . (اللطيفة الأولى) النبات المفترس فى أمريكا الشمالية (اللطيفة الثانية) النبات المائى الذى زهرته الأنثى فوق الماء أما زهرة الذكر فانها قريبة من قاع النهر فعند الالقاح تنفصل وتذهب مقطوعة حتى تصل الى الأنثى

٤١ شجرة تفترس انسانا . اختلاف المخلوقات باختلاف الفصول كتلألؤ الزرع وكنضج الأثمار فى الصيف وصرم الثمار فى الخريف وفى الربيع وتساقط ورق الشجر فى الشتاء

٤٢ بيان قوله تعالى ـ إنّ الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ـ ومناسبة هذه لماقبلها وأن الأعمال موزعة على الأشخاص بالاستعداد وأن عشاق هـذا الجمال فى العالم مستعدّون له بعد الموت والذين لايعقلون إلا الملاذ البهيمية يكونون أدنى

٤٣ قسمت الآية الناس ﴿ قسمين ﴾ من لايرجو لقاء الله ومن يرجو وهؤلاء لهـم ثلاث درجات يصفون الله بصفات التنزيه . ويحيى بعضهم بعضا وتحييهم الملائكة وتشهد لذلك روح (غاليلو) الفلكى الشهير إذ قالت إن أرواح محبى العالم تتفرّج على الكواكب كما نتفرج نحن على الزهر

٤٤ مناسبة هذه السورة لما قبلها وهكذا مناسبات آخر الفاتحة لأوّل البقرة وآخر البقرة لأوّل آل عمران وهكذا الى آخر التوبة وأوّل يونس . بيان الفارق بين توكل نبينا ﷺ وتوكل هود وأن الأوّل توكل على ذى العرش العظيم . إذن هو مستعدّ مع أمّتـه لحفظ كيان الأمم ذوات العروش . والثانى توكل على من بيـده نواصى كل دابة يطلب حفظ نفسه وقومه وكل منهما نال ماطلب فليدبر المسلمون الأمر فليتعلموا أوّلا تعليما عاما ثم يسوسوا العالم مع الأمم هذا هو اللائق بهم ولن يكون ذلك طفرة كالجنين العقائد لمقاصد فالملائكة لاصلاح الأخلاق والمسيح لاصلاح العمل

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

١٤٦ الأرض تشبه درّة بهجة الجمال مع نور المشرقات عليها فهناك نور على نور

١٤٧ النور ﴿ نوران ﴾ حسى وعقلى والثانى كما فى نظام الدواب . الألوان على ﴿ قسمين ﴾ خفيفة ولامعة براقة والأولى تكون لحيوان مضطر للفريسة أو للهرب من مفترس

١٤٨ حلة الزنبور بسبب أنه له سلاح يحميه والفيران والوطاويط الخ اسودّت ألوانها لتختفى عن المغيرات عليها والسمك الذى فى قاع البحر الجميل الأشكال يكون مثل ألوانه لحفظه . وهكذا الذى عند وجه الماء ليشاكل الجوّ بظهره والماء ببطنه وخفّ لون الجمل والأسد ليختفى الأوّل عن مفترسه والثانى عن فريسته

١٤٩ أكثر تلاميذ المدارس لا يعرفون ما فى موسوعات العلوم فى أوروبا . لون الأرنب والدب والثعلب فى القطبين والغنم القطبية والسمور والغراب وأن هذه الأنواع الثلاثة ألوانها مغايرة للثلج هناك لحماية الحيوان

١٥٠ سبب الألوان يرجع لحماية الحيوان لا للوسط الذى يعيش فيه الحيوان كما هو الرأى المشهور الخاطئ العرش والرحمة والعلم . لا تكون الرحمة إلا مع العلم

١٥١ التسبيح يرجع لمعرفة التنزيه والحمد يرجع للنعم
الطائر الأمريكى الذى جمل لونه وطال ذيله وأعطى رائحة بها يصدّ عدوّه

١٥٥ زيادة ايضاح — إنّ ربى على صراط مستقيم — وأن ما نكتبه هنا فتح لباب سرّ القضاء والقدر وأن هذا بعض سرّ العلم فى قوله تعالى — قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا —

١٥٦ بهجة الأنوار فى عجائب الحيوان والكلام على النبات الجزار الذى يفترس الحيوان

١٥٧ حياة الأرضة وقد كتب عليها علماء فى أوروبا مثل (كونج) وغيره وهذه الحشرة أرقى من النمل والنحل فى مدنيتها ومنها ما تمشى بين صفين من جنودها ومنها ما تبنى هضابا تعلو فوق الأرض أربعة أمتار وفى كنغو البلجيك (٨) أمتار ولها ملك وملكة كبيرة تملأ اليد وحولها الكشافة والضباط وما يعطيها الطعام وما يتلقى بيضها وتصدر آلاف الآلاف منها كل سنة لتأكلها بعد خروجها من المدينة بعض الطيور

١٥٨ نظرة فى هذه الدنيا عجب لها نبات يأكل حيوانا وبالعكس الفاعل مفعول والمفعول فاعل . صانع هذا العالم استخرج من المادّة كل ما تستعدّ له كالحلو والمرّ المتناقضين ومن أنفسنا كذلك كالمرض والصحة الخ ولم يبال باحساسنا وعواطفنا ليكون ذلك أشبه بمزرعة ننظر مختلف ألوانها بعد الموت كما رأينا فى الحياة مختلف الزرع فى الأرض وكأننا نحسّ بنقص فينا اذا لم نعلم ذلك كله فى أنفسنا فنحن بين متناقضات كالأبوين للرحمة والأعداء للنقمة الخ

١٦٠ شرف درس الحيوان ونظام الدنيا . أمامى الآن ﴿ كتابان ﴾ كتاب مملكة الظلام تأليف (مترلنك) وكتاب موسوعات العلوم تأليف (روبرت براون) وأن الأوّل يرى أن الحشرات فى تقاها أشبه بجسم واحد له نفس واحدة والا فلماذا تعرف هذه الجموع كل ما ينفع قراها وسائر نظامها وفى الثانى أن دراسة ما حولنا تعرفنا نظام جسمنا لأن نظام الجسم عسر صعب لا يفهم إلا بالعلوم المحيطة بنا فهذان النصان هما مضمون قوله تعالى — وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون — والأوّل مقدمة للثانى كنص الفلسفة الحديثة

١٦١ حشرة الأرضة فى الظلام تمثل حال أهل جهنم بالنسبة للطيور والانسان

١٦٢ العقل الأكبر يجذب الأصغر والجسم الأكبر يجذب الجسم الأصغر والحشرة يخدعها عسل النبات الجزار فيأكلها كما يحمى الانسان جسمه ويحارب لحفظ الشرف فيأكله الدود بعد الموت فى الأولى ويكون طعاما للسمك فى الأخرى فى حرب البحار وليس هذا خداعا بل هو سياسة ولطف

صحيفة

﴿ تمت ﴾